



W H E N J E S U S B E C A M E A G O D

عندما أصبح المسيح إلهًا

قصة الصراع من أجل تحديد مفهوم المسيحية
في الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية

ريتشارد روبنشتاين | ترجمة: أسامة عبد الحق نصار | مراجعة: أ.د. نصار عبدالله



بيت الياسمين
للنشر والتوزيع

عندما أصبح المسيح إلهًا

قصة الصراع من أجل تحديد مفهوم المسيحية
في الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية



الإشراف العام:

زياد إبراهيم

المراسلات:

الدور الثاني شقة 3

71 ب حدائق الأهرام- البوابة الأولى

ميدان الرماية - الجيزة

www.byasmin.org

info@byasmin.org

Email:

baitelyasmin@gmail.com

TEL:

whatsapp: 00201110094625

00201003456046

Mobile : 00201016685583

اسم الكتاب:

عندما أصبح المسيح إلهاً

اسم المؤلف: ريتشارد روبنشتاين

ترجمة: أسامة عبد الحق نصار

الناشر : بيت الياصمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:

2021/29959

الترقيم الدولي:

9789778172355

التدقيق اللغوي: يوسف مسلم

حقوق الطبع محفوظة.

الطبعة الأولى لـ بيت الياصمين 2022

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو

أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعادة

المعلومات، أو نقله بأي شكل من

الأشكال، دون إذن خطي مسبق.

هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن

توجهات الدار ولكنها رؤية الكاتب.

When Jesus Became a God

The Struggle to Define Christianity during
the last days of Rome

عندما أصبح المسيح إلهاً

قصة الصراع من أجل تحديد مفهوم المسيحية
في الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية

تأليف: ريتشارد روبنشتاين
ترجمة: أسامة عبد الحق نصار
مراجعة: أ.د. نصار عبد الله

مقدمة المترجم

الحديث عن طبيعة السيد المسيح هو أمر شائك، إذ تتباين وجهات النظر التي ينظر بها إلى تلك الطبيعة بين أتباع الديانات السماوية الثلاث. فبالنسبة لليهودي كما هو الحال مع مؤلف هذا الكتاب فإنه ينظر إلى المسيح باعتباره إنساناً وبشراً عادياً، ربما فقط يتمتع بدرجة عالية من المعايير الأخلاقية الرفيعة التي تحكم حياته، بينما بالنسبة للمسلم كما هو الحال مع المترجم فإنه بطبيعة الحال سينظر إلى السيد المسيح من وجه النظر التي قدمها الإسلام، والتي ترفض رفضاً قطعياً إضفاء أية طبيعة إلهية على السيد المسيح، ولكنها تنظر إليه باعتباره نبياً رسولاً، وفي المقابل وعلى الرغم من أن الأغلبية العظمى من أتباع المسيحية ينظرون الآن إلى المسيح باعتباره إلهاً، إلا أن الحال لم تكن كذلك، على الأقل حتى نهاية القرن الخامس الميلادي، وهذا هو الموضوع الأساسي لهذا الكتاب، الذي يوضح كاتبه من البداية أنه لا يؤمن على الإطلاق بألوهية المسيح، لكن يصر على أن فكرة الألوهية لم تكن أمراً محسوماً كما هي الحال في الوقت الحالي، بل لم تكن تشكل حتى رأى أغلبية المسيحيين. ويستدل المؤلف على هذه الحقيقة من خلال آراء القس السكندري آريوس الذي ذاعت أفكاره في نهاية القرن الثالث، وبداية القرن الرابع الميلادي حول عدم مساواة المسيح لله، فأريوس على الرغم من إيمانه بأن المسيح كانت توجد به طبيعة إلهية على نحو ما، إلا أنه لم يكن بأي حال من الأحوال مساوياً أو مكافئاً لله، بل كان المسيح من

وجه نظره أدنى مكانة من الله تعالى وخاضعًا له، وفي الحقيقة فإن أفكار آريوس لم تكن وليدة تلك الأيام بل هي امتداد لأفكار الكثير من المفكرين اللاهوتيين أشهرهم لوقيانوس الأنطاكي مؤسس المدرسة اللاهوتية الشهيرة في أنطاكية، وكان هذا هو محور الخلاف بين آريوس وخصومه، وخاصة أساقفة الإسكندرية وعلى رأسهم ألكسندريوس وأثناسيوس الذي ينظر إليه أغلب المسيحيين المصريين اليوم باعتباره قديسًا من آباء الكنيسة المصرية. ففي حين اعتقد آريوس بأن المسيح أدنى درجة من الله، فإن الفريق الآخر وعلى رأسه أثناسيوس وجدوا تلك الفكرة مزعجة للغاية بالنسبة لهم، فأريوس وأتباعه أصرّوا على أن الله والمسيح كانا متشابهين في الجوهر لا متمثلين فيه، وهو ما أطلقوا عليه مصطلح الهومويوسية، بينما أصر الفريق المعادي لهم وعلى رأسهم أثناسيوس بأن الله والمسيح كانوا متمثلين في الجوهر أو ما أطلقوا عليه اسم الهوموسية. هذا الخلاف المرير حول حرف واحد فقط بين كلمتي الهوموسية والهومويوسية، كما لاحظ المؤرخ الكبير إدوارد جيبون، كان سببًا في خلاف مرير كاد أن يتطور إلى حرب أهلية تقضى على الإمبراطورية الرومانية.

فالهوموسية التي اعتقد بها أتباع أثناسيوس من المؤمنين بتساوي الله مع المسيح كانت تعنى أن الله والمسيح من جوهر واحد، بينما الهومويوسية التي كان يؤمن بها أتباع آريوس تعنى أن الله والمسيح متشابهان في الجوهر لكنهما ليسا من الجوهر ذاته، وحول هذا الحرف دارت صراعات عنيفة للعديد من العقود.

يبقى السؤال: لماذا كان هذا الأمر مهما إلى هذه الدرجة؟ فهذا الخلاف الذي وصفه الإمبراطور قسطنطين في رسالته إلى ألكسندريوس وآريوس والتي حملها إليهما مستشاره الديني الأسقف هوسيوس بأنه خلاف تافه، ...لماذا إذن تطلب كل هذا العناء والحروب والمرارة والضغينة

التي سوف تصل في بعض الأحيان إلى حد القتل؟ الإجابة ربما تقع في حقيقة أنه بالنسبة للآريوسيين فإن الإيمان بأن المسيح لم يكن إلها بطبيعته ولكنه ارتقى بسلوكه وإرادته إلى هذا المستوى الأخلاقي كان يعطيهم الأمل في قدرتهم هم أنفسهم على أن يرتقوا إلى نفس المستوى الأخلاقي؟ وفي المقابل فإن أتباع أثناسيوس كانوا يرون أن ألوهية المسيح هو الأساس الذي قامت عليه الديانة المسيحية، وأن أي اعتقاد يجعل المسيح أقل درجة من الله من شأنه أن يحول المسيحية إلى ديانة وثنية. إن المسيحيين من أتباع أثناسيوس كانوا في حاجة كبيرة إلى تجسيد فكرة الإله في شكل مرئي، وهو ما حققه لهم المسيح، هؤلاء كانوا في حاجة إلى تصور الله في صورة الإله الرحيم الذي تجسد في صورة بشر من أجل خلاصهم، على الرغم من تنافي هذا مع المنطق الذي يفكر به شخص غير مسيحي والذي قد يتساءل وهل كان الله في حاجة حقاً أن يتألم من أجل أن يخلص باقي البشر وهو الله القادر الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون؟ ألم يكن بمقدوره أن يخلص البشر دون اللجوء إلى تلك الطريقة الغربية؟ ولكن في النهاية فإن تلك الطائفة كانت تزعجها ويهدم إيمانها الذي قامت عليه فكرة أن يكون المسيح في مرتبة أقل من الله، فإذا لم يكن المسيح هو الله ستتحطم عندئذ فكرة تضحية المسيح من أجل الخلاص وهو الأمر الذي يفسر العداء الشديد الذي يكنه المسيحيون الأقباط في مصر لآريوس.. أتذكر أنه جمعني ذات مرة حوار مع سيدة مسيحية فاضلة في أثناء رحلة القطار، وتطرق الحديث بيننا إلى آريوس وفوجئت بمقدار الكراهية التي يكنها المسيحي القبطي لآريوس في زماننا الحالي، إذ ينظر إليه من قبل الأغلبية العظمى من أقباط مصر باعتباره المهترق الأكبر، ومرجع استغرابي من هذه الكراهية أن آريوس في النهاية لم يكن إلا قسّاً سكندريّاً يؤمن

بأن المسيح له طبيعة إلهية بدرجة ما، وتساءلت بيني وبين نفسي إذا كانت تلك هي الكراهية التي يكنها المسيحي القبطي العادي للفكر الآريوسي لمجرد عدم مساواته المسيح بالله مع إضافته طبيعة إلهية عليه، فما هو إذن شعوره تجاه من ينكر ألوهية المسيح بالمرة مثل المسلم العادي أو من ينكر حتى مجرد نبوته مثل اليهودي العادي؟ الإجابة على هذا السؤال في اعتقادي أن كراهية المسيحي العادي لآريوس هي في الحقيقة أكبر بكثير من شعوره تجاه المسلم أو اليهودي (فكلمة كراهية هي بالتأكيد كلمة غير ملائمة لوصف مشاعر المسيحي العادي تجاه المسلم أو اليهودي والتي لا تصل إلى حد الكراهية بل ولا تقترب منها فيما أتصور، على الأقل هذه هي حال الأغلبية العظمى من المسيحيين فيما أظن)، وسيكون السؤال إذن لماذا يكن المسيحيون القبط مثل هذه الكراهية للفكر الآريوسي على الرغم من إقراره بالطبيعة الإلهية للمسيح، ولا يراودهم الشعور نفسه تجاه المسلمين و اليهود الذين ينكرون الطبيعة الإلهية بالكامل للمسيح. الإجابة على هذا التساؤل هو الذعر الذي تسببه أفكار الآريوسيين لدى المسيحيين من احتمالية كون فكرتهم عن المسيح خاطئة، هذا الذعر يولد الغضب وهذا الغضب يولد الكراهية. ولا يتحقق هذا الذعر من خطأ أفكار معينة إلا إذا كانت تلك الأفكار قريبة من أفكارك. فأراء آريوس وفكرته عن المسيح هي بالتأكيد أقرب بكثير إلى الأرثوذكسية المسيحية من الإسلام أو اليهودية. ولذلك لا تحدث الآراء الإسلامية أو اليهودية حول المسيح غضبًا مماثل للآراء الآريوسية أو للآراء التي سيطلق عليها لاحقًا اصطلاح الهرطقة. ويرجع ذلك للهوة العميقة التي تفصل آراء الإسلام واليهودية حول المسيح عن آراء أغلبية الفرق المسيحية، وبالتالي لا يوجد أي أساس مشترك بينهما على الأقل من ناحية فكرتهما حول

السيد المسيح. وبكلمات أخرى لا بد من وجود أساس مشترك بين أفكار مجموعتين من البشر لكي تتسبب أفكار أحدهما في إثارة الذعر لدى فرقة ما باحتمالية خطأ الأفكار التي يقوم عليها إيمانهم، هذا الذعر يولد الغضب، والغضب يولد الكراهية، وهذه الكراهية في النهاية تولد العنف والشقاق، وهذا بالضبط ما حدث في حالة الخلاف الآريوسي. فجميع الآراء العقائدية للفرق المسيحية التي اشتركت في هذا الخلاف كانت قائمة على أساس واحد وهو أن السيد المسيح كان يتمتع بقدر ما من الطبيعية الإلهية، ولكن الخلاف كان في مقدار هذه الطبيعية الإلهية، ومن هنا كان كل فريق يثير الرعب للفريق الأخير باحتمال أن يكون هو الفريق المخطئ. ومن هنا يمكن استنتاج أن اتهام فريق ما بالهرطقة من قبل فريق آخر يحدث عندما تكون هناك أفكار أساسية مشتركة بين الفرقتين، ولكنهما ينتهيان إلى نهاية أو شكل مختلفة، عليه يمكن تعريف الأفكار المهرطقة بأنها الأفكار التي تعتمد على نفس الأساس ولكن تنتهي إلى نتيجة مختلفة. ويصبح السؤال الجوهرى هنا من هو بمقدوره تحديد ما هي الأفكار التي يجب أن توصم بالهرطقة، وما هي الأفكار التي يجب أن توصف بالإيمان القويم، ومن لديه الحق في تحديد تلك المسائل وبأي سلطة يمكن أن يتكلم بها؟ فمعضلة كل الخلافات الدينية على مر التاريخ أنه لم تكن هناك أي وسيلة يمكن الجزم من خلالها أي الفريقين هو المصيب وأيها هو المخطئ، ولكن عادة ما كان توصف الفرق المنتصرة بأنها تمثل العقيدة القوية بينما الفريق الآخر يوصم بالهرطقة، ولكن هل هزيمة طائفة ما واندثار أفكارها تعني بالضرورة أن أفكار تلك الطائفة كانت حقاً على خطأ؟ وأن الطائفة الأخرى فعلاً تمثل الدين القويم؟ أم أن هناك أسباباً أخرى عديدة تؤثر على انتصار واندثار الأفكار الدينية؟

وحول هذا الصراع لتحديد من هو الفريق الذي يمثل وجهة النظر التي تمثل التفسير القويم للديانة المسيحية وما هي وجهة النظر التي تمثل الهرطقة المسيحية خلال القرن الرابع الميلادي تدور أحداث هذا الكتاب حول الصراع بين شخصيتين رئيسيتين هما آريوس وأثناسيوس وكل من حذا حذوهما وانحاز إلى التفسير الذي قدماه حول طبيعة العلاقة بين المسيح والله، هذه العلاقة هي الأساس التي تقوم عليه الإيمان المسيحي. ويوضح هذا الكتاب علاقة السلطة بالكنيسة أو علاقة السياسية باللاهوت، حيث يبين كيف أن اعتناق الجالس على رأس السلطة في الإمبراطورية الرومانية أو الدائرة المقربة منه، مذهب مسيحي ما كان يؤثر بشكل كبير في مدى انتشار وقوة هذا المذهب في أرجاء الإمبراطورية، فنرى كيف أن انحياز الإمبراطور قسطنطين إلى المذهب النيقوي ساهم في ارتفاع شأن هذا المذهب، وكيف أن ميل ابنه قسطنطيوس للمذهب الآريوسي عمل على إعلاء شأن هذا المذهب، وكيف أن اعتناق الإمبراطور فالنز للآريوسية أدّى إلى جعلها المذهب الرسمي للإمبراطورية، في حين أن معادة الإمبراطور ثيودسيوس للآريوسية كانت من الأسباب الرئيسية التي قضت عليها، بل وحتى في حالة الإمبراطور جوليان أو كما كان يطلق عليه اسم الإمبراطور المرتد، والذي أعلن صراحة عن تخليه عن المسيحية واعتناقه للمذهب الوثني إلا أن سياسيات هذا الإمبراطور لعبت دوراً مهماً في تشكيل الفكر اللاهوتي المسيحي في القرن الرابع الميلادي، ويبرهن الكتاب على الدور المهم الذي لعبته السلطة والسياسة في صياغة الأفكار اللاهوتية، ويوضح كيف أن انحياز الدولة إلى جانب مذهب ما كان يؤدي في الأغلب إلى انتصار هذا المذهب، وكيف أن الانتشار الرئيسي لمذهب ما كان ليتم إلا بمساعدة الدولة وتبني السلطة لهذا المذهب، على الأقل

هذا ما كان عليه الحال في القرن الرابع الميلادي، وأهمية هذا القرن أنه من الفترات التي تحددت فيها أسس العقيدة المسيحية و طبيعية السيد المسيح و علاقته بالله بشكل كبير. كلمة أخيرة حول هذا الكتاب ومؤلفه، وهي ضرورة الإشادة بالمؤلف الذي انتهج الحياد طوال كتابه، فعلى الرغم من آرائه الخاصة التي أوضحها في مقدمة الكتاب برفضه المطلق لفكرة ألوهية السيد المسيح، إلا أنه مع ذلك قد التزم الحياد الذي أشرنا إليه منذ قليل، فقام بعرض الآراء والأفكار المتعارضة بنزاهة بحيث لن يلاحظ القارئ أي انحياز لأي من تلك الأفكار سواء كانت هي آراء الفريق الآريوسي أو الفريق النيقى الذي يتزعمه أثناسيوس. فالغرض الرئيسى من هذا الكتاب ليس معرفة من هو الجانب المحق في النزاع حول طبيعية السيد المسيح فتلك هي قضية لاهوتية بحتة ليس موضعها كتاباً كهذا، ولكن الغرض الرئيسى هو محاولة تحليل آليات النزاع والخلافات الدينية، وفهم المراحل التي تتطور وتنتهي بها مثل تلك النوعية من الخلافات فلعل هذا كما يقول المؤلف قد يكون أمراً مساعداً في تجنب خلافات أخرى في المستقبل. ومن ثم لا يجب أن يغيب عن ذهن القارئ أن هذا الكتاب في النهاية هو كتاب في التاريخ وليس في اللاهوت، وبالتالي فإن الهدف من هذا الكتاب ليس الحكم على طبيعية السيد المسيح فلكل منا معتقده الذي يؤمن به، ولكن الهدف هو توضيح الطريقة التي تطورت بها الطريقة التي ينظر بها البعض حول طبيعة السيد المسيح، وعلى الأرجح فإن هذا الخلاف سيظل قائماً حول تلك الطبيعية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المترجم

أسامة نصار

أسيوط 2021

مقدمة المؤلف

كتب هذا الكتاب في ظروف استثنائية، ففي عام 1976 كنت وصلت مع عائلتي إلى مدينة آكس أون بروفانس الفرنسية، حيث كان مقرراً أن أمضي عامًا كأستاذ زائر في إحدى الجامعات الفرنسية، وقمت بتأجير منزل المؤرخ الفرنسي المشهور مايكل فوفيل والذي كان بدوره يستعد للذهاب كأستاذ زائر لمدة عام للتدريس بجامعة برنستون (الأمريكية)، كان العقد ينص على قيمة محددة ومعقولة للإيجار، لكنه كان يتضمن شرطاً أنه في حالة الرغبة في استعمال مكتبة البروفيسور فوفيل، فلا بد من دفع قيمة إضافية. بعد إلقائي التحية على البروفيسور، هذا الإنسان الذي تشعر على الفور بارتياح معه، سألته إن كان بمقدوري أن أرى مكتبته الخاصة. كانت حجرة مستطيلة مزينة بشكل بسيط وكانت الرفوف المكتظة بالكتب تغطي أحد حوائط الغرفة، والتي يقابلها على الجانب الآخر من الغرفة حائط مليء بالنوافذ المفتوحة والتي كانت تسمح بدخول هواء سبتمبر الدافئ، ومن على مكتب البروفيسور فوفيل يمكن للمرء أن يرى الحديقة المليئة بالشجيرات وأشجار الزيتون. ومن بعيد يأتي صوت هدير الماء المتهادي وكأنه جزء من موسيقى تصويرية لدراما أركيدية. بهرت زوجتي بغرفة المكتبة ومع أنها بطبيعتها مقتصدة إلا أنها على الفور أشارت على بأن أؤجرها.

هكذا وقعنا العقد المعدل. في المساء بدأت أتصفح محتويات

المكتبة، والتي كانت تتكون من مجموعات صغيرة في العديد من المجالات المختلفة، والتي تعكس الاهتمامات الواسعة والمتعددة لصاحب المنزل، لكن مجموعة كبيرة من تلك الكتب كانت عن اللاهوت وعن تاريخ الكنيسة، وهو الأمر غير المستغرب بعد أن تذكرت أن فوفيل معروف بكتابه الشهير عن إعادة صياغة المسيحية في فرنسا قبل الثورة الفرنسية، وكتابه هذا كان عبارة عن خليط دقيق من الدراسات التاريخية الدينية والاجتماعية التي ساعدت على تقديم تعريفات دراسية فرنسية جديدة.

وشد انتباهي العديد من تلك العناوين في مجموعة البروفيسور فوفيل، والذي عندما عاد لاستعادة بقية حقايبه فإنه وجدني جالسًا على المكتب أتصفح في نصف دسنة من كتبه تلك.

فما كان من البروفيسور إلا أن قال بلطف: «يبدو أنك بدأت الدراسة بالفعل».

- نعم، فأنا سعيد للغاية لاستخدام مكتبتك، بهذه المناسبة، ماذا تعرف عن الخلاف الآريوسي الذي كنت أقرأ عنه الآن؟

- الخلاف الآريوسي، يجب أن تعلم عنه كل شيء، هكذا كان رده: «فهذا الخلاف الذي كان يدور حول ما إذا كان المسيح هو الله على الأرض، أم شيء آخر؟ فبعد ثلاثمائة عام من صلب المسيح لم تكن تلك المسألة محسومة بعد في عقول المسيحيين. وظل الخلاف الآريوسي هو المجادلة الأكثر تشويقًا في الغرب إلى وقت حدوث الخلاف بين ستالين وتروتسكي.

هكذا بدأ ذهني في التعلق بهذا الموضوع، وخلال ذلك عام قرأت كل الكتب الموجودة في مكتبة البروفيسور فوفيل حول موضوع الخلاف الآريوسي، ولكنني انشغلت في الأعوام التالية عن هذا

الموضوع نتيجة العمل في مشروعات كتب أخرى، وكذلك الأحداث غير المتوقعة في الحياة التي تغير مسار المرء، ولكنني من وقت لآخر تابعت بحثي ودراستي لهذا الموضوع المثير. كانت مصادر المعلومات في هذا الموضوع عديدة ومتوفرة بكثرة، وإن كانت معظم الكتب والمقالات التي كتبت فيه تستهدف دائرة ضيقة من المتخصصين المهتمين بتاريخ الكنيسة الكاثوليكية.

تقريبًا جميع الكتب المتاحة في هذا المجال كانت مكتوبة باللغة الإنجليزية أو الفرنسية التي أستطيع القراءة بها، وحتى المصطلحات اليونانية المستخدمة في بعض الأحيان كان ممكنًا اللجوء إلى أصدقائي المتخصصين في تلك اللغة، ودائمًا ما وجدت العون بين مؤرخي الكنيسة وعلماء اللاهوت ورجال الدين الذين دائمًا ما كانوا يرحبون بالإجابة على استفساراتي في هذا الموضوع، ولم يكن المتخصصون في تاريخ الإمبراطورية الرومانية في العصور القديمة المتأخرة أقل مساعدة منهم.

بدأت الكتابة في هذا الكتاب عدة مرات من قبل، ووضعت له عنوان "عندما أصبح المسيح إلهًا"، ولكن دائمًا ما كان يطرأ شيء ما يمنعني من تكملته. المشكلة لم تكن تتمثل فقط في الاهتمامات الأخرى التي تشغلني بقدر ما كانت الشكوك التي تنتابني حول ما إذا كان الكتابة في موضوع ألوهية المسيح هو شيء مقبول من أمريكي يهودي؟ وما هي العلاقة التي يمكن أن تربطه بمثل هذا الموضوع؟

وكيف يتأتى لي أن أتدخل في تلك المنطقة الشائكة شديدة الحساسية التي تتعلق بإيمان المسيحي العادي، ولكن خلف تلك الأسئلة كان يقع سؤال أكثر صعوبة للإجابة عليه؟ وهو ما الذي

كان يجذبني بمثل هذه القوة للخوض في هذا الموضوع حول هوية المسيح ومهمته؟

وبدأت الإجابات على تلك الأسئلة تتكشف في أثناء عملي للمرة الثانية كأستاذ زائر والتي قضيتها هذه المرة في جزيرة مالطة. تلك الدولة التي يقطنها ما لا يزيد عن 350 ألف نسمة، أكثر من 300 ألف منهم هم من الروم الكاثوليك. كان رئيس قسم علم الاجتماع (السوسيولوجيا) في جامعة مالطة، حيث كنت أقوم بتدريس بعض المقررات، إنساناً حكيماً حسن المعشر، وفوق ذلك كله كان قسّاً يتميز بالكثير من النشاط والطاقة يدعى جو انجوانيز. نظر الأب جو إلى بتعجب عندما سألته أن يساعدني في إيجاد بعض المصادر التي تتناول الآريوسية في مكتبة الجامعة، وكان رده أن مكتبة الجامعة تحتوي بالفعل على مجموعة قيمة في تاريخ الكنيسة القديم، ولكن لماذا بالتحديد تريد دراسة هذه الهرطقة الآريوسية؟

التفسير الذي قدمته على الرغم من كونه دقيقاً، كان شخصياً أيضاً، فلقد أمضيت أغلب حياتي في الكتابة عن الصراعات الاجتماعية العنيفة، لكن حتى بالنسبة لمحلل صراعات مثلي، فإن الخلافات الدينية العميقة لا تزال تمثل لغزاً محيراً بالنسبة له، فلا يمكن لأحد المحللين التنبؤ بالصراعات الدينية حول العالم، على سبيل المثال الحرب الأهلية في الجزائر أو الصراع بين المجموعات اليمينية شديدة التطرف (الألتر-أرثوذكس) والجماعات الأخرى في إسرائيل، حتى الخلاف حول المثلية الجنسية والإجهاض في المجتمعات الغربية تصطدم الكثير من المراقبين باعتباره ارتداداً إلى العصور القديمة البدائية. التطرف الديني دائماً ما كان يقدم لنا بصفته السبب وراء تلك الخلافات، كما لو كانت تلك العبارة فقط كافية لتفسير ما الذي

يدفع الناس في بعض الأزمنة والأماكن إلى قتل بعضهم البعض لمجرد اختلافاتهم الدينية. وهكذا فإني أخبرت الأب جو إنني مهتم بالبحث والدراسة في مصادر وأسباب الخلافات الدينية والطرق التي كان يلجأ إليها الناس لحل تلك المشاكل، ومن أجل شد اهتمام وانتباه الغربيين، كان عليّ أن أختار موضوعاً مثيراً بالقدر الكافي وأن يكون بالفعل متعلقاً بحياتهم، وفي الوقت نفسه يكون بعيداً بفترة مناسبة لكي يسمح ببعض الانعكاسات المرتبطة بالوقت الحالي. فالخلاف الآريوسي، الذي كان على الأرجح أهم قضية خلافية في تاريخ المسيحية حتى عصر الإصلاح، بدا لي وكأنه يحقق أهداف هذه الدراسة بدقة. هز الأب جو برأسه موافقاً على ما أقول، ولكنه عرف أن تبريري هذا لم يكن كاملاً، وأن هناك شيئاً آخر. أردفت قائلاً مع قليل من التردد "كوني يهودياً وُلد وتربى في مجتمع مسيحي، وشكل المسيح جزءاً من إدراكي العقلي منذ كنت كبيراً بالقدر الكافي للتفكير والإدراك. فمن جانب ما، كنت دائماً ما انظر إلى المسيح باعتباره رمزاً هائلاً للجاذبية والتحدي والإلهام، بينما في الجانب الآخر" (و قبل أن أستكمل عباراتي، رفع الأب جو حاجبيه منتظراً بتشوق معرفة ما سوف أقول) فأكملت قائلاً إن نشأتي في مجتمع مختلط من الكاثوليك واليهود، إذ كان أغلب أصدقائي من الأمريكيين من أصل إيطالي، وعلى الرغم من كونهم أصدقائي إلا أنني اعتدت ألا أغادر منزلي خلال أيام الجمعة العظيمة^[1]، حيث يتطوع هؤلاء الصبية بعد الاستماع إلى الموعظة في كنيسة سانت جوزيف للبحث عنى لمعاقبتي على قتل المسيح،

1- الجمعة العظيمة و تعرف أيضاً بجمعة الآلام و هو أسبوع ديني في الديانة المسيحية، وتعتبر جزءاً من الاحتفالات بعيد القيامة (المترجم).

وعند إمساحهم بي في أحد الشوارع وبينما هم آخذون في ركلي وضربي فإنني قد أصبح والدموع تنهمر من عيني ”ولكن المسيح كان يهوديًا“. هذا الفكرة التي لم يخطر على بال أحد منهم مجرد التفكير فيها، لم يكن لها من تأثير إلا زيادة حنقهم وغضبهم، ونيلي المزيد من الركلات والصفعات.

نظر إلى الأب جو بأسى حقيقي، وأسرعت لأقول له: ولكن هذا جانب واحد من القصة، فعلى الرغم من أن المسيح لم يكن يعنى لي في بعض الأحيان إلا مصدرًا للمتاعب، ولكنني من ناحية أخرى لا يمكنني تجاهله. فحقًا أنا لا أعبد المسيح (مع أسفي يا جو)، إنني أؤمن أن المسيح كان إنسانا وليس ابنا لله، ولكنه لم يكن إنسانًا عاديًا بل إنسانًا وصل إلى درجه عالية من الكمال الأخلاقي، ولولا تلك المتاعب التي سببها لنا أتباعه لكن من الممكن أن نؤمن به بصفته إنسانا حكيمًا أو حتى نبيًا.

كان رد الأب جو: إنه من الصعب أن تحب المسيح، طالما كنت دائمًا تؤذى باسمه.

أجبت: أجل، فإن أحد الأسباب التي شدت انتباهي إلى الخلاف الآريوسي أنه إلى وقت انتهائه كان المسيحي واليهودي يستطيعان أن يتناقشا ويتجادلا مع بعضهما البعض في موضوعات مثل ألوهية المسيح، والطريق الحقيقي للخلاص، والأسس الأخلاقية المشتركة..... وعن كل شيء تقريبًا. ويمكن القول إنهم اختلفوا في كل هذه الأمور، ولكن في الوقت نفسه كان هناك تقارب واضح في جميع تلك القضايا، وذلك لاشتراكهم في نفس الثقافة والخلفية الأخلاقية التي تقوم على أساس واحد (تقريبًا)، ولكن مع انتهاء الخلاف الآريوسي وتحول المسيح إلى إله، فإن هذا التقارب المسيحي اليهودي قد خبا دون

رجعة، وتحول الإله المسيحي إلى الثالث المقدس، وأصبح الاعتقاد بغير هذه الأفكار يطلق عليه هرطقة، وأصبحت الهرطقة جريمة وتحولت اليهودية إلى نوع من الكفر. وتدرجياً تعود اليهود الذين يعيشون في مجتمعات مسيحية على عدم التفكير كثيراً في المسيح ورسالته.

استمع الأب جو إلى ما أقوله بتفهم واضح، وأضاف "لكن مذهب الثالث المقدس لم يسبب كل هذه المشاكل"، أجبت "لا ولكن الاعتقاد بالثالث المقدس عكس تلك المشاكل وغلفها بغطاء من القوة..... باختصار، فإنني أردت الكتابة على هذا الموضوع لأنه يشرح لنا كيف جاءت وتطورت أفكارنا الحالية وما الذي يقسمنا، وربما تخبرنا هذه القصة كيف يمكن في يوم من الأيام أن نعالج مثل هذا العنف، ولسبب ما فإنني أعتقد أن فكرتنا عن المسيح في ذلك اليوم سوف تلعب دوراً رئيسياً في علاج أسباب هذا العنف. فحياة المسيح كما أعتقد تعلمنا معنى أن نكون أعضاء في عائلة إنسانية واحدة".

جلست أنا والأب جو في صمت لمدة دقائق، وكنا فعلاً في حاجة إلى مثل هذا الصمت لاستعادة نشاطنا مرة أخرى، بعدها أخرج الأب جو كتاب الصلوات من جرابه قائلاً سوف أريك المجموعة الخاصة بالهرطقة، ولكن قبل ذلك - إذا لم تمنع - سوف أتلو صلواتي، وهو ما شرع فيه بالفعل.

شكر وإقرار بالفضل

هذا العمل بمثابة رواية لقصة وتفسير لها، يعتمد على الأبحاث التي قام بها المتخصصون في مجالات كثيرة، ومن ضمنها: الدراسات الكلاسيكية، وتاريخ العصور القديمة المتأخرة، والتاريخ الكنسي، واللاهوت، ودراسة النزاعات. والدراسات التي تتناول موضع الخلاف الآريوسي والتي شهدت الكثير من التجديد خلال العقدين الماضيين. وكنتيجة لهذا فإني كنت قادرًا على الاستفادة من أعمال الكثير من الباحثين والكتاب البارزين. ومن بين هؤلاء الذين أثبتت أعمالهم أنها مفيدة وملهمة بشكل خاص: بيتر براون من جامعة برنستون الذي كان فهمه للمجتمع الروماني في العصور المتأخرة والحساسيات الدينية لا يضاهيها أي شيء آخر، وتيموثي دي بارنز من جامعة هارفارد المؤرخ البارز لعصر قسطنطين، والكاتب الراحل آر بي سي هانسون من جامعة ديرهام والذي كان بحثه الضخم حول الله في العقيدة المسيحية بمثابة تعليم لا غنى عنه لفهم اللاهوت الآريوسي والنيقي. وأدين بالكثير من فهمي للأفكار الآريوسية إلى الأعمال الرائدة لربوت سي، وجريج، ودينس، وللأعمال الفلسفية العميقة لروان دي ويليامز، وبشكل واضح فإنني أقر أن هؤلاء الكتاب والمؤلفين الآخرين المذكورين في قائمة المراجع غير مسؤولين بالمرّة عن الطريقة التي استخدمت بها أفكارهم في هذا البحث.

ولقد تم تسهيل عملي في هذا الكتاب بشكل كبير بواسطة جامعة

جورج ماسون التي مكنتني من أن أقضي فصلاً دراسياً في جامعة مالطة أقوم بتلك الأبحاث. أنا مدين بالفضل إلى الأب بيتر سيرا سيانو أنجلوت رئيس الجامعة، وليزلي أجيوس مدير مؤسسة الدراسات الدولية، والأب جو انجوانيز رئيس قسم السوسولوجيا، والعاملين بمكتبة الجامعة الرفيعة من أجل مساعدتهم الودودة وصداقاتهم. وهنا أؤكد على أن رجال الدين المحترمين في جامعة مالطة غير مسؤولين على الإطلاق على أي تفاسير قد تبدو غير أرثوذكسية أو أي تفاسير قد لا تظهر الاحترام الكافي، وهو الأمر الذي أتمنى عدم حدوثه من خلال تفسيري لأحداث الجدل الآريوسي. أما زملائي وتلاميذي في "معهد جورج ماسون لتحليل الصراعات وطرق حلها" فقد ساعدوني كثيراً من أجل أن أفكر بطريقة أكثر وضوحاً حول الصراعات الدينية ولماذا هي مستعصية على الحل.

والشكر واجب على وجه الخصوص إلى كيفين افروتش، ومارك جوبين، ودريل لاندوا، وريكس فان دير رايت من أجل مشورتهم ومساعدتهم، ومورين كونورس من مكتبة فينيوك لمساعدتها القيمة للعثور على الكتب اللازمة للبحث، وجيمس آر برايس من مركز شريف بجامعة ميرالاند، مقاطعة بالتيمور من أجل حثي على المزيد من التفكير من خلال ملاحظاته الحكيمة.

وأنا ممتن للغاية إلى الزملاء المحررين: جيل روس، وهوارد يوون، من أجل مساعدتهم القيمة. وإلى جيان إيسى ولورى ستوباك من هاركورت بريس من أجل دعمهم المعنوي ومساهماتهم في تحرير الكتاب. وشكر خاص إلى بناتي: هانا وشانا روبنشتاين من أجل تفهمهم الكريم لجدول أعمالي المزدحم ومن أجل توفير المناخ الملائم للكتابة. وفي النهاية، فإني أريد أن أشكر سوزان رايرسون، التي كان

إسهامها الأعظم والأهم من بين أشياء كثيرة وعديدة يمكن التعبير عنه من خلال من خلال أشعار السير فيليب سيدني.
"أحمق، ... قال لي مصدر وحي: انظر إلى قلبك، واكتب"

ريتشارد روبنشتاين

فيرفاكس، فيرجينيا

الفصل الأول

حادثة في الإسكندرية

24 ديسمبر، 361 م. منتصف الصباح.

مع الوقت الذي استطاعت فيه الجماهير الغاضبة تحطيم أبواب السجن واقتحامه، فإن أعدادهم كانت قد تزايدت إلى درجة كبيرة، واندفعوا من الميدان كما لو كانوا ماء متدفقاً من إناء ممتلئ في جميع الاتجاهات، حتى بالنسبة لمدينة مثل الإسكندرية التي كان العنف والشغب أمراً معتاداً بها تماماً كهبوب العواصف في البحر الأبيض المتوسط فإن تلك المظاهرة كانت أكبر من المعتاد. والأغرب من هذا، كانت الجماهير الغاضبة وبدلاً من الاقتتال المعتاد بين بعضهم البعض يشكلون جبهة واحدة، فالوثنيون والمسيحيون كانوا متحدين هذه المرة في مطالبتهم بالدم.

استقبلت الحشود الغاضبة تحطيم البوابات الخشبية بصيحات الاستحسان. ولم تمر سوى دقائق معدودة حتى عاد مقتحمو السجن للظهور مرة أخرى في الميدان، ولكن هذه المرة حاملين ضحاياهم على أكتافهم، كما لو كانوا صيادين عائدين من رحلة صيد في الصحراء حاملين ما غنمته أيديهم فوق أكتافهم. كان الضحايا، ثلاثة مساجين ما زالت أيديهم مكبلة بالأصفاد خشية احتمال هروبهم. وبينما واصل المتظاهرون الغاضبون دفعهم إلى ساحة الميدان كما لو كانوا مجرد

دمى... راح هؤلاء المساكين الثلاثة يطلقون صيحات الألم والرعب. اثنان من هؤلاء البؤساء كانا من شاغلي المناصب الحكومية العليا، وقد نالا حنق الحشود الغاضبة لدورهما في تنفيذ أوامر الإمبراطورية الرومانية التي لم تكن بالتأكيد محبة للجماهير بأي حال من الأحوال، وخاصة القرارات الخاصة بإغلاق المعابد الوثنية، ونفي المخالفين "الهرطقة" لمذهب الإيمان المسيحي كما أقرته الكنيسة الرسمية، ومعاقبة المعترضين على تلك القرارات بحزم وشدة.1 لكن هؤلاء المسؤولين لم يكونوا هم الهدف الرئيسي للغوغاء الذين انصب جام غضبهم على السجين الثالث المقيد في أصفاده، والذي كان يشغل مكانة أكبر بكثير من مكانة أي موظف مدني.

كان السجين الثالث هو جورج الكبادوكي، أسقف الإسكندرية المدينة المتروبوليتانية والرئيس الأعلى للمجتمع المسيحي المصري. كان جورج يدين بالفضل للمكانة الكبيرة التي يتبوؤها، وفي الوقت ذاته للعذاب الأليم الذي يتجرعه الآن، إلى الإمبراطور قسطنطيوس الثاني ابن الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير أول إمبراطور مسيحي للإمبراطورية الرومانية وخليفته في الحكم. كان قسطنطيوس وجورج يشتركان في كونهما من أتباع المذهب الآريوسي، هذا المذهب القائل بأن المسيح هو ابن الله ولكنه ليس إلها في حد ذاته. ولكون جورج في الأساس ابنا لتاجر، فكان من الطبيعي أن يمتهن التجارة، واستطاع بالفعل تكوين ثروة طائلة من عمله كمقاول ومورد للجيش الروماني في القسطنطينية قبل انضمامه إلى الكنيسة وتقلده مناصب كهنوتية، كان معروفاً بحماسة الدينية الشديدة، وبماقتنائه واحدة من أندر وأقيم المكتبات في الإمبراطورية الرومانية بأكملها. وبعد تقلده منصبه كأسقف لكبادوكيا، طلب منه الإمبراطور تدريس تعاليم

الإيمان المسيحي إلى أشخاص العائلة الإمبراطورية الصغار. بعد عدة سنوات، عندما قام الإمبراطور بنفي أسقف الإسكندرية أثناسيوس المصري الأصل، فإنه استدعي جورج الكبادوكي من آسيا الصغرى ليحل محله في منصب أسقفية الإسكندرية.

كانت هذه الخطوة (تعيين أسقف جديد للإسكندرية) كارثية منذ البداية، فاستبدال أسقف من أهل البلد بأسقف آخر أجنبي من مدينة كبادوكيا لا يستطيع حتى التحدث باللغة القبطية لغة المصريين في ذلك الوقت كان خطأ قسطنطيوس الأول، بينما خطؤه الثاني كان تعيين شخص من خلفية عسكرية يدين بالمذهب الآريوسي في منصب أسقفية الإسكندرية، واعتبر الكبادوكي أن وظيفته الرئيسية هي اضطهاد الوثنيين بالإضافة إلى المسيحيين المخالفين له في المذهب الديني، وقمع كليهما على حد سواء! في حين أن خطأه الثالث الكارثي كان سماحه لخصمه أثناسيوس ذي القوة الهائلة والتأثير اللامحدود لدى أتباعه المصريين بالاحتماء بداخل أحد الأديرة النائية في الصحراء المصرية، ومن مخبئه هذا في الصحراء قام الأسقف الهارب بعدد من الزيارات السرية الخاطفة إلى أتباعه في الإسكندرية لتشجيعهم ودعوتهم للتمرد على الأسقف الحالي. صقلت تلك الزيارات السرية سمعة الأسقف الضخمة من الأساس، وأضافت إلى صفاته التي اشتهر بها مثل الذكاء والتفاني صفة جديدة وهي الجسارة باعتباره الإنسان الشجاع المتمرد على السلطة.

وبمجرد وصول جورج لبدء مهام منصبه كأسقف للإسكندرية، وجد هذا المسكين نفسه في موقف حرج، فحتى مع مساعدة الجنود الإمبراطوريين لم يستطع فرض سيطرته على المجتمع المسيحي الهائج في الإسكندرية، وبعد أقل من عام واحد من تقلده منصبه الأسقفي

في الإسكندرية تعرض لمحاولة اعتداء على حياته من الغوغاء المعادين للمذهب الآريوسي في كنيسة ديونسيوس، وهو الحادث الذي نجا فيه من الموت بالكاد. بعدها، قضى أغلب وقته في البلقان وآسيا الوسطى مشاركاً في المجمع الكنسية التي دعا لها الإمبراطور الروماني للتناقش والتباحث حول الخلاف والصراع الدائر حول ألوهية المسيح الذي كان يمزق أوصال الكنيسة. أكدت تلك المجمع الكنسية صحة المذهب الآريوسي وأرثوذكسيته، وأعلن الإمبراطور قسطنطيوس دعمه اللامحدود له، عندها فقط قرر أسقف الإسكندرية العودة إلى منصبه في الإسكندرية، ولكن ما لم يكن يعلمه حينئذ أن صحة نصيره وحليفه الإمبراطوري كانت في تدهور مخيف. وبعد أربعة أيام فقط من وصول الأسقف إلى الإسكندرية، مات الإمبراطور قسطنطيوس متأثراً بإصابته بالحمى، وعلى الفور انفجرت الإسكندرية في فوضى عارمة. فبمجرد وصول الرسل حاملين أنباء موت الإمبراطور قسطنطيوس، سيطر أتباع أثناسيوس على كنائس الإسكندرية، وألقوا القبض على جورج وبعض الموظفين والضباط الإمبراطورين الكبار، ووضعوا أيديهم وأرجلهم في الأصفاد وألقوا بهم في سجن المدينة. وبعد شهر من سجنهم، توجه جمع غفير من الغوغاء والجماهير الغاضبة إلى السجن المودع فيه الأسقف والموظفون، ولكن هذه المرة من أجل إنزال العقاب على هؤلاء السجناء. ليس معروفاً على وجه الدقة ما الذي حرك مشاعر الجماهير ودفعهم إلى هذا الفعل في هذا الوقت بالتحديد، ولكن على الأرجح ساعدت الأنباء القادمة من القسطنطينية حول عدم اعتناق الإمبراطور الجديد جولييان ابن أخ الإمبراطور السابق المذهب الآريوسي بل وعدم اعتناقه الدين المسيحي من الأساس! حيث أعلن جولييان بوضوح أنه يدين بديانة

الآلهة القديمة، وبالتالي حرمان الآريوسيين من أي نصير إمبراطوري لهم، وترك المساجين فريسة سهلة للجماهير الغاضبة في الإسكندرية. ولم يتأخر الغوغاء كثيرًا في تنفيذ العقاب الهمجي في ميدان السجن، حيث لقي المساجين الثلاثة مصيرهم المحتوم بالموت نتيجة للضرب الوحشي من الجموع الغاضبة، وكما يذكر المؤرخون في القرن الخامس الميلادي، فإن الجماهير الثائرة بعد قتلها السجناء الثلاثة، قاموا بحمل جثثهم والطواف بها في أنحاء المدينة، وفي حين وضعت جثة الأسقف جورج على جمل، كان باقي المساجين أقل حظًا حيث تم سحل جثثهم بالحبال في أنحاء المدينة، وبعد سبع ساعات كاملة قاموا بحرقها². حرق الجثث في الثقافة المصري لم يكن يعنى فقط إهانة للميت، ولكن أيضًا ضمانه أن رفاتهم لن تُطوب وتقدس من قبل أتباعهم، كما كان هو المتبع مع رجال الدين المسيحيين.

كان من المفترض، أن يكون رد الإمبراطور الروماني على الأقل من أحد الجوانب عنيفًا على جريمة القتل البشعة تلك لمسؤولين كبار في الإمبراطورية الرومانية، ولمقتل أسقف مسيحي، فحتى وإن كان الإمبراطور جوليان لا يدين بالديانة المسيحية فعليًا، إلا أنه يدين بالمسيحية اسميًا (بصفته إمبراطورًا لدولة مسيحية)، بل إنه كان أحد تلاميذ جورج الكبادوكي أثناء قيامه بتعليم أطفال العائلة الإمبراطورية أسس الإيمان المسيحي^[1]. ولكن على غير المتوقع جاء رد الإمبراطور جوليان أقل بكثير من الواجب المفترض، واكتفى بشجب

1- يذكر ادوارد جيبون في كتابه اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها أن أحد الأسباب التي دفعت الإمبراطور جوليان إلى كراهية المسيحية هي التربية المسيحية الصارمة التي تم تنشئتها عليها وكانت أحد أسباب نفوره من المسيحية ومحاولته إعادة مجده الديانة الوثنية عن طريق ترميم وبناء المعابد الوثنية مرة أخرى - (المترجم).

الحادث بقوله إن أعداء الآلهة كان يجب أن يلقوا محاكمه سليمة، وأن يعدموا بطريقة قانونية³. بل لم يقدم أحد إلى المحاكمة أو توجه السلطات الاتهام لأحد عن مسؤوليته عن جرائم القتل البشعة^{[1]**}. وبعد أقل من شهرين فقط من هذا الحادث المروع عاد أثناسيوس منتصرًا إلى الإسكندرية وإلى منصبه الكهنوتي كأسقف للإسكندرية. قيام الغوغاء بتنفيذ عملية إعدام هو بالتأكيد سلوك بدائي، وخاصة أن السكندريين الذين قاموا بقتل وسحل جثة أسقفهم كانوا يعيشون في واحدة من أكثر المدن تحضرًا وأوفرها ازدهارًا في العالم في ذلك الوقت. ففي المراحل المتأخرة من العصور القديمة، فإن المناطق المدنية المتحضرة كانت تتمركز في منطقة الهلال العظيم الممتد من اليونان وآسيا الوسطى (تركيا) مرورًا بسوريا، ولبنان، وفلسطين حتى مصر وليبيا، كانت تلك المدن بمثابة قلب الإمبراطورية الرومانية، حيث ازدهرت التجارة والصناعة والفنون والعلوم والتعليم في سلسلة المدن بتلك المنطقة^[2]، والتي استمدت قوه سياسية متزايدة باطراد. وكانت اللغة اليونانية هي اللغة السائدة في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الذي كان يتباهى بازدهار ثلاث مدن يطلق عليها متروبوليتانية هي: الإسكندرية، وأنطاكية، والقسطنطينية بجانب المئات من المدن الأخرى التي كانت أصغر حجمًا ولكنها تتمتع أيضًا بدرجة عالية من التحضر.

1- كان جوليان المشهور عنه اهتمامه بالفلسفة والقراءة كما يذكر ادوارد جيبون في كتابه سقوط واضمحلال الإمبراطورية الرومانية مهتمًا بالحصول على مكتبة جورج الكبادوي أكثر من الاهتمام بمحاكمة قتلة أسقف الإسكندرية-(المترجم).

2- Peter Brown, Power and Persuasion in Late Antiquity: Towards a Christian Empire (Curti Lectures) (Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1992).

على العكس من ازدهار الشرق، فإن الجانب الغربي من الإمبراطورية كان راكدًا اقتصاديًا وخامدًا ثقافيًا، وعلى الرغم من أن روما ظلت المدينة الأولى في الإمبراطورية، فإن تلك المكانة استمدتها لأسباب تاريخية فقط، حيث كانت المدينة في تدهور مؤسف. وحتى تقترب تلك الصورة في ذهنك تخيل الإسكندرية تلك المدينة التي يقطنها ما يربو على مليون نفس، وتمتد حوالي عشرة أميال على طول البحر المتوسط ويتوسطها المرفأ العظيم المتوج بمنارة فاروس التي يبلغ طولها حوالي 400 قدم، والتي اعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع، وكان يقال إنه بمقدور المرء الذي يقف أعلى المنارة باستخدام نوع غير معروف من العدسات التي تصنع من أنواع نادرة من الأحجار الشفافة أن يرى السفن غير المرئية بالعين المجردة القادمة من مسافات بعيدة في البحر. لم يكن من المعروف ما هو نوع تلك العدسات وكيف تصنع، حيث تعرضت المنارة للتدمير نتيجة لسلسلة من الزلازل التي ضربت المدينة وضاع معها للأبد سر تلك العدسات، ولكن الأمر المؤكد أن مدينة الإسكندرية قامت بتصنيعها بفضل المواهب التي كانت تتمتع بها. لقرون عديدة، فإنه لم يكن ينظر إليها باعتبارها فقط أكثر مدن البحر المتوسط ازدهارًا ورواجًا، ولكن أيضًا مركزًا للعلوم والتعلم في البحر المتوسط، فتلك المدينة التي أسسها الإسكندر الأكبر كانت دائمًا موطنًا لعلماء عظام مثل أرشميدس وإقليدس وكثير من الفلاسفة وخاصة الفلاسفة اليهود مثل فيلو، والكثير من أوائل المفكرين المسيحيين مثل القديس كليمنت والقديس أوريجين، كما كانت موطنًا للمكتبة التي كانت تتمتع بسمعة عالمية والتي أحرقت خلال حروب القيصر، بالإضافة إلى نموذج مصغر من السرابيوم بني بواسطة كليوباترا، وقد دمر

بواسطة المتطرفين المسيحيين مع نهاية القرن الثالث (قرب القرن الرابع الميلادي).

في تلك المدينة الساحلية، حيث تواجدت ثقافات عديدة امتزجت واتحدت معا في بعض الأحيان وتصادمت في أحيان أخرى، وحيث تواجدت الأنشطة التجارية المزدهرة جنبًا إلى جنب مع الاحتياجات الروحية العميقة، أصبح الأشخاص الدنيويون مهتمين بل وفي بعض الأحيان مهووسين بقضايا الدين والإيمان. من ضمن مليون نسمة تعداد الإسكندرية في ذلك الوقت فإن ربع السكان كانوا من اليهود الذين بدأ أسلافهم التوطن في المدينة حتى قبل قيام إخوانهم اليهود في فلسطين بثورتهم الكارثية ضد روما في القرن الثاني قبل الميلاد، ومن أجل هؤلاء اليهود السكندريين المتحدثين باليونانية كباقي الطبقات المتحضرة في الإمبراطورية الشرقية الرومانية تمت ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية. وأصبحت تلك الترجمة بعد ذلك مفيدة لأتباع الدين المسيحي الجديد الذين استخدموها للوصول إلى أتباع الديانات الوثنية، وبحلول نهاية القرن الثالث الميلادي فإن المسيحية ذلك البرعم الوليد من الديانة اليهودية كانت تنتشر بسرعة كبيرة بين أتباع الديانات الوثنية في دول البحر المتوسط.

كان للمسيحية في الإسكندرية طابع خاص^[1]، حيث كانت بمثابة الوعاء الممتلئ بالأفكار المتضاربة والصاخبة التي اختلطت مع بعضها البعض، في هذا الاتجاه قام بعض المفكرين الأوائل بتفسير التعاليم الإنجيلية والتوراتية وشرح معتقدات الكنيسة من منظور الفلسفة اليونانية.

1- Charles Kannengiesser, Anus and Athanasius: Two Alexandrian Theologians (Variorum: Hampshire, UK, and Brookfield, Vermont, 1991), XII, 209.

كانت النتائج المترتبة على هذا الوضع في بعض الأحيان رائعة، ولكنها كانت في أغلب الأحيان مثيرة للجدل. وقد تمخض هذا الوضع عن ظهور بعض الأفكار والابتكارات والأعمال العقلية الرائعة، ولكن هذا العصر تميز أيضًا بحالة من التوتر المستمر وعدد لا نهائي من الصراعات والخلافات العقائدية^[1]، هذه الصراعات لم تكن مجرد مشاحنات ولكنها كانت بمثابة الشاغل الرئيسي لأهل الإسكندرية، إذ وجد الناس العاديون أنفسهم منغمسين فيها بشغف وعاطفة قوية، وبقدر ما كان أسلافهم شغوفين برياضة المصارعة (الجلاديتور) كان شغف أهل الإسكندرية في ذلك الوقت بالمجادلات اللاهوتية والتي كانت تنتهي في بعض الأحيان بأعمال عنف بنفس درجة دموية المصارعة. في القرن الثاني الميلادي كان المسيحيون السكندريون متأثرين بشدة بالخطاب الديني شديد العدائية للسامية، وكان طبيعيًا أن أول أعمال العنف التي شهدتها الإسكندرية كانت موجهة ضد الطائفة اليهودية بالمدينة. ولكن بعد مائتي عام من هذا التاريخ، فإن هؤلاء الذين أطلقوا على المسيح اسم الرب، كانوا يقتتلون مع بعضهم البعض بل ويشنقون بعض الأساقفة في شوارع الإسكندرية. وبحلول الوقت، الذي لقي فيه الأسقف جورج مصرعه الشنيع هذا، فإن العنف باسم الدين أصبح ممارسة عادية في جميع أنحاء المنطقة. وعلى الرغم من أن الاغتيالات كانت أقل شيوعًا، إلا أن مخيلة المتعصبين لم تنضب أبدًا عن ابتكار أساليب متنوعة وعديدة للعنف، واستخدموا العديد من الحيل والوسائل لإيذاء بعضهم

1- Kannengiesser, "Holy Scripture and Hellenistic Hermeneutics in Alexandrian Christology: The Arian Crisis," Arius and Athanasius, I, i.

البعض. فعلى سبيل المثال، الأسقف أثناسيوس (والذي سوف ينال لقب القديس في المستقبل) كان يتصرف بروح مقاتل، فلم يكتف بإصدار قرارات الحرمان الكنسي ضد خصومه، ولكنه قام بوصمهم بالإلحاد، وفي بعض الأحيان لم يتورع عن استخدام الضرب والإرهاب والخطف والسجن أو نفي خصومه إلى أماكن بعيدة.

وقام خصومه الذين لم يكونوا أقل منه عنفاً باتهامه بارتكاب العديد من الجرائم مثل الرشوة والسرقة والاختلاس وتدنيس المقدسات، وصولاً إلى الخيانة والقتل. وتحت تأثير الضغط الذي مارسه هؤلاء فقد انعقد عدد من المجالس الكنسية التي انتهت إلى إدانة أثناسيوس بارتكابه بعض هذه الجرائم، وصدرت القرارات بنفيه من الإسكندرية ليس مرة واحدة ولكن خمس مرات في أوقات مختلفة، بل لقد وصل الأمر إلى أن يرسل الإمبراطور المسيحي جنوده من أجل مطاردة أثناسيوس ومحاولة القبض عليه (وهو الأمر الذي لم يستطع الجنود تحقيقه بأي شكل من الأشكال).

في المراحل الأولى للصراع، فإن تلك الممارسات كانت هزليه ومدعاة للتعجب والسخرية أكثر من كونها أفعالاً قاتلة، وتعكس المؤامرة التي حاكها بعض القساوسة الآريوسيين في أنطاكية هذا الوضع، حيث تنكروا في صورة أشخاص عاديين، وقاموا باستئجار عاهرة من أجل التسلل إلى غرفة نوم أسقف أنطاكية المعادي للمذهب الآريوسي، وذلك من أجل اتهامه بإقامة علاقة جنسية مع عاهرة، وتلويث سمعته وجعله غير جدير بالمنصب الكهنوتي. ولكن ما لم يضعه الأساقفة في الحسبان هو احتمال أن يكون لتلك العاهرة رأيها الخاص في المؤامرة، وهو الأمر الذي تحقق بالفعل بتخليها عن دورها المزعوم، وفضحها للمتآمرين. هذه الحوادث وعلى الرغم من كونها هزلية، إلا أنها كانت بالتأكيد

تصور الوضع الديني المشحون في الأزمنة الرومانية المتأخرة، هذا الوضع المشحون صور أفضل تصوير من قبل رجل دين مسيحي هو الأب جريجوري النيساوي Gregory of Nyssa، الذي قال بعد عشرين عامًا من شنق الأسقف جورج الكبادوكي في شوارع الإسكندرية في موعظة له في كنيسة بالقسطنطينية عبر فيها عن أسفه وحزنه لهذا الوضع، وحالة التشاحن الكبيرة التي يمر بها العالم المسيحي، شاكياً "أنه في هذه المدينة، إذا سألت أي بائع في متجر عن الحساب فسوف يجادل معك حول كون الابن مولوداً أم مخلوقاً، وإذا سألت خبازاً عن جوده الخبز فإنه سوف يرد عليك قائلاً: الأب أكثر عظمة من الابن، ولو طلبت من العامل في حمام عام أن يجهز لك فسوف يرد قائلاً: ولكن الابن خلق من العدم"^[1].

ملاحظة جريجوري الفطنة تلك، سواء ما عبرت عنه صراحة أم ضمناً كانت تعبر بصدق عن الوضع السائد في تلك الأيام وهو اعتقاد الأشخاص العاديين (سواء كانوا تجاراً أو عمالاً) بجدارتهم على الدخول في مناقشات لاهوتية مجردة، بل وقدرتهم على الوصول إلى قناعاتهم اللاهوتية الخاصة، وتشير بوضوح إلى أن الصراع بين المسيحيين بعضهم البعض وخاصة في مجادلتهم العنيفة حول علاقة المسيح الابن مع الله الأب كان عدائياً بنفس الدرجة المريرة التي كان عليها الصراع بين المسيحيين والوثنيين في القرون الماضية. وتدل ضمناً على أن المذهب الآريوسي الذي يعتبره الآن المسيحيون الأرثوذكس بمثابة الهرطقة الكبرى Archetypal heresy، كان في وقت من الأوقات يمتع على أقل

1- W. H. C. Frend, The Rise of Christianity (Philadelphia: Fortress Press, 1984), 636. I have altered the translation slightly.

التقديرات بنفس الشعبية التي يحظى بها مذهب ألوهية المسيح، هذا الوضع يمثله السؤال الذي طرحه جريجوري على لسان بائع المتجر حول ما إذن كان يسوع المسيح مولودًا أم مخلوقًا، وبعبارة أخرى: هل هو مخلوق تابع لله أم هو الله نفسه؟ إن قول عامل الحمام وتأكيده على أن المسيح خلق من العدم (وما يعنيه هذا أنه وجد لأول مره بطريقة مماثلة لوجود الله)، وتأکید الخباز على أن المسيح هو صورة منفصلة وأدنى من صورة الله. وهذا الموقف الأخير (المسيح صورة منفصلة أدنى من الله) هو موقف العقيدة الآريوسية. وقد أطلق على هذا المذهب: "الآريوسية" نسبة لقس سكندري يدعى آريوس Arius وهو الذي قام بتقديم تلك الأفكار والتعبير عنها في أوضح صورها وأكثرها حدة.

كان جورج الكبادوكي الذي شهدت حياته تلك النهاية المأساوية من أتباع المذهب الآريوسي، وأتباع هذا المذهب يؤمنون بأن المسيح كان بلا شك هو أقدم شخص عاش على الأرض في أي وقت من الأوقات^[1]، ولكنه لم يكن أبدًا ذلك الإله الخالد لبنى إسرائيل يمشى على الأرض في صورة إنسان.

كان السؤال هل يمكن لأي شخص أن يدعى أنه مسيحي، وفي الوقت ذاته لا يؤمن بأن المسيح هو تجسيد لله؟ الآريوسيون كان لديهم الإجابة، فبالنسبة لهم فإن المسيح كان إنسانًا تميز عن باقي البشر بانفراده بمعايير وإنجازات أخلاقية سامية غير مسبوقه، وبالتالي فإن الله اتخذ كابن له وضحى به من أجل تخليص باقي البشر من خطاياهم، وبعثه من بين الأموات ورفعته إلى مكانة إلهية، ولسموه

1- عندما يعتقد الآريوسين بأن السيد المسيح هو أقدم شخص عاش على الأرض فإنهم يعنون إلى زمنهم و ليس بالضرورة أن يشمل هذا التعميم الأزمنة التالية ومنها زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي فاق بسمو أخلاقه كل من سبقوه- (المترجم).

الأخلاقي أصبح المسيح نبراسًا أخلاقيًا لباقي البشر لكي يهتدوا به في سلوكهم، وبسبب علو أخلاقه وكمالها استحق المسيح مكانة الخلود، تلك المكانة التي أصبحت ممكنة لباقي البشر، ولكن باشتراط الاقتداء بسلوك المسيح نفسه^[1].

من وجهة نظر آريوس فإن الإيمان بإنسانية المسيح، وعدم اعتباره أنه هو الله ذاته، هو شيء جوهري (للإيمان المسيحي)، وعلة ذلك أن الله بطبيعته يتسم بالكمال، وبالتالي فإنه غير قابل للتقليد أو المحاكاة، في حين أن المسيح استطاع الارتقاء بنفسه للوصول إلى سمو أخلاقي غير مسبوق بفضل إرادته (على الرغم من طبيعته البشرية)، وبالتالي فإن حياة المسيح وإرادته يمكن اتخاذها نموذجًا قابلًا للمحاكاة من قبل باقي البشر (على الأقل يبقى هذا الاحتمال قائمًا ولو نظريًا)، وعلى الرغم من صعوبة تحقيق مثل هذا النموذج الأخلاقي المتسم بالكمال، إلا أن انتصار السيد المسيح على غرور ذاته أظهر لنا أننا نستطيع أيضًا أن نصبح أبناء وبنات لله.

هل كان من الممكن اعتبار المسيح إنسانًا، من وجه نظر معينة فالإجابة ستكون نعم، فيسوع الناصري كان بالفعل إنسانًا حقيقيًا من الناصرة، وليس إنسانًا رباتيًا أو إلهًا متخفيًا في قناع بشري، ولكن تفوقه الأخلاقي ومهمته العظيمة للسمو بأخلاق البشر، جعلت منه إنسانًا يفوق في الأهمية أعظم الرسل^[2]، لقد كان وجود المسيح فريدًا من نوعه.

1- This interpretation of Arianism owes much to Robert C. Gregg and Dennis E. Groh, Early Arianism-A View of Salvation (Philadelphia: Fortress Press, 1981).

2- عندما يعتقد الآريوسيون بأن أهمية المسيح تفوق أهمية أعظم الرسل، فإنهم ينظرون بطبيعة الحال إلى الرسل السابقين للسيد المسيح باعتبار أن رسالته الأخلاقية كانت بالتأكيد

إن العديد من الآريوسيين يؤمنون أن وجود الله الخالد استهل خلق المسيح قبل بداية الزمان، وكان وجوده بمثابة الوسيلة التي خلقت باقي العالم^[1]، وعلى الرغم من تلك المعتقدات إلا أنهم أصرّوا أنه مع ذلك لا يمكن أن يكون المسيح هو الله نفسه^[2].

كانت حجتهم في ذلك كيف يتأتى للمسيح إذا كان بالفعل إلهًا بكل ما يملكه من قوة ومعرفته أن يُختبر بالإغواء، ويتعلم الحكمة بنفسه ويسمو بأخلاقه نحو الفضيلة، كيف يمكن له أن يتألم على

تفوق أي رسالة أخلاقية أخرى سابقة له، إذ أنه من البديهي أن تكون الرسالة الأخلاقية للرسول اللاحق أكثر كمالاً من الرسول السابق، وعلى هذا الأساس فإن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم تكون من الناحية الأخلاقية أكثر كمالاً من أي رسالة سابقة وبطبيعة الحال تكون أهميته كرسول لا تضاهيها أي أهمية أخرى (المترجم).

1- تتشابه وجهة النظر تلك مع بعض الآراء الفلسفية الإغريقية بأن الله وجود سام متعال بدرجة كبيرة غير قابلة للفهم أو الإدراك، ولم يكن بالإمكان لهذا الوجود نتيجة لسموه الكبير أن يخلق مباشرة مخلوقات أقل منه كثراً، ومن أجل ذلك لجأ إلى خلق وجود أقل منه يستطيع من خلاله أن يخلق باقي العالم، ذلك الوجود الوسطى (الذي من خلاله خلق الله العالم) سيكون أقل من الله درجة وأعلى درجة من باقي المخلوقات وهذا الفكرة تتشابه إلى حد مع فكر الآريوسيين حول المسيح- (المترجم).

2- The doctrine of the "pre-existent Christ" was accepted by Arian and non-Arian theologians. Arius insisted, however, that Jesus was a created being: "a perfect creature of God, but not like one of the creatures, a product, hut not like one of the things produced. . . ." Hanson, Search, 7; and see the discussion in Rowan Williams, *Arms. Heresy and Tradition* (London: Darton, Longman and Todd, 1987), 95116-. Some commentators think that the doctrine of pro-existence refers mainly to God's foreknowledge of future events. According to Gregg, God named Christ Son "on account of works he performed (works foreknown by God). . . ." *The Life of Antony and The Letter to Marcellinus*, trans. by Robert C. Gregg (New York: Paulist Press, 1980), 12. And see Gregg and Groh, *Early Arianism*, 22—24.

الصليب، وكيف له أن يموت كإنسان إذا كان حقاً إلهاً. وعندما صاح المسيح على الصليب قائلاً إلهي إلهي لماذا هجرتني، بالتأكيد لم يكن يتحدث إلى نفسه^[1]. عندما أقر المسيح أنه ما من أحد إلا الله فقط يعرف موعد الساعة والقيامة، ولا حتى ملائكة السماء ولا الابن، فقط الآب هو الذي يعرف تلك الحقيقة، وفي رده هذا فإنه لم يكن مجرد متواضع^[2]، ولكنه كان مقرراً بالواقع، وعندما أخبر حواريه بأن الآب أعظم من الابن فإنه لم يكن يعنى إلا الحقيقية^[3].

بالنسبة لأثناسيوس السكندري أشد خصوم أريوس عداوة، فإن تلك الأفكار تعدت حد الخطأ، بل كانت أفكاراً هدامة بشكل كبير حيث أساءت استغلال الكتاب المقدس من أجل تحريف الإيمان المسيحي. فمثله مثل أريوس، كان أثناسيوس يتعامل مع التوحيد في المسيحية بجدية شديدة، واعتبر أن فكرة الإله الواحد في الدين المسيحي هي أمر مفروغ منه، وفي وجود إله واحد سرمدي عالم الغيب، كامل القدرة والإرادة، هذا الله الواحد غير قابل للتغير وأعلى من كل المخلوقات الأخرى، كانت فكرة نزوله إلى مكانة البشر وخضوعه لسلطة بشر آخرين مذلة بدرجة لا يمكن تخيلها، ومع هذا فإنها كانت الوسيلة الوحيدة التي من خلالها يمكن لله أن ينقذ البشر من مصيرهم المحتوم ومن الهلاك الأخلاقي والمادي.

ومن أجل تخليص البشر من الخطيئة ومن الهلاك، (من وجهة نظر أثناسيوس وأتباعه) فإن الله قام بالشئ الذي لا يمكن لأحد تخيله، فبدافع حبه اللامحدود لنا تحول إلى صورة إنسان من جسد

1- Matthew 27:46, The Holy Bible, Revised Standard Version, The-New Testament (New York: Thomas Nelson and Sons, 1953), 37.

2- Matthew 24:36 RSV, 31.

3- John 14:28 RSV, 123.

ولحم، وأصبح الله هو يسوع المسيح الإنسان، الذي أخذ على كاهله الضعيف عبء خطايا البشر، وتأمم ومات من أجل منحهم الخلاص والحياة الأبدية^[1].

دون الله كما دافع أثاناسيوس بضراوة، فإن الإنسان سوف يسيء استخدام حرية الاختيار الممنوحة له، وسوف يعاني من عواقب وخيمة جزاء ذلك: مثل فساد الروح وموت الجسد.

ولو كان المسيح أي شيئاً آخر سوى الإله، فإنه لن يكون بمقدوره تخليصنا من ذلك المصير المحتوم^[2]، وإن لم نؤمن بكونه إلهاً فإننا لن نتمكن من الخلاص، في ضوء هذه الفلسفة فإن تمجيد الآريوسيين الظاهري للمسيح كان مجرد خداع صريح، بل إن هؤلاء الذين وضعوا المسيح في مرتبة أقل من الله، في حقيقة الأمر كانوا أسوأ من اليهود الذين أنكروه أو حتى الرومان الذين صلبوه، ذلك لأن

1- Athanasius, "On the Incarnation of the Word," in Philip Schaff and Henry Wace, eds. (original editor Archibald Robertson), Nicene and Post-Nicene Fathers, Second Series, vol. 4, Athanasius: Select Works and Letters (Peiabody, Mass.: Hendrickson Publishers, 1994), 3667-.

2- يقول أثاناسيوس أن الإيمان بكون المسيح إلهاً هو ضروري للخلاص، فلا يستطيع تحقيق الخلاص إلا الله، والرد البديهي على تلك الحجة إذا كان الخلاص لا يتحقق سوى بالله، فما المانع إذن أن يتحقق مباشرة من الله وعن طريق الإيمان بالله وحده وما هي الحاجة إذن لوجود المسيح لتحقيق الخلاص، وما هي الحاجة من الأساس لوجود إله يمشى على الأرض، وما هو الغرض من جعل الله بشراً يمشى في الأسواق ويأكل الطعام، وفي اعتقادي أن السبب الذي دفع المسيحية إلى تبني فكرة تجسيد الله هو قرب العصر الذي ظهرت فيه المسيحية من عصر الوثنية التي كانت قائمة على عبادة آلهة مرثيين، وفي الوقت ذاته فإن فشل اليهودية في الانتشار بين أوساط الوثنيين لأن الله في اليهودية غير مرئي، ذلك الأمر جعل المسيحية تتبني فكرة تجسيد الله من أجل الانتشار بين الوثنيين الذين لم تتطور أذهانهم بعد لتقبل فكرة الله غير المرئي (المترجم).

اليهود والرومان رفضوه بشكل واضح وصريح، فحين أن الآخرين (الآريوسيين) قاموا بإنزاله إلى مرتبة أقل من الإله ليصبح مجرد بشر رسول. أصر أثناسيوس أنه لو انتصر الهرطقة في تلك المعركة فإن المسيحية ستتحول إلى حطام سفينة غارقة، وأوضح أن هذا الخلاف ليس مجرد جدل أكاديمي بين فريقين متعارضين، ولكن نتيجة هذا الخلاف وما سوف سيسفر عنه سيتحدد على إثره مصير الملايين من الأرواح المسيحية، بل إن المسيح نفسه سوف يلقي هزيمة نكراء إذا ما انتصر آريوس وأتباعه في فرض معتقداتهم. أعلن أثناسيوس أن قدرة آريوس العالية على الإقناع وعلى تضليل أتباعه تعظم من مقدار الشر المترتب على نتائج تلك الدعوة الخاطئة.

لم ير أثناسيوس في مقدرة آريوس على الإقناع إلا كونها مهارة خبيثة مثل تلك التي سيمتلکها المسيح الدجال، ولذلك فإن الصراع ضد الآريوسية لم يكن إلا معركة ضد الشيطان نفسه، وكما أكد أثناسيوس، فإن الله يعلم أنه لا يمكن تقديم أية تنازلات أو الوصول إلى أية تسويات مع الشيطان. وبرغم أن لغة أثناسيوس كانت أكثر عدائية وغضبًا من معظم خصومه، لكن العواطف كانت مشحونة في الطرفين وقابلة للانفجار في أي لحظة.

سببان جعلوا الصراع حول طبيعة المسيح وما إذا كان المسيح إلهًا أو بشرًا شديد الضراوة. السبب الأول كان التنافس من أجل الوصول إلى نتيجة قاطعة في قضية غير محددة سلفًا. ففي ضوء التجارب السابقة من النمو المتزايد للتعصب والمخالفين للكنيسة، كان من الضروري حسم هذا الخلاف لتحديد ما هي الأفكار التي سوف تقرها الكنيسة باعتبارها أفكار مقدسة، وما هي تلك الأفكار التي سوف توصم بالهرطقة. السبب الثاني الذي جعل هذا الخلاف يتسم بالعنف، هو

اشترك عامة المسيحيين فيه وخاصة الطبقات الدنيا التي يتكون قوامها الرئيسي من العمال والحرفيين في المناطق الحضرية، والذين كانت لهم نزعة كبيرة لاستعمال العنف كوسيلتهم لحل الخلافات اللاهوتية. فشنع الأب جورج في الشارع لم تكن حادثة العنف الأولى ولن تكون الأخيرة لتقرير المسائل والخلافات اللاهوتية وحسمها في شوارع الإسكندرية.

كان يمكن لتلك القضايا أن تصبح أقل أهمية إذا كان هناك معيار واضح يمكن من خلاله أن نحدد ما هي الأفكار المسيحية الأرثوذكسية⁽¹⁾ وما هي الأفكار المهرطقة، ففي يومنا الحالي فإن الكثيرين من المسيحيين الأرثوذكس يعتبرون الأفكار الآريوسية مهرطقة محضة، ولكن الوضع خلال القرون الثلاثة الأولى التي تلت صلب المسيح لم يكن بمثل هذه السهولة والوضوح، حيث لم تكن فكرة كون المسيح كياناً منفصلاً أدنى من الله صادمة كما تبدو عليه الآن للكثيرون من المسيحيين، بل إن البطارقة الرومان كانوا يعتقدون أن مجرد استخدام مصطلح الآب والابن فإن هذا يعني ضمناً وجود علاقة بين الأعلى و الأدنى.

وكانت تعاليم أوريجين وديونسيوس السكندريين اللذين هما من أعظم آباء الكنيسة الشرقية وألمعهم وأكثرهم تأثيراً، تتضمن أن

1- المقصود بمصطلح الأرثوذكسية الذي ستردد كثيراً في هذا الكتاب هي الأفكار المسيحية السلفية أو الدين القويم وليس المقصود المذهب الأرثوذكسي الحالي وبالمثل فإن مصطلح الكاثوليكية الذي يستخدم أيضاً كثيراً في هذا الكتاب لا يعنى المذهب الكاثوليكي الحالي ولكن يعنى العقيدة المسيحية العالمية السليمة، ففي تلك المرحلة في بداية القرن الرابع الميلادي فإن كلا من الأرثوذكسية والكاثوليكية كانتا مترادفتين للإيمان المسيحي الصحيح قبل حدوث الانقسام الكنسي الكبير، وظهور الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية في الشرق و الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية في الغرب (المترجم).

المسيح أدنى من الله في بعض الجوانب، وفكرة تدرج الملك والمجد في السماوات تماثل تدرج السلطة التي يراها البشر على الأرض والتي قرأوا عنها في الأناجيل.

“أنا لا أستطيع فعل أي شيء بسلطة مني” هكذا أخبر السيد المسيح حواريه، “كما أسمع فإني أحكم، وحكمي عادل، ليس فقط لأنه يعبر عن إرادتي، ولكن إرادة الذي أرسلني”^[1].

فكره تمثيل المسيح لله كانت فكره مقبولة وشائعة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية التي كان التدرج في السلطة من الأعلى إلى الأدنى أمرًا شائعًا فيها، ولم يكن الموظف الإمبراطوري أبدًا مساويًا للإمبراطور نفسه (بل فقط ممثلًا له)، وعلى العكس، فإنه دون السلطة العليا للحاكم لن يكون لممثل الملك أو الحاكم أي قوة حقيقة. وفي الوقت ذاته لا يمكن اعتباره وكيلًا حرًا إذا نظرنا إلى الوكيل الحر أنه بإمكانه أن يعمل ما يشاء وفقا لإرادته المستقلة.

ومع هذا فإنه لا يمكن اعتبار الوكيل أو الممثل للسلطة مجردًا من القوة تمامًا، وعلى العكس من هذا لم يكن المسيح أو حتى كبار المسؤولين في الإمبراطورية مجرد أقتعة مسرحية يصدر من خلالها صوت أحد الممثلين^[2].

في سلم السلطة في روما فإن القيصر أُعتبر أقل شأنًا من أغسطس، ولكن مع هذا لا يستطيع أحد إنكار ما كان لقيصر من قوة وسلطه تميزه عن الإنسان العادي وتجعله جديرًا بالطاعة. هل كان المسيح إذن بمثابة قيصر الله؟ يجيب الآريوسيون على هذا السؤال بالنفي،

1- John 5:30 RSV, 109.

2- The heresy of Apollinaris, on the other hand, pictured Christ as a soulless human body occupied by the Divine Spirit. See Hanson, Search, 642647-.

ففي بعض الأحيان يستطيع المسؤول العادي أن يعمل خارج حدود سلطته (ويعبر عن إرادته هو وليس إرادة سيده)، لكن لن يستطيع أحد على وجه اليقين أن يعرف ما إذن كان عمله هذا بناء على إرادة سيده أم نابغاً من أرائته الشخصية. لكن المسيح كان ممثلاً بشكل تام لله، كما لو كان بمثابة لوحة فنية أو تمثال يعبر عن فكرة ما دون أن يصبح هو الفكرة نفسها.

وكان الابن هو الصورة التامة للآب^[1]، وبشكل واضح فإن الصورة الفعلية أو الدقيقة لم تكن تعنى أن المسيح كان يبدو في مظهره كالله، أو حتى يشبه الله في صورته البشرية، ولكن كانت تعنى فقط أنه أصبح متشبعاً برغبات الله إلى أقصى درجة يمكن أن يصلها أي مخلوق آخر باستثناء الله نفسه، وبالتزامه الكامل بالطاعة والخضوع لإرادة الله فإن المسيح أصبح خادماً جديراً بالثقة، وكان المسيح وأفعاله دائماً في اتفاق تام مع الله.

استخدام العقل والمنطق لم يجد نفعا مع أثناسيوس وباقي معارضي المذهب الآريوسي الذين أصروا على الارتباط العضوي الكامل بين هوية المسيح والله. ولكن المذهب الآريوسي وجد ملاذاً له في الأراضي التي تتحدث اليونانية^[2]، إذ يعيش أغلب مسيحيي الإمبراطورية

1- The Second Creed of Antioch (Dedication Creed) of 341 declared the bishops' belief in Jesus as the "exact Image of the Godhead." J. N. D. Kelly, *Early Christian Creeds*, 3d ed. (Essex: Longman, 1972), 268. And see the discussion of images in Jaroslav Pelikan, *Jesus Through the Centuries: His Place in the History of Culture* (New Haven: Yale University Press, 1985), 8394-.

2- يعزو المفكر الدكتور رافت عبد الحميد في كتابة الفكر المصري في العصر المسيحي أسباب انتشار المذهب الآريوسي في الشرق إلى انتشار الفلسفة الإغريقية وخاصة فلسفة أفلاطون

الرومانية (وقد أخذ عدد الآريوسيين في تلك المناطق في التزايد)، وفي النهاية أصبح مصير هذا الخلاف لن يحدده علماء اللاهوت وقادة الكنيسة بقدر ما سيحسمه عامة الشعب.

وقد يبدو هذا غريباً في الإمبراطورية الرومانية التي كانت تتميز بالمركزية والنظام العسكري الصارم، إذ كانت عاقبة أي انشقاق أو خلاف سياسي خطير هي الموت. ولكن فما يتعلق بالقضايا اللاهوتية أو الخلافات الدينية، فإن رجال الكنيسة الذين شجعوا عامة الناس في السابق على الاشتراك في المناقشات الدينية كانوا هم أنفسهم الذين يتدمرون الآن من امتلاء الشوارع بعدد هائل من علماء اللاهوت واحتدام المناقشات اللاهوتية فيها. لم يكن بمقدور الأساقفة المسيحيين وعلماء اللاهوت أن يتمتعوا بمثل هذه القوة الهائلة التي تمتعوا وتحصنوا بها خلال القرن الرابع الميلادي لولا اعتمادهم على قاعدة شعبية كبيرة من عامة الشعب. كان الافتراض الذي عمل على أساسه الأساقفة واللاهوتيين (من أجل اكتساب تلك القاعدة) هو أن الأشخاص الذين تلقوا حظاً قليلاً من التعليم ويتمتعون بدرجة عادية من الذكاء سيكون بوسعهم فهم أكثر الأفكار والمبادئ اللاهوتية تعقيداً وستكون لهم القدرة على تمييز الآلهة الحقيقيين من المزيفين، وبمساعدة من الله سوف يسرون على هدى المسيح.

والفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وظهور مفكرين عظام من أمثال أوريجين السكندري (في القرن الثالث الميلادي) الذي كان يصر على وجود تفسير ظاهر و تفسير باطن للكتاب المقدس، ووفقاً للدكتور رافت عبد الحميد، فإن عامة الشعب وخاصة طائفة الرهبان الذين سينحازون بقوة إلى أثناسيوس في صراعه مع الآريوسية كانوا يتمسكون بالتفسير الظاهر للنصوص الدينية. وفي اعتقادي أن هذا التزمّت و التشبث بالتفسير الظاهري والحرفي للنصوص هو سبب التعصب و التطرف في كافة الأديان، وهو الأمر الذي يؤدي إلي ظهور بعض المتعصبين الذين يتمسكون بحرفية بعض النصوص الدينية دون الفهم الحقيقي لتلك النصوص (المترجم).

وإلى حد كبير، كان انشغال أناس عاديين، مثل الباعة في المحلات، والعاملين بالحمامات العامة، بقضايا دينية شائكة نتيجة لكفاح الكنيسة لقرون عدة من أجل نشر تعاليم الدين المسيحي بين أوساط الوثنيين في الإمبراطورية الرومانية. فالتبشير بالدين المسيحي بين المجتمعات الوثنية لم يكن يعنى فقط دفع الوثنيين لاتخاذ قرار عاطفي تجاه المسيح (وتبنى فكرة المسيح المخلص)، ولكن كان يتضمن أيضاً توصيل وشرح المبادئ اللاهوتية والأخلاقية الأساسية في العهد القديم والعهد الجديد. ولم يقيم المبشرون وعلماء اللاهوت فقط بنشر تعاليم السيد المسيح، ولكنهم اهتموا أيضاً بتعليم المتحولين حديثاً للمسيحية نظرة عالميه مستمدة أساساً من التعاليم اليهودية التوراتية، والتي كانت تتضمن أفكاراً حول جمال فكرة التوحيد (الإله الواحد) تتناقض بشكل حاد مع أسس الديانات الوثنية.

على سبيل المثال، فإن آباء الكنيسة أكدوا وعلى خلاف تعاليم جميع الفلاسفة والمفكرين الوثنيين أن العالم المادي ليس أبدياً^[1] على عكس ما تستنتجه بديهية الإنسان العادي. وفي حين أن الكنيسة كانت تؤكد على أن الله القادر الذي لا يمكن تصوره أو إدراك كامل قوته قد خلق هذا العالم من العدم، وأن مهمة الحفاظ على هذا العالم من الانهيار والعودة إلى العدم مرة أخرى تقع على عاتق الله وحده.

1- يقول توي أ. هف في كتاب فجر العلم الحديث (الإسلام - الصين - الغرب) ترجمة د. محمد عصفور - سلسلة عالم المعرفة العدد 260 عن مشكلة التعارض بين ما قاله أرسطو حول أزلية العالم المادي و بين الفكرة المسيحية عن العالم المادي«عندما أكد أرسطو الجديد على أبدية العالم فقد أثار مشكلة كأداء للغرب المسيحي، فلو تركت فكرة أبدية العالم الأرسطية دون دحض لقوضت إحدى الأفكار الرئيسية التي تنادي بها المسيحية، ألا وهى أن العالم خلقه الله الذى لا تحد نعماء حدود، وأن نهاية العالم آتية حسب الخطة الإلهية، فإن صحت النظرة الأرسطية عن الكون توجب على المسيحيين التخلي عن تلك الفكرة » (المترجم)

وأضافوا أن الله الذي خلق هذا الكون لم يكن أبدًا جزءًا منه أو معادلًا له، بل ظل دائمًا خارج الزمان والمكان، بل حتى البشر الذين خلقوا على صورته لم يكونوا أبدًا جزءًا منه، وعلى عكس الأفكار الوثنية فإن آباء الكنيسة أصرّوا في تعاليمهم على أن الله الواحد يدير العالم بمفرده ودون مساعده من أية آلهة أو أنصاف آلهة آخرين. ولكن أغرب تلك التعاليم على الإطلاق بالنسبة للوثنيين كانت أن هذا الله القادر غير المرئي والغامض كان في الوقت نفسه ملك حكيم، وقاض عادل، بل وأب حنون ضحى بابنه من أجل أن ينقذ باقي البشر من الخطيئة والموت^[1].

كان طبيعيًا في ظل هذا المناخ الثقافي الديني، أن يهتم ويتفهم المواطن المسيحي العادي قضايا دينية شائكة تتناول مثل هذه المسائل، فهؤلاء القاطنون في المدن المتحدثة باللغة اليونانية لم يكونوا بقدر سطحية هؤلاء الوثنيين الذين يمكن وصفهم بالبساطة أو السذاجة^[2]، ولكنهم كانوا يعيشون في أكثر المدن حيوية وحضارة وأكثرها تنوعًا على وجه

1- For readable short summaries of these doctrines, see Robert Payne, *The Fathers of the Eastern Church* (New York: Dorset Press, 1989); Henry Chadwick, *The Early Christian Church*, Rev. ed. (London: Penguin Books, 1993). See also Johannes Quasten, *Patrology*, vol. III, *The Golden Age of Greek Patristic Literature from the Council of Nicaea to the Council of Chalcedon* (Utrecht/ Antwerp: Spectrum Publishers, 1960).

2- Robin Lane Fox, *Pagans and Christians* (San Francisco: Harper & Row, 1986), 3031-. Fox notes that another possible meaning of *paganis* "civilians" and opts for this translation on the ground that the pagans were not soldiers in the army of Christ. "Rustics" makes more sense, in my view, since the Christians were highly concentrated in the cities and may well have considered paganism a product of rural backwardness.

الأرض، والعديد من هؤلاء كانت لهم المقدرة على القراءة والكتابة، ومثل اليهود، فإن المسيحيين الأوائل اعتبروا أنفسهم من أهل الكتاب، ورفعوا القدرة على قراءة الكتاب المقدس إلى منزلة عالية. وحتى غير المتعلمين الذين لم يتلقوا حظًا من التعليم الرسمي كانوا أيضًا يمتلكون قدرًا ما من المعرفة، وكانوا يميلون إلى التحقيق ومعرفة أصول الأشياء، وكانوا شغوفين بالمناقشات الصاخبة، فضلًا عن نزعتهم إلى تقسيم أنفسهم إلى جماعات متصارعة مع بعضها البعض.

وبإمكانك أن تتخيل الطبقات العاملة في نيويورك أو برلين أو موسكو في بداية القرن العشرين وهم منغمسون في مناقشات فلسفية وسياسية عميقة، وينضمون إلى نواد سياسية أو عصابات شوارع متنافسة،... تخيل تلك الصورة، وعندها سوف يكون بمقدورك أن تدرك بعض ملامح العصر وتأخذ فكرة عن حياة عامة المسيحيين في مدن الجزء الشرقي من الإمبراطورية. فقط في ظروف مماثلة لتلك الظروف، يمكن لعمال المحلات، وخادمي الحمامات العامة اعتبار أنفسهم أندية للمفكرين والفلاسفة ورجال الدين، وأنهم مؤهلون لمناقشة أشد الأمور اللاهوتية تعقيدًا، ومما ساعد على قناعتهم تلك بجدارتهم لمناقشة المسائل اللاهوتية هو رؤيتهم الرجال المتعلمين أنفسهم يتصارعون مع بعضهم البعض بكل ضراوة وقسوة.

كان عامة الناس في الشوارع يكونون احترامًا شديدًا لرجال الدين الأبطال مثل الراهب المصري أنطونيوس الذي هجر الحياة المدنية بالكامل ليواجه بمفرده كل الإغراءات وحيدًا في الصحراء، ولكن هؤلاء الرهبان الزاهدين مثل أنطونيوس قضاوا أغلب أوقاتهم في مناجاة الله

وليس في خوض مجادلات لاهوتية معقدة مع أقرانهم المسيحيين^[1]. حتى بدا الأمر في بعض الأحيان وكأن قادة الكنيسة ليس بمقدورهم التوقف عن الجدل مع بعضهم البعض وعن التنافس من أجل نيل النفوذ في أوساط المسيحيين والاستحواذ على الدعم الشعبي، إلى الحد الذي جعل خلافاً حاداً مثل الجدل الآريوسي يجبر المسيحيين المترددين على الكنائس أن يجدوا أنفسهم مضطرين لأن يختاروا بين مذاهب لاهوتية متنافسة. وفي بعض الأحيان عندما يحتدم الاختلاف بين اثنين من الأساقفة المتنافسين على المناصب الكهنوتية، ويدعى كل منهما أحقيته في تولى إقامة الشعائر الدينية في كنيسة ما، فإنهم كانوا يحتكمون إلى شعب الكنيسة لتحديد الأسقف الذي يجب أن يتولى زمام الأمور في الكنيسة، وتكمن خطورة هذا الأمر أنه كان من الشائع جداً عدم وجود رأى موحد مع أو ضد الآريوسية في العديد من المدن الكبرى في الإمبراطورية الشرقية^[2]. وما يعنيه هذا من انقسام بين شعب الكنيسة الواحد وما يستتبع هذا الانقسام من فوضى.

كانت النتيجة غير المرجوة فيما يتعلق بالخلافات الدينية هو إعطاء طائفة كبيرة من الناس الذين ليس لديهم في العادة أي ثقل سياسي القدرة على التأثير على اتخاذ القرارات. في ظل هذه الظروف من النمو المتزايد للحماس الديني المشحون بالعاطفة الجياشة، ومع

1- See Athanasius, *The Life of Antony and the Letter to Marcellinus*, trans. Robert C. Gregg (New York: Paulist Press, 1980). Athanasius claimed that Antony supported the Nicene position in the Arian Controversy and brought him to Alexandria to testify to his good character (1113-).

2- The division of opinion was exceptionally close in Antioch and Constantinople, where religious rioting became almost a way of life. Alexandria, long dominated by the figure of Athanasius, was exceptional.

اتجاه رجال الدين إلى إشراك الشارع في صراعاتهم، فإن رجال الدين أصبحوا في بعض الأحيان أبطالا وفي أحيان أخرى وجدوا أنفسهم ضحية لعنف الغوغاء الذي كان من السهل استثارته ضدهم.

وبرغم أن أثناسيوس لم يشترك بنفسه في قيادة أتباعه لقتل جورج الكبادوكي، لكنه في الوقت ذاته لم يستنكر هذا العمل، إلا إذا كانت إدانته للحادث فقدت من سجلات التاريخ. ولا نعرف بالضبط ما إذا كان شعوره ضد هذا الأسقف الآريوسي الذي حاول أن يحل محله ويأخذ منصبه كأسقف للإسكندرية^[1]، ولكن من السهل تخيل وصوله إلى النتيجة التالية المتمثلة في أنه بقدر ما كان عنف الجماهير أمرا كريها بقدر ما كان فعلهم يعبر عن إرادة ورغبة الرب.

العالم الروماني الذي جرت فيه تلك الأحداث وصف بأنه إمبراطورية في أزمة أو حالة اضمحلال، إذ لم تكن الإمبراطورية في ذلك الوقت تنعم بالهناء، فما كاد الخلاف الآريوسي أن ينتهي حتى قام القوط الغربيون (الفيجيوث Visigoths) بنهب روما، وسيطر الوندال Vandals على شمال أفريقيا، وبعد عقود قليلة لاحقة فإن الجزء الغربي من الإمبراطورية سوف يتعرض للانهييار، وبحلول عام 700 ميلادي كان المحاربون العرب قد سيطروا على أجزاء كبيرة من الإمبراطورية الشرقية. وتحت تهديد الغزو الخارجي والضغط

1- "And now one George, a Cappadocian, who was contractor of stores at Constantinople, and having embezzled all monies that he received, was obliged to fly, [Constantius] commanded to enter Alexandria with military pomp, and supported by the authority of the General." Athanasius, "History of the Arians," in Schaff and Wace, Athanasius: Select Works and Letters, 298.

الاقتصادية والاجتماعية المتزايدة الناشئة عن تزايد نفقات الدفاع عن الإمبراطورية والقلق المتنامي نتيجة لهذه المشاكل فإن تغييراً قد حدث في الطريقة التي كان يفكر بها مواطنو الإمبراطورية في القرون الأخيرة من عمر السلطة الرومانية.

لكن هذا الخوف المتنامي والمنتشر بين الرومان كان جانباً واحداً فقط من القصة، فعلى الجانب الآخر كان يوجد عامل آخر أكثر مدعاة للاطمئنان والاستقرار والأمل الراسخ. إذ لا يستطيع المرء فهم الجاذبية الثورية للمسيحية أو الصراعات العنيفة التي فرقت المجتمع المسيحي وقسمته إلى معسكرات متحاربة دون وضع طرفي المعادلة في الحساب ألا وهما الآمال والقلق اللذين تولدا نتيجة فترة غير مسبوقة من التغير.

بالنسبة للقرن الرابع الميلادي، فإن الشعور بأن العالم لم يعد ذلك العالم القديم الذي يمكن توقع مجراه كان شعوراً طبيعياً. فأكثر من خمسمائة عام ظلت قوة الإمبراطورية الرومانية في تزايد حتى وصلت إلى ذروتها في القرن الثاني الميلادي، ذلك العصر الذي وصفه إدوارد جيبون "بأنه أكثر العصور سعادة وازدهاراً للجنس البشري"^[1]. هذا التعبير فيه تبسيط بلا شك، ولكن المشاكل في الإمبراطورية الرومانية التي ظهرت على السطح بعد جيل أو اثنين جعلت ذلك العصر السابق بمثابة العصر الذهبي الخالص، ولكن بداية من عام 220م فإن القبائل الألمانية من الغرب، والفرس من الشرق، أخذوا في السيطرة والتحكم في الولايات الحدودية للإمبراطورية الرومانية في

1- Edward Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 1 (New York: Modern Library, 1932), 70.

أوروبا وآسيا، محققين انتصارات غير مسبوقة على فيالق الإمبراطورية الرومانية، وفجأة أصبح العرش الإمبراطوري جائزة ومطمعا لأقوى الجنود، وخلال سبعين عامًا فقط تعاقب على العرش الإمبراطوري سبعة عشر قائدًا عسكريًا جلسوا على العرش الذي جلس عليه أغسطس قيصر في يوم من الأيام، ومن أجل دعم النمو المتزايد للنفقات العسكرية، فقد تمت مضاعفة الضرائب ليس مرة واحدة ولا مرتين ولكن ثلاث مرات متتالية. حتى البضائع الشحيحة المتاحة تم تخصيصها للاستخدامات العسكرية. وقد أدى هذا إلى ارتفاع قياسي لأسعار السلع والبضائع، وأصبح التضخم خارجًا عن السيطرة، وبينما استفادت طبقة جديدة من المقاولين والمتعاقدين وأصحاب الأراضي من الظروف الراهنة فازدادوا ثراء بشكل فاحش، وفي الوقت نفسه تفاقمت معاناة الطبقة الوسطى وأصبح الفقراء يساقون زرافات ليتم بيعهم في مقابل ديونهم كأقنان الأرض^[1]* أو حتى ليدخلوا في العبودية. وعلى إثر تلك الظروف اندلعت الثورات والاحتجاجات على هذه الأوضاع وخاصة في المدن والأقاليم الحدودية. وأصبح قطع الطريق والخروج على القانون متفشيا وخارج عن السيطرة. ولم تشهد الإمبراطورية في تلك الفترة أية إنشاءات معمارية جديدة. ومما زاد الأمر سوءًا تفشي وباء الطاعون في تلك المناطق التي تعاني أصلاً من وطأة الفقر، وأخذ كبار السن والحكماء يتساءلون عما إذا كانت تلك هي العلامات على أن نهاية العالم أصبحت وشيكة^[2].

1- أقنان الأرض درجة أقل من العبودية، حيث يصبح الشخص مرتبط بالخدمة في الأرض وغير قادر على مغادرتها (للمترجم)

2- The crisis of the third century is described by numerous historians; see, e.g., A. H. M. Jones, The Later Roman Empire, 284—602, vol. I (Norman,

بعد جيل واحد فقط من تلك الأزمنة الصعبة، فإن روما أصبحت بطريق أقرب إلى المعجزة أكثر أمانًا واستقرارًا من أي وقت مضى. ومع حلول عام 290م فإن غزو القبائل البربرية تم صده، وفي نفس الوقت تم كبح التمردات الداخلية، وازدهرت التجارة، وشيدت عدة مدن جديدة على أنقاض المدن القديمة المتهدمة، وعاد الاستقرار السياسي مرة أخرى في روما. يرجع الفضل في هذه الصحو الرومانية إلى قائد عسكري من دليمتايا يدعى دقلديانوس Diocletian يعتبر بحق أكثر الأباطرة كفاءة ومهارة منذ عصر أغسطس قيصر. وفي عصره ازدهرت الفنون والآداب والقانون والطب، ومرة أخرى تمتعت روما بالسلام والاستقرار الذي جعل من تقدم البشرية أمر ممكنًا. على رغم أن الآمال بلغت عنان السماء باستعادة مجد روما القديم، إلا أن التوسع في حجم الجيش وزيادة البيروقراطية إلى حد هائل أدى إلى استمرار الصعوبات والأزمات المالية التي تعاني منها الإمبراطورية وازدادت الهوة الطبقية والعرقية عمقًا، وشكلت هجرة البشر عبئًا جديدًا على حدود الإمبراطورية، ومرة أخرى، أصبحت الشكوك حول مستقبل الإمبراطورية أمر متعذر تجنبه. لكن الخوف الآن أصبح ممزوجة بالآمال بإمكانية حدوث تحسن في المستقبل.

وفيما يتعلق بالأمور السياسية والحربية، فإن مواطني روما كانوا بلا حول ولا قوة من ناحية التأثير على قرارات الدولة أو تغيير مصائرهم، حيث استحوذت الطبقة الجديدة من الحكام على سلطات مطلقة إلى الدرجة التي لم يكن يتخيلها أو يحلم بها أحد في

OK: University of Oklahoma Press, 1964), 2136-. See, more generally, Michael Grant, *The Fall of the Roman Empire* (New York: Macmillan [Collier Books], 1990).

العصور الجمهورية الغابرة. وعلى نحو متزايد فإن المراسيم والتقاليد في القصر الإمبراطوري الروماني أخذت تتشابه مع الأعراف والتقاليد التي مورست لزمن طويل في بلاط الفرس، والتي عبرت عن التبجيل والتفخيم المطلق لملك الشمس الفارسي^[1].

وفي الوقت نفسه فإن عدم استقرار الأحداث، كان له تأثير إيجابي على هؤلاء الأشخاص الذين كانوا في العادة لا يملكون من أمرهم شيئاً، والذين كانوا بمثابة المشاهدين أو المراهنين على لوحة شطرنج السياسة، حيث أعطت تلك الاضطرابات السياسية وما تولد عنها من خوف وسلبية الأمل لهؤلاء بأنه لا يوجد مستحيل، بل وأتاحت السبيل لرفع سقف الآمال والطموحات إلى أقصى حدوده لديهم.

وبفضل أباطرة أقوياء مثل دقلديانوس، تمت استعادة الأقاليم التي خسرتها الإمبراطورية في الفترة الماضية، ومع أن صحة الإمبراطورية تلك بدت وكأنها صحة دائمة، إلا أنه سريعاً ما اتضح أن استعادة مجد روما كان مجرد آمال كاذبة وما هي إلا صحة مؤقتة، هذه المسألة لم تمثل مشكلة كبير بالنسبة للمواطنين المسيحيين، فلقد كانت المكافأة التي يتطلع إليها مواطنو الإمبراطورية من المسيحيين المؤمنين ليست موجودة في هذا العالم، فإذا كان الإنجيل يقول "أنه لن يفيد الإنسان شيئاً أن يكسب العالم كله ويخسر نفسه"، فإن العكس أيضاً سيكون صحيحاً.

كانت الجنة الموعودة يمكن أن تعوض مواطني الإمبراطورية من

1- من الانتقادات التي توجه إلى دقلديانوس أنه أضفي مظاهر الفخامة الكبيرة على العرش الروماني متشبهاً في ذلك بالملوك الفرس، فبدلاً من كون الإمبراطور الروماني كان ينظر إليه في السابق باعتباره المواطن الأول في الإمبراطورية، ورفيقاً لباقي الرومان أصبح الآن في عصر دقلديانوس ينظر إليه كما ينظر إلى الملوك الفرس باعتبارهم ظل الله على الأرض - (المترجم).

المؤمنين عن فقد الأمان في الحياة الدنيا. هذا الأمل المسيحي بالجنة الموعودة كان له دور كبير في التغير الجوهرى الذي مرت به المسيحية خلال أقل من قرن من الزمان من مجرد طائفة مضطهدة إلى دين رسمي محتمل للدولة.

وعلى الرغم من أن الآلهة الوثنيين كان ينظر إليهم دائماً من قبل أتباعهم باعتبارهم خالدين، كما أن خلود إله بني إسرائيل كان جزءاً لا يتجزأ من تعريفه، إلا أن الفلاسفة اليونانيين احتاروا في مسألة خلود النفس البشرية، وتكلم اليهود متفائلين ولكن بشكل غامض عن أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون^[1]، ولكن أيّاً منهم سواء المفكرين اليونانيين أو اليهود لم يجعل أبداً خلود النفس البشرية والحياة الأخرى جزءاً جوهرياً يقام عليه أساس العقيدة كما فعلت الديانة المسيحية التي قامت أساساً على فكرة الخلاص والحياة الأخرى الأبدية، وجعلت المسيح ليس فقط نبراساً أخلاقياً يهتدى به، ولكن جعلته بمثابة أخ أكبر لهم. ومن خلال الاقتداء بالمسيح المخلص يستطيع كل البشر الذين هم أطفال الله أن يشتركوا في إرث الأبدية، فعندما نصيح قائلين ”أبتاه، أبانا، فإن الروح نفسها تشهد معنا على أننا أبناء الله، والأبناء هم الورثة، ورثة الله مع المسيح بشرط أن نبذل الجهد معه وبهذا يمجّد اسمنا معه“^[2].

كان هذا هو الجانب الآخر من التحول الخطير الذي تمر به الإمبراطورية، ومن رحم الخوف من الانهيار الاجتماعى، فإن الأمل ازداد بأن التغير القادم سيكون على نطاق واسع إلى الأحسن وليس

1- Sayings of the Fathers, trans. Rabbi Joseph H. Hertz (New York: Behrman House, 1945), 13, 79.

2- Romans 8:1617- RSV, 176.

إلى الأسوأ. وأدى الصعود السريع للكنيسة إلى تقديم الدليل على أن التغير القادم وبطريقة أقرب إلى المعجزة يمكن أن يكون إلى الأفضل. وعلى المستوى الفردي كانت الصورة أكثر وضوحاً بإمكانية تغير البشر إلى رجال ونساء جدد ولكن هذه المرة متحدين مع يسوع المسيح. أو كما خاطب أوريجين السكندري العظيم^[1] شعب الكنيسة "أتوسل إليكم بأن تغيروا من أنفسكم".

كانت الجائزة الكبرى لنجاح المرء في تغيير نفسه وإيمانه بالمسيح هي الأبدية التي يتمتع بها الله، ومثلما يستطيع الله بإرادته إنقاذ النفس البشرية من الموت فإنه يستطيع أيضاً أن ينقذ روما من مصيرها المحتوم بالفناء. الخلاص السياسي مثله مثل خلاص النفس يعتمد على القدرة الإلهية وفي الوقت نفسه على الإيمان والعمل الصالح. وكان كل مسيحي يعلم ماذا حدث لمملكة بني إسرائيل عندما ارتدوا إلى عبادة الأوثان فحكم عليهم بالحياة الفانية. كان واضحاً أنه على الإمبراطورية الرومانية أن تختار بين تحولها لتكون إمبراطورية مسيحية حقيقية أو أن تتوقف عن الاستمرار في الوجود. كان يمكن وصف هذا الوضع المشحون من أحد الجوانب بأنه ينطوي على مخاطر بدرجة غير مسبوقة، بينما من الجانب الآخر كان يحمل آمالاً براقية، فإما أن تؤمن بالحق وتكون تصرفاتك متسمة بالتقوى والصلاح وتكتسب بذلك الخلاص والحياة الأبدية، وإما أن تسقط في الخطيئة والإثم ويحكم عليك بالهلاك.

في ظل هذا الرهان ذي المخاطرة العالية، فإن قرار اختيار المسيحية أو

1- Peter Brown, *The Body and Society: Men, Women, and Sexual Renunciation in Early Christianity* (New York: Columbia University Press, 1988), 160 et seq.

أي دين آخر، أو حتى الانحياز إلى أحد العقائد المذهبية المتصارعة بات وكأنه أصبح قرارًا مرتبطًا بأبعاد مصيرية يمتد تأثيرها إلى الكون كله.

وعلى الرغم من أن مثل هذه القرارات ظل يتخذ على المستوى الفردي، ولكن لم يكن بالمقدور أبدًا وصفه بالقرار الشخصي، حيث أن النتائج المترتبة عليه كان يمكن أن تقرر إلى حد بعيد مصير حضارة بالكامل.

وفي ضوء مثل هذه الظروف المتوترة والوضع المشحون الراهن كان من المستحيل ألا يترصد كل طرف بالآخر، ومن أجل أن يقوى أتباع كل فريق مركزهم ضد خصومهم كان عليهم أن يوجهوا اتهامات للمخالفين لهم في الرأي بأنهم من أتباع الشيطان وأعداء الله. وسوف يكون التسامح الديني في ظل مثل هذه الظروف ضربا من اللامبالاة، حيث لم يكن من المنتظر أبدًا أن يتمتع المجتمع بقدر من الحرية أو التسامح الديني في ظل هذا الجو المشحون. ففي الإمبراطورية الرومانية التي طالما سادها جو من التسامح بين الأديان المختلفة والعبادات الوثنية أصبح الوضع مختلفا الآن، حيث أخذ ينظر إلى المسيحية وكأنها المسؤولة عما وصلت إليه روما، وأصبح الاعتقاد السائد في أرجاء الإمبراطورية أنه إذن هجر الرومان دياناتهم واتبعوا الدين المارق الجديد، فإن المجتمع الروماني بأكمله وليس المذنبون المسيحيون فقط سرعان ما سوف يمسه نفحة من عذاب الله.

ولم يمض وقت طويل بعدما انشغل المسيحيون بالجدال حول ألوهية المسيح إلا ووجدوا أنفسهم يقومون باضطهاد وقمع خصومهم والمخالفين لهم في الرأي، تماما كما فعل الحكام الوثنيون لروما بهم في محاولتهم للحفاظ على رؤيتهم للعالم عن طريق محاربة ما نظروا إليه باعتباره شرور المسيحية وآثامها.

وعلى الرغم من أن أغلب المسيحيين الذين اشتركوا في الجدل الآريوسي لم يستعملوا أسوأ أساليب الاضطهاد التي أستعملها الأباطرة الرومان من

أجل قمع المسيحيين، إلا أنهم في الوقت ذاته لجأوا إلى استعمال كثير من أساليب وطرق أعدائهم القدامى بدرجة ما لقمع خصومهم، وخاصة أن الدافع كان مشتركاً في الحالتين وهو اضطهاد الخصوم بدعوى محاربة ما اعتقدوا بقين أنه خطأ لا يغتفر في الإيمان، بالإضافة إلى أن الاضطهاد الممنهج الذي عانت منه المسيحية أدى في النهاية إلى إلحاق أضرار بالكنيسة وجعل ظهور الانشقاق فيها أمراً حتمياً.

خلال القرنين التاليين لموت المسيح فإن انتشار المسيحية التي اعتبرها أغلب الرومان صورة مشوهة من اليهودية كان بطيئاً للغاية^[1]، ومع أن اضطهاد الحكام الرومان للمسيحيين كان شيئاً ثابتاً إلا أنه كان أيضاً غير فعال، وخلال خضم الأزمة الكبرى التي عانت منها الإمبراطورية خلال القرن الثالث الميلادي، فإن المسيحية حققت بعض المكاسب الهامة خاصة في الجزء الشرقي من الإمبراطورية، وبحلول عام 250 ميلادي فإن المسيحية أصبحت أكثر الحركات الدينية ديناميكية في الإمبراطورية بأكملها، وعلى الرغم من أنها ظلت أصغر عدداً من المجتمع اليهودي إلا أنها كانت تفوقها بمراحل في معدل نموها والزيادة المضطردة في عدد أتباعها.

ربما كان التزامن بين انهيار الإمبراطورية، وما ترتب عليه من خسارة مستمرة للأراضي والأقاليم الحدودية والنمو المتسارع للمسيحية بين أرجاء الإمبراطورية، سبباً في زيادة اضطهاد الأباطرة الرومان للمسيحيين، والذي وصل إلى ذروته في عصر الإمبراطورين ديكْيوس^[2]

1- See Frend, The Rise of Christianity, 179: "Nothing suggests, however, that Christianity was a formidable movement before the reign of Marcus Aurelius (161—180)."

2- ديكْيوس الإمبراطور الروماني من 249-251 م (المترجم).

Decius وفاليرين^[1] Valerian، ولاقى قبولاً من جانب الكثير من مواطني روما، الذين كانوا يرون تلك الفئة المارقة وعبادتها للمسيح هي سبب البلاء الذي تعاني منه روما.

وبرغم أن اضطهاد المسيحيين كان أمراً معتاداً في الإمبراطورية إلا أنها كانت المرة الأولى التي يتم فيها بشكل منهجي من أجل إعاقة المسيحية ووقف انتشارها. وكانت الوسيلة التي اتبعتها الإمبراطورية في ذلك استراتيجية بسيطة، وهى إجبار كل المواطنين على تقديم القرابين (الأضحية) للآلهة الوثنيين ومن يرفض فإنه يصبح مهدداً بعقوبة الموت، وعلى الرغم من بساطة تلك الوسيلة إلا أنها أثبتت فعالية كبيرة، فمع النمو السريع للمسيحية فإنها أصبحت تضم العديد من المواطنين ذو القيمة العالية (الذين يحظون باحترام عال في المجتمع)، وكان طبيعياً أن هؤلاء كانوا لا طاقة لديهم على تحمل معاناة السجن، وبالتأكيد لم يكونوا يتوقون إلى الموت والاستشهاد، لهذا فإن العدد الذي أطاع أوامر الإمبراطور أو استطاع تدبير أمره عن طريق رشوة السلطات كان أكبر بكثير من عدد هؤلاء الذين تحدوا أوامر الإمبراطور وخاطروا بإغضابه. في العام الأول من الاضطهاد (الكبير)، وعلى حد وصف أحد المؤرخين فإن "المسيحيين اندفعوا مع جيرانهم الوثنيين في تقديم القرابين للآلهة الوثنية" وعملياً تعرضت الكنيسة المسيحية للانهايار^[2]. وعندما جاء عقد الإرهاب والقمع المتقطع من جانب الدولة للمسيحية إلى نهايته، فإن الكنيسة ظهرت على الساحة أقوى مما قبل، ويرجع هذا جزئياً إلى حالة عدم الرضا التي تولدت عن الأزمة التي تمر بها

1- فاليرين الإمبراطور الروماني -253 260 (المترجم).

2- Ibid., 320. "Practically collapsed" seems somewhat overstated.

روما، والتي ساعدت على تحول الوثنيين إلى المسيحية. وأصبحت الإمبراطورية الآن في وضع شديد الصعوبة على الرغم من حقيقة مؤداها أن أغلب المواطنين لا يزالون يقدمون القرابين بإخلاص إلى الآلهة الوثنيين.

ربما استطاع بعض الأشخاص إلقاء اللوم على مسؤولية هذا الوضع المتردي على المسيح نفسه، لكن هل كان بمقدور هؤلاء الأشخاص الوثنيين فعلاً المحافظة على إيمانهم القوي بالآلهة الذين لم يكن بمقدورهم حماية أتباعهم المخلصين من الاعتداءات الخارجية والإساءات الداخلية؟ وأصبح إيمانهم بهؤلاء الآلهة الوثنيين الذين لم يملكوا لهم ضرراً ولا نفعاً موضع تساؤل.

وبشكل مماثل في الأهمية فإن أتباع المسيح نالوا قدراً كبيراً من احترام مواطنيهم لتمسكهم بمبادئهم. ففي حين كان مواطنو روما الأغنياء لا يعبأون بمصير إخوانهم المواطنين الفقراء ويتخلون عن مساعدتهم، بل ازدادت طبقة الحكام والموظفين البيروقراطيين ثراء في خضم تلك الأزمة المستعرة على حساب رعاياهم، وكان القادة العسكريون يزيحون الأباطرة مراراً وتكراراً ليحلوا محلهم. وفي ظل تلك الظروف القاسية كان الأساقفة ورجال الدين المسيحيون وشعب الكنيسة يطعمون الجوعى ويؤوون المشردين ويعتنون بضحايا الأوبئة، ويعرضون على هؤلاء البؤساء المعذبين في الأرض أن يصبحوا أعضاء في جماعة مترابطة متكافلة متحابّة.

وفوق ذلك كله، فإن الاضطهاد جذب مزيداً من الانتباه إلى الفرق بين القادة المسيحيين والوثنيين، فلقد شملت قائمة هؤلاء الذين تم إعدامهم لرفضهم تقديم القرابين للآلهة الوثنيين عدداً من قادة الكنيسة البارزين من كبار الأساقفة مثل فابيان وسيكستوس

الثاني من روما، وبابيلوس من أنطاكية، وألكسندروس من القدس، وسيريان من قرطاجنة وآخرين^[1].

ومع أن أغلبية العامة والكثير من رجال الدين فضلوا تجنب المخاطرة برفض الأوامر بتقديم القرايين، إلا أنه كان هناك بعض الأمثلة البطولية القليلة التي كان لها وقع وتأثير أكبر لدى العامة من تنازلات الأغلبية، وعلى وجه الخصوص فإن بطولة وشجاعة المرأة المسيحية كان لها أكبر الصدى، وكما وصف الأسقف ديونسيوس السكندري الذي كان قد نجا بالكاد من الاستشهاد متحدثاً عن شجاعة المرأة المسيحية في عصر الاضطهاد ومتحدثاً عن جماعة من الغوغاء المحليين الذين يعملون كجماعة متعطشة للدماء لحساب السلطات:

”وقاموا بالإمساك بامرأة رائعة تدعى أولونيا وقاموا بتعذيبها إلى درجة انتزاع كل أسنانها، وتشديد محرقة في مدخل المدينة مهددين بإحراقها حية ما لم تردد خلفهم تعويضات دينية وثنية، وطلبت برهة لالتقاط أنفاسها، وبمجرد أن فكوا قيودها قامت على الفور بإلقاء نفسها دون تردد إلى النار لتحترق حية وتتحول إلى رماد“^[2].

كانت النساء، في حقيقة الأمر، السلاح السري للمسيحية في كفاحها لكسب أتباع جدد من جميع طبقات المجتمع الروماني، بما فيه الطبقات العليا المبهجة في المجتمع، وفي المجمل فإنه كان من الجلي أن النساء شكلن أغلب شعب الكنيسة خلال القرن الثالث بعد

1- J. G. Davies, *The Early Christian Church: A History of Its First Five Centuries* (Grand Rapids, MI: Baker Book House, 1965), 115118-.

2- Quoted in Eusebius, *The History of the Church from Christ to Constantine*, rev. ed., trans. G. A. Williamson (London: Penguin Books, 1989), 211.

وفاة المسيح^[1]. كان يوجد العديد من الأسباب لهذا الوضع، فعلى الرغم من أن المسيحية لم تكن أبدًا حركة نسائية بالمفهوم العصري الحديث، لكن المجتمع الذي صورته وكانت تنادى به كان مجتمعًا يتوق إلى الفضيلة والطهارة، هذا المجتمع البيوريتاني (النقي) شكل عامل جذب لهؤلاء اللاتي طالما تم الحط من مكانتهن، واعتبرن مجرد وسائل للتسلية الجنسية، أو في أفضل حال وعاء لحمل الأطفال.

ومع أن الكنيسة شاركت المجتمع الروماني في انحيازه للنظام الاجتماعي القائم على النظام الأبوي (الذكوري) وإعطاء الأفضلية دائمًا للرجال، إلا أن الكنيسة أظهرت اهتمامًا وعطفًا على الكثير من فئات النساء المهمشات مثل الأراامل الذين كثر عددهن نتيجة لزواج الفتيات الصغيرات برجال متقدمين في السن، واهتمت بالعناية بالعداري، واعتبرت الزنا سواء من الرجل أو المرأة إثماً عظيم، وعارضت البغاء، وحاولت إثناء الرجال عن ترك زوجاتهم. ومكنت المسيحية النساء من لعب دور مهم وقيادي في المجتمع المسيحي، وربما كان أعظم مكسب أعطته الكنيسة للنساء هو اعتبارهن مؤهلات بنفس الدرجة مثل الرجال تماماً في نيل الخلاص والحياة الأبدية.

تلك المكانة العالية التي تبوأتها المرأة في درجات المجتمع المسيحي وخاصة الطبقات العليا أثارت النقد اللاذع من المدافعين عن الديانات الوثنية القديمة مثل الفيلسوف بورفيرى^[2]، ولكنها في الوقت ذاته برهنت على أن إيقاف نمو المسيحية أصبح الآن أمراً مستحيلًا. ومنذ عام 260م فصاعدًا أخذ الوثنيون في التحول إلى

1- Fox, Pagans and Christians, 310. On this subject in general, see Peter Brown, The Body and Society, esp. 145154-.

2- Fox, Pagans and Christians, 309.

المسيحية زرافات، وأخذوا يدخلون في الديانة الجديدة في موجات كبيرة أقرب إلى المد، مع ملاحظة أن أكبر نسبة من المتحولين الجدد كانت في المدن الأكثر ازدهاراً وتقدمًا وثقافة في الشرق. في البداية كانت بيوت العبادة الصغيرة والمعابد اليهودية هي المسرح الذي يتم فيه انضمام أتباع جدد للمسيحية، خاصة بين المتعلمين وأنصاف المتعلمين، حتى أن بطرس الرسول نفسه كان في الأصل تاجرًا متعلمًا من المتحدثين باليونانية وموظفًا سابقًا في الإمبراطورية ومن المحبين للسفر والترحال^[1]، وعلى الرغم من أن المسيحية فتحت أبوابها للنساء والعبيد والمنبوذين، فإنها مع ذلك لا يمكن وصفها بأنها كانت فقط مجرد حركة للمستضعفين في الأرض، ولكنها في الواقع كانت حركة شعبية عامة ضمت واستهدفت كل طبقات المجتمع العليا والدنيا من كل الثقافات.

وشكل هذا الوضع الجديد من صعود للمسيحية تهديدًا وخطرًا كبيرًا على رموز وحراس النظام القديم، الذين لم يتفهموا أبدًا كيف يمكن لجماعة تعيش على هامش المجتمع، والتي كان ينظر إليها باعتبارها مجموعة من الساخطين على النظام الحالي أن تتطور لدرجة تهدد وجودهم نفسه. كانت المسيحية لها جذور اجتماعية وسيكولوجية عميقة، عكست الوعي المتزايد على قدرة الإنسان اللامحدودة على التطور الذاتي وعلى التغير. في حين أن العالم الوثني كان عالمًا من المظاهر الخارجية، كانت فيه الطقوس الدينية دلالة على نوعية الحياة عامة للفرد كعضو في الجماعة المدنية (التي تتشارك في نفس أسلوب الحياة)، لكن المسيحية على العكس من

1- See A. N. Wilson, *Paul: The Mind of the Apostle* (New York: W. W. Norton), 2335-, *passim*.

ذلك أعطت الكثير من الاهتمام للخصوصية ومفهوم المساحة الداخلية حيث يستطيع كل فرد أن يجاهد الشر بمفرده، وأن يتواصل مع الله ويكتشف هويته الروحية بنفسه. وقد اكتسبت رسالة المسيحية جاذبية كبيرة وعميقة بين عدد متزايد من مواطني الإمبراطورية الرومانية الذين ضاقوا ذرعاً بالطقوس الدينية الوثنية التي تميزت بالسطحية والرسومية، وأخذوا يتطلعون لمساحة من التعبد الروحي الحقيقي الذي يستطيع من خلاله الفرد التواصل مع الله مباشرة^[1]. ومع حلول الأعوام الأخيرة من القرن الثالث الميلادي، فإن السؤال الذي كان يهيمن على عقول المسيحيين والمؤمنين بالديانات القديمة على السواء، هل كان مقدراً لإله العقيدة المسيحية مع ابنه يسوع المسيح أن يحل محل آلهة الديانات الوثنية؟ كان يمكن الإجابة عن هذا السؤال بنعم بكل سهولة ويسر لو استمرت الإمبراطورية في ترنحها وسقوطها في أزمة تلو أزمة مخلفة وراءها حالة من السخط المتزايد بين المواطنين تجاه النظام القديم. لكن إنساناً واحداً في الإمبراطورية كان مصمماً على أن يضع نهاية لكل المشاكل التي تواجهها الإمبراطورية بما فيها المسيحية. أدرك هذا الإنسان أن القوة وحدها لن تكون كافية لمواجهة النمو المتزايد للديانة الجديدة، ولكن صحوه جديدة وعظيمة للإمبراطورية واستعادة مجدها الغابر ربما يكون مفيداً لاستعادة سلامة وحيوية المجتمع ويقوض في الوقت نفسه من شعبية المسيحية. وتوقع أنه بمجرد إضعاف الديانة الجديدة في هذا الاتجاه، فإن أتباع الناصري المصلوب يمكن أن يتحولوا إلى مجرد طائفة صغيرة لا تشكل تهديداً على الدولة، بل ويمكن حتى محوهم من الوجود كلياً ببذل بعض

1- Peter Brown, *The Making of Late Antiquity* (Cambridge: Harvard University Press, 1978), 5152-.

القمع والشدة. كان هذا الإنسان ذو التفكير الاستراتيجي العميق هو الإمبراطور دقلديانوس^[1]، هذا المصلح السياسي الساعي لاستعادة أمجاد روما القديمة. وكما هو معروف بداهة، فإن خطة دقلديانوس للتخلص من المسيحية فشلت، مع نتيجة معاكسة تمامًا، حيث برزت الكنيسة المسيحية كالتنظيم الديني المهيمن على الإمبراطورية الرومانية. كان الميراث الذي خلفته سياسة الاضطهاد الكبير في عصر دقلديانوس هو قرن من الصراع المرير بين الجماعات المسيحية المتناحرة مع بعضها البعض بضراوة. وهكذا فإن حملة الإرهاب التي شنّها دقلديانوس ضد المسيحية كانت هي البداية الحقيقية للجدال الأريوسي.

1- على الرغم من اشتهار دقلديانوس بين المسيحيين باعتباره أحد الأباطرة المسؤولين عن اضطهاد المسيحيين، إلا أنه من الناحية السياسية حاول إنقاذ الإمبراطورية الرومانية عن طريق ابتكار نظام الحكم الرباعي الذي يضم اثنين من الأباطرة الذين يحملون رتبة أغسطس واثنين من نواب الأباطرة الذين يحملون رتبة قيصر، وقد أثبت نظامه هذا فشلًا بعد تنحيه طوعية عن الحكم واندلاع الحرب الأهلية في الإمبراطورية إثر ذلك التنحي، وعلى الرغم من أن أغلب المصادر التاريخية تشير إلى أن دقلديانوس تنحى عن الحكم برغبته ولم يستجيب لمحاولة البعض للعودة مرة أخرى للحكم إلا أن المؤرخين المسيحيين الأوائل مثل يوحنا النيقوسي في مخطوطته المترجمة إلى اللغة العربية بعنوان تاريخ مصر تحقيق الدكتور عمر صابر يذكر أنه أزيح عن السلطة مكرهاً (المترجم).

الفصل الثاني

الصمت في معبد أبولو

مبكراً في خريف عام 299م، عاد الإمبراطوران: دقلديانوس، وجاليريوس، منتصرين إلى أنطاكية. جاليريوس المتغطرس سريع الانفعال كان هو الأحدث سنًا والأقل رتبة ومكانة من بين القائدين، وإليه يعود الفضل في الانتصار الساحق الذي حققه الرومان على الجيش الفارسي بعد خمس سنوات من المعارك الضارية، إذ تم الاستيلاء على المدن الفارسية الكبيرة مثل نصيبين Nisibis وكاتسيفون (المدائن) Ctesiphon، وأصبحت الآن خزائن ونساء الملك نرسي Narseh^[1] في يد الرومان، واستعادت روما أرمينيا التي دارت على أراضيها أول تلك المعارك، استعادت مرة أخرى، واضطر الإمبراطور الفارسي إلى الاعتراف والإقرار بسيادة الرومان على العديد من الأقاليم الفارسية التي انتزعتها روما.

1- نرسي أحد ملوك الاسرة الساسانية و ابن الملك شابور الأول الذي حكم الإمبراطورية الساسانية من 240-270 م، بينما حكم نرسي الإمبراطورية الساسانية خلال الفترة من 293-303، وخلال تلك الفترة فانه خاض حروبا ضارية مع الإمبراطورية، واستطاع في البداية تحقيق انتصارات ساحقة على الرومان وأهمها الانتصار على الامبراطور جاليريوس في موقعة كالينكوم في العام 296، الا ان الرومان استطاعوا في النهاية الحاق هزيمة ساحقة به بينما كان مع حريمه في أرمينيا في العام 297، وافقت الإمبراطورية الساسانية بعدها علي التخلي عن ارمينيا وجورجيا. (المترجم)

في أنطاكية وبعد التحرر من الخوف من خطر الغزو الفارسي، كان الإحساس بالأمان والراحة ملموسًا، وتنفس أهلها الصعداء لأول مرة منذ سنوات. ففي الماضي كان هناك وقت يمكن فيه توقع النصر على أي جيش فارسي أو قبائل جرمانية غازية، ولكن هذا الوقت ولى ومضى، فبعد ستين عامًا من عدم الاستقرار العسكري والسياسي في روما فإن الشعور بالاطمئنان لم يعد موجودًا بين أفراد الشعب الروماني، ولهذا كان هذا الانتصار الروماني له أكبر الأثر في إعادة الثقة مرة أخرى إلى الرومان في وقت انعدم فيه شعورهم بالأمان.

مبكرًا في هذا القرن، تعرضت الإمبراطورية للهجوم من جميع الاتجاهات. حيث استطاع تحالف من القبائل الألمانية اختراق الدفاعات الرومانية على طول نهر الراين، وقاموا بغزوات في عمق بلاد الغال. بينما استطاعت قبائل القوط مع فرسانهم الجسورين مهاجمة حوض الدانوب وقاموا بالتحكم في أقاليم كثيرة في آسيا الوسطى.

وثارت قبائل الكابايل في شمال أفريقيا ضد الحكم الروماني، بل وصل الأمر إلى قيام القراصنة السكسون بغارات جريئة، آمنين من أي عقاب روماني، وعبروا بحر الشمال إلى القنال الإنجليزي ثم حاصروا بعض المدن الكبيرة في الإمبراطورية مثل أثينا وميلانو وأفسيوس وحتى الإسكندرية للمرة الأولى في تاريخ الإمبراطورية.

ولكن الخطر الأكبر الذي واجه الإمبراطورية كان الجيش الفارسي الذي أدى زحفه ناحية الإمبراطورية إلى إشاعة موجة من الخوف والفرع بين مواطني الإمبراطورية، فالجيش الفارسي كان يضم محاربين مدربين تدريبًا جيدًا، فلم يكونوا مجرد برابرة أو رحل (مثل الغزاة الآخرين الذين هاجموا الإمبراطورية)، ولكنهم كانوا جنودًا لا يقلون تدريبًا أو مدنية عن جنود الإمبراطورية الرومانية، كان القوام

الرئيسي للجيش الفارسي الزاحف يتكون من المواطنين المتحدثين باللغة اليونانية، الأعداء التقليديين لمواطني الإمبراطورية الرومانية لأكثر من ثمانية قرون. مؤخرًا، وبعد فترة من الخضوع لروما، استعاد الفرس روحهم القتالية مرة أخرى تحت أسرة حاكمة جديدة، وهم الساسانيون. وكان أهل أنطاكية على وجه الخصوص لديهم أسباب غير سعيدة لتذكر الملك المحارب الساساني شابور الأول، الذي استطاع في عام 260 ميلاديا أسر الإمبراطور الروماني فاليرين هو وكامل جيشه، وسلخه وهو على قيد الحياة (أو هكذا تقول القصة)، وعلق جلده على أبواب عاصمته كاتسيفون (المدائن)^[1]، ثم دخل جيشه إلى مدينه أنطاكية التي استباحها هو وجنوده وقاموا بأخذ عدة آلاف من أهل المدينة كعبيد، ولم تكن الهزيمة المذلة هي مصدر الألم الوحيد للرومان، بل كان الإدراك المهين بأن الشعار المطبوع على العملات الرومانية "الأمان في كل مكان" ما هو الآن إلا مجرد أكذوبة. كان هذا الشعور مؤلمًا بنفس القدر الذي كانت به تلك الهزيمة المذلة، فبعد ذلك التاريخ لم يعد بإمكان أي شخص الشعور بالأمان حتى في أنطاكية الجميلة، تلك المدينة التي تأسست قبل خمسة قرون بواسطة أحد قادة الإسكندر الأكبر، والتي كانت دائمًا مطمئنًا يتطلع إليه في الصراع المستمر بين الفرس والإغريق حول السيادة في الشرق الأوسط^[2]. وكثير من المواطنين اعتبروها المدينة الأكثر جمالاً في الإمبراطورية. وإذا بدأت الرحلة من المدينة قادمًا من البحر ثم الإبحار خلال نهر أروننتس، فإنك سوف ترى في تلك

1- Frennd, Rise of Christianity, 308.

2- H. H. Scullard and A. A. M. van der Heyden, Shorter Atlas of the Classical World (New York: E. P. Dutton, 1967), 101.

الرحلة التي تستغرق بضع ساعات وهج الأضواء والألوان لمجموعة مبهرة من المعابد ذات الأعمدة الشاهقة، والمباني العامة وبيوت النبلاء المنتشرة على ضفاف النهر. تلك المدينة التي اشتهرت بكثرة عدد المعابد والأضرحة الموجودة فيها، ودراساتها الأدبية، وأنشطتها التجارية المزدهرة. كانت أنطاكية نافذة روما على الشرق، فمن منطقة الميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين)، والجزيرة العربية، والهند، كانت تأتي المنتجات والبضائع النادرة والأفكار الأجنبية لكي تمتزج مع ثوابت الغرب، والثقافة اليونانية، والقوة الرومانية وأفكار الديانة المسيحية، كانت أنطاكية هي أول مدينة خارج فلسطين تحتضن عددًا كبيرًا من المتحولين إلى المسيحية، ومما زاد من شهرتها أن القديس بطرس كان أول أسقف لها. وكانت المدينة محطة الانطلاق الأولى لأية حملة رومانية ضد الفرس، فقد كانت المدينة مقرًا للأباطرة الرومان في القرن الثاني الميلادي.

والآن فإن الأباطرة من مقر إقامتهم بأنطاكية، كانوا في انتظار الموكب العسكري وبدء الاحتفال بالنصر.

احتشدت الجماهير المبهتجة في الشوارع الساطعة بضوء الشمس هاتفين بحياة الأباطرة المنتصرين، ولكن هتافاتهم كانت موجهة بشكل أكبر إلى الإمبراطور جاليريوس، الذي جعل مدينة أنطاكية مقر إقامته الرئيس..... صيحات الابتهاج تلك قوبلت بصوت الطبول الذي بدأ أولاً خافتًا وبطيئًا ثم سرعان ما ازداد قوة وسرعة مع قرب قدوم الفرق المنتصرة.

أخذ الجنود المحليون في تنظيم الجماهير على جانبي الطريق العريض، وبدأت طلائع الجيش في الوصول في ملابسهم البيضاء الفخمة، ثم تعالت بعد ذلك صيحات الفرح والابتهاج مع قدوم

المئات من السيدات اللاتي أخذن في نثر الزهور في الطريق الممهد أمام الجنود، بعدها جاء فيلق الفالانكس phalanx من الموظفين المحليين والكهنة ورجال الدين الذين أخذوا في السير في جلال مطلقين البخور في الطريق ومباركين الجماهير الحاشدة أثناء مسيرتهم.

أخذت أصابع الجماهير المحتشدة في الإشارة إلى فرقة النبلاء الذين بدأوا في الظهور ممتطين خيولهم المتبخثرة، بعد ذلك جاءت فرقة الحرس الإمبراطوري، يمشون في تقارب ونظام، مرتدين دروعهم وواقيات الصدر اللامعة. وعندما توقف الموكب، فإن الصيحات تعالت منذرة بقرب ظهور الفاتحين جنبًا إلى جنب. كلا الفاتحين كان رأسه مكللاً بالغار ويقود العجلة الحربية ذات اللون الإمبراطوري الأرجواني المميز، وفي أعقابهم سار الأسرى الفارسيون منهكين ومكبلين بالقيود، ثم قوافل من البغال التي تسحب عربات مفتوحة ممتلئة بالغنائم والكنوز التي استولى عليها الجيش الروماني المنتصر، أخيراً لاحت في الأفق رايات الجيش ترفرف تحت الشمس، وظهرت صفوف الجيش الروماني وكأنها تمتد بلا نهاية. وأخذ الجمهور بالصياح والابتهاج للتعبير عن سعادته لرؤية الجيش المنتصر، وفي حين أخذ جاليريوس بالابتسام والإيماء برأسه بفخر، فإن وجه دقلديانوس ظل جامدًا خاليًا من أية انفعالات وكأنه نحت من الرخام.

كان سلوك الإمبراطور المتحفظ مجرد رسميات، حيث كان بالنسبة إلى الجماهير يمثل حاكم العالم، وفي الحقيقة فإن رؤيته لاحتفاء الجماهير بزميله الأصغر سنًا لم يثر حنقه أو ضيقه، فالحاجة إلى تقديم أشخاص موهوبين صغار السن إلى القيادة كان هو الدافع الذي جعله في المقام الأول يخترع نظام الحكم الرباعي لمجلس الأباطرة الذي يتكون من قائدين متمرسين كليهما برتبة (أغسطس)

يحكمان جزئي الإمبراطورية الشرقي والغربي، ويساعد كل واحد منهما قائد آخر برتبة قيصر يكون نائباً له، وفي الوقت ذاته يجب أن يتخذه ابناً له بالتبني، وخليفة له في الحكم. وهكذا فإن أغسطس النصف الشرقي من الإمبراطورية لم يكن لديه أي سبب للخوف من الشعبية المتنامية لقيصر النصف الشرقي من الإمبراطورية. إذ كان هذا القائد المحنك يحظى بالتقدير في كل مكان، وكان الاعتراف بمكانته كقائد روما الأعلى ومنقذها أمراً لا يقبل الشك، هذا الحاكم والقائد الذي استطاع أخيراً وبعد كفاح طويل صد القبائل البربرية عن غزوها لحدود الإمبراطورية، وأعاد تنظيم الشؤون المالية والإدارية للإمبراطورية، وتأسيس سلطة مركزية قوية، وأهم من ذلك إعادة الإيمان مرة أخرى بمستقبل العالم الروماني، كان هذا القائد هو دقلديانوس الكبير.

فعلياً فإن أحداً لم يكن يتوقع أن هذا الجندي الجاد الفظ من دالماشيا (الأراضي التي كانت تمثلها يوغسلافيا السابقة) يمكن أن يصل أبداً إلى تلك المكانة العالية التي وصل إليها دقلديانوس الذي استطاع الوصول إلى العرش بحد السيف، وفي مثل حالته فإن هذا الحزم العسكري لم يكن أبداً مجرد مظهر خارجي بل كان يعبر عن حقيقة طبعه، فكان أول عمل قام به بعد تنصيبه أغسطس، وقائداً للجيش هو القبض على ضابط متمرّد وقطع رأس ذلك التعيس أمام جنوده، وعلى عكس العدد الكبير من الأباطرة السابقين له الذين تبوأوا المنصب لفترات قصيرة، فإن دقلديانوس أدرك أن روما المهتزة لن تقوى على الاستمرار والصمود طالما كان في مقدور أي قائد متمرّد يقود جيشاً جيداً المطالبة بحقه المزعوم في عرش الإمبراطورية. أدرك دقلديانوس أن الاستقرار يأتي على قمة احتياجات روما من أجل

إحياء مجد الإمبراطورية. وفي عزمه وتصميمه على إنهاء النزاع على العرش الذي أسفر عن تلك السلسلة المتلاحقة من الأباطرة العسكريين للإمبراطورية، فإن هذا الابن لعبد سابق، استطاع إعادة تنظيم منصب الإمبراطور الروماني، وأعاد للمنصب هيئته وجلاله مرة أخرى بوصفه وظيفة مقدسة، شغلها في السابق قادة عظماء من أمثال أغسطس الأول (يوليوس قيصر)، أو ابن أخيه أوكتافيوس، والذين لم يقترب أحد منهم مما فعل دقلديانوس.

مكتظاً بالحراس الشخصيين وبحشد هائل من الموظفين، فإن القصر الإمبراطوري بدا وكأنه مدينة صغيرة في حد ذاتها، كان امتياز دخولها مقصوراً على عدد قليل فقط من المحظوظين، في حين منع أغلبية الآخرين من دخوله. كان سعيد الحظ فقط هو من يقبل التماسه ويمنح حق الدخول إلى البلاط الإمبراطوري (غالباً عن طريق نفوذ أحد رجال الحاشية من الخصيان الذين في العادة كانوا يتمتعون بنفوذ كبير)، عند الدخول فعليه أن يركع ثلاث مرات في حضرة الإمبراطور، وكان النظر مباشرة إلى الإمبراطور بمثابة انتهاك لقداسته. بينما الإمبراطور المتدثر بالرداء الإمبراطوري ذي اللون البنفسجي، والمكمل بالتاج على رأسه يتحرك بتؤدة شديدة بشكل متعمد. كانت تلك التفاصيل والفخامة والأبهة التي طغت على البلاط الإمبراطوري الروماني تثير سخط بعض الأرستقراطيين الرومان الذين يرون أنها مناسبة للبلاط الفارسي أكثر منها للبلاط الروماني، لكن هذه التبرعات كانت تختفي وتلاشى أمام صيحات الابتهاج من الجمهور المتحمس والشعبية التي كان يتمتع بها دقلديانوس، مثل تلك الصيحات التي قابل بها أهل أنطاكية الإمبراطور المنتصر ذا الوجه الحجري على عربته الحربية.

كان الكثير من الجمهور المحتشد في تلك اللحظة في الاحتفال

العسكري يتذكر موكبًا من نوع آخر مر بنفس الشوارع بمدينة أنطاكية منذ أقل من عامين. فبعد أن استطاع القائد الفارسي الجبار نارسا Narseh السيطرة على أرمينيا وهزيمة جيش جاليريوس في آسيا الوسطى وسحق الحاميات العسكرية التي تحرس شرق سوريا، وفي تصرف يدل على اليأس لم يجد جاليريوس بدءًا من الاستعانة بقائده العسكري (أغسطس الإمبراطورية) دقلديانوس، للقدوم لمساعدته أمام هذا الجيش الفارسي الغازي، وبالفعل لم يتوان الأخير عن الحضور بفرقته العسكرية المكونة من المقاتلين التراقيين Thracian، لكن قبل أن يعدل القائد الفارسي نارسا عن فكرة غزو الإمبراطورية الرومانية فإنه استطاع إلحاق خسائر جسيمة بالجيش الروماني المشترك، نسبت مسؤولية تلك الهزائم العسكرية المذلة إلى جاليريوس. وعند عودة الجيش إلى أنطاكية فإن جاليريوس كان مجبرًا على أن يمشى على قدميه في شوارع المدينة مثل أي شخص عادي، وجهه ملطخ بالرماد وعباءته البنفسجية تجر في التراب، بينما دقلديانوس يسير خلفه في عربته العسكرية.

الآن، وبعد أن أزال هذا النصر عار الهزيمة الماضية، وعند نهاية الموكب العسكري الاحتفالي فإن الإمبراطورين اتجها معا إلى معبد دائري ضخم مخصص للإله أبوللو (إله مدينة أنطاكية والحامي لها)، وبمجرد وصولهم المعبد فإنهم ترحلوا محاطين بحاشيتهم، وعند دخولهم الحرم المقدس، كان الكهنة مستعدين للتضحية بعدد من الحيوانات ليس فقط كآية من آيات الشكر والعرفان بهذا النصر المبين، ولكن أيضًا كوسيلة للتنبؤ ومعرفة المستقبل، فلقد كان السؤال الذي يسيطر على أذهان الرومان هل سيظل الفرس والقبائل الألمانية البربرية مستكينين أم يعاودون الهجوم؟ هل تستطيع روما التخلص

من الأوبئة التي أخذت تهددها كما لو حاق بها غضب وعقاب من الآلهة؟^[1] كانت هذه الأسئلة يمكن الإجابة عنها عن طريق التنجيم وبواسطة الكهنة الرومان الذين أتقنوا معرفة المستقبل عن طريق الاطلاع على الأحشاء الداخلية للحيوانات^[2].

وبينما كان الجمهور المحتشد في الخارج يجاهد من أجل رؤية لمحة من طقوس ذلك الاحتفال الذي يجري داخل أروقة المعبد، وبينما لم يتمكن إلا القليلون من لمح تلك الطقوس، فإن الأغلبية قنعوا وابتهجوا لمجرد سماع القداس الذي يجري خلف تلك الجدران. بمقدور المرء أن يتخيل الكهنة وهو يرددون التراتيل في تناغم بينما تراق الخمور على الأرض العطشى بين لمعان السكاكين وأنين الموت من الثيران والخرفان المحتضرة الخالية من العيوب، ثم غسل الدماء

1- كانت أوبئة الطاعون و الجدري التي ضربت الإمبراطورية الرومانية عدة مرات أحد أهم الأسباب التي أدت إلى زوال الإمبراطورية الرومانية الغربية، وأشهر تلك الأوبئة التي ضربت الإمبراطورية الرومانية هو وباء الجدري المتسبب عن الإصابة بأحد الفيروسات والذي ضرب روما خلال القرن الثاني الميلادي و اهلك نسبة كبيرة من سكانها، وأيضاً وباء الطاعون المتسبب عن بكتريا اليرسينيا بستس، والذي ضرب الإمبراطورية الرومانية في منتصف القرن السادس الميلادي خلال عصر الإمبراطور جستنيان وأدى في بعض التقديرات إلى مقتل ما يزيد على خمسة وعشرين مليون شخص، لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى كتاب براغيث جستنيان: قصة الوباء العظيم الأول، ونهاية الإمبراطورية الرومانية؛ تأليف ويليام روزين ترجمة أسامة عبد الحق نصار، مراجعة د. نصار عبدالله - دار الوفاء 2020 (المترجم).

2- It is not clear exactly when this ceremony of sacrifice took place, but I have imagined it occurring at the end of the emperors' triumph. For descriptions of the ceremony and accounts of the Great Persecution, see Timothy D. Barnes, Constantine and Eusebius (Cambridge: Harvard University Press, 1981), 1827-; Jones, The Later Roman Empire, vol. I, 7176-; Fox, Pagans and Christians, 592601-; Frend, Rise of Christianity, 456463-.

على الفور من خلال المياه التي تتدفق من أنابيب تجري من أسفل أرضية المعبد، تبع ذلك المشهد المهيّب دقائق من الصمت أو دونه، ثم بدأ الكهنة في فحص قلوب وأكباد الحيوانات المذبوحة وأعضاء أخرى، ولكن همهمة غير مطمئنة سرت بين الحضور بأن شيئاً لم يكن على ما يرام، وعلى الفور ارتفعت الأصوات غير المصدقة لما يحدث بعيداً عن أعين الجمهور المحتشد في الخارج. في النهاية وبعد أن انتهت كل المحادثات الجانبية والهمسات فإنه تقرر إعادة الطقوس مرة أخرى من أجل حسم الجدل، ومرة أخرى أصبح في الإمكان سماع الكهنة وهو يرتلون صلواتهم بينما أخذت الحيوانات الناجية تندب موتها في ذاك اليوم العصيب.

وبينما حبس الجميع أنفاسهم في انتظار عمل الكهنة الذين شرعوا في فحص أعضاء الحيوانات مرة أخرى، ولكن الفزع بدا جلياً هذه المرة على وجوه الكهنة، وأصبح واضحاً بطريقه لا تخطئها الأعين بأن خطباً ما قد حدث، فللمرة الثانية جاءت النتيجة بما لا تهوى الأنفس، فظهرت الأمعاء المتفجرة للحيوانات والقلوب ذات الخمس غرف والأكباد الناقصة، كل هذه العلامات كانت بمثابة نذير شؤم وعلامات على أن كارثة غير متوقعة كانت تهدد روما، أو أن الحيوانات تم العبث بها عمدًا من أجل إفساد المراسم، وبث الخوف والذعر بين الجماهير. جاليريوس الذي كان معروفًا بحماسة الدينية الشديدة، استفسر من رئيس الكهنة عن أسباب ومعنى هذا التنجيم الكارثي، وكانت الإجابة التي تلقاها مستفزة ومثيرة للغضب ولكنها مقنعة في الوقت ذاته، جاء التفسير من رئيس الكهنة لهذه النتيجة المرعبة أنه في كل مرة كان الكهنة يقومون بطقوس التضحية فإن بعض خدم ومرافقي الإمبراطور كانوا يقومون بطقوس غامضة، حيث كانوا يرسمون علامة

غامضة بأيديهم في الهواء، ولم تكن تلك العلامة التي وصفها الكهنة بالشیطانية والتي يقوم مرافقو الإمبراطور برسمها في الهواء سوى علامة الصليب. على الفور استنتج رئيس الكهنة أن تلك الممارسة التي هي أقرب إلى السحر الأسود بالتأكيد هي السبب في إفساد مراسم الاحتفال والتضحية. كان هذا التفسير مقنعا للإمبراطور جاليريوس، إذ لا يوجد تفسير منطقي آخر لمثل هذا التنجيم الكارثي.

في الحقيقة، فإن دقلديانوس أو جاليريوس لم يكن لديهما أدنى شك في قوة علامة الصليب تلك التي قام بعض أتباعهم في رسمها، ولكن الفرق الوحيد بينهما وبين أتباعهما المسيحيين هو الخلاف حول ماهية تلك القوة، وهل هي قوة للخير أم للشر. وبالتأكيد فإنهما لم ينظرا إلى تلك العلامات على أنها قوة خير للإمبراطورية على عكس نظرة أتباعهما المسيحيين. وبالمثل فإن المسيحيين أنفسهم لم يكن لديهم أي سبب للتشكيك في تلك الحقيقة المقبولة بين الجميع في وجود قوى غير مرئية سواء كانت تلك القوى ملائكة أم شياطين تعيش بينهم وتستطيع أن تؤثر في حياتهم بالخير والشر. كان من المسلم به أن تلك المخلوقات فوق الطبيعية تستطيع التأثير على حياة البشر وصحتهم وأمزجتهم وعلاقاتهم مع بعضهم البعض، وبالمثل تستطيع التأثير في قدر الإنسان وما يلم به من أحداث^[1]. وكان رد فعل الإمبراطور إزاء هذا التصرف وما ترتب عنه من إفساد للمراسم فوراً بكل الأوجه، إذ كانت أوامره بإلزام جميع مرافقيه والعاملين من حاشيته بداية من الخدم حتى الموظفين الكبار بتقديم

1- The subject of supernatural powers is discussed extensively in Peter Brown, *The Making of Late Antiquity* (Cambridge: Harvard University Press, 1978).

الأضاحي للآلهة الرومان الخالدين، وكان مصير الذين يرفضون القيام بمثل هذه التضحية هو الفصل على الفور دون أي تنبيه، وبالإضافة إلى هذا فإن جميع أشخاص الجيش كانوا مطالبين بالفعل نفسه، وإلا تعرضوا للفصل من الخدمة على الفور. كانت تلك الإجراءات بمثابة بداية عصر الاضطهاد الكبير، أو ما يمكن أن يطلق عليه: محاولة روما الأخيرة من أجل كبح جماح الدين المسيحي الجديد.

بدأت حملة الاضطهاد المسيحي أولاً على استحياء، إذ كان الجنود والموظفون مطالبين بإظهار ولائهم لروما وحضارتها عن طريق الاشتراك في الطقوس الوثنية، وفي البداية لم تتخذ أية إجراءات من أجل إجبارهم على هجر الديانة المسيحية، بل إن المسؤولين عن تلك المراسم سمحوا لهم بالمشاركة فقط بالحد الأدنى في المراسم الوثنية من أجل تشجيعهم على الاشتراك فيها. كانت الحكمة من وراء هذه الإجراءات ليس إذلال المسيحيين وقطعاً ليس استئصالهم، ولا حتى إثبات تفوق وسيادة الآلهة الرومانية على يهوه^[1] إله المسيحية Jehovah والمسيح، غاية الأمر أن الإمبراطور دقلديانوس أراد توحيد الشعب الروماني أثناء حربه ضد أعداء روما وخاصة القبائل البربرية، ولم ير أفضل من آلهة روما لتحقيق تلك الوحدة عن طريق التفاف الشعب حولها، وكانت ممارسة الطقوس الوثنية (التضحية) دليلاً على وحدة المجتمع، وفي الوقت ذاته لا ضير في اعتناق المجتمع العديد من الديانات الأخرى، ومن ضمنها حركة يسوع المسيح (كما كانت تدعى في ذلك الوقت) ما دام الجميع موحدًا في اعتقاده بآلهة روما القديمة.

وفي المقابل كان الإمبراطور جاليريوس يكن احتقارًا شخصيًا

1- يهوه أسم الله كما ذكر في التوراة (المترجم).

للمسيحيين، فهو لم يفهم أبداً كيف يمكن لهؤلاء الأشخاص أن يمجّدوا مجرد مجرم عادي تم إعدامه، بل ويعتبرونه إلهاً لهم، ووجد متعة كبيرة في معاقبة أتباعه من اليهود الغاوين (كما كان ينظر إلى المسيحيين في تلك الفترة باعتبارهم فئة يهودية ضالة)، ولعل أكثر ما أغضب المسؤولين الكبار في الإمبراطورية من المسيحية هو مفهوم الحصرية في الديانة المسيحية، وعلى وجه الخصوص عدم قدرة المسيحية على احترام آلهة روما ومعتقدات الآخرين، وهو ما جسّدته فكرة الإله الواحد على سبيل المثال. وبالمثل لم يستطع الإمبراطور دقلديانوس أبداً فهم لماذا الإيمان بإله واحد يدفع أتباع المسيح إلى الانعزال عن باقي الرومان، ففي ذلك الوقت كان الكثيرون من الرومان الوثنيين أيضاً يؤمنون بإله واحد أعلى قوة من باقي الآلهة، ولكنهم لم يروا أبداً ذلك سبباً لعدم الاعتقاد والإيمان بوجود الآلهة الأخرى الأقل قدرة من الإله الأعلى وفائدتها، أو حتى وصفهم بالشياطين كما فعل المسيحيون. أليس الإمبراطور يلجأ إلى أعوانه ومساعديه في إدارة وحكم روما؟، فلماذا إذا تفترض العقيدة المسيحية بأن الخالق يدبر أمر الكون بمفرده، لم يفهم الرومان تلك الأحجية بالنسبة لهم، ولزيادة الأمر حيرة وغموضاً فإن المسيحيين أجابوا عليهم قائلين بأنه يدير العالم بمساعدة ابنه.

تشكيك المسيحيين الرومان في وجود آلهة أخرى، أو الأسوأ وصف تلك الآلهة بأنها مجرد أرواح شريرة كان أمراً يتصف بالفظاظة والقسوة (في ذلك العصر). فإن الرومان الذين عبدوا آلهة الأولمبيا، لم يقوموا أبداً بوصف أتباع الديانات والآلهة الأخرى مثل أتباع سيرابيس أو إيزيس بأنهم ملحدون أو أنهم مجرد عبدة للأرواح الشيطانية، على العكس فإن الكياسة والذوق عام كانا يفرضان عليهم إظهار

الاحترام اللازم لكافة الآلهة وجميع مقدسات الآخرين، بل وإفساح مكان لآلهتهم حتى في معابدهم. (كانت وجهة نظرهم البسيطة: لماذا إذا يتوجب عليك إهانة جارك عن طريق إظهار احتقارك لآلهته ومعتقداته؟ وإذا كان من الممكن لجميع الآلهة أن تتواجد معاً، فلماذا نخاطر بإغضاب أحدهم عن طريق ازدرائه؟).

على العكس من موقف الرومان الديني، فإن موقف المسيحيين كان يبدو شديد التعصب، وفي موقفهم المتشدد هذا فإنهم كانوا يمشون على خطى اليهود الذين ارتكبوا خطأً كارثياً بالتمرد على سلطة روما في فلسطين مرتين. في مثل هذه الظروف كيف يمكن لأي شخص أن يتعامل مع هذا التعصب إلا عن طريق القوة.

والأمر الأكثر أهمية كانت مسألة المشاركة في الطقوس الوثنية (التضحية)، إذ شعر العديد من الرومان أن رفض المشاركة في الشعائر الدينية الوثنية الرومانية أمر غير مقبول، خاصة في وقت الحرب، حيث نظر إلى عدم تقديم الأضاحي للآلهة باعتباره عملاً غير وطني أو بمثابة الخيانة، إذ لم يبد أن هناك أي سبب منطقي يدعو هؤلاء إلى عدم المشاركة باستثناء الغطرسة والتعصب، وبالنسبة إلى أغلب الرومان المؤمنين بالآلهة والإلهات القدماء لم تكن المشاركة في طقوس التضحية أكثر من شكلية محترمة عبر الزمان، ولم تكن أكثر من مجرد واجب مدني تقريباً مثل عادة تحية العلم في العصور الحديثة.

بالنسبة إلى معظم الرومان فإن الديانة الوثنية لم تكن ديانة بالمعنى المفهوم، فلم تكن تحتوي على لاهوت كامل أو مثل أو قيم دينية شاملة، ولم تكن تتضمن حتى مسألة الخلاص الشخصي، فالمشاركة في بعض الطقوس والشكليات الوثنية كان لها علاقة بسيطة بمعتقدات الشخص وما يحمله قلبه من اعتقاد أو إيمان حقيقي. فلقرون عديدة

أظهر الرومان احترام الآلهة وإجلالها دون وجود تواصل حقيقي بين تلك الآلهة والمواطنين (أو بمعنى آخر فإن الدين والاعتقاد بالآلهة الرومان لم يكن يلعب دورًا ملموسًا في صياغة شكل حياة المواطن الروماني كما هي الحال في الديانة المسيحية)، فلماذا إثارة تلك المسألة الآن؟ وخاصة في الوقت الذي تخوض فيها الإمبراطورية الرومانية الحرب حيث يجب أن تكون جبهتها الداخلية موحدة تمامًا، فوقوف الآلهة في صف روما كان أمرًا حيويًا للغاية خاصة أثناء خوضها حربها تلك (التي يمكن أن تحدد مصير الإمبراطورية إما باستعادتها مجدها الغابر أو الذهاب بلا عودة في طريق الاضمحلال)، فما هو الداعي لإثارة سخط الآلهة وتمزيق وحدة المواطنين على السواء في هذا الوقت الحرج. (لمجرد رفض المشاركة في طقوس شكلية لإظهار الاحترام لآلهة الرومان).

ولكن الأمر الذي لم يكن يفهمه أغلب قادة روما الوثنيين وحتى أكثرهم ذكاءً وبعدها للنظر مثل الإمبراطور دقلديانوس هو أن المسيحيين لم يقوموا بمجرد إضافة إله جديد إلى معبد الآلهة "البانثيون"، ولكنهم قاموا بتأسيس ديانة جديدة كان الرب فيها هو الخير المطلق، وفي الوقت ذاته أب رحيم جعل من ابنه الحب الأبدي والصديق المخلص، وهكذا كان وصفهم بأنهم متعصبون لمجرد رفضهم التضحية لآلهة الرومان الآخرين أمرًا ظالمًا، ويشبه اتهام الشخص المخلص لشريك واحد ويرفض إقامة أي علاقة خارج هذا الإطار بأنه متعصب لرفضه مثل هذه العلاقات.

وهكذا فلئن كانت الحجة بأن المشاركة في تلك الطقوس ما هي إلا مجرد إلقاء القليل من البخور (ربما تكون حجة غير صحيحة)، لماذا لا تكون قليلًا من الكفر؟ ففي الدين مثلما هو الحال في الحب

نجد أن الهدية الوحيدة المقبولة هي التضحية التي يقدمها الشخص بشكل اختياري على مذبح الإيمان من أجل الحصول على رضا الإله أو امتنان الحبيب.

ربما يكون الإمبراطور دقلديانوس قد فهم بذلك أن مثل هذه الديانة شديدة الثراء والتأثير على أتباعها والتي يمكن أن تصوغ حياتهم بشكل تام لا يمكن لها أبداً أن تتعايش مع الديانات الوثنية، فالمنطق يقول إن تفسير الوصية الأولى التي تقول "لا يمكن أن يكون هناك آلهة آخرون قبلي"^[1] لا يكون إلا بأحد معنيين: إما انعزالي كما تقول أغلب المصادر والكتب اليهودية (من خلال النأي والابتعاد بتلك الديانة عن الديانات الأخرى)، أو توسعي (الرغبة في سيطرة تلك الديانة على الأديان الأخرى). طالما اعتقد اليهود بأنه عندما يأتي المخلص فإن العالم أجمعه سوف يتبعه ويؤمن بإله واحد هو إله بني إسرائيل، ويتوحد الجميع في عبادته.. عندما يأتي ذلك اليوم فإن جميع الناس سوف يصلون إلى إله واحد له اسم واحد، فكيف لتلك الديانة الجديدة التي لا تتطلب حتى ختان أتباعها، والتي لم تشترط أن يتقيد أتباعها بالمحرمات اليهودية الدينية، كيف لها أن تحقق مثل هذا الهدف، ولهذا بدأت أحلام الديانة اليهودية الكونية الوحيدة في التبخر، واتضح لليهود أنها ليست في متناول اليد، ومع هذا بقي الأمل في أن تصبح الديانة المسيحية هي الديانة الوحيدة والدائمة للإمبراطورية الرومانية.

قبل أربعين عاماً من هذا التاريخ (عصر دقلديانوس) فإن الأباطرة:

1- Exodus 20:3 RSV, 76. 'The Jerusalem Bible, Readers Edition (Garden City, NY: Doubleday, 1968), 81, translates "before" as "except," which is perhaps clearer to modern readers.

ديكيوس وفاليرين استهوتهم فكرة إخضاع المسيحيين عن طريق الإرهاب، وكانت النتيجة النهائية لتلك الحملة الوحشية التي تمت على فترات متقطعة عكس ما هدفت إليه تمامًا، إذ أدت إلى موجة جديدة من المتحولين الرومان إلى الديانة الجديدة، ولكن هؤلاء الأباطرة اختلفوا عن دقلديانوس في أنهم حكموا لفترة قصيرة، وحتى خلال تلك الفترة الوجيزة من حكمهم فإنهم افتقدوا لمثل تلك السلطة الواسعة والمستقرة التي تمتع بها دقلديانوس، والأهم أنهم كانت تعوزهم حنكته وذكاءه (وهي الأدوات التي سيوظفهما دقلديانوس في حملة الإرهاب الجديدة)، فبعد نجاحه في جعل روما تستعيد شبابها وقوتها المالية والعسكرية، كان مصممًا على تثبيت أقدام الإمبراطورية الروحية، وكان في حكم المؤكد أن دقلديانوس الذي كان أكثر الأباطرة حنكة وقوة وإبداعًا منذ أغسطس العظيم هو بشكل حتمي قادر على احتواء تلك الحركة الدينية القائمة على عبادة إنسان ميت.

وهكذا، فإن عصر الاضطهاد العظيم قد بدأ في محاولة أخيرة من روما للحد من انتشار المسيحية، وهناك بعض الآراء التاريخية التي تقول أن الإمبراطور دقلديانوس أو الإمبراطور الطيب كما كان يطلق عليه كان مدفوعًا للقيام بحملة الاضطهاد تلك من قبل جاليريوس الذي نال شهرة وسمعة لا يضاهيه فيها أحد نتيجة لوحشيته وتعصبه، ولكن في حقيقة الأمر فإن دقلديانوس كانت له دوافعه وأسبابه الخاصة للبدء في حملة الاضطهاد لتهميش وإضعاف أتباع المسيحية حتى دون ضغط من جاليريوس، ذلك أنه، ومعه كبار مسؤولي روما وقادتها آمنوا أن روما لن تستطيع إحياء مجدها القديم إلا إذا استعادت وحدة قيمها وتقاليدها الروحية والاجتماعية.

وكانت المشكلة كيف يمكن توحيد الإمبراطورية التي أصبحت الآن منقسمة (أكثر من أي وقت مضى) ليس فقط بالاختلافات الدينية، ولكن نتيجة لتباعد الطبقات الاجتماعية المختلفة والانتماءات الجغرافية المتنوعة، والهجرات العرقية الواسعة في الإمبراطورية، والتي جعلت من روما إمبراطورية أشبه بالدولة المرقعة، مكونه من العديد من الأجناس والأعراق، إلى الدرجة التي جعلت الجنود البرابرة يشكلون القوام الأعظم من جيشها العامل، وأصبحت ينتشر بها بوفرة العديد من الديانات الكاذبة.

كان لدقلديانوس خبرة في التعامل مع الحركات الدينية، إذ سبق أن واجه هذا الموقف من قبل واكتسب خبرات، وتعلم دروسًا مستفادة من المواجهة، وذلك أثناء قمعه لحركة دينية أكثر حداثة من المسيحية نفسها وهي الحركة المانوية Manichaeism التي قادها ماني Mani النبي الحالم من الميزوبوتوميا (بلاد ما بين النهرين)، وقد استطاع ماني كسب أنصار عدة في بلاد فارس، وناحية الشرق في الهند والصين قبل استشهاده في عام 270 م، وبعد وفاته فإن ديانته التي كانت تتضمن الاعتراف بالمسيح كرسول إلهي أخذت في الانتشار السريع بين أتباع الإمبراطورية الرومانية (وخاصة في الشرق، في الحدود المتاخمة مع فارس)، أثار هذا الانتشار الواسع للمانوية في الإمبراطورية قلق دقلديانوس ليس فقط باعتبارها ديانة فاسدة ولكن أيضًا باعتبارها ديانة فارسية الأصل وبالتالي فإنها ديانة هدامة مخربة، وفي عام 302 م فإن دقلديانوس وقد استشاط غضبًا من إجراءاتهم وتصرفاتهم، قام بربط الكهنة المانويين مع كتبهم وتغطيتهم بالأقمشة وحرقهم حتى الموت، ولقي في هذا التصرف البشع عدد غير محدد من الكهنة المانويين مصرعهم حرقًا، وعلى الرغم من بشاعة وقسوة هذا الإجراء

إلا أنه لم يقض على المانوية، ولم يستطع دقلديانوس إرسالها إلى طي النسيان (وهو الدرس الذي تعلمه، وسيحاول عدم تكراره في تعامله القادم مع المسيحية)، فسرعان ما قام القديس أوغسطين باعتناق المذهب المانوي وسوف يظل كذلك في أغلب فترات شبابه قبل أن يصبح ذلك القديس المسيحي الشهير.

تعلم دقلديانوس الدرس الذي استفاده من تعامله الوحشي مع المانويين، ففيما يتعلق بالمسيحية لم تكن له أبدًا الرغبة في زيادة عدد شهدائها، وأدرك أن الموت البطولي للشهداء هو البذور والتربة الخصبة التي تغذى الكنيسة وأتباعها.

وبالمثل لم يتعامل دقلديانوس بدموية مع الأساقفة الذين أصبحوا الآن يتمتعون بنفوذ كبير بين أتباعهم وكانوا يتوقون بشدة إلى الاستشهاد البطولي الدموي، لكن مع استمرار حملة التطهير في الجيش والوظائف المدنية دون التمكن من الحد من انتشار المسيحية دفع العديد من المسؤولين للمطالبة بإجراءات أشد صرامة، وفي كتاب من خمسة عشر جزءًا بعنوان: "ضد المسيحية" فإن الفيلسوف الروماني "بورفيري" قام بوصف المسيحيين بأنهم خونة لروما وغير أخلاقيين وطالب بإعدام أتباع المسيحية غير التائبين.

وبدرجة أقل من تلك الآراء المتشددة فإن الكثيرين من مسؤولي الإمبراطورية وقادتها كانوا يرون أن فصل أتباع المسيحية من الوظائف المدنية أو الجيش ليس كافيًا للحد من انتشار المسيحية، وكان لا بد من إيجاد وسيلة أخرى من أجل إجبار زعماء الكنيسة على الكف عن محاولة تحويل الإمبراطورية الرومانية بأكملها إلى المسيحية.

كان الإمبراطور جاليريوس مع عدد كبير من مسؤولي الإمبراطورية يشتاؤون غضبًا على وجه الخصوص من الحقيقة التي مؤداها أن

هناك عددًا متزايدًا من الأرستقراطيين الرومان الأغنياء اعتنقوا الديانة المسيحية، وهو الأمر الذي كان بمثابة خيانة لمبادئ روما وانتماءاتهم الطبقية.

لمدة ثلاث سنوات صب الرومان وابلًا من العذاب على رؤوس المسيحيين، وبدأ الأمر وكأنه عاصفة رعديّة عليهم. وأخيرًا في عام 302 م، فإن العاصفة جاءت إلى نهايتها، حيث كان الإمبراطور دقلديانوس في أنطاكية وذلك للقيام ببعض أمور الدولة، وكما كانت العادة فإن المراسم الإمبراطورية كانت يجب أن تبدأ ببعض المراسيم الوثنية التقليدية، وفجأة وقبل انطلاق تلك الابتهاالات، اقتحم الحفل شماس مسيحي يدعى رومانوس، وأعلن أن تلك المراسم الوثنية فاسدة، وعلى الفور تم القبض على هذا الشماس والحكم عليه بالإعدام، إلا أن دقلديانوس لم يكتف بهذا الحكم وأمر بقطع لسان هذا الإنسان، وأن يحكم عليه بالسجن مع العمل الشاق لمدة عام قبل أن يعدم. بعد قليل من تلك الحادثة، قام كلا الإمبراطورين دقلديانوس وجاليريوس بزيارة عرافي الإله أبوللو في معبد ديديام بالقرب من ميليتوس على ساحل آسيا الوسطى، وعلى أرضية المعبد التي تقع على كهف أرض واسع، فإنهم طرحوا أسئلتهم على عرافة المعبد التي كانت تتمتع بشهرة تقترب من شهرة عرافي معبد دلفي.

وبينما كان الرجلان ينظران إلى هوة عميقة في أرضية الكهف قامت الكاهنة بالرد على الأسئلة عن طريق همهمة غير مفهومة، ووفقًا لقسطنطين الذي كان في ذلك الوقت ضابطًا شابًا من مرافقي الإمبراطور دقلديانوس، فإن تلك الهمهمة بدت كما لو كان الإله نفسه يتحدث من باطن الأرض، وقام الكهنة المتمرسون بتفسير تلك الهمهمة بأن الإله أبوللو لا يستطيع التواصل مع البشر بعد الآن،

ولا يمكنه إرسال وحيه من خلال العرافة لأن هناك من على الأرض من يعوق تواصل الإله أبوللو مع الجنس البشري^[1]. ويمنعه من فعل الخير على الأرض! كانت تلك العبارة لها تفسير واحد لدى الأباطرة، وفي الثالث والعشرين من فبراير عام 303، وخلال احتفال روماني تقليدي يدعى ترميلا قام الإمبراطور دقلديانوس بإصدار مرسوم يقضى بتحريم الديانة المسيحية خلال جميع أرجاء الإمبراطورية، وأصدر أوامره بتخريب الكنائس، وتم الطلب من جميع مسؤولي الكنائس تسليم كتبهم المقدسة وإحراقها، وتمت مصادرة جميع ممتلكات الكنائس وأدوات الطقوس الدينية، وأودعت في الخزائن الإمبراطورية، وتم حرمان المسيحيين الذين رفضوا الانصياع لتلك الأوامر من كافة حقوقهم، وخاصة الامتياز الذي كان يتمتع به المسيحيون المنتمين للطبقات العليا من الحصانة ضد التعذيب، ولم يعد بالإمكان تحرير العبيد المسيحيين، وحتى أولئك الذين حرروا تمت إعادتهم إلى العبودية مرة أخرى، ونص المرسوم الإمبراطوري على أن أحداً لا يستطيع اللجوء إلى التقاضي أمام السلطات ما لم يقيم أولاً بممارسة طقوس التضحية للآلهة الرومان، وبالتالي فإن المسيحيين أصبحوا عاجزين عن الدفاع على أنفسهم ضد أي أذى يصيب أشخاصهم أو حماية أنفسهم من الاستيلاء على ممتلكاتهم. بالتأكيد كانت تلك الإجراءات عنيفة، ولكن حتى هذه اللحظة فإن دقلديانوس لم يأمر بالاعتقال الجماعي، أو أي إعدام للمسيحيين، كل

1- The incident is described in Henry Chadwick, *The Early Church*, rev. ed. (London: Penguin Books, 1993), 121; Frend, *Rise of Christianity*, 457; Fox, *Pagans and Christians*, 595; and elsewhere.

ما أرادته في تلك المرحلة هو إفقار الكنيسة وجعلها منقسمة على نفسها، وإرهاب أعضائها البارزين المنتمين للطبقات العليا، ولكن مع زيادة زخم الحملة فإن العنف أصبح أمرًا حتميًا، خاصة عندما بدأ المسيحيون في مقاومة مضطهديهم. وفي العاصمة الإمبراطورية نيقوميديا قام الموظفون بتكسير أبواب أحد الكنائس وإحراق الأنجيل الموجودة بها، ثم استدعاء الجنود بعد ذلك لهدم الكنيسة، وفي المقابل قام بعض المسيحيين بردود فعل مضادة، فقام مسيحي من عائلة مرموقة يدعى يوتيس بتمزيق نسخة من المرسوم الإمبراطوري المعلق على أسوار المدينة، وعلق بشكل ساخر على عبارة "مزيد من الانتصارات العظيمة على القوط والسارمتين"، وعلى الفور تم إلقاء القبض عليه بتهمة الخيانة العظمى، وتعرض للتعذيب ثم الحرق حيًّا^[1].

ليس بعيدًا من تلك الأحداث، اندلع حريق ضخم غامض في القصر الإمبراطوري، وعلى الرغم من أن سبب الحريق لم يكن معروفًا على وجه الدقة إلا أن جاليريوس وجه إصبع الاتهام إلى بعض حاشية القصر ومن ضمنهم اثنان من الخصيان ذوى النفوذ في القصر، والذين تصادف أنهم أيضًا مسيحيون، وعلى الفور تم إصدار الأوامر إلى كافة الحاشية في القصر بالقيام بطقوس التضحية للآلهة الرومان، وكان الإعدام هو مصير من يرفض الامتثال إلى تلك الأوامر، وإذا نظرنا إلى ما قاله الأسقف يوسابيوس القيساري، وهو من المؤرخين الرئيسيين لهذا العصر، واصفًا مثل هذا العقاب:

” في مدينة نيقوميديا فإن الحكام المسؤولين قاموا باستدعاء أحد

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 22.

الرجال في مكان عام، وأمره بأن يقوم بالتضحية للآلهة، وعندما رفض الانصياع لهذا الأمر جرد من ملابسه، ومزقت السياط جسمه العاري، وعلى الرغم من هذا العذاب إلا أنه ظل متمسكا بأرائه، فما كان منهم إلا أن قاموا بخلط الملح والخل وصبوه على الأجزاء الممزقة والمهترئة من لحمه حيث كانت العظام بارزة بالفعل، وعندما قابل هذا العذاب بالازدراء، فإنهم أشعلوا النيران فيما بقى من جسده الممزق الذي بدا وكأنه قطعة من اللحم المعد للطعام، ولكنهم أشعلوا النيران بشكل تدريجي وليس مرة واحدة تحسبا لأن يتوب ويتم تحريره، هؤلاء الذين كانوا يتولون تعذيبه كانت لديهم أوامر بأن لا يتم إنزاله من على المحرقة إلا بعد أن يقر بإطاعته الأوامر، ولكنه بثبات وإصرار ظل على تصميميه وتمسكه بمبادئه، ومن وسط اللهب والعذاب لفظ أنفاسه الأخيرة منتصرا، تلك كانت شهادة أحد الموظفين الإمبراطوريين، شهادة جديرة باسم الشخص الذي تحمل كل هذا العذاب، ... إنه بطرس^[1].

أغلب عامة المسيحيين لم يواجهوا نفس المصير الذي لاقاه بطرس، فالاضطهاد لم يكن موجهاً ضدهم بعد، إذ في ذلك الوقت كان الاختبار موجهاً بشكل رئيس لرجال الدين المسيحيين الذين كانوا يواجهون خطر الموت إذا ما رفضوا الانصياع للأوامر، وتسليم الكتب المقدسة وأدوات الطقوس والشعائر المسيحية إلى السلطات عند طلبها. وكما يوضح يوسابيوس في كتابه، فإنه لم تكن هناك عقوبة محددة للعصيان وعدم الانصياع إلى الأوامر، فالمسيحي المشاغب كان يمكن أن يعاقب بالعمل في المناجم في فلسطين، أو يمكن الحكم عليه بنزع

1- Eusebius, History of the Church, 261—262.

إحدى عينيه، أو قطع عضلات ساق واحدة، (لاحقًا فإن علامات البتر تلك ستصبح أوسمة للتمييز)، كانت أنماط التعذيب متفاوتة بشكل كبير، وحتى عقوبة الإعدام كانت تقع تحت سلطة المسؤولين المحليين، وتعددت أشكال الإعدام والشهادة نفسها من الشنق وقطع الرأس والصلب والحرق والسلخ على قيد الحياة والخنق أو بأي طريقة أخرى قد تراها السلطات ملائمة للرد على أي عصيان أو حتى باعتبارها دروسًا تحذيرية للآخرين.

كانت العقوبات قاسية، ولكنها ليست تعسفية، وكان على ما يبدو الغرض منها الاستفادة من العقلية الجديدة التي كانت تحكم قيادات المسيحية، والتي كانت مهياة بشكل أكبر للتفاهم والتوصل إلى تسويات أكثر من قبل، فلم يكن رجال الدين الآن كما في السابق مجرد رجال ثملين بحب الله ومتوقعين النهاية الوشيكة للعالم ومستعدين بل متلهفين للحاق بسيدهم على الصليب. ولكن الوضع تغير الآن، فعلى الرغم من استمرار وجود البعض من رجال الدين ينطبق عليه هذا الوصف ممن رفضوا التعاون تمامًا مع السلطات الرومانية ومنهم أنثيميوس أسقف نيقوميديا الذي تم قطع رأسه في عام 303 م، ونفس السلوك تكرر من بعض رجال الكنيسة في مصر وشمال أفريقيا. إلا أن أغلبية قادة الكنيسة والمسيحيين الآن كانوا أكثر انفتاحًا وتفهمًا واستعدادًا للفوز بالحياة الآخرة (دون الحاجة إلى الشهادة في الحياة الدنيا)، وكانوا مدركين أن الكنيسة إذا استطاعت أن تصمد أمام حملة الاضطهاد تلك كما فعلت في الماضي (عن طريق الوصول إلى تسويات أو تقديم بعض التنازلات) فإن فرصها كبديل للوثنية ستزداد وتقوى بشكل كبير.

وعلى إثر هذا الموقف قام عدد كبير من الأساقفة والشماسين بتسليم

الأناجيل وكؤوس القربان المقدس التي يملكونها إلى السلطات عند طلبها. لاحقًا؛ سوف يطلق على الكثير منهم وصف الخونة لتسليمهم الأدوات المقدسة إلى السلطات، فكلمة خائن هي ترجمة لكلمة تسليم باللغة اللاتينية، وسوف تنقسم الكنيسة في المستقبل بشكل خطير حول تلك المسألة، ومن ناحية أخرى قام بعض رجال الدين باستغلال جهل بعض الموظفين الرومان أو عدم اهتمامهم وقاموا بتسليم بعض الكتب مثل كتب المهرطقين، أو حتى بعض الكتب الطبية إلى السلطات باعتبارها الأناجيل والكتب المقدسة. وبنفس الطريقة فعندما صدرت الأوامر إلى رجال الدين وعامة المسيحيين بتنفيذ طقوس التضحية للآلهة الوثنيين فإن القليلين فقط هم الذين رفضوا تنفيذ الأوامر، وعوقبوا على هذا الرفض بوحشية، ولكن هؤلاء كانوا قلة حيث أن أغلب المسيحيين فضلوا التحايل على الأوامر عن طريق إقناع شخص بالقيام بطقوس التضحية لهم، أو إيجاد العذر لأنفسهم عن طريق مراعاة المسؤولين المتعاطفين.

كانت المحاولات المستمرة من البيروقراطيين والمسؤولين الرومان للعثور على حلول أخرى غير العنف للتعامل مع المسيحيين عند انتهاكهم للأوامر الإمبراطورية يدل على أن سياسة الاضطهاد الكبير لم تكن تهدف أبدًا للتخلص من المسيحيين بشكل جماعي. وأحد الأسباب التي جعلت سياسة الاضطهاد غير فعالة في قمع المسيحية، أن بعض المسؤولين الرومان قاموا فقط بتنفيذ الأوامر بشكل حرفي، في حين أن البعض الآخر وكما هي الحال في أغلب أسلوب الإدارة الرومانية فإنهم قاموا بتأويل تلك الأوامر بشكل رمزي، أو سمحوا لأنفسهم بأخذ الرشاوى من أجل عدم تنفيذ الأوامر أو تنفيذها بشكل مغاير، أو ببساطة تجاهلوا تلك الأوامر. ربما كانت عقول القدماء دموية، ولكنهم

لم يكونوا راغبين في ارتكاب إبادة جماعية، ولهذا فإنهم لم يتبعوا سياسية منهجية للتخلص من المسيحيين وقتلهم، فحتى لو كان الإمبراطور قادرًا على قتل عشرات الآلاف من المسيحيين فإن هذا الإجراء من شأنه إضعاف وزيادة انقسام الإمبراطورية بشكل كبير (وهو الأمر الذي لم تكن تتحمله الإمبراطورية في ذلك الوقت)، ولحسن الحظ، فإن الإمبراطور دقلديانوس وجد بديلاً أفضل لإضعاف المسيحية، وعن طريق إفساد تنظيمها وإضعاف معنوياتها، وسلبها الزخم الذي تتمتع به، وهذا الهدف يتحقق فقط عند مهاجمة الكنيسة من القمة.

وفي عام 303، أصدر الإمبراطور مرسومًا ثانيًا ينص على ضرورة القبض على رجال الدين المسيحي وإجبارهم على القيام بطقوس التضحية لأله الرومان، وكان مصير أغلب هؤلاء الذين رفضوا الانصياع للأوامر هو الزج بهم في غياهب السجون بدلاً من تنفيذ عقوبة الإعدام بحقهم، وفي ضوء هذه السياسة الجديدة فإنه سرعان ما اكتظت السجون بالمسجونين من كبار رجال الكنيسة، وأصبحت لا تستوعب المجرمين العاديين مما دفع السلطات إلى إطلاق سراح المساجين المسيحيين بحجج مختلفة، وقام شهود العيان في تلك الفترة بذكر أنه في أحوال كثيرة قام مسؤولو السجن بإطلاق سراح المسيحيين بدعوى أنهم تنصلوا من التهم المنسوبة إليهم وعادوا إلى رشدهم وتبرأوا من أفكارهم في حين أنهم لم يفعلوا هذا، أو ادعوا أن هؤلاء المساجين المفرج عنهم قاموا بشكل تطوعي بمراسم التضحية في حين أنهم أرغموا بالقوة فقط على نثر بعض البخور على مذبح الآلهة الوثنيين. وفي غضون ذلك فإن الكثير من رجال الدين المسيحيين ومنهم أسقف الإسكندرية بطرس لجأوا إلى الهروب والاختفاء. من وجهة نظر رجال الكنيسة كان هذا السلوك مبرراً ومنطقيًا للغاية ووسيلة دفاع مشروعة ضد الاضطهاد، ففي الحرب فإن

قائدات الجيش لا يتطوعون للوقوع في الأسر من قبل العدو، ومن الناحية الأخرى مال بعض الأساقفة الآخرين إلى التمسك بالتقاليد الأولى الاستشهادية لمقاومة للسلطات الرومانية وتحملوا المخاطرة، واعتبروا أن ما يقوم به الأساقفة المشتغلون بالسياسية من تقديم بعض التنازلات للتوافق مع السلطات الرومانية هو للعديد من الأسباب هجر فاحش للواجب. فعلى سبيل المثال، فإن هروب الأسقف بطرس من الإسكندرية أثار بشدة غضب أسقف مدينة ليكوبولس المصرية^[1]، والذي يدعى ميلتيوس متسائلاً بغضب بعد هروب أسقف الإسكندرية عنن ذا الذي يمكن له أن يهتم بشعب أكبر مجتمع مسيحي في مصر؟ وكيف يمكن تلبية الاحتياجات الروحية لشعب الكنيسة دون أسقف مقيم؟ ناهيك عن ذكر المجتمعات المسيحية في جنوب مصر وليبيا التي كانت تحت إشراف أسقف الإسكندرية؟ وكإجابة عملية عن تلك الأسئلة فإن ميلتيوس أتى إلى مدينة الإسكندرية بنفسه، وأخذ يباشر تقديم الخدمات الكنسية للمسيحيين بشكل سرى، وتولى القيام بمهام وواجبات أسقف مدينة الإسكندرية الكبرى، وتلك المهام كانت تشمل تعميم المتحولين الجدد إلى المسيحية، وترسيم القساوسة الجدد، وحتى توجيه رجال الدين ذوي المرتبة الأصغر، وربما يكون أحد القساوسة الجدد الذين قام ميلتيوس بترسيمه هو آريوس نفسه الذي سيلعب الدور المحوري في هذا الكتاب.

وفي غضون ذلك، فإن الأسقف بطرس شجب بشدة من منفاه الاختياري قيام ميلتيوس أسقف ليكوبولس (أسيوط) بمباشرة مهام منصب أسقف الإسكندرية، وصفه الأخير بأنه مغتصب للسلطة،

1- ليكوبولس الاسم القديم لمدينة أسيوط الحالية في صعيد مصر - (المترجم).

وأصدر إليه الأوامر لكي يتوقف عن ممارسه مهام منصب الأسقف العام للإسكندرية، ووجه التعليمات إلى رجال الدين المصريين والليبيين إلى التوقف عن إطاعة أوامره، وبشكل واضح فإن ميلتيوس تجاهل تمامًا القرارات التي أصدرها بطرس واستمر في ممارسة عمله كأسقف عام لمدينة الإسكندرية، مستخدمًا اللقب الممنوح لأسقف أكبر مدن الإمبراطورية وهو بابا الإسكندرية.

وقبل حلول عيد الفصح لعام 306، عاد بطرس إلى مدينة الإسكندرية، وقام بحشد أتباعه وعقد اجتماع كنسي أصدر فيه قرار الحرمان على هذا الأسقف المارق (ميلتيوس) وذلك لتجاوزه السلطة الممنوحة له، وفي نفس الوقت تقريبًا قامت السلطات الرومانية باعتقال ميلتيوس والحكم عليه بالأشغال الشاقة في مناجم فلسطين، وهناك قام بممارسة مهام أسقف السجن بشجاعة وتميز، وبعد ذلك التاريخ بعدة سنوات في عام 311 م عاد إلى مصر ليجد أن الأسقف بطرس تم اعتقاله هو الآخر وقطع رأسه بواسطة الإمبراطور المعادي للمسيحية جاليريوس في آخر موجة من الإرهاب قبل أن يأتي عصر الاضطهاد إلى نهايته التي أصبحت وشيكة.

استشهاد أسقف الإسكندرية بطرس ربما أنقذ الكنائس المصرية وعلى الأخص كنيسة الإسكندرية من أن تلقى نفس المصير المأسوي الذي شهدته كنائس شمال إفريقيا من صراعات وحشية حول الأساقفة الذين فضلوا عدم المواجهة مع السلطات الرومانية. ففي إقليم افريقية ونوميديا Numidia^[1]، قام أسقف متعصب سريع الغضب في تلك المنطقة يدعى دوناتوس Donatus (كان قد تعرض، وصمد، للتعذيب

1- مملكة نوميديا التي تشكل حاليا جزءا من الجزائر وتونس (المترجم)

والسجن من قبل الرومان) بشجب ما قام به بطرس في الإسكندرية بشدة، وخاصة قيامه بتسليم بعض الممتلكات المقدسة الموجودة في حوزة الكنيسة إلى السلطات والقيام ببعض الطقوس الوثنية (استجابة للسلطات الرومانية) أو قيامه على الأقل ببعض التسويات والترتيبات معهم. ومع تمتع دوناتوس بالشعبية وبتأسيس شبكة واسعة من أتباعه الذين أخذوا يعرفون باسم الدوناتيين فإنه أخذ ينادى بعدم السماح للأساقفة والكهنة الخائنين (من وجهة نظره) بالعودة إلى مناصبهم، وفي خطوة تصعيديه فقد اعتبر أن هؤلاء الذين عادوا إلى أماكنهم غير مخولين بتأدية واجبات وظائفهم.

ووفقا لأفكار الدوناتيين فإن السلطات المقدسة لرجال الدين، والتي تشمل سلطة منح الخلاص، وتناول القربان المقدس، وترسيم الكهنة الآخرين هي أفعال لا يمكن لرجال الدين الفاسدين القيام بها. فبوصفهم أدوات فضل ورحمة من الله، وأيضًا بوصفهم القادة الشرعيين للمجتمع فلا يمكن أن يصبحوا أبدًا خطاة آثمين، وبالمثل فإن عامة المسيحيين الذين ارتدّوا على أدبارهم وتخلوا عن بعض معتقداتهم خلال عصر الاضطهاد لا يمكن السماح لهم بالعودة إلى حظيرة المسيحية إلا في حالة قيامهم بإبداء ندمهم، وقيامهم بأعمال توبة (تكفيرية) غير عادية. هذا الموقف المتعصب والقاسي من الدوناتيين قوبل بالرفض من أغلب رجال الكنيسة وعلماء الدين، حيث كان يوجد قطاع كبير من المسيحيين سواء من رجال الدين أو العامة الذين اضطروا إلى تقديم بعض التنازلات من أجل إنقاذ أنفسهم بل قد يجادل الكثير منهم قائلين، "ومن أجل إنقاذ الكنيسة نفسها أيضًا"، وقد قامت الكثير من المجالس الكنسية بالتعامل مع هذه القضية الشائكة، وكان الرأي الغالب لرجال الدين المسيحيين

هو الرأي الذي عرضه ودافع عنه الأسقف بطرس نفسه بعد فترة قصيرة من عودته إلى الإسكندرية في 306 م (وقبل استشهاده)^[1]. كان جوهر رسالة الأسقف بطرس هو المسامحة والنسيان، بل واعتبار أن المسيحيين الذين سعوا وتطوعوا لكي يلقوا العقاب من قبل السلطات الرومانية عبر قيامهم بأعمال استفزازية ومحرضة ضد السلطات لا يستحقون في الواقع الإطراء على أفعالهم تلك. بينما الذين رضوا بأن يواجهوا العقاب الذي فرض عليهم دون السعي إليه ودون اختيارهم، ورفضوا تقديم تنازلات للسلطات أو خيانة معتقداتهم كانوا أولئك حقًا هم الذين يستحقون التبجيل العظيم، ولكن مثل هذه البطولة غير مطلوبة وليست متوقعة من جميع الناس، وعلى هذا فإن المسيحيين الذين قاموا بتسليم كتبهم المقدسة إلى السلطات الرومانية، أو رشوة السلطات من أجل تدبير أحوالهم أو حتى الفرار لكي يتجنبوا الاعتقال (كما فعل بطرس نفسه) يجب أن يلقوا الغفران على أفعالهم، وبالنسبة للأخطاء الأكبر من تلك أو بالنسبة للهفوات من قبيل المشاركة في المراسم والطقوس الوثنية أو إعطاء معلومات للسلطات تحت تأثير الضغط فإنها كانت آثامًا تستوجب الندم ويمكن التكفير عنها، ولكن حتى في أشد تلك الآثام خطورة فإن ثلاثة إلى أربعة أعوام من الندم والتوبة كانوا كافين للتكفير عنها، وبالتالي فإنه فعليًا لا يجوز إقصاء أو استبعاد أي شخص من المجتمع المسيحي أو الوقوف ضد دخوله في شركة مع إخوته من المسيحيين المؤمنين. كانت تلك المعايير هي فعلا القواعد التي طبقت على رجال الدين لإعادة قبولهم مرة أخرى في مناصبهم الكهنوتية،

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 201; Frend, Rise of Christianity, 493.

وباستثناء النماذج الصارخة للردة، فإن جميع الكهنة، والشماسين (المعمدين)، والأساقفة تمت التجاوز عن أخطائهم، وإعادتهم مرة أخرى إلى مناصبهم السابقة بعد قيامهم بعمل الكفارة اللازمة.

المبدأ الذي حاول بطرس إرساءه هو "أن الحق والسلطة المخولة إليك بصفتك رجل دين، لا تعتمد على قداسة الكاهن الشخصية، ولكن تعتمد على قداسة المنصب" ومن هذا المنظور فإن الاضطهاد والقمع كانت ظروفًا غير طبيعية، وكان لا بد من النظر قدمًا إلى الوقت الذي ستصبح فيه الكنيسة مستقرة، بل ومؤسسة بيروقراطية إدارية ضخمة^[1]، وكانت المشكلة أنه لا يمكن فصل الأخلاق الشخصية تمامًا عن الكفاءة لتأدية مهام الوظيفة الكهنوتية. ولكن الأمر كان مختلفًا مع الدوناتيين، فلقد أصروا على أن فساد هؤلاء الذين خانوا قضية المسيحية من وجهه نظرهم، وأن خطأهم كان من الجسامة إلى الدرجة التي لا يمكن التسامح فيها، بل وعلى حد تعبيرهم "كانت رائحة عفنههم تزكم أنف الله"، ومع اعتقادهم أن مثل رجال الدين هؤلاء (الذين قدموا تنازلات للسلطات الرومانية) فقدوا كل مصداقيتهم الأخلاقية والروحية، فإنهم أصروا على أن الكهنة والأساقفة الوحيدة المعترف بهم هم الذين لم يقوموا بأي تنازلات للسلطات الرومانية خلال فترة الاضطهاد، وهم الوحيدون الذين كانت لديهم سلطة حقيقة، وقيامهم لاحقًا باستبدال كنائس كاثوليكية (عالمية) بالكنائس التابعين لها، فإنهم بذلك يكونون قد

1- The great modern explanation of the distinction between "charismatic" and "rational-legal" authority was made by the German sociologist Max Weber. See Weber's Theory of Social and Economic Organizations (New York: Free Press, 1964).

استهلوا سبباً جديداً قابلاً للانفجار للصراع في المجتمع المسيحي، ووضعو أول لبنات مسألة الانقسام في الكنيسة المسيحية.

وبعد مرور عقد من الزمان على انتهاء الاضطهاد، كان الصراع بين الدوناتيين والتيار الرئيسي للكنيسة في شمال إفريقيا لا يزال على أشده، بل إن القديس أوغسطين نفسه كان من المؤيدين لضرورة استخدام القمع العنيف مع الدوناتيين، معتبراً أن المذابح تكون مبررة إذا كانت ترتكب في سبيل وحدة المسيحية.

وهكذا فإن عدداً من الفرق والمجموعات المسلحة تم تشكيلها من أجل الدفاع عن نقاء المسيحية، ومن ضمنهما جماعة السركيومسليونيون Circumcellions، والذين قاموا بالعديد من أعمال العنف لإرهاب خصومهم، وفي حين كان رد فعل البعض الآخر هو اللجوء إلى الانتحار الجماعي بدلاً من الرضوخ للقوى التي عرفوها باعتبارها المسيح الدجال (عدو المسيح).

ولم تنته تلك الحرب الأهلية الفعلية بين المسيحيين في شمال أفريقيا إلا مع غزو الواندال لشمال إفريقيا، وقمعهم لجميع الكنائس التابعة للدوناتيين والأرثوذكس على السواء. وباستشهاد الأسقف بطرس في الإسكندرية، فإن الكنيسة المصرية كانت قادرة على تجنب انقسام أو حرب أهلية مماثلة لتلك التي شاهدها الكنائس في شمال أفريقيا، وبذلك فإن تضحية بطرس وموته أدى بطريق غير مباشر إلى عدم اتساع الهوة بين أتباع مذهب التسامح مع من قاموا بالتنازلات والتسويات وبين الصارمين في التعامل مع السلطات الرومانية، وعلى الأرجح فإن الكنيسة المصرية كانت أكثر مدنية وتطوراً فكرياً من أن تنجرف إلى مثل هذا العنف الجماعي لحركة أصولية (متطرفة) مثل تلك التي قادها دوناتوس في شمال أفريقيا، وحتى مع وجود

صراعات كنسية بصفة مستمرة في مصر إلا أنها كانت أقل ضراوة من مثيلتها في شمال إفريقيا، وعقب عودة ميلتيوس مرة أخرى إلى مصر (من منفاه في فلسطين) فإنه وجد نفسه محاصرًا بعدد غير قليل من أتباعه المعجبين به والممتنين له، والذين كان من بينهم عدد من رجال الكهنوت الذين قام هو بنفسه بسيامتهم أو تعيينهم. كان الكثيرون من أتباع ميلتيوس يكونون عداء شديدًا لأشخاص الطبقة الغنية والقوية من قادة كنيسة الإسكندرية، وكانوا مصممين على الاحتفاظ بالهوية المنظمة التي أعطوها للكنيسة في الفترة التي تلت عصر الاضطهاد.

وبينما حاول أتباع ميلتيوس تفادي حدوث انشقاق مماثل لذلك الذي أحدثه الدوناتيون في شمال إفريقيا، وتجنب أسلوب المواجهة والهجوم المباشر على الكنيسة، إلا أنهم مع ذلك كافحوا لعقود من أجل عودة ميلتيوس إلى منصبه القديم (كأسقف عام للإسكندرية)، وبالتالي إضفاء المشروعية إلى الأفعال التي قام بها في السابق وخاصة قيامه بترسيم القساوسة، وفي الوقت نفسه حاولوا تقويض سلطة قيادات الكنيسة الذين اعتبروهم طويلي اليد وفاسدين. وفي مجمع نيقية في عام 325 م، فإن الإمبراطور والأساقفة كانوا ما يزالوا يحاولون الوصول إلى تسوية بين الميليتين وبين سلطات الكنيسة المصرية الرسمية. كانت تلك الصراعات بين المسيحيين بعضهم والبعض صادمة، وأدت إلى إثارة بعض التساؤلات التي سوف تظل ملازمة للمسيحية لعدة قرون قادمة.

كان السؤال الرئيسي الذي يدور في الأذهان، هل أعطت حياة المسيح نموذجًا حقيقيًا يمكن للبشر الاقتداء به وأتباعه؟ أم أن هذه الحياة المثالية يمكن بلوغها فقط بواسطة عدد قليل من القديسين

والشهداء؟ هل تستطيع كنيسة واحدة منظمة وموحدة أن تستوعب كافة المبادئ والأفكار المسيحية؟ أم أن المنظمات الدنيوية والحماسة الدينية أمر يصعب استيعابه في بوتقة واحدة؟ وما هي المعايير الأخلاقية والروحية والعقائدية التي يجب توافرها في قيادات الكنيسة؟ وما هو الحد الذي يجب ألا يتخطاه رجال الكهنوت؟ وما هي الأفعال المشينة وغير الأخلاقية التي يجب عند ارتكاب أي منها عزل رجال الكهنوت؟

مرة أخرى تبنت الكنيسة على وجه العموم وجهة نظر الأسقف بطرس المتسامحة والواقعية تجاه المستوى الأخلاقي المطلوب في رجال الكنيسة، فليس من المفروض أن يكون كل رجال الكهنوت المسيحيين قديسين، إذ أن القدسية تعود إلى المنصب وليس إلى الشخص. فمنصب القسيس أو الأسقف كان يتمتع بسلطات وبقدسية بغض النظر عن شخصية شاغل هذا المنصب.

لكن سيتضح أن تطبيق تلك المبادئ على حالات معينة سوف يكون أكثر صعوبة ومدعاة للانقسام بدرجة تفوق توقع أي شخص. وبالعودة إلى عام 303، فإننا سنجد أن الإمبراطور دقلديانوس، وقد غلبه الشعور بالرضا بسبب النجاح والتقدم الذي تحرزته الحملة الرومانية لقمع المسيحيين، فإنه عاد إلى روما للمرة الأولى للاحتفال بالذكرى العشرين لاعتلائه العرش، تاركاً مهمة قمع المسيحيين في الشرق إلى جاليريوس الذي أخذ يباشر هذا المهمة بحماس وشغف حقيقيين، بينما أوكلت تلك المهمة في الغرب إلى أغسطس الغرب الحالي ماكسيميان Maximian الذي كان هو الآخر متعصباً ضد المسيحية، وفي عام التالي لم يعد الاضطهاد مقصوراً فقط على رجال الدين بل أصبح عاماً يستهدف كل المسيحيين على السواء، وكان على

أي مسيحي من الآن فصاعدًا إما أن يقدم القرايين (للآلهة الرومان) أو يخاطر بتعرضه للعقاب من السلطات الرومانية .

وتابع ماكسيميان قضيته، وبعد عامين فإن الاضطهاد في النهاية لم يحقق أهدافه، ربما لعدم الكفاءة الإدارية لكثير من السلطات الرومانية، حيث استطاع أغلب المسيحيين أن يجدوا طريقًا وسطًا بين الاستشهاد وبين الردة عن المسيحية، وبدأت وتيرة الاضطهاد في التباطؤ لبرهة من الزمان ثم تسارعت مرة أخرى خلال عامي 310، 311 قبل أن تأتي إلى نهايتها بطريقة درامية غير متوقعة.

كانت الحلقة الأضعف في هيئة الحكم الإمبراطوري الرباعي (النظام الذي ابتكره دقلديانوس) من ناحية قمع المسيحية هو قيصر الغرب، الذي كان ضابطًا سابقًا في الجيش من مدينة نسيوس الحدودية على نهر الدانوب، والذي ترقى إلى منصب حاكم إقليم دالماشيا قبل أن يصبح الإنسان التالي لماكسيميان في سلم قيادة الغرب. كان اسمه قسطنطيوس، وكانت الأراضي التي يحكمها تشمل المنطقة التي تمتد الآن عبر دول: فرنسا، وأسبانيا، وبريطانيا، وألمانيا إلى حدود نهر الراين تقريبًا، كان قسطنطيوس يتمتع بكفاءة إدارية عالية علاوة على كونه قائدًا عسكريًا جديرًا، وعلى الرغم من تلك المواهب فإنه لو كان بمقدور الإمبراطور دقلديانوس أن يعرف الغيب ما كان له أن يعينه أبدًا في منصب قيصر الغرب، فما لم يكن يعلمه دقلديانوس أنه سيكون مقدرًا لابن هذا القائد أن يصبح أول إمبراطور مسيحي لروما.

كان قسطنطيوس متزوجًا من امرأة تدعى هيلانة، ولدت له ولدًا سمى قسطنطين، ولكنه بعد ذلك طلقها من أجل الزواج بتيودورا ابنة ماكسيميان، فقد كانت العادة في نظام الحكم الرباعي أن يقوم كل أغسطس بتبني القيصر، وأن يزوجه ابنته متى كان ذلك مناسبًا. وهو

ما حدث وأنجب قسطنطيوس وتيودورًا ستة أطفال، من ضمنهم ابنة تدعى أنستاسيا، وهو الاسم الذي كان يعنى باللغة اليونانية البعث، وعلى الرغم من أن ميول قسطنطيوس الدينية كانت غير معروفة بوضوح، إلا أن تسمية ابنته بهذا الاسم كان يحمل بعض الدلالات حيث جرت العادة على قيام الأسر المسيحية بتسمية بناتهم باسم أنستاسيا. وأيا ما كانت هي حقيقة معتقدات قسطنطيوس الدينية فإن الأمر المؤكد هو أنه أحجم عن المشاركة في حملة الاضطهاد التي مارسها رفاقه في مجلس الحكم الرباعي، وكان رجال الدين المسيحي في الأقاليم الغربية التي يحكمها يتمتعون بأمان لا يتمتع بمثله نظراؤهم في المناطق الأخرى من الإمبراطورية، وحتى عندما قرر كل من جاليريوس وماكسيميان استهداف عامة المسيحيين من أجل المشاركة في الطقوس الوثنية، فإن قسطنطيوس رفض الامتثال لتلك الأوامر، وهو ما اعتبره جاليريوس من وجه نظرة عدم ولاء كاف، وهو الأمر الذي أكسب قسطنطيوس وابنه عداوة ضارية مع جاليريوس. كان واضحًا أن قسطنطين الشاب يتم إعداده لكي يتبوأ منصبًا في مجمع الأباطرة. فبينما كان والده يقود الحملات العسكرية في الغرب، فإن قسطنطين قضى الأعوام الأولى من القرن الرابع الميلادي في بلاط دقلديانوس، مرتحلًا بجانب اليد اليمنى للسياسي الكبير، وهو ما أتاح له الفرصة للمشاهدة والتعلم من هذا الإنسان العظيم. وقام بمصاحبته عند مغادرته روما بعد الاستقبال الفاتر الذي حظى به من قبل طبقة الأرستقراطيين الرومان في المدينة، وظل معه خلال رحلته أولاً إلى رافانا ثم بعد ذلك إلى الشرق ثم إلى الشمال من أجل تفقد الحدود على طول الدانوب، وفي نقطة محددة في الطريق إلى رافانا أدرك قسطنطين أن مرضًا ما قد ألم بالإنسان العظيم وأن صحته

ليست آخذه في التحسن، بل أخذت صحة الإمبراطور دقلديانوس في التدهور وبدأ في فقدان الوزن، وزادت الرحلة الصعبة من سوء حالته أثناء عودته إلى العاصمة نيقوميديا.

عقب عودة الإمبراطور إلى العاصمة بدا جليًا لجميع أشخاص الحاشية أن وضع الإمبراطور شديد الخطورة، وفي نوفمبر عام 304 انهار أثناء تأدية بعض المراسم الرسمية، وظن الجميع أن موت الإمبراطور أصبح وشيكًا. ومع أن الإمبراطور بدأ في التعافي من مرضه إلا أنه في بداية ربيع عام 305 كان ضعيفًا وهزيلًا، ونتيجة للضغط من جانب جاليريوس قرر التنازل عن العرش.

وفي مايو عام 306، دعا دقلديانوس إلى انعقاد جمعية عامة كبيرة تضم القادة والجنود وممثلين لجميع الفيالق الرومانية في ميادين القتال بالخارج في مدينة نيقوميديا في نفس المكان الذي قبل فيه لأول مرة عرش الإمبراطورية، وأعلن أنه يتنازل عن العرش بسبب صحته المتدهورة، وبعد ذلك أعلن عن الأسماء التي يرشحها، وكانت هي في الواقع الأسماء التي رشحها جاليريوس للمناصب الخالية في مجمع الأباطرة الجديد وأصر عليها. ومن البديهي أن جاليريوس سيصبح هو أغسطس الشرق، وسوف يحل قسطنطيوس في منصب أغسطس الغرب محل ماكسيميان الذي وافق مكرها على التنازل عن المنصب. لا مفاجآت حتى الآن، ولكن على عكس المتوقع في مناصب القياصرة، فإنه بدلا من تعيين قسطنطين (ابن قسطنطيوس) ومكسينتيوس (ابن ماكسيميان) اللذين توقع الجميع تعيينهما، أعلن دقلديانوس تعيين اثنين من أقرباء جاليريوس في منصب قيصري الغرب والشرق.

مصدومًا بشكل ملحوظ غادر قسطنطين القاعة على الفور متوجهًا إلى بريطانيا للانضمام إلى أبيه، بينما ذهب دقلديانوس إلى التقاعد

في منزله على الساحل الديلماتي. مع وجود قسطنطيوس المسن في الغرب فإن جاليريوس كان على قناعة أنه قريباً سيكون السيد الوحيد للعالم الروماني، وعندما تحققت نبوءته بموت قسطنطيوس في مدينة يورك في يوليو عام 306 م ظن أن جزءاً كبيراً من حلمه قد تحقق، وعلى الفور حاول جاليريوس تعيين أحد أتباعه من المعادين للمسيحية في المكان الشاغر في الغرب، ولكن لخيبة أمله، فإن جيش قسطنطيوس (الذي قيل بأن قائده كان من القبائل البربرية) أعلن على الفور تعيين قسطنطين ابن القائد الراحل كأغسطس جديد على الغرب. بينما وجد جاليريوس الذي جعلته سياسته المالية القاسية لا يتمتع بشعبية على نطاق واسع نفسه مجبراً على قبول قسطنطين ذي الأعوام الاثني عشر والثلاثين كإمبراطور الغرب، لكن مع إصراره على خفض رتبته من أغسطس إلى قيصر.

هذه الأحداث والتغيرات غير المتوقعة أدت إلى حدوث فترة من الفوضى العنيفة التي تخللتها فترات متقطعة من الحرب الأهلية بين سبعة على الأقل من المتنافسين على المناصب الأربعة في المجمع الإمبراطوري.

في عام 310 م، وكما لاحظ مؤرخ مسيحي، فإن الله يبدو وكأنه قرر أخيراً حسم الأمر لصالح المسيحية، فلقد سقط جاليريوس العدو التاريخي للمسيحية ونصير الاضطهاد الأكبر مريضاً بشكل خطير، على الأرجح مصاباً بسرطان الأمعاء، وفي أبريل من عام 311 عندما شعر بدنو أجله، أصدر رسالة تتضمن أوامره بإيقاف كافة أشكال الاضطهاد في الشرق، شرح في هذه الرسالة أن هدفه الوحيد من الاضطهاد كان إقناع كافة المسيحيين بالعودة إلى ديانة أسلافهم، ولكن جهوده تلك ذهبت هباء.

فبعد سنوات من الاضطهاد وبعد الإعدام والإصابة والسجن لآلاف من

المسيحيين، فإن أغلبية المسيحيين أصبحوا الآن غير مؤمنين بأي إله سواء كان من آلهة الرومان أو إله المسيحية، وهجروا تقاليد الإيمان الرومانية، وكذلك تقاليدهم هم أنفسهم، وأصبح الحس العام والرحمة يقتضيان الآن إيقاف الاضطهاد، والسماح لأتباع المسيح بالاجتماع والعبادة في سلام، وأخيراً وبشكل مثير فإن الإمبراطور المحتضر سأل المسيحيين أن يصلوا من أجل صحته، ومن أجل سلامة الدولة¹.

لا نعرف ما إذن كان المسيحيون قد استجابوا لرجاء الإمبراطور جاليريوس، وقاموا بالدعاء له أم لا، على أية حال فإنه لم يمض وقت طويل بعد قيامه بكتابة رسالته تلك إلا وقضى أجله. على ما يبدو فإن دعوات المسيحيين قد استجيب لها بشكل مذهل في العام التالي، ففي شهر أكتوبر من عام 312، قام قسطنطين بقيادة جنوده، والزحف ناحية روما لمجابهة غريمه ومنافسه الرئيس على السلطة في الجزء الغربي من الإمبراطورية ماكسينتيوس، كان قسطنطين في ذلك الوقت أحد هؤلاء الذين يمكن وصفهم بأنهم (الوثنيون التقدميون) الذين اعتقدوا في وجود إله أعلى أو ما يطلق عليه اسم الشمس المنتصرة، وفي الوقت ذاته فإنه أظهر اهتماماً واضحاً بالمسيحية، وجعل من الأسقف هوسيوس القرطبي أحد مستشاريه وصديقاً مقرباً له.

أثناء زحف قسطنطين تجاه روما فإن حدثاً سوف يغير تاريخ المسيحية ويحولها من مجرد ديانة مضطهدة إلى ديانة الدولة، وكما تقول الروايات المسيحية فإن قسطنطين وجنوده شاهدوا صليباً مشتعلًا في السماء مصحوباً بعبارة "بواسطة هذا، سوف تنتصر". في الليلة التالية، فإنه حلم بأنه رأى السيد المسيح يرسم

1- This account of Galerius's letter is from Barnes, Constantine Eusebius, 39.

له علامة الصليب ويأمره برسم شعار الصليب على دروع جنوده، وبعد استشارة هوسيوستوس القرطبي الذي أخبره بصحة هذا الحلم، فإن قسطنطين أمر جنوده بأن يستبدلوا الشعار الوثني القديم على دروعهم بشعار المسيحية، وعند وصوله وجنوده ناحية روما فإن قسطنطين عسكر خارج أسوار المدينة.

كان قسطنطين يتوقع حصارًا طويلًا للمدينة، خاصة بعد قطع الجسور على نهر التير، فأسوار مدينة روما لم يستطع جيش من قبل اختراقها. وداخل أسوار المدينة نفسها فإن العامة كانوا ثائرين ضد ماكسينتيوس الذي اشتهر بوحشيته وعدوانيته الجنسية، ولم يكن يتمتع بأي شعبية داخل المدينة، كان واضحًا أنه لن يستطيع السيطرة على المدينة من خلال الحصار الطويل المتوقع.

ولهذا فإن ماكسينتيوس في يوم 28 أكتوبر قام باتباع نصيحة أحد العرافين الذي قال له إن عدو روما سوف يموت في هذا اليوم، على الفور قرر ماكسينتيوس الخروج لملاقاة قسطنطين والزحف مع جنوده إلى خارج المدينة وعبور نهر التير من خلال بناء جسر من القوارب عند منطقة الميليفيان Milvian bridge وعند تلك النقطة قام بمهاجمة جيش قسطنطين. وقد أثبت سير القتال بأن تلك الاستراتيجية التي اتبعها ماكسينتيوس سيكون لها نتائج كارثية على جيشه، حيث أدى هجوم مضاد واحد لجيش قسطنطين إلى تشتيت جيش ماكسينتيوس، وكانت آخر مرة تم فيها رؤيته عندما اندفع ممتطيًا جواده إلى نهر التير مرتديًا بدلة حديدية كاملة.

أصبح قسطنطين الآن الحاكم (الوحيد) للغرب، وأهم من هذا أنه أعلن اعتناقه للديانة المسيحية، وكان حليفه الرئيس في الشرق هو ليكينيوس Licinus، السياسي المحنك والقائد الذي ارتبط بمصاهرة

مع قسطنطين من خلال الزواج بأخته، وعلى الرغم من أن ليكينيوس لم يكن هو نفسه مسيحيًا، لكن منافسه الرئيسي (على السلطة في الشرق) كان معروفًا عنه كراهيته الشديدة واضطهاده للمسيحيين، وارتكابه ضدهم أشد الجرائم، وعلى الأخص قتله لأسقف الإسكندرية بطرس والعالم اللاهوتي الشهير لوقيانوس الأنطاكي وآخرون.

لذلك لم يكن مفاجئًا أن يستخدم كلا من قسطنطين وليكينيوس ورقة المسيحية، واجتمعا في عام 313 في مدينة ميلانو، وأصدرا مرسومًا عُرف في التاريخ باسم مرسوم ميلانو، تم فيه الإعلان رسميًا عن انتهاء اضطهاد المسيحية، فبمقتضى هذا الإعلان تم منع أي صورة من أشكال الاضطهاد للمسيحيين في الإمبراطورية، والسماح بحرية ممارسة الشعائر الدينية والعبادة لهم، وإعادة كافة الممتلكات التي صودرت من المسيحيين خلال فترة الاضطهاد أو تعويضهم ماليًا في حالة ما إذا كانت تلك الممتلكات قد دمرت.

ابتهج المسيحيون في كافة أنحاء الإمبراطورية بذلك النصر المبين، لكن على ما يبدو فإن هذه الاحتفالات كانت قبل الأوان، فقريبًا سيعلمون بأن عليهم أن يتحملوا وطء موجه أخيرة من الاضطهاد. ففي عام 316 م دب الشقاق بين الأباطرة قسطنطين وليكينيوس (على الرغم من صلة النسب بينهما)، وأخذ كل منهما يكيل الاتهامات للآخر بالتآمر ضده من أجل قتله والسيطرة على الإمبراطورية بأكملها كحاكم وحيد.

وصف قسطنطين الحرب ضد ليكينيوس بأنها حرب مقدسة من أجل ضمان بقاء المسيحية^[1]، وتوسعها، بينما أخذ ليكينيوس منذ الآن في النظر إلى المسيحيين باعتبارهم أعداء محتملين، وبدأ في

1-ولعل هذه أول حرب مقدسة تشن باسم المسيحية في التاريخ (المترجم).

تطهير إدارته منهم. ومع بداية عام 320 بدأ مرة أخرى في اضطهاد بعض المواطنين المسيحيين وإعادة عصر الاضطهاد بعد انقضائه، لم يكن لهذه الموجة الجديدة من الاضطهاد أي تأثير يذكر باستثناء أنها شجعت من تقوية السمعة التي يتمتع بها قسطنطين باعتباره القائد المدافع عن المسيحية أو قائد المسيح.

أخيراً في عام 324، استطاع قسطنطين هزيمة ليكينيوس في معركتين مهمتين في آسيا الوسطى، وعلى إثر هزيمته فإن الحرب وعصر الاضطهاد كليهما جاءا إلى نهايتهما وهذه المرة للأبد. أصبحت الإمبراطورية الرومانية الآن موحدة تحت سيادة إنسان واحد وتحت حكمه، وأهم من هذا أن هذا الحاكم كان مسيحياً. وفي أقل من عقد من الزمان انتقلت المسيحية من مجرد طائفة أو فرقة مضطهدة إلى أن تصبح دين الإمبراطورية. لكن في الوقت ذاته فإن قسطنطين كان شديد الذكاء والمكر ولم يكن ساذجاً حتى يحظر الديانات الوثنية الأخرى التي يدين بها معارضوه، ففي النهاية كانت أغلبية الشعب الروماني حتى تلك اللحظة تدين بالديانة الوثنية، ولكن في الوقت نفسه فإنه لم يجد ما يمنعه من أن يحابي الكنيسة كما فعل أسلافه مع الديانة القديمة.

وكان من ضمن أول القرارات التي أصدرها ضمان تعويض المسيحيين عن السنوات الماضية من المعاناة والقحط والقنوط ومنح رجال الدين المسيحيين الامتيازات التي كان يتمتع بها في الماضي الكهنة الوثنيون.

كان هدفه أكبر من مجرد ترضية رفاقه في الديانة المسيحية، ولكنه كان يريد توحيد الإمبراطورية الرومانية المختلفة والمتنوعة وإضفاء نوع من الألفة بين المتصارعين القدامى مع بعضهم البعض في زمالة روحية واحدة. وكان من الواضح أن الديانة الرومانية الوثنية القديمة

التي حققت في وقت ما في الماضي هذا الهدف (توحيد الشعب الروماني) كانت تعاني من الاضمحلال في الوقت الحالي ولم يعد بمقدورها تحقيقه، فلماذا لا تلعب الديانة المسيحية الجديدة نفس الدور الحيوي والمبدع الذي لعبته الديانة الوثنية القديمة في الماضي؟ ولكن سرعان ما قام مستشاروه بلفت انتباهه إلى وضع ربما يعرض أحلامه في وحدة روحية تجمع شمل الإمبراطورية للخطر، لم يكن مفاجئاً أن هذا الوضع المثير للقلق كان مصدرة المدينة التي طالما اعتبرت مهد الخلافات الدينية: الإسكندرية.

فقبل هذا التاريخ ببضعة أعوام قام كاهن سكندري يدعى آريوس، على الأرجح هو أحد أتباع الأسقف ميلتيوس السابقين، قام علناً بانتقاد العقيدة اللاهوتية لكنيسة الإسكندرية كما شرحها أسقف الإسكندرية ألكسندروس نفسه الذي كان يتمتع بشهرة عالية ومكانة رفيعة. ورداً على تلك الانتقادات، قام ألكسندروس بدعوة الأساقفة المصريين للاجتماع، وأسفر هذا المجمع الكنسي للأساقفة المصريين على شجب أفكار آريوس وطرده من الكنيسة، لكن القس العنيد آريوس الذي كان يتمتع بسمعة طيبة بين رجال الدين المسيحيين رفض الاعتراف بتلك العقوبة، وبدلاً من ذلك أخذ يلتمس العون من أصدقائه في فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى، وبفعله هذا فإنه حول الخلاف العقائدي من مجرد خلاف محلي إلى خلاف إقليمي مستقطباً وجهات نظر مختلفة للعلماء اللاهوتيين. وعلى ما يبدو فإن هذا الخلاف اللاهوتي كان من القوة إلى درجة أنه كان قادراً على أن يشغل عالم حوض البحر المتوسط بأكمله لعقود قادمة. حيث اتخذ قادة بارزون في الكنيسة مواقف متعارضة، وأخذت قرارات اللعنة والحرمان الكنسي في التطاير من هنا وهناك من كل حذب وصوب لتصيب الجهة المعارضة، وكان واضحاً

أن شيئاً ما يجب أن يتخذ من أجل حسم تلك المسألة، والوصول إلى سياسة منطقية لحل هذا الخلاف (وتحفظ آمال الإمبراطور قسطنطين في وحدة روحية تلم شمل الإمبراطورية المنهكة).

وعلى الفور قام قسطنطين باستدعاء أقرب مستشاريه الدينيين وهو الأسقف هوسيوس القرطبي، والذي كان على علاقة وثيقة به حتى من قبل نصر جسر المملفين، وكلف قسطنطين الأسقف بمهمة الذهاب إلى الإسكندرية لكي يتقصى الحقائق ويقيمها، ويقوم في النهاية بتقديم توصيات إلى الإمبراطور.

ولم يتأخر هوسيوس في قبوله المهمة ومغادرة نيقوميديا متوجهاً إلى الإسكندرية بعد يومين فقط من لقاءه مع قسطنطين، حاملاً في حقيبة سفره خطاب المرور الأمن الموقع من قسطنطين وخطاباً موجهاً من الإمبراطور لرجال الدين في الإسكندرية.

الفصل الثالث

مراع في بيت الله - A Quarrel in God's House

كان هوسوس القرطبي معتاداً على التعامل مع مثل تلك الخلافات، وكان على دراية واسعة بالطرق المثلى لاستخدام السلطة لتحقيق مآربه. وكانت مهارته الكبرى متمثلة في التفاوض من أجل الوصول إلى تسويات بين الأطراف المتنازعة في الكنيسة. ففي إسبانيا ترأس العديد من المجامع الكنسية التي ناقشت كلاً من القضايا العقائدية والتنظيمية الصعبة التي نشأت نتيجة للاضطهاد الذي كانت تتعرض له المسيحية، والنمو المتسارع للدين. وفي بلاد الغال وإيطاليا والبلقان عمل كممثل للإمبراطور قسطنطين في عدد من المجامع المسيحية المتنوعة، والمثيرة للمشاكل غالباً. كان ناعم الكلام، عميق التفكير، ومدرّكاً بوضوح أن نفوذه وسلطته تنبع من عمله كمستشار ومعلم روحي للإمبراطور قسطنطين في أمور الإيمان. اتخذ هوسوس جانب قسطنطين منذ زحفه من بلاد الغال إلى إيطاليا (خلال الحرب الأهلية)، وقيل إنه كان من الرجال القلائل الذين كانوا يستطيعون إقناع الإمبراطور المتقلب الأهواء بآرائه، بل وفي بعض الأحيان قد يتمكن من كبح جماح طباعه التي يسهل استثارتها.

كان المبعوث الإمبراطوري لديه القليل من الشكوك حول أهمية بعثته إلى الإسكندرية، فسيده الإمبراطور كانت لديه رؤية براءة كان

يشاركه إياها حول إمبراطورية رومانية مقدسة وقوية، إمبراطورية موحدة ومنتصرة على كافة الانقسامات الدنيوية بواسطة قوة رابطة الإيمان غير القابلة للانحلال. فمحاولات الإمبراطور دقلديانوس لإعادة إحياء الإمبراطورية بدأت في الإثمار في عصر قسطنطين، وإذا كان الإمبراطور دقلديانوس هو الذي بدأ في الحقيقة محاولات إحياء الإمبراطورية فإن قسطنطين هو الذي جعل هذه المحاولات مثمرة فعليًا بمساعدة المسيح والكنيسة. لكن كان واضحًا أن مثل هذا الجدل العقائدي بين أساقفة الكنائس الشرقية وكهنتها يمكن أن يهدد تلك الصحوه ولذلك كان يجب أن تنتهي تلك الخلافات، وأن تنتهي بسرعة أيضًا.

حمل هوسيوس رسالة من الإمبراطور يحدد فيها الخطوط العامة لرؤيته وسياسته، وفي الوقت نفسه يعكس طبيعته المستبدة فما يتعلق بأي عوائق يمكن أن تعترض طريقه، فقسطنطين كان إنسانًا ذا طابع حاد (دم حار)، وكان حكيماً بما يكفي لكي يؤجل عملية تعميده إلى آخر وقت من حياته، طالما كان هناك مجال لمزيد من آثام العاطفة المحتمل ارتكابها^[1].

كانت رسالة الإمبراطور موجهة إلى "ألكسندروس": أسقف الإسكندرية، وإلى القس المتمرد: "أريوس". التقى هوسيوس بأسقف الإسكندرية في قصره، ليسلمه رسالة الإمبراطور، وغير معروف ما إذا كان قد التقى أريوس أم لا، لكن على الأرجح فإن هذا اللقاء لم يتم، فعلى الرغم من استمرار بعض أتباع أريوس في تقديم الخدمات الكنسية غير الرسمية، وإثارة المشاكل في المدينة، وعودة أريوس من

1- على أساس أن التعميد سيغفر له أية ذنوب من المحتمل أن يرتكبها (المترجم).

حين لآخر في تحد لأوامر ألكسندروس بالبقاء بعيدًا عن المدينة، إلا أنه حتى في حال وجوده في المدينة فإنه سيكون مختلفًا عن الأنظار، ولهذا فإن لقاء هوسايوس مع أريوس وإن كان متاحًا سيُعتبر بمثابة إهانة إلى أسقف المدينة. ولو كان الأمر بيد ألكسندروس نفسه، لكان قد وجد رسالة قسطنطين نفسها مهينة، فتلك الرسالة قد كتبها الإمبراطور بأسلوب حاد يفتقد إلى الدبلوماسية، إذ يقول:

”عندما توقفت في نيقوميديا كانت خطتي الأساسية هي الإسراع في القدوم إلى الشرق، وبينما أنا أسرع الخطى للقدوم، وبعد أن قطعت بالفعل شوطًا كبيرًا من رحلتي فإنه تنامي إلى سمعي تلك الأنباء التي جعلتني اصرف النظر عن خطتي الأولى حتى لا ترى عيني ما اعتقدت قط أنه من الممكن أن يصل إلى مسامعي في يوم من الأيام“^[1].

كان الإمبراطور شديد الوضوح في موقفه الذي اعتبر فيه أن تصاعد الخلافات العقائدية بين المسيحيين ذوي المقامات العالية (من رجال الدين) ليس فقط عائقًا لوحدة الكنيسة، لكنه أيضًا يضيف سمعة سيئة غير ضرورية على الإطلاق على المسيحية.

وهو الأمر الذي أبهج أعداء المسيح لرؤية مثل هذه الفوضى، وقد سخر الوثنيون على الفور من المعارك الداخلية للمسيحية. والآن، وقد بزغت المسيحية أخيرًا إلى الضوء، فإنها وجدت نفسها على الطريق الذي ربما يوصلها إلى أن تصبح الديانة الرسمية الرومانية، وفي مثل هذه الظروف سيكون من السخف حقًا أن تتمزق وحدة المسيحية نتيجة للخلافات اللاهوتية. وبوضوح، فإن الإمبراطور نظر إلى الخلافات اللاهوتية على أنها تهدد حلمه الخاص، وقد كانت

1- Fox, Pagans and Christians, 638.

خطته من البداية كما كتب هي: "إحضار جميع الشرائع الدينية في المجتمعات والأمم المختلفة إلى نوع من التوافق والانسجام، واستعادة الهدوء والسلام العالمي الذي عانى كثيرا من الأمراض والمشاكل"^[1].

لماذا نخاطر بكل هذه الطمأنينة من أجل الصراع على أمور سطحية؟ من أجل أسئلة دقيقة لا يمكن لأحد أن يجيب عليها بثقة ويقين حقيقي. فالبعض يقول بأن المسيح مولود، في حين أن البعض الآخر يقول إنه مخلوق، البعض يقول إنه إله بطبيعته، والآخرين يقولون إنه اكتسب الطبيعة الإلهية عن طريق التبني. ومن وجه نظر الإمبراطور قسطنطين، كانت مثل هذه الخلافات تافهة من حيث الجوهر. إذ يجب على المفكرين المسيحيين أن يحاكون الفلاسفة اليونانيين، الذين على الرغم من أن خلافاتهم في الرأي التي كانت أعمق بكثير من مثل تلك الخلافات بين اللاهوتيين المسيحيين، إلا أنهم كانوا يتمتعون بالقدرة على التسامح وتقبل الآخر دون الحاجة إلى وصف المخالفين لهم في الرأي بأنهم شياطين أو حتى تشكيل بعض الفرق شبه العسكرية التي تهدف إلى إرهاب وقمع معارضيهم. كان على الخصماء أن يصلوا إلى طريقة للتألف مع بعضهم البعض وإتاحة الفرصة مرة أخرى للإمبراطور للتمتع ببعض الأيام الخالية من الهموم وليالي من الراحة^[2].

اتسمت رسالة قسطنطين بالحيادية التامة في الخلاف المستعرب بين ألكسندروس وآريوس، وهو الأمر الذي أزعج ألكسندروس بالتأكيد إذ يستطيع المرء أن يتخيل حوار ألكسندروس مع هوسيوس باعتباره

1- (47) Frend, Rise of Christianity, 497.

2- Ibid

حديث إنسان دين إلى إنسان دين. وهو يشرح كم آلمه أن يعلم أنه كان سببًا في إزعاج الإمبراطور وعدم نومه ليالٍ عديدة، لكن ألا يستطيع قسطنطين أن يرى كم هي فاسدة عقيدة آريوس؟ وكم هي مهينة للمسيح وللكنيسة؟

بالتأكيد، لم يكن متوقعًا من الإمبراطور في ظل انشغاله بأمور الدولة، أن يلم ويفهم كل هذه الأمور اللاهوتية المتعلقة بذلك الخلاف العقائدي المستعر، كما أنه فوق هذا كله كان من المتحدثين باللغة اللاتينية، وكان غير قادر على فهم كل هذه التعقيدات الفكرية باللغة اليونانية. ولكنه بالتأكيد كان قادرًا على إدراك علامات التمرد والعصيان في خطابات آريوس، فرفض هذا القس أن ينبذ آراءه المهرطقة، وتآمره مع رجال الدين الآخرين من أجل إلغاء قرارات أسقف الإسكندرية، بالإضافة إلى اللهجة المتغطرسة التي اتسمت بها خطابه، كانت كلها أدلة على قلة الاحترام الذي يبديه آريوس لمبادئ الحق، وللنظام الصحيح.

كان هوسيوس ميالاً إلى الموافقة على هذا التقدير للأمور، فكونه هو نفسه أسقفًا مكَّنه من تفهم الحاجة الماسة إلى فرض الانضباط بين صفوف رجال الكهنوت الأقل درجة، خاصة في سلطان كنسي ضخم ومهم مثل أسقفية الإسكندرية، حيث كانت سلطته تشمل مناطق واسعة تضم مصر كلها بما فيها أكبر مدينة في العالم من حيث عدد السكان وهي الإسكندرية، ومدنًا وقرى على ضفاف نهر النيل التي تحتوي على الحقول الخصبة الواسعة التي تزود روما باحتياجها من الغلال، بالإضافة إلى الأديرة العديدة المنتشرة في صحراء طيبة والنوبة. كما شملت سلطات أسقف الإسكندرية أيضًا ليبيا ومن ضمنها المدن الخمس شمال الصحراء الأفريقية.

توسعت سلطة أسقف الإسكندرية لكي تشمل جميع المسيحيين في هذه الأقاليم الشاسعة. ومع أنه كان يوجد في مصر العديد من الأساقفة الذين بلغ عددهم في ذلك الوقت مائة، والذين كانوا نظريًا مساوين لأسقف الإسكندرية في الأهمية، وكانت القرارات الكنسية المهمة تتخذ عن طريق المجامع الكنسية، ولكن عمليًا فإن أهمية ومكانة أسقف الإسكندرية الذي كان أتباعه ينادونه بلقب البابا (Papa أو Pope) كان تفوق بكثير هؤلاء الأساقفة. في العالم بأسره كان يوجد اثنان أو ثلاثة فقط من رجال الدين المسيحيين الذين يقفون على قدم المساواة مع أسقف الإسكندرية من حيث قوة نفوذه وتأثيره. وعند الحاجة إلى اتخاذ بعض القرارات الكنسية فإن مجتمعا كنسيًا ينعقد من هؤلاء الأساقفة المائة لبحث الأمر ولكن قرارات المجمع كانت دائمًا ما تعكس آراء أسقف الإسكندرية نفسه. كان نفوذ ألكسندروس أكثر من مجرد إنسان دين، فخلال عهد قسطنطين كانت العادة أن يتمتع الأساقفة الكبار بنفوذ وقوة باعتبارهم رجال دولة بنفس القدر الذي يؤدون به دورهم كرجال وعظ ودين، فأسقف الإسكندرية كان يشرف على الشبكة الضخمة من الخدمات الاجتماعية في المدينة، وكان يقوم بدور الحكم والقاضي في الخلافات بين المواطنين المسيحيين بل وفي كثير من الأحوال بين الوثنيين أنفسهم، وعادة ما كان الموظفون المحليون يقومون بأخذ رأيه واستشارته في القضايا الهامة، كما كان يقوم بإدارة ممتلكات الكنيسة وأعمالها المالية المزدهرة، وتوظيف أعداد غفيرة من الموظفين والبنائين والحرفيين والفنانين والعمال الذين يعملون تحت رئاسته، وفوق هذا كله الإشراف على شئون الآلاف من القساوسة والرهبان والراهبات الذين وهبوا حياتهم للخدمة الدينية. وربما كان الأمر الأكثر أهمية هو لعبه دور

الوسيط الذي لا غنى عنه بين السلطات وبين رعايا الإمبراطورية. وعندما كان المواطنون يعانون من نقص الغذاء، فإنهم كانوا أولاً يتطلعون إلى أبيهم (الأسقف) من أجل رد المضاربين الجشعين على أعقابهم، والتأكد من أن الحبوب المجانية التي أرسلها الإمبراطور توزع بعدالة على المحتاجين الفقراء.

وعندما كان الإمبراطور في حاجة إلى المزيد من الرجال أو المواد من أجل الجيش فإنه كان يلجأ إلى الأسقف من أجل إقناع المواطنين غير الراغبين للتطوع ودفعهم إلى التعاون مع السلطات.

كان ألكسندروس يحظى بإعجاب واحترام هوسيوس، لكن الأخير كان مطالبًا من الإمبراطور بإجراء تحقيق، ولا بد أن يقوم بهذا التحقيق قبل التوصية بأية قرارات نهائية متعلقة بهذا الخلاف إلى الإمبراطور. كان عليه أن يعلم ما هي الحقائق المتعلقة بتلك القضية؟ من هو ذلك الإنسان المدعو آريوس؟ وماذا عن هذا الشماس الشاب اللامع الذي كان بمثابة اليد اليمنى لألكسندروس والمسمى أثناسيوس؟ كان واضحًا أن هذه القضية لن تحل بالبساطة أو السهولة التي تخيلها قسطنطين، وعلى الفور بدأ هوسيوس في مباشرة تلك المهمة الصعبة. كانت حقائق تلك المسألة كما اطلع عليها هوسيوس كالآتي: آريوس كان قسًا يبلغ من العمر ستين عامًا، ولد في ليبيا في منطقة الخمس مدن. وفي عام 314 قام ألكسندروس بعد وقت قصير من اعتلائه أسقفية الإسكندرية بالسماح لآريوس بالوعظ في كنيسة بمنطقة بوكليس القريبة من الميناء الكبير، والاعتناء بسكان تلك المنطقة، كان هذا القس الطويل النحيل ذو الشعر الرمادي خطيبًا متمكنًا موفوهاً، أو ربما كان من الأصوب أن نقول مغنيًا بارعًا، حيث كان من عاداته أن يضع موعظته في صورة أشعار ويقوم بغناء تلك الأشعار للمستمعين المسحورين بروعة موعظته.

تبعًا للأسقف فإن هذه الجاذبية التي تمثلها موهبة آريوس وقدرته على تقديم صور حية مصحوبة بالموسيقى كانت جزءًا من المشكلة. فمؤخرًا قام آريوس بتأليف قصيدة طويلة تدعى ثاليا thalia أو المأدبة كتبت في وتيرة إيقاعية تشبه تلك التي تستخدم عادة في القصائد الغنائية الشعبية، وأخذت تلك القصيدة تغنى في الموانئ والمرافئ والمدن الساحلية في جميع أنحاء الجزء الشرقي من الإمبراطورية، إذ كانت الأغاني الشعبية تنتقل بسرعة عبر البحار مثل نقل الحبوب أو انتشار الأخبار.

درس آريوس اللاهوت المسيحي في شبابه، وتعلم على يد المعلم الشهير الشهيد لوقيانوس الأنطاكي. وقبل عصر الاضطهاد الكبير فإنه حضر إلى الإسكندرية من أجل متابعة عمله في الخدمة الدينية، واشتهر بمواجهته الإرهاب بشجاعة خلال فترة الاضطهاد، وقيامه بمهامه الكنسية تجاه أبناء الأبرشية والمسيحيين المحجوزين في السجون في عمل اتسم بالمخاطرة الشديدة منه. وحتى عندما فر بطرس أسقف الإسكندرية في ذلك الوقت من المدينة، فإن آريوس ظل ماضيًا فيها، وعلى العكس من الشائعات المخالفة للحقيقة، فإن آريوس لم ينضم إلى مجموعة القساوسة الموالين للأسقف المتشدد ميلتيوس، والذي اشتهر بأنه مغتصب أسقفية الإسكندرية. لكن على الأرجح تم ترسيم آريوس كشماس من قبل بطرس بعد عودته إلى أسقفية الإسكندرية، وهو الأمر الذي يثبت أن آريوس لم يكن أبدًا من أتباع ميلتيوس وإلا كان من المستحيل ترسيمه من قبل بطرس نفسه. وفي عام 311 قام أكيللاس Achilles خليفة بطرس في منصب أسقف الإسكندرية والذي استمر في منصبه لفترة قصيرة بترسيم آريوس في منصب كاهن.

توجد بعض التقارير غير المؤكدة التي تذكر أنه عند وفاة أكيللاس فإن آريوس كان أحد المرشحين بقوة لخلافته في منصب أسقف الإسكندرية،

على أية حال فإن الأساقفة المصريين قاموا باختيار ألكسندروس كأسقف جديد للإسكندرية، والذي قام بعد فترة قصيرة من انتخابه بإسناد مهمة الوعظ في كنيسة بوكليس (في المدين الخمس بليبيا) إلى آريوس^[1].

كان آريوس قسًا ناجحًا، وحظي بإعجاب كبير لطهارته الشخصية، وبالقدر نفسه لمهارته وقدراته في الوعظ، وكان مفضلًا بشكل خاص للبحارة، وعمال الأرصفة في مرافئ السفن، والنساء الشابات اللاتي كن يتوافدن زمرًا إلى الكنيسة التي يعظ فيها.

وعند صدور قرار ألكسندروس بمغادرة آريوس المدينة، فإن الاحتجاجات التي قامت بها العذارى من جمهور تلك الكنيسة سببت حرجًا كبيرًا في المنطقة، خاصة مع قيامهن بالاحتجاج العلني على هذا القرار. فمنذ صدور هذا القرار ورحيله لم تتوقف المصادمات والمشاحنات بين أتباع آريوس الشبان وبين مؤيدي ألكسندروس.

كان السبب في إبعاد آريوس عن كنيسته هو الخلاف في الرأي بينه وبين الأسقف ألكسندروس حول العقيدة المسيحية. وكان هذا الخلاف هو الذي وصفه قسطنطين بأنه خلاف تافه دون معرفة الكثير عن طبيعته. وكلما تواصلت تحقيقات هوسايوس اتضح له بأن هذا الخلاف التافه هو في الحقيقة خلاف شائك وأكثر تعقيدًا بكثير

1- The facts of Arius's early career are not well documented. This account relies on Barnes, Constantine and Eusebius, 202, and Athanasius and Constantius, 14; Rowan Williams, Arius: Heresy and Tradition, 2947-; and Hanson, Search for the Christian Doctrine of God, 35-. While performing the duties of bishop in Alexandria, Melitius did ordain a priest named Arius, but most scholars deny that this was the same Arius whose theology later set the Roman world aflame. Frend's treatment of the subject in Rise of Christianity, 493, may be unduly speculative.

مما ظن الإمبراطور، وأن تسوية هذا الخلاف ليس بالأمر الهين. بعد قيام ألكسندروس بشجب تعاليم آريوس، ونفيه من المدينة (أو على الأقل محاولة نفيه) فإنه لم يكن من المتوقع أن يقوم ألكسندروس بتغيير قراره والترحيب بآريوس مرة أخرى. ومن ناحية أخرى فإن جميع الروايات أجمعت على أن آريوس نفسه لم يظهر أدنى بادرة تدل على نيته للتخلي عن آرائه والخضوع لإرادة ألكسندروس وسلطته.

هل يمكن إذن أن توجد أي نوع من التسوية التي يمكن أن يقبل بها الطرفان؟ أبقى هوسوس هذا السؤال في مخيلته بينما كان يركز على فهم طبيعية هذا الخلاف.

كان الخلاف من أحد جوانبه خلافاً قديماً، فالإسكندرية كانت دائماً مرقداً للبدع والخلافات الدينية. إذ كانت هي المكان الذي كان المفكرون المسيحيون البارزون يقومون فيه بالدفاع عن أفكارهم وتفسير تلك الأفكار اللاهوتية وشرحها مستخدمين طرقاً مستمدة من الفلسفة اليونانية وبالقدر مثله من المصادر المسيحية واليهودية. كان الموضوع الذي شغل بال أكثر العقول إبداعاً وأكثرها حباً للجدل والمناظرة هو العلاقة بين يسوع المسيح الابن وبين الله الآب، هذه المسألة التي لا تزال غير مقررة بشكل نهائي وفاصل في المجتمع المسيحي بأكمله.

وقبل من هذا الزمان فإن أوريجين السكندري، أعظم اللاهوتيين في زمانه، والذي أحدث ضجة هائلة من خلال إعلانه أنه "بينما الابن أبدياً وسرمدياً مثله مثل الآب ومتوحداً معه، إلا أن الابن صورة منفصلة وأقل من الآب"^[1]، ويمكن أن نقرأ واحدة من محاورات

1- See, e.g., Jaroslav Pelikan, *The Christian Tradition: A History of the*

أوريجين كالأتي:

أوريجين: هل الآب إله؟

هارقليدس: بالتأكيد.

أوريجين: هل الابن صورة مميزة من الآب؟

هارقليدس: بالطبع، فكيف يمكن أن يكون ابنًا إذا كان في الوقت ذاته هو الآب؟

أوريجين: بينما الابن مميزًا عن الآب، هل يمكن أن يكون هو أيضًا إلهًا؟
هارقليدس: نعم هو نفسه أيضًا إلهًا.

أوريجين: هل إذن الإلهان في اتحاد معًا؟

هارقليدس: نعم.

أوريجين: هل يجب أن نقر الإلهين معًا؟

هارقليدس: نعم لأن الإرادة واحدة^[1].

إن فكرة خضوع المسيح لله، وهي الفكرة التي يعرفها أتباع هذا المذهب (الذي يطلق عليهم اسم الخشوعيين) أن يسوع المسيح من بعض الجوانب أدنى مكانة من الله، وهي الفكرة التي نالت قبولاً من العديد من المسيحيين في الجزء الشرقي من الإمبراطورية، على الرغم من أن رجال الدين الغربيين رفضوا تلك الأفكار بشكل مطلق. ومؤخرًا فإن أساقفة الإسكندرية، ومن ضمنهم على سبيل المثال الأسقف الشهيد بطرس الذي أخذ في مهاجمة أوريجين وأفكاره بشكل عنيف، ودحض العديد من معتقداته، خاصة الأفكار التي

Development of Doctrine, vol. I, The Emergence of the Catholic Tradition, 100600- (Chicago: University of Chicago Press, 1971), 191.

1- Quoted in Frend, Rise of Christianity, 381.

تقول بأن المسيح في مكانة تالية وأدنى من مكانة الله نفسه^[1]. وقام ألكسندروس بالسير على خطى بطرس بانتقاده أفكار أوريجين، بينما اعتبر الكثير من الأساقفة في القرن الرابع الميلادي ومن بينهم معلم آريوس نفسه لوقيانوس الأنطاكي والكثير من أتباعه في الشرق أنهم تلاميذ لأوريجين، في حين قام آريوس نفسه بأخذ تلك الأفكار إلى مسافة أبعد كثيرًا مما كان أوريجين نفسه يريد أن يصل بها.

كان قد مضى على قيام الكاهن طويل القامة بالوعظ في كنيسته أكثر من ثلاثة أعوام حين وصلت تقارير إلى الأسقف ألكسندروس حول هذا القس، وكيف أنه يقدم آراء غير تقليدية حول علاقة الآب والابن. إذا صحت هذه التقارير، فإن آريوس كان في شك من ألوهية يسوع المسيح. أخذ ألكسندروس في التساؤل هل قام حقًا آريوس بإهانة المسيح بكتابة "أن الابن ليس سرمدياً مثل الآب؟ وهل أصر على أن المسيح خلق من العدم مثله مثل باقي المخلوقات؟ وأنه كان قادرًا على ارتكاب الآثام؟ هل قال حقًا أن الله قادر على خلق المزيد من الأبناء إذا أراد هذا؟ وأكد على أن الآب يعرف الابن، في حين أن الابن لا يعرف الآب؟ أكدت التحقيقات التالية أن أغلب هذه المزاعم حول آريوس حقيقية، فأريوس قام بالفعل بالوعظ قائلاً "قبل المسيح، فإن الله لم يكن أبدًا بعد". وأن هناك وقتًا ما، لم يكن المسيح موجودًا فيه، "وهذا يعني أنه ليس سرمدياً مثله مثل الله"^[2].

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 198—199.

2- Hanson, Search for the Christian Doctrine of God, 58-. Since Arius's writings were lost or destroyed, the accounts of his teachings are based on reports by others-most of them his theological enemies.

وعوضًا عن تأكيد ألوهية المسيح بطبيعته، فإن آريوس أخذ في التأكيد على أن المسيح في البداية لم يكن يمتلك تلك الطبيعية الإلهية، ولكن من خلال تطوره الأخلاقي وسموه الروحي وطاعته لله، فإنه استطاع اكتساب مثل هذه الطبيعة الإلهية^[1].

لم يؤمن آريوس بالفكرة الشائعة في الشرق، والقائلة بالوجود الأزلي للمسيح، حيث قام الله بخلقه Conceived قبل بداية الزمان، ثم قام بخلق العالم من خلاله^[2]. ولم يكن واضحًا، ما إذا كان آريوس يؤمن بتلك الفكرة بشكل حرفي، أم كان يعتقد أن الله تنبأ فقط منذ الأزل بقدوم المسيح قبل ميلاده الفعلي من مريم العذراء^[3].

كان عمل القس الأخير والمسمى بالمأدبة the banquet، والذي وضع فيه آريوس تلك الأفكار المثيرة في طابع شعري استفزازي (للمسيحيين المحافظين)، ولم يكن مفاجئًا أن يصف الأسقف ألكسندروس هذا الكتاب باعتباره وثيقة خطيرة (على المسيحية)، وبعض مما قاله آريوس في هذا العمل الذي لم يحفظ لنا:

خلق الله الذي لا بداية له، الابن كبداية لجميع الأشياء، ورفعته إلى مقام ابنه عن طريق تربيته.

ومن المفهوم بديهياً أنه في الوقت الذي كان فيه الواحد موجوداً، فإن الثاني Dyad لم يكن قد جاء بعد إلى الوجود (كان هناك وقت لم يكن فيه الابن موجوداً).

1- Robert C. Gregg and Dennis E. Groh, Early Arianism-A View of Salvation (Philadelphia: Fortress Press, 1981).

2- Pelikan, Emergence of the Catholic Tradition, 194196-.

3- See, e.g., Hanson, Search for the Christian Doctrine of God, 13; Pelikan, Emergence, 198.

وبعد ذلك، جاء الثالث Triad، لكن لم يكونوا متساوين. ودون امتزاج أحدهما في جوهر الآخر.

أحد أركان الثالث مساو للابن، لكن الركن الأكثر سموًا وعلوًا هو الذي أوجد الابن، وبالتالي فإن أحدهما أكثر سموًا وتفوقًا وكمالًا، بينما الآخر ليس بنفس القدرة.

وبإرادة الله فإن الابن هو ما هو عليه، أو أيا ما سيكون عليه. فالابن لا يستطيع إدراك الله تمامًا. فهو ما هو عليه بالنسبة له: أمر لا يمكن التعبير عليه.

الآب يعرف الابن، ولكن الابن لا يعرف نفسه^[1].

كانت تلك أفكار قابلة للانفجار. فالمشكلة الأساسية التي واجهت المسيحيين منذ أيام القديس بولس، هي كيف يمكن لهم أن يكونوا موحدين ومؤمنين بإله واحد، وفي الوقت ذاته يعدون يسوع المسيح؟ آريوس دافع عن وجهة نظره التي تقول بأن المسيح كان حالة وسطية بين الله وباقي المخلوقات. وأوريجين نفسه كان من أتباع نظرية خضوع المسيح لله.

ولكنه أصر على وصف المسيح بأنه يتمتع بصفة الآب مثله مثل الله (حتى وإن كان هذا على حساب وصف المسيح بأنه إله ثان) في حين أن آريوس بدا وكأنه يريد أن يأخذ مسألة العقيدة إلى مستوى أبعد عن طريق إنزال المسيح درجة أخرى (عن المستوى الذي افترضه أوريجين) ليصبح أقرب إلى الملاك، أو كما

1- The Thaliais quoted (from Athanasius's no doubt biased version in the Oration Against the Arians) by Quasten, Patrology, 12. I have replaced several antique words with modern synonyms and changed the order of quotations for clarity.

تخوف ألكسندروس بأن يصبح مجرد إنسان^[1].

جميع المسيحيين يؤمنون بأن تضحية المسيح هي من أجل خلاص الإنسان، فما فعله الله مع ابنه وبعثه من الموت مرة أخرى وإعطائه صفة الخلود يمكن أن يحدث أيضًا معنا، وما يعنيه هذا من إمكانية أن نصبح أشخاصًا مختلفين بواسطة المسيح.

ولكن إن لم يكن المسيح إلهًا بطبيعته، وإذا كان قد ارتقى إلى تلك المرتبة الإلهية من خلال اكتساب الحكمة والفضيلة، إذن لماذا لا نستطيع نحن جميعنا نحن فعل هذا؟

الأخبار السارة بالأناجيل، تبشرنا بكوننا أبناء وبنات الله المحتملين، فكيف إذن يكون المسيح مختلفًا عنا في الجوهر أو أسمى منا؟ وفي حال أنه لم يكن كذلك، فماذا يعني لنا أن نطلق على أنفسنا وصف مسيحيين؟ يتقن ألكسندروس بأن مثل تلك الأسئلة لا يمكن تركها دون إجابة. وفي عام 318 قام بإلقاء سلسلة من العظات التي حافظ فيها بثبات على فكرة أن يسوع المسيح كان إلهًا أبدًا في صورة إنسان، وأية معتقدات متعارضة مع هذه الحقيقة هي هرطقة. إذا كان الغرض من تلك العظات هو إثارة الرأي عام ضد آريوس فلقد نجح إذن في مسعاه. فعندما قام آريوس بنشر خطاب مفتوح يفند فيه وجهات نظر الأسقف، أصدر ألكسندروس على الفور أوامره له بالمثل بين يديه للدفاع عن آرائه وتوضيح حقيقة موقفه، وتصاعدت وتيرة الخلاف بينهما بشكل كبير.

وقد مثل آريوس بالفعل بين يدي أسقف الإسكندرية في القصر

1- Pelikan views Arianism as a form of "angelology": Emergence, 197. But only a few radical Arians later went this far.

البابوي في اليوم المحدد له، وظهر أمام ألكسندروس وكأنه ظل هزيل.... لا توجد أية آثار باقية على ما دار في تلك المقابلة، ولكننا بسهولة نستطيع أن نتخيل آريوس وهو متمسك بشكل مهذب، ولكن بصلابة لا تلين بآرائه اللاهوتية، في حين كان ألكسندروس يؤكد على أبدية المسيح، وأنه مولود غير مخلوق.

هل هذا يعنى حرفياً بأن المسيح هو إله ثان؟ بوضوح، بالنسبة للمسيحيين فإن هذه النتيجة كانت مستحيلة. لكن إذا لم يكن إلهاً ثانياً، فهل حقاً اعتقد الأسقف ألكسندروس بأن الله العظيم قد حل في جسد بشرى لكي يتألم على الصليب ويموت، ثم بعد ذلك يبعث نفسه مرة أخرى؟ بالنسبة للمسيحيين هذه النتيجة لم تكن فقط غير منطقية ولكنها كانت أيضاً منفرة. فالله هو الجوهر، خالق كل شيء، لا جسد له، ولا يمكن تقييده داخل الجسد، ولا يمكن بأي مقياس اعتباره جزءاً من العالم المادي. والذي كانت قوته الإبداعية على الخلق عظيمة إلى الدرجة التي يصعب تخيلها. فكيف يمكن له إذن أن يصبح جزءاً من هذا العالم المادي دون أن يطغى وجوده عليه؟^[1] في المقابل، هل أنكر آريوس حقاً ألوهية المسيح؟ لا لم يفعل، فكل ما كان ينادى به آريوس هو أن الابن أصبح كاملاً بإرادته لا بطبيعته، وأنه في مكانة أدنى من الله ذاته، فالله هو الذي رفعه إلى مكانته تلك لكي يستطيع أن ينفذ مشيئته من خلاله، وأنه لم يوجد أي أحد يتشارك تلك المكانة مع الله. في الماضي، كان هناك مكان للخلاف في الكنيسة حول العلاقة الغامضة بين الآب والابن، ولكن بالنسبة لأسقف الإسكندرية لم يكن يوجد أدنى مجال للخلاف معه في الرأي حول تلك المسألة. ومن ثم أصدر أوامره

1- See Pelikan, Emergence, 19495-.

مباشرة لآريوس بضرورة شجب تلك الأفكار والتخلي عنها، وأن يقوم في كنيسته بالوعظ فقط معتمداً على العقيدة السليمة فقط (عقيدة ألكسندروس نفسه)، من خلال التأكيد على أن المسيح ليس أدنى مكانة من الله على الأرض، وأن الخالق أصبح إنساناً من أجل أن يخلصنا من خطايانا ويضمنا إلى كنيسته. وعندما رفض آريوس التخلي عن أفكاره، فإن الأسقف أنهى المواجهة، ودعا جميع أساقفة مصر إلى حضور اجتماع هام في الإسكندرية.

كان ذلك في عام 318 وهو العام الذي كانت قد انعقدت قبله القليل من الاجتماعات الكنسية، والتي كان أغلبها يناقش أموراً متعلقة بمسألة الاضطهاد العظيم الذي كانت تتعرض له الكنيسة في تلك الفترة، أو الأمور التقنية المتعلقة بالطقوس الدينية، أو تعديل تقويم الأيام المقدسة. ولهذا فإن إعلان ألكسندروس بالدعوة إلى اجتماع طارئٍ صاحبه موجة من الإثارة غير المعتادة. أكثر من مائة أسقف حضروا الاجتماع الكنسي، وكما كان متوقعاً فإن سير المجمع الكنسي كان عاصفاً، وعلى الرغم من أن أغلبية الحضور دعموا موقف ألكسندروس، فإن عدداً من الأساقفة (لم يذكر ألكسندروس العدد على وجه الدقة) أيدوا آراء آريوس. قامت الجبهة المضادة لآريوس بوضع الخطوط العريضة لمذهب جديد هو الاعتراف الأرثوذكسي، والذي وضع أمام آريوس ومؤيديه من أجل التوقيع عليه وإقراره. وعندما رفضوا القيام بذلك، قام المجمع الكنسي بإصدار قرار الحرمان الكنسي ضدهم بالإضافة إلى نفيهم من الإسكندرية. وبعد صدور تلك القرارات، وكما ذكر ألكسندروس فإن الآريوسيين أظهروا بعض المقاومة، إذ ظلوا متواجدين لفترة بالإسكندرية، مثيرين بعض المتاعب. إذ كانت النساء الشابات اللاتي أعجن بعاطفة وحرارة بهذا

الكاهن الشاعر هن أكثر الفئات غضبًا لعزل آريوس، وقمن بالاحتشاد في الشوارع دون خجل من أجل الاحتجاج على هذا القرار مطالبين بإعادة تنصيبه مرة أخرى بالكنيسة^[1]. وشهدت شوارع الإسكندرية معارك بين مؤيدي آريوس وأتباع ألكسندروس^[2]. وأخيرًا قام آريوس بإرسال رسالة إلى صديقه القوي يوسابيوس أسقف نيقوميديا، Eusebius of Nicomedia^[3]، وكانت الطريقة التي استهلت بها تلك الرسالة مثيرة للاهتمام:

”آريوس الإنسان الذي تعرض للظلم من الأسقف ألكسندروس لتمسكه بالحقيقة البينة التي تؤمن بها أنت أيضًا، يرسل تحياته باسم الرب إلى سيده العزيز رجل الرب المؤمن والمتمسك بقواعد الدين يوسابيوس“ وتتضمن تلك الرسالة نقدًا لاذعًا إلى ألكسندروس لتمسكه بآرائه بأن الآب هو أيضًا الابن، واختتم آريوس رسالته قائلاً: ”نحن نتعرض للاضطهاد لأننا نؤمن بأن الابن كانت له بداية، بينما الآب لا بداية له، هذه حقيقة سبب اضطهادنا، وبالمثل لأننا نقول أن المسيح خلق من العدم، وعليه فإنه ليس جزءًا من الله ولا من أية مادة سفلية، وهذا هو سبب اضطهادنا والباقي أنت تعلمه..... وبصفتك تلميذًا من أتباع لوقيانوس الإنسان الورع التقى الحقيقي، ونظرًا لأهمية وقوة اسمك تذكر محنتنا..... وداعًا“^[4].

1- Arius's response to the excommunication and the general chronology of events prior to the Council of Nicaea are from Hanson, Search, 134136-.

2- Barnes, Constantine and Eusebius, 205.

3- يقول ديشون في كتابة تاريخ الكنيسة المسيحية المبكر أنه لولا يوسابيوس النيقوميدي لظل الخلاف الآريوسي مجرد نزاع محلي في الإسكندرية و لكن بسبب يوسابيوس فان الخلاف سوف يمتد ليشمل الإمبراطورية الرومانية بأكملها (المترجم)

4- Quasten, Patrology, 10.

لا بد من أن آريوس تلقى ردًا سريعًا على خطابه هذا، لأنه بعد أسابيع قليلة سافر هو وأتباعه من الإسكندرية من أجل حشد التأييد لقضيته في آسيا الوسطى والشرق.

كان آريوس ويوسابيوس النيقوميدي متعاصرين. وكانا كلاهما من أتباع وتلاميذ الشهيد لوقيانوس الأنطاكي، وكان واضحًا أن أفكارهما اللاهوتية متقاربة، ومع أن يوسابيوس لم يقبل بكافة وجهات النظر التي صاغها آريوس، فالقس (آريوس) كان ميالاً إلى الوصول في آرائه إلى منتهائها، في حين أن الأسقف (يوسابيوس) الأكثر دهاء كانت لديه القدرة على تجنب مثل هذه المواقف المتطرفة. وعندما غادر آريوس الإسكندرية في شتاء 318، فإنه أبحر مباشرة إلى أنطاكية من أجل التماس ملجأ آمن لدى صديق الدراسة القديم يوسابيوس. وبدعم وتأييد منه فإنه سيضمن لقضيته النجاة والبقاء (ولو إلى حين). فهذا الرمز الديني كان يحظى باحترام واسع باعتباره إنسان دين مرموقًا، وفي الوقت نفسه سياسيًا محنكًا، وباعتباره أسقف نيقوميديا فإنه كان على الأرجح الإنسان الأول للكنائس الناطقة باللغة اليونانية.

في ذلك العصر، فإن الهجوم الشخصي بدافع الحقد والضغينة كان شائعًا للغاية في الصراعات الدينية والسياسية، ولكن بالنسبة إلى يوسابيوس النيقوميدي فإنه حتى ألد أعدائه لم يستطيعوا العثور على أي شيء يمكن أن يسيئوا به إلى سمعته.

لم يكتف يوسابيوس بالترحيب الصادق بآريوس، ولكنه قام بالكتابة إلى الأساقفة الآخرين يدافع فيها عن موقف آريوس بالنيابة عنه، وكانت النتيجة أن الأسقف ألكسندروس المشتعل غضبًا تلقى العشرات من الرسائل من الأساقفة الذين يطلبون منه إعادة القس آريوس مرة أخرى إلى المشاركة في كنيسة الإسكندرية، والسماح

له بالعودة مرة أخرى للممارسة الوعظ بكنيستته. وبعد ذلك، قام الأسقف الداهية يوسابيوس بتنظيم مجمع كنسي تحت إشرافه وذلك بغرض معادلة إثر المجمع الكنسي الذي عقده ألكسندروس لشجب آراء آريوس. وخلال الفترة من 319 إلى 320 فإن الأساقفة من مقاطعة بيثنيا Bythina اجتمعوا للتأكيد على أن آراء آريوس كانت تتماشى مع العقيدة الأرثوذكسية القويمة، والتي يمكن لأي مسيحي أن يعتنقها ويؤمن بها مطمئن القلب .

قام آريوس بتقديم إقرار بالإيمان إلى المجمع الكنسي يقر فيه بمعتقدات لاهوتية قريبة للغاية من تلك التي يعتنقها ألكسندروس نفسه^[1]، ويمكن للمرء أن يلاحظ تأثير يوسابيوس الرفيع في هذا المعتقد الإيماني الذي قدمه آريوس، وأيضاً في الخطاب التوافقي الذي قام آريوس بإرساله إلى أسقف الإسكندرية ألكسندروس. فأريوس قام الآن بحذف الكثير من آرائه المتطرفة، على سبيل المثال لم يصر على أن المسيح خلق من العدم، كما أنه لم يستمر في ادعائه بأن المسيح قابل للتغير مثله مثل باقي المخلوقات، وأدرك أنه من الأفضل أن يتخلى عن بعض العبارات التحريضية غير الملائمة، وأن يركز أكثر على القضايا الأكثر جوهرية، مثل تفوق وسمو الآب على كافة باقي المخلوقات، والدور الحيوي الذي لا غنى عنه للابن المخلص (بصفته وسيطاً بين الله وباقي المخلوقات) وكونه المثال الذي يجب الاقتداء به.

الأساقفة المجتمعون في المجمع الكنسي في بيثنيا مسترشدين بالأسقف يوسابيوس، وماضين على دربه لم يجدوا أي صعوبة في إعلان أنهم

1- The council of Bythnia is briefly described in Barnes, Constantine and Eusebius, 205; and Hanson, Search, 135.

يجدون آراء آريوس مقبولة من الناحية اللاهوتية، وقاموا بإلغاء قرار الحرمان الكنسي الصادر بحقه من مجمع الإسكندرية الكنسي. وأعلن الأساقفة المجتمعون إعادة قبوله على الفور في شراكة الكنيسة، وقاموا بإرسال خطاب شديد اللهجة إلى أسقف الإسكندرية يطالبونه بفعل الشيء نفسه. وللمرة الأولى في التاريخ (ولكنها لن تكون الأخيرة) فإن مجمعا كنسيًا ينعقد من أجل إلغاء قرار حرمان صادر من مجمع كنسي آخر. كانت تلك النتيجة الغريبة تعنى أن القس الذي قضى بحرمانه وطرده من الشركة مع المسيحيين الآخرين في مدينة ما كان هو نفس القس الذي رحب بدخوله شراكة كنيسة أخرى. لا يوجد أي سبب على وجه الخصوص يجبر الأساقفة في إحدى الأبرشيات على قبول المعتقدات أو القرارات التي أعلنت في أبرشية أخرى. فجميع الأساقفة كانوا متساوين (على الأقل من الناحية النظرية) وعلى الرغم من أن بعض الأساقفة وخاصة أسقف الإسكندرية وأنطاكية وروما كانوا يرأسون أقاليم واسعة ويتحكمون فيها، ولكن مع ذلك لا يوجد أسقف واحد كان يمكن وصفه بأنه صاحب السلطة العليا المطلقة باعتباره حامي العقيدة المسيحية الحقيقية. وكان واضحًا لو أن الإجراءات التي بدأت في مجمع أساقفة بيثنيا قد استمرت، لأصبح لكل أبرشية كنيستها وقوانينها ومعاييرها الخاصة لتعريف ما هو الدين الأرثوذكسي الصحيح، وما هي قواعد السلوك القويم.

تم تقديم الدليل على هذا الكلام بواسطة الخطوة التالية لآريوس، فبعد أن قويت عزمته بقرارات مجمع بيثنيا، فإن القس المثير للجدل سافر إلى لبنان في الجنوب، حيث كان أسقف طرابلس بولينيوس يظهر دعمًا كبيرًا لآريوس، ومن هناك ارتحل إلى فلسطين، إذ كان يوجد إنسان دين آخر واسع النفوذ، يدعى يوسابيوس القيساري

Eusebius of Caesarea عالم اللاهوت البارز، المستشار السابق للإمبراطور، ومن أوائل المؤرخين العظام للكنيسة المسيحية. كان يوسابيوس القيساري من ناحية العلم يفوق بكثير سميّه (يوسابيوس) النيقوميدي، لكن من ناحية المهارة والعزيمة والدهاء السياسي كان أقل منه بكثير. وكان يميل إلى الترجيح بين التيارات المختلفة تبعًا لتغير الظروف وموازين القوى السياسية، ولأن يوسابيوس النيقوميدي كان على علم بهذا السلوك منه، فإنه كتب على الفور إليه طالبًا منه دعم آريوس ضد ألكسندروس، وعندما وصل القس المنفي إلى ميناء قيسارية المدينة الرئيسية في فلسطين منذ قيام الإمبراطورية الرومانية بنهب وتدمير أورشليم (بيت المقدس) فإن الأسقف استقبله بحرارة بالغة.

في البداية وضع يوسابيوس القيساري كامل ثقله العلمي وراء آريوس وآرائه. كان يوسابيوس القيساري من المعجبين المخلصين لفلسفة أوريجين اللاهوتية، واعتقد بقوة أن أفكار أوريجين تؤيد الأفكار الجوهرية لآريوس، وأهمها أن الابن المخلوق أقل من الآب الأبدي الخالق. ولذلك أتبع يوسابيوس القيساري نفس سلوك سميّه النيقوميدي، وقام بعقد اجتماع كنسي يضم جميع الأساقفة الخاضعين لسلطانه. وانعقد هذا الاجتماع في مدينة قيسارية في عام 321 أو 322، وأسفر هذا الاجتماع مرة أخرى عن الدفاع عن معتقدات آريوس، والتأكيد على أنها تمثل الإيمان الأرثوذكسي، ومطالبة أسقف الإسكندرية بإعادته إلى منصبه الكنسي مرة أخرى.

وعندما وصلت الأمور إلى هذه النقطة فإن آريوس (مدفوعًا بالدعم الواسع الذي حصل عليه من أساقفة الشرق وخاصة من اليوسابين: النيقوميدي، والقيساري) قرر العودة مرة أخرى إلى الإسكندرية.

ومع أن عودته إلى الإسكندرية دون إذن ألكسندروس ليست جريمة (في ضوء عدم صدور أية قرارات رسمية بعد في حق آريوس من الإمبراطور أو من السلطات المحلية في الصراع الدائر بين الطرفين) إلا أنها كانت تحديًا صريحًا وواضحًا لسلطة أسقف الإسكندرية. وقد تم رفض طلب القس بعقد اجتماع علني مع الأسقف لمناقشة إعادة إدماجه مرة أخرى في الكنيسة، وهكذا عاد الشغب الليلي مرة أخرى إلى شوارع المدينة، لكن الأمر الذي كان يشكل خطورة أكبر وإن لم تكن ملموسة، هو تلك الاضطرابات التي كادت تعصف بالكنيسة الشرقية وتقسمها. فأريوس كان بمقدوره الادعاء بأنه يحظى بدعم جميع أساقفة كنائس الشرق وتأييدهم (باستثناء الإسكندرية بطبيعة الحال)، وأغلب هؤلاء الأساقفة كانوا يحظون بشهرة واسعة باعتبارهم لاهوتيين من المقام الرفيع. ومن أجل مواجهة هذا الوضع فإن أسقف الإسكندرية قام بإرسال خطابين إلى جميع الأساقفة خارج مصر (كانت سياسته قائمة على محاولة تعويض الضعف المؤسسي وعدم الشعبية التي يحظى بها بين كنائس الشرق عن طريق نيل التأييد من أساقفة الغرب، وتم التأكيد على هذه النزعة خلال عصر خليفته في منصب أسقف الإسكندرية أثناسيوس).

أحد هذين الخطابين، (والذي كتب على الأرجح بواسطة ألكسندروس نفسه)، يحذر فيه رجال الدين المسيحيين في كل مكان من آريوس ورفاقه، متهمًا إياهم بمحاربة المسيح على غرار اليهود، من خلال قيامهم بالوعظ بأن المسيح كان مثله مثل أي إنسان آخر، وهو الأمر الذي كان بمثابة التحريض على إغواء المسيحيين الأتقياء^[1].

1- Quasten, Patrology, vol. III, 14.

والخطاب الآخر كتب مسودته على الأرجح أثناسيوس شماس الكنيسة ونائب ألكسندروس، وفيه ينتقد يوسابيوس النيقوميدي، ويوجه تعليماته إلى رجال الدين والكنيسة الآخرين بعدم إطاعة تعليماته، وبشكل درامي يتهم آريوس وأتباعه بتمزيق ثوب المسيح^[1]. وقد استطاع ألكسندروس وأثناسيوس تأمين مائتي توقيع على هذين الخطابين (على الرغم من أن أغلب تلك التوقيعات كانت في حقيقة الأمر من رجال الدين المصريين) وذلك في محاولة منهم لمواجهة الانطباع السائد بأنهم يمثلون في آرائهم تلك مجرد أقلية صغيرة.

كان هذا ما وصل إليه الوضع المتأزم بين الطرفين في عام 325، عندما وصل هوسيوس إلى الإسكندرية مزوداً بخطاب من قسطنطين. ولو كانت الأمور عند هذه النقطة قد تم حلها عن طريق الاقتراع بين أساقفة الكنائس الشرقية لأدى هذا بالتأكيد إلى فوز مبين للحزب اليوسابي المؤيد لآريوس، لكن رد فعل الفريق المعادي للآريوسية لم يكن مجرد شجب، ولكنه كان ردّاً مصحوباً بالعنف. فـألكسندروس وصم فلسفة آريوس بأنها هجوم على ألوهية المسيح، وقارن أثناسيوس الآريوسيين بالذين قاموا بصلب المسيح. وهذه اللغة التصعيدية كانت في حقيقة الأمر دعوة صريحة لاستخدام العنف، وتدرجياً أخذ أتباع الطرفين ومؤيدوهم، وبشكل متزايد، في القتال العنيف ضد بعضهم البعض في معارك بشوارع (الإسكندرية).

والأدهى من هذا وبغض النظر عن عدد الأساقفة المطالبين بإعادة آريوس إلى مكانه القديم في الكنيسة، إلا أنه وحتى تلك اللحظة لم يكن واضحاً الجانب الذي يؤيده الإمبراطور، ولم يكن معروفاً إذا

1- Barnes, Athanasius and Constantius, 16.

ما كان سيقدر في النهاية عودة آريوس أم لا. كانت نزعة الإمبراطور الطبيعية هي الوقوف ضد التمرد والعصيان بكل أشكاله، ففي نهاية الأمر فإن ألكسندروس هو أسقف المدينة الذي مفترضاً أن تجرى سلطته على جميع القساوسة في مصر وليبيا. فوق ذلك كله، فإن قسطنطين لكونه غريباً من المتحدثين باللغة اللاتينية، لم يكن لديه الصبر الكافي لتحمل كل هذه السفسائية اللاهوتية اليونانية، وبالنسبة إليه فإن المسيح الذي ظهر إليه في الحلم وقاده إلى النصر، ومنحه إمبراطورية لكي يحكمها كان إلهاً.

في الوقت ذاته، فإن الحزب اليوسابي ومن خلال شبكته الواسعة من الأصدقاء والمؤيدين جعل الأمر يبدو وكأن انتصار الفريق المعادي للآريوسية لن يكون إلا جولة افتتاحية من نزاع مثير طويل المدى، سيكون من الانتشار والقوة إلى الدرجة التي من شأنها تهديد الوحدة المسيحية برمتها. وكان السؤال الملح هل من سبيل للتوصل إلى تسوية ما بين الطرفين؟

ولأن الأسقف هوسيوس لم يترك أية تفاصيل مكتوبة، حول تحقيقه في مصر، لذلك لا نعلم على وجه اليقين إذا كان قد عقد اجتماعاً مع أثناسيوس كما فعل مع ألكسندروس، وعلى الأرجح فإن هذا الاجتماع قد عقد بالفعل، فعلى الرغم من أن أثناسيوس في ذلك الوقت كان في العشرينيات من عمره، إلا أنه كان يحظى بالثقة الكاملة لألكسندروس، حيث كان يعرف عن أثناسيوس أنه على الرغم من صغر سنه إلا أنه كان عالماً لاهوتياً ضليعاً، بالإضافة إلى مواهبه الإدارية العالية التي تميزت بالصرامة والقوة في إدارة شئون كنيسة الإسكندرية إلى الدرجة التي جعلت ألكسندروس يعتبره يده اليمنى وبسميه كخليفة له على عرش سان مرقس (أسقفية الإسكندرية).

أعطى مظهر أثناسيوس الخارجي فكرة خاطئة عنه في الكنيسة، إذ كان رجلاً ذا شعر أحمر خفيف، وذا جسد ضئيل أقرب إلى أجساد الأطفال، ولكن هؤلاء الذين ظنوا أنه إنسان قليل الأهمية يمكن التلاعب به، سرعان ما سوف يصبحون آسفين على خطئهم الفادح في سوء تقديرهم إياه وتقليلهم من مكانته وقدراته.

تقول القصة الشعبية حول اللقاء الأول الذي تم بين ألكسندروس وأثناسيوس عندما كان الأخير مجرد صبي ينتمي إلى أسرة فقيرة ولم ينل حظاً من التعليم. حيث شاهد ألكسندروس الصبي الصغير الفقير على أحد الشواطئ العامة وهو يخاطب الأمواج وكأنه واعظ يحاول إقناعها! تأثر ألكسندروس بمنظر هذا الصبي الفقير الذي يحاول إقناع الأمواج، وقرر تبنيه واصطحبه معه إلى أسرته واهتم بتعليمه و تدريبه من أجل تحقيق حلمه بأن يصبح يوماً ما أعظم رجل دين في العالم المسيحي^[1]، ورويداً رويداً بدأ الفتى الصغير في نيل خطوة عالية عند الأسقف، إذ عمل أولاً كسكرتير له، ثم كشماس، وأخيراً اعتلى قمة الإدارة التي تعمل تحت إمرة ألكسندروس، واشتهر أثناسيوس بأنه كان يكتب الكثير من الخطابات والمواعظ التي يلقيها ألكسندروس، ولم يكتف بهذا بل كان ضيفاً دائماً للوعظ في منازل الأغنياء بمدينة الإسكندرية، تماماً كما كان يفعل في أحياء الفقراء،

1- تعددت الروايات حول اللقاء الأول بين ألكسندروس وأثناسيوس، وعلى الأرجح أن جميعها كتبت في فترات لاحقة لإضفاء صفة القداسة على أثناسيوس منذ الطفولة، فهناك رواية أخرى ذكرها الدكتور رأفت عبد الحميد في كتابه ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي حول اللقاء الأول بين ألكسندروس وأثناسيوس تقول إنه بينما كان ألكسندروس يتجول على الشاطئ فإنه شاهد مجموعة من الأطفال يلهون، قام أحدهم الذي هو بالطبع أثناسيوس بلعب دور الأسقف الذي يحاول إقناعهم بالمسيحية ومضى القصة فتقول إن ألكسندروس تأثر بقدرات أثناسيوس الخطابية في هذا السن المبكرة، وعلى الفور قرر أن يتبنى هذا الطفل النابغة - (المترجم).

وفوق هذا فإنه كان مستعدًا لاتباع وسائل العنف في شوارع المدينة إذا ما لزم الأمر لتحقيق أهدافه.

ولعل من المفيد أن نتخيل ماذا قال الزعيم المستقبلي للمعسكر المعادي للآريوسية لهوسيوس خلال إقامته بالإسكندرية^[1]، إنه بالتأكيد جادل مستخدمًا الحجج التي قبلها هوسيوس لاحقًا بأن التسوية بين آريوس وحلفائه أمر متعذر التحقيق وغير قابل للمناقشة. فالخلافات بين الآريوسيين وباقي المسيحيين لم تكن مجرد خلاف حول تبنى أو تغيير أفكار معينة، ولكنها ذهبت إلى بعض النقاط الجوهرية التي تحدد ما إذا كنت مسيحيًا أم لا. لماذا دافع الآريوسيون باستماتة عن فكرة أن الله أرسل إلينا المخلص الذي هو أقل من الله؟ لأنه، وبشكل جوهري، كانت فكرة الله السرمدي الذي تحول إلى إنسان تؤذيهم بشدة، تمامًا كما تؤذى اليهود، فلقد اعتقدوا أن تعريف المسيح باعتباره إلهًا من شأنه أن يقلل من مكانة الله الواحد القدير عن طريق تجسده في صورة مخلوق مادي من لحم ودم، ولكن (من وجهة نظر المعسكر المعادي للآريوسية) فإن الله استطاع، وقام بالفعل بالوجود في صورة إنسان من لحم ودم من أجل إنجاز خطته للخلاص دون أن يتوقف للحظة واحدة عن كونه إلهًا.

بالإضافة لهذا فإن الآريوسيين، ولأنهم كانوا متأثرين بالمنطق اليوناني،

1- Athanasius's works are collected in Philip Schaff and Henry Wace, eds. (original editor Archibald Robertson), *Nicene and Post-Nicene Fathers*, second series, vol. 4, *Athanasius; Select Works and Letters* (Peabody, MA: Hendrickson Publishers, 1994). His views are conveniently summarized in Hanson, *Search*, 415—458.

إن لم يكونوا سجناء له، فكروا في نطاق: إما - أو، وذلك يفسر لماذا اتهموا ألكسندروس وأتباعه بالسابلْيانية Sabellianism : ”وهى الهرطقة التي تدعي بأن الله و المسيح كانا مجرد جوانب (وجوه) أو حتى مجرد أسماء مختلفة لوجود واحد غير مقسم“^[1]. كان هذا الاندماج بين الآب والابن يعنى أن الابن ليس بشراً حقيقياً أو على الأقل فقط جسده كان بشرياً بينما عقله كان إلهياً، وعما إذا كان المسيح قد أكل أو شرب فعلاً، أو تم القضاء عليه مثله في ذلك كمثّل بقية المخلوقات البشرية فهذه كانت نقاط ساخنة للنقاش والمجادلة بين السابلْيانيين.

وعلى الرغم من أن أثناسيوس أكد أن آريوس كان محقاً في رفض طريقة التفكير تلك (تفكير السابلْيانيين)، إلا أنه استطرد قائلاً إنه بفعله هذا يكون قد وقع في النقيض تماماً لما يقوله السابلْيانيين، وهو الوقوع في فخ ”إما“ - ”أو“: إما أن يكون إلهاً كاملاً أو يكون بشراً كاملاً. ولم يستطع الآريوسيون أن يروا أو يتخيلوا أنه يمكن أن يكون الاثنين معاً، ولذلك كانت النزعة التي غلبت على طريقة تفكيرهم (على الرغم من إنكارهم ذلك) هي تغليب الطابع البشرى للمسيح، أو في بعض الأحيان تحويله إلى نوع ثالث من المخلوقات، ليس ببشر أو إله، كائن أقرب إلى الملاك أو شبه الإله، في حين جادل أثناسيوس بأنه يجب أن يكون إنساناً كاملاً وفي الوقت ذاته إلهاً كاملاً. هل من الممكن أن يخلصنا موت مجرد بشري عادي من ذنوبنا؟ يمنحنا الأبدية وفي النهاية يبعث

1- يمكن النظر إلى السابلْيانية على أنها النقيض للآريوسية، فبينما كانت الآريوسية تقلل من الجانب الإلهي في المسيح لصالح الجانب البشرى، فإن السابلْيانية كانت على العكس تنفي وجود أي طابع بشري للسيد المسيح، فلا فارق على الإطلاق من وجه نظرهم بين الله و بين المسيح- (المترجم).

أجسادنا من جديد؟ الإجابة بالتأكيد كانت لا. لكن هل يستطيع الله القادر الذي يمثل البداية والنهاية أن يتألم من أجلنا من غير أن يكون إنساناً؟ الإجابة كانت أيضاً واضحة مثل الإجابة على السؤال السابق، لهذا فإن مبدأ إما-أو يبدو معقولاً ومنطقيًا فقط لهؤلاء الذين تربوا وتعلموا على أسس منهج الفلسفة اليونانية، ولكن الحقيقة أن يسوع المسيح كان إنساناً حقيقياً وإلهًا حقيقياً^[1].

على الأرجح فإن هوسايوس وجد تلك الحجج والشرح الذي قام به أثاناسيوس مقنعة له، فهو يعلم أن رعاياه - شعوب أوروبا الغربية لن يقبلوا المسيح المتشابه معهم بدرجة كبيرة. فلقد كانوا مدركين أنهم خطاة ضعفاء، يجاهدون من أجل البقاء في وسط مليء بالعدوانية والكرهية. وبالتالي فإن المسيح الذي كانوا يريدونه ويحتاجونه كان لا بد أن يكون في صورة إله أعلى يستطيع أن يخلصهم وينجيهم من خلال رحمته وفضله ويمنحهم الراحة والطمأنينة من خلال معونة كنيسته. وفي الحقيقة فإن المذهب العقائدي لآريوس كان يهدف بشكل ضمني إلى تقليل الدور المؤسسي للكنيسة. فلئن كانت حياة وشخصية المسيح تهدف إلى خدمة المسيحيين العاديين باعتبارها مثالاً يحتذى به للسلوك القويم، فإن المهمة الرئيسية لرجال الدين المسيحي في هذه الحالة ستكون مساعدة الناس على تغيير أنفسهم، وليس الحفاظ على الوحدة الدينية والسياسية في أنحاء الإمبراطورية. وعلى الأرجح فإن ذلك كان سبباً آخر لتفضيل قسطنطين لحزب ألكسندروس وأثناسيوس، ذلك أن الكنيسة التي يحتاجها يجب أن

1- يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن تلك الأفكار هي التي تخيل المؤلف قيام أثاناسيوس بمحاولة إقناع هوسايوس بها، وبالتالي فإنها تعبر عن آراء الفريق المعادي للآريوسية - (المترجم).

تكون كنيسة موحدة تساعد على الحفاظ على الهدوء والنظام بين الشعب في جميع أنحاء الإمبراطورية. واتباع تلك الكنيسة هم أناس لن يصبحوا أبداً خالدين دون أن يقرر الله لأسباب لا يعلمها إلا هو منحهم الخلاص.

وبالفعل اتخذ هوسوس قراره، وسيكتب مباشرة إلى الإمبراطور مخبراً إياه أن الوصول إلى تسوية ترضى الطرفين معا هو أمر متعذر التحقيق. فالهرطقة الآريوسية لا يمكن تحملها ولا يمكن التسامح معها، بل يجب قمعها. وفي الوقت ذاته، فإنه يوصى باتباع استراتيجية من أجل القضاء على هذه الانقسامات في المجتمع المسيحي بشكل سريع وحاسم بقدر الإمكان.

كان أساقفة الشرق يتهايمسون منذ فترة على الحاجة الملحة لعقد مجمع كنسي عالمي (يضم أساقفة الشرق والغرب معاً) لمناقشة العديد من القضايا التي تزعج الكنيسة المسيحية المتنامية بسرعة كبيرة. وقد أوصى هوسوس قسطنطين بأن يعقد مثل هذا الاجتماع الموسع في الربيع، وحبذا لو عقده في مدينة ليست ببعيدة عن مركز قيادته، ربما في مدينة أنقرة، خاصة أن أسقفها مارسيلوس Marcellus معارض قوي لآريوس وحلفائه اليوسابين (النيقوميدي و القيساري)، ويستطيع الإمبراطور أن يستغل الاجتماع الكنسي لإقناع الأساقفة بإدانة آريوس والآريوسية. وكان تحقيق هذا الهدف سهلاً من وجه نظر هوسوس ليس فقط لأن تلك المسألة عادلة من وجهة نظره، ولكن لأن هوسوس قدر أن عدد قليلاً فقط من رجال الكنيسة يمكن أن يعارض رغبة القائد الأعلى لروما، الإنسان الذي وصفه يوسابيوس القيساري بأنه

محبوب الله العزيز^[1]، منقذ الكنيسة والحصن الرئيس لها^[2].

ولكن قبل انعقاد هذا المجمع الكنسي العالمي، كان لا بد أولاً من عقد مجمع كنسي محلي دون أي تأخير، في مدينة أنطاكية لكي يقرر من الذي يجب أن يخلف الأسقف الراحل فليجونئوس كأسقف جديد للمدينة، كانت مدينة أنطاكية معقلاً رئيسياً في الصراع على النفوذ في الكنائس الشرقية، إذ كان نفوذ أسقف تلك المدينة الكبيرة يمتد ليشمل رجال الدين في سوريا ولبنان وفلسطين وكبادوكيا وشبه الجزيرة العربية وأيضاً الأراضي الممتدة شرق حدود الإمبراطورية الفارسية. كانت تلك المدينة الجميلة مؤخراً مسرحاً للعديد من الاضطرابات والصخب، فالأسقف المتوفى كان حليفاً قوياً لألكسندروس مثله تماماً مثل يوستاسيوس Eustathius المرشح المحتمل لخلافته على عرش أسقفية أنطاكية والذي يحظى بدعم وتأييد ألكسندروس، وفي المقابل فإن الآريوسيين بزعامة يوسابيوس القيساري قاموا بدعم أسقف آخر كمرشح لهم على عرش أسقفية أنطاكية، وكما هي العادة فإن كلا الطرفين المتنازعين كان لديه جماعات وعصابات شوارع داعمه له. كانت النتيجة هي تفشي أعمال العنف والشغب في المدينة، وعلى الرغم من ضراوة العنف الذي شهدته شوارع الإسكندرية إلا أن ما شهدته شوارع أنطاكية كان أشد ضراوة.

كانت تلك هي فرصة هوسيوس ليس فقط لضمان تولي منصب أسقفية أنطاكية إنسان من الحزب المعادي للآريوسية، ولكن أيضاً لتوجيه ضربة

1- من المعروف أن يوسابيوس القيساري كان من أكثر المعجبين بشخصية الإمبراطور قسطنطين إلى درجة أنه قام بتأليف كتاب لتمجيد قسطنطين تحت اسم " حياة قسطنطين العظيم" ولذلك استحق لقب مداح قسطنطين (المترجم).

2- Eusebius, History of the Church, 329.

قاضية إلى يوسابيوس القيساري قبل انعقاد المجمع الكنسي الكبير. كان معلومًا أن الاجتماع الكنسي المقرر عقده في أنطاكية سيهيمن عليه الأساقفة المعادون للآريوسية، والذين تم ترسيمهم عن طريق الأسقف الراحل فليجونئوس، ولعلمهم بهذا فإن العديد من الأساقفة الداعمين للآريوسية ومن بينهم بولنيوس أسقف طرابلس أرسلوا اعتذارات عن حضور الاجتماع، لكن الأمر كان مختلفًا مع يوسابيوس القيساري الذي قرر الحضور إلى الاجتماع بكل مظاهر الأبهة المحيطة به، حيث وصل مع حاشية ضخمة من مؤيديه. ربما اعتقد يوسابيوس العجوز أن لديه القدرة على تغيير اتجاه الاجتماع بفضل بلاغته الخطابية، أو ربما اعتقد أن نفوذه وسمعته كمتحدث باسم المسيحية وعلاقاته السابقة مع الإمبراطور سوف تجعله غير قابل للهزيمة، وإذا استطاع هوسيوس أن ينفذ مخططاته فإن يوسابيوس سوف يتعلم سريعًا درسًا حول القابلية للهزيمة.

بعد التشاور مع قادة الكنيسة ومضيفه في الإسكندرية، وعلى الأرجح بعد أخذ الإذن من قسطنطين لعقد مجمع كنسي في أنطاكية، فإن هوسيوس أبحر عبر نهر أورتوس ليصل إلى أنطاكية في بداية عام 325 للمشاركة بنفسه في الترتيبات النهائية للاجتماع الكنسي، ومع وصول بقية الأساقفة، تولى هوسيوس رئاسة الاجتماع، وكانت وثيقة الإيمان قد كتبت بالفعل. وقد لاقت تلك الوثيقة والتي ربما تكون كتبت بواسطة ألكسندروس أو أثناسيوس استحسان ستين من الأساقفة المجتمعين أو ما يقارب هذا العدد. كان على الأساقفة أن يؤكدوا من بين أمور أخرى على إيمانهم بـ "الرب الواحد يسوع المسيح، الابن الوحيد المولود، المولود ليس من العدم ولكن من الآب، ولهذا فإن الابن كان دائمًا موجودًا، لأنه غير قابل للتغير أو التحول"

ولهذا فإنه صورة ليس لإرادة الله أو أي شيء آخر إلا الوجود الفعلي والحقيقي للآب^[1].

وربما لأن لهجة معاداة الآريوسية لم تكن واضحة بالقدر الكافي لحرصهم على وضع اللعنة الكنسية (الأنثيما) مع التهديد بالحرمان الكنسي، ويحتمل أن تلك الأنثيما كانت أول لعنة رسمية تصدر من مجمع كنسي ضد المخالفين في المذهب^[2]. وقد فُرضت على كل من يعتقد بالآراء المذهبية التي تمت إدانتها في هذا المجمع الكنسي، وهي الآراء التي تنظر إلى المسيح باعتباره مخلوقًا، وليس خالقًا، أو أنه غير أبدي أو عدم الإيمان بأن طبيعته غير قابلة للتغير تمامًا مثل الله.

أعلن جميع الحضور بمجمع أنطاكية التزامهم بوثيقة الإيمان تلك، وبالأنثيما (اللعنة الكنسية) التي أصدرها المجمع باستثناء ثلاثة أساقفة فقط هم ثيودوسيوس أسقف ليديا، ونارسييس النوريني، وبالتأكيد يوسابيوس القيساري، وبصفته رئيسًا للاجتماع قام هوسيوس باستدعاء كل أسقف من هؤلاء الثلاثة واستجوابه حول إيمانه، وجميعهم عرضوا آراءهم، بعدها أعلن المجمع الكنسي أن جميع تلك الآراء هي هرطقة وأصدر قرار الحرمان الكنسي بحق الأساقفة الثلاثة.

حرمان كنسي ضد يوسابيوس القيساري، يالهول الصدمة، كان لهذا القرار صدى واسع في العالم المسيحي بأكمله، تمامًا كما توقع هوسيوس، وأصبح معلوما للحزب الآريوسي أنه في المجمع المسكوني العالمي المزمع عقده قريبًا فإن الأسقف ذا المكانة العالية يوسابيوس القيساري لن يكون بمقدوره زعماء الآريوسية من اضطهاد الأرثوذكس

1- Hanson, Search, 149.

2- Ibid., 150.

المسيحيين لهم، أو من غضب الإمبراطور عليهم، فهو نفسه يعاني الآن من وطأة هذا الاضطهاد. وفي محاولة من المجمع الكنسي المصغر المنعقد في أنطاكية عام 325 للتخفيف من وطأة قرار الحرمان الصادر في حق قادة الآريوسية الثلاثة وزعمائهم، قرر المجلس أنه بإمكان المجمع المسكوني الكبير المقدس المزمع عقده بمدينة أنقرة^[1] أن ينظر مرة أخرى في قرار الحرمان ويقرر عودة الأساقفة الثلاثة إلى شراكة الكنيسة إذا ما أبدوا ندمهم على أفكارهم المهرطقة تلك. وهكذا فإن المجمع وفر طريقًا آمنًا للتوبة مصاحبًا لقرار العقاب المستحق الذي أُنزل بهؤلاء الأساقفة، وترك باب التوبة مفتوحًا أمامهم للعودة إلى الكنيسة الأرثوذكسية في حالة تخليهم عن أفكارهم الآريوسية. وعقب انتهاء أعمال مجمع أنطاكية، عاد هوسيوس أدراجه مرة أخرى إلى نيقوميديا لإطلاع قسطنطين على نتائج تلك الرحلة. بالطبع كان هوسيوس يعلم أن المرحلة الحاسمة والفاصلة في هذا النزاع ستحدد في المجمع المسكوني الكبير المزمع عقده قريبًا، والذي كان يأمل أن يسمح له الإمبراطور بترؤسه كما في المجلس المصغر في أنطاكية، ولكن الأمور لن تمضي كما يشتهي هوسيوس لترؤس المجمع، إذ كانت هناك مفاجأة تنتظره.

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 213—214.

الفصل الرابع

المجمع المقدس الكبير

كان قسطنطين مسروراً بما توصل إليه مبعوثه الخاص. ولم يكن هوسيوس بحاجة إلى أي تلميح لكي يعتقد أن الإمبراطور سوف يجعله يترأس المجمع المسكوني القادم. بل إن قسطنطين نفسه ربما اقترح فعلاً مثل هذا التعيين متأثراً ببراعته وحسمه في إدارة المجمع الكنسي في أنطاكية. لكن كان هناك تغير واحد في تلك الخطة ربما فاجأ الأسقف الإسباني نفسه، خاصة أن الدعوة للمجمع المسكوني كانت قد أرسلت بالفعل إلى أكثر من أربعمئة من قادة ورجال الكنيسة حول العالم، فقسطنطين وعلى نحو مفاجئ قرر تغير مكان الاجتماع من أنقرة لمسافة 200 ميل في اتجاه السهل الأناضولي إلى مقر إقامته الصيفي على بحيرة نيقية Nicaea بالقرب من نيقوميديا، وتم إرسال الدعوة المعدلة بالمكان الجديد إلى المدعوين مع مبعوثين لمقابلة الأساقفة الذين ارتحلوا بالفعل متوجهين إلى أنقرة. وعلى الرغم من تغيير مكان المجمع إلا أنه لم يحدث تغير في ميعاد بدء أعماله المقرر في أوائل مايو من عام 325 كما كان مخططاً له من قبل.

لماذا هذا التغير المفاجئ؟ كان السبب المعلن للجميع هو جودة المناخ والهواء في نيقية، وجمال البحيرة، والتجهيزات الجيدة الراقية لاستقبال مثل هذا الخشد الضخم من الضيوف المتوقع حضورهم

هذا الاجتماع الضخم، وصعوبة الرحلة إلى أنقرة بالنسبة لبعض الأساقفة. لكن في الواقع فإن السبب الحقيقي والأهم لم يكن من بين تلك الأسباب المعلنة. فأنقرة كانت هي مدينة الأسقف مارتيلليوس Marcellu، ومع أن مارتيلليوس كان أسقفًا بارعًا، إلا أنه كان متهورًا بعض الشيء، وكانت له بعض الآراء العقائدية المثيرة للجدل بصفته نصيرًا قويًا لفكرة تماثل وتطابق المسيح مع الله، والتي اعتبرها حتى المعسكر المعادي للآريوسية بأنها مثيرة للجدل، لذلك فإذا ما أسفر المجمع المسكوني (كما كان متوقعًا) عن إدانة الآريوسية فإن البعض قد يظن أن مكان الاجتماع وأسقفه مارتيلليوس لعب دورًا في هذا القرار، وأن قرار الإدانة كان معدًا سلفًا^[1].

وأكثر من هذا، فإن قسطنطين بدأ منذ الآن ينظر إلى نفسه باعتباره الأب الروحي لهذا المجمع، وبدأ يلعب دور المضيف لهذا الحشد الضخم من الأساقفة. ورغب في التدخل في مجرى أحداث المجمع، ولعل هذا هو السبب الذي لم يجعله ينقل المجمع الكنسي إلى مدينة نيقيوميديا نفسها (المقر الإمبراطوري لقسطنطين)، نتيجة للوجود القوي ليوسابيوس النيقوميدي وهيمنته على رجال الدين في تلك المنطقة، وما قد يعنيه هذا من تقليل قدرة قسطنطين على التحكم في مسار أعمال المجمع، وبالمثل لم يكن من الممكن اختيار روما الجديدة (المدينة التي أصر الناس على إطلاق اسم القسطنطينية عليها) كمقر للمجمع الكنسي لأن البلاط الإمبراطوري كان ما يزال في طور الإنشاء وغير

1- ولكن ألا يوحى هذا التصرف بنقل المجمع من أنقرة خوفًا من ربط الناس بين قرار الإدانة وبين أسقف أنقرة المعادي للآريوسية بأن قرار إدانة آريوس كان بالفعل معدًا سلفًا قبل انعقاد المجمع، ولذلك تخوف قسطنطين من الربط بين قرار الإدانة وبين أسقف المدينة مارتيلليوس (المترجم).

مستعد لاستقبال الضيوف بعد، ومن ثم فلتكن نيقية إذن.
عقد قسطنطين آمالاً كبيرةً على هذا الاجتماع للأساقفة من أجل
إنهاء الصراع المرير الذي كاد يعصف بوحدة الكنيسة الرومانية
(ويهدد أحلامه في استخدام الكنيسة من أجل توحيد الإمبراطورية
والشعب الروماني) واستهلال عصر جديد من التناغم. كانت نيقية
بمثابة المنتجع الريفى المثلالى لعقد مثل هذا الاجتماع الكبير. وكان
أسقف نيقية الذى تولى منصبه حديثاً معروفاً عنه أنه من أتباع
المذهب الآريوسى، ولكنه لم يكن من تلك النوعية الأشخاص ذات
التأثير الكبير، وعملياً كان سيختفى ولن يترك أى أثر فى حالة ما إذا
ترأس قسطنطين هذا الاجتماع.

ومع أن الإمبراطور لم يكن قد تم تعميده بعد، إلا أنه سعى أن
يقدم نفسه باعتباره أسقفاً لجميع القادمين من خارج المدينة، وكان
هذا الأمر أشبه بالمزحة ولكنها فى الواقع لم تكن مزحة بالكامل.
كان القصر الإمبراطورى المشيد على البحيرة به كافة التجهيزات
اللازمة لاستضافة فريق عمل الإمبراطور الشخصى الضخم، ولم
يكن متوقعاً فى البداية أن يقوم هذا الفريق بالكثير من الأعمال
لو جرت الأمور كما كان مفترساً لها أن تجري. فمهمة الإمبراطور
كمضيف للأساقفة من قبيل الوظائف التشريفية فقط، ومن المفترض
ألا يكون أكثر من مراقب يلاحظ باهتمام أعمال المجمع دون أى
تدخل حقيقى فى مسارها. ولكن تغيير مكان الاجتماع أعطى دلالة
قوية على تصميم وعزم الإمبراطور على لعب دور أكبر بكثير لما كان
مخططاً له من قبل.

وكان يوجد شىء آخر، شىء أكثر من كونه مجرد الاعتزاز بالذات، أو
كونه استراتيجية ضد الآريوسية هو ما حفز الإمبراطور وجعله يعرض

تلك الاستضافة الشخصية لمئات من الأساقفة المسيحيين (بعضهم أقام في مقر الإمبراطور الشخصي). كان هذا الحافز أمرًا لم يجرؤ أحد من الحضور على مناقشته في العلن مع قسطنطين: وهو المصير الغريب الذي لاقاه زوج أخته ليكينيوس Licinius.

فكما هو معروف، فقد قام قسطنطين بتزويج أخته كونستانيا Constancia للقائد العسكري ليكينيوس عندما كان الاثنان يحكما الإمبراطورية معا كحاكمين متحدتين قبل اندلاع الحرب الأهلية بينهما في عام 324، وبعد خسارة ليكينيوس لمعركته الأخيرة في الحرب عند كريسوبولس في آسيا الصغرى، لجأ إلى نيقوميديا مقر إقامة قسطنطين ملتمسًا رحمة الإمبراطور، وهناك لجأ إلى كل من الأسقف يوسابيوس الذي كان مرشدًا ومعلمًا لأخت قسطنطين، وإلى زوجته أخت الإمبراطور لكي يتشفعا له لدى الإمبراطور قسطنطين للحفاظ على حياته، وبالفعل وجدا الإمبراطور شهيمًا وكريمًا، فكيف له أن يرفض العفو عن زوج أخته، خاصة إذا كان المتشفع له رجل دين مبعلاً تقيًا مثل يوسابيوس؟ ليكينيوس نفسه حضر إلى معسكر قسطنطين، وأذل نفسه أمام الحاكم الجديد للإمبراطورية، وطلب العفو منه. وقد استجاب قسطنطين بكرم لهذا المطلب، وأعطى عدوه السابق ممرًا آمنًا إلى مدينة سالونيكيا، وأقسم يمينًا مغلظًا بعدم إيذائه هو أو أسرته؟ وعقب هذا الحادث بعدة أشهر وبعد إرسال الدعوة إلى انعقاد المجمع الكنسي الكبير، فإن بعض الأنباء المزعجة أتت من اليونان بأنه تم قتل ليكينيوس عن طريق الخنق بواسطة قاتل محترف في منزله، ووجدوا ابنه ذا التسعة أعوام مقتولاً أيضًا معه. وقد اختفى القاتل دون أن يترك أي أثر أو دليل، ولم يعرف أحد شيئًا عنه.

وبشكل رسمي، فإن جريمة القتل تلك ظلت مجهولة، ولم يعلن أبدًا

عن المسؤول عنها. ولكن ما أثار الريبة حول مسؤولية قسطنطين (بشكل مباشر أو غير مباشر عن تلك الجريمة) أن بعض الأخبار المتداولة أشارت إلى أن قصر ليكينيوس (في سالونيكيا باليونان) قبل مقتله كان أصبح مقرًا لتجمع النبلاء الساخطين والناقمين على حكم قسطنطين وأعداء الإمبراطور الآخرين، واعتقد على نطاق واسع أن إصرار ليكينيوس على التدخل في سياسات الحكم وشؤونه في الإمبراطورية جعل منه ومن نسله خطرًا دائمًا على سيطرة قسطنطين على الغرب. وعلى الأرجح كان على قسطنطين أن يتعامل مع الأمر بنفس الطريقة التقليدية التي تتم بها معالجة تلك الأمور في مثل تلك الحالات. ولهذا فإن القليل من العجب قد يطرأ على المرء عندما يعلم أن قسطنطين ظل أغلب أيامه كإمبراطور دون أن يعتنق المسيحية بشكل رسمي، ولم يتم تعميده إلا على فراش الموت^[1]. فقسطنطين كان يخشى في حالة تعميده باعتباره إمبراطورًا مسيحيًا أو حتى مجرد معتنق جديد للمسيحية أن يجد نفسه في موقف يتعين عليه فيه أن يختار بين خسران السلطة أو خسران الحياة الآخرة.

فباعتلائه عرش الإمبراطورية (واعتناقه المسيحية بشكل غير رسمي دون تعמיד)، فإن قسطنطين لم يكن قد اكتفى بعد من القوة، أو زهد في السلطة، أو حتى تخلص من الآثام المصاحبة لها والضرورية للمحافظة عليها. وربما ظن الإمبراطور أن ترأسه أكبر اجتماع لقادة العقيدة في تاريخ المسيحية ربما يعوض أمام أعين الناس، ومن يدري..... ربما أيضًا أمام أعين الله عن عدد لا بأس به من زلاته الأخلاقية.

لم تكن الحالة المزاجية لأغلب الأساقفة المتواجدين في مدينة نيقية

1- القصة الشائعة أن قسطنطين أراد تأخير التعמיד إلى آخر لحظة في حياته حتى يرتكب ما شاء له من الآثام والشور، ثم يأتي التعמיד فيزيل كل هذه الآثام والشور - (المترجم).

Nicae لحضور المجمع المسكوني ميالة للنقد أو التقريع، ولم يبد عليهم أنهم حتى مشغولون بقضية الخلاف الآريوسي أو أي خلاف آخر على أجندة أعمال المجمع (على الأقل في البداية).

وكما كتب يوسابيوس القيساري لاحقًا، فإنهم شعروا كما لو كانوا يعيشون معجزة من نوع ما^[1]. فها هو ذا حاكم مسيحي للإمبراطورية الرومانية العظيمة يدعوهم إلى منزله، ولم يكتف فقط بدعوتهم، ولكنه تعهد أيضًا بدفع تكاليف رحلتهم ومعيشتهم خلال الأشهر التي يظلون فيها بعيدًا عن مدينتهم، ومع استمرار وصول الأساقفة في جماعات على نيقية زرافات، فقد احتشد في المدينة أكثر من مئتي وخمسين من أكثر رجال الكنيسة نفوذًا وقوة، مصدقين بصعوبة حسن طالعهم الذي أعطاهم تلك الفرصة الفريدة.

فقبل أعوام قليلة من هذا التاريخ، وخلال اضطهاد ليكيوريوس للمسيحيين، فإنهم كانوا يتساءلون بينهم وبين أنفسهم هل من الممكن أن يأتي الوقت الذي ينتهي فيه هذا الاضطهاد. والآن فإن قسطنطين نفسه يقدم لهم من الفضل والنعم ما يتعدى أقصى أحلامهم تطرفًا، ففي أقل من عام واحد قام قسطنطين بإعادة بناء وترميم كافة الكنائس، وإعادتها مرة أخرى للمسيحيين، وضمن رجوع المسيحيين إلى وظائفهم السابقة، والعمل على استعادتهم شرفهم المسلوب منهم، واستعادة كامل حقوقهم المدنية مع الحصول على التعويضات الكاملة من الخزائن الإمبراطورية إذا لزم الأمر عن أي ممتلكات ضائعة أو مدمرة، وقام بمنح رجال الدين المسيحيين الامتيازات التي كانت ممنوحة في السابق لطبقة للكهنة الوثنيين،

1- Eusebius, *Life of Constantine*, quoted in Fox, *Pagans*, 655.

ومن ضمن تلك الامتيازات الإعفاء من الضرائب والجبايات التي كان يسحق تحت وطأتها أكثر مواطنين الإمبراطورية ثراء، بل ذهب (قسطنطين) إلى حد الهجوم على الديانة الوثنية، ومع أنه لم يحظرها بالكامل^[1] إلا أن مسلكه كان قريباً للغاية من تجريم الوثنية، حيث أصدر حظراً على تشييد أية معابد وثنية جديدة بالإمبراطورية، أو استشارة العرافين أو القيام بطقوس الأضحية بالحيوانات، ومع أن قرارات الحظر تلك كانت تنفذ بشكل متقطع ولم تنفذ بشكل صارم إلا أن هذا لم ينتقص من قيمتها الرمزية. ومع استمرار تدهور الدين القديم، وتشجيع الدولة الرسمي للمسيحية، فإن المتحولين الجدد من المواطنين الرومان أخذوا يتدفقون في أمواج لاعتناق المسيحية. بصفته مسؤولاً عن جميع هذه التحولات، كان قسطنطين في موقف قوى يمكنه من التأثير على جميع الأطراف، أو ربما حتى إملاء رغباته على مجرى الأحداث في نيقية. كان الإمبراطور بطبعه إنساناً نافذ الصبر وحاسم، لم يفقد أبداً الأمل في حل سريع للخلاف الآريوسي والخلافات الأخرى التي تهدد التوسع السريع للكنيسة. لكنه كان مدرّكاً أن أي تدخل قاس في هذا الخلاف الذي تشعب وتداخلت أصوله وجذوره أكثر بكثير مما اعتقد سابقاً قد يكون له الكثير من النتائج غير المرغوبة. ولقد اتفق مع وجهة نظر هوسيوس بأن هذا الخلاف يجب أن ينتهي في صالح ألكسندروس والفريق المعادي للآريوسية. وكان السؤال هو: كيف يمكن إنجاز مثل هذه المهمة بالطريقة التي لا تجعل الأساقفة يغادرون نيقية أكثر انقساماً مما كانوا عليه عند وصولهم المدينة؟

1- لم يصدر قرار حظر الديانة الوثنية في الإمبراطورية الرومانية إلا في عصر الإمبراطور ثيودسيوس الأول في نهاية القرن الرابع الميلادي - (المترجم).

كان عنصر الوقت جزءًا من الإجابة على هذا السؤال. واعتمادًا على قوة اليوسابين (أنصار الآريوسية)، وعددهم، وعمق مشاعرهم، فإن هزيمة الآريوسية كانت ستتطلب على الأرجح بعض الوقت من أجل إقناع جميع المشاركين بالاتفاق على رأى واحد. كان قسطنطين مستعدًا إذا اقتضى الأمر أن يمضي الصيف كله في نيقية، وبالمثل فإن الأساقفة الذين استغرقت رحلتهم أسابيع للوصول إلى نيقية لم يكونوا يتوقعون أن يمضوا فترة أقل من تلك التي توقعها الإمبراطور. الأمر الأكثر أهمية من عنصر الوقت كان الإجراءات الواجب إتباعها في المجمع المسكوني. كانت المناقشات العامة من الأمور المسموح بها، ولكن على الأرجح لم يكن من المتوقع لمثل هذه المناظرات اللاذعة أن تغير من موقف أو آراء أي من الطرفين المتخاصمين. ولكن عملهما معا لإيجاد عقيدة ومذهب واحد ربما يعطى الأساقفة الفرصة لكي ينصتوا باهتمام وتركيز أكبر إلى بعضهم البعض. لعلهم يتمكنون من بناء بعض العلاقات الجديدة، وربما استطاعوا التوصل إلى لغة تفاهم مشترك بين بعضهم البعض.

في المجالس السابقة كان يتم إجبار المنشقين والمخالفين على الموافقة بالإكراه على وثيقة الإيمان الصادرة من هذا المجمع، ولكن ما كان مجمع نيقية يحاول الوصول إليه ليس الإجماع عن طريق الإكراه، ولكن خلق حالة من التناغم بين الأساقفة المشاركين وإنهاء حالة الشقاق في الإكليروس المسيحي.

بدأ الأساقفة في الوصول مع حاشيتهم في أوائل مايو، ورحب بهم قسطنطين بحرارة، وتأكد من إسكانهم جميعًا طبقًا لمكانتهم وأعمارهم: إما في القصر الإمبراطوري، أو المباني العديدة المتناثرة حول حافة البحيرة. كان عدد لا بأس به من هؤلاء الأساقفة يحمل

آثارًا وعلامات من عصر الاضطهاد القريب، فبعضهم كان يوجد على إحدى عينيه عصابة لتغطية عين مفقودة، أو عرجًا نتيجة لأوتار ركة، أو وتر أخيل مقطوع، أو تشوه في الظهر نتيجة للعمل الشاق في المناجم الفينيقية. كم كان مريحًا ذلك الإحساس بتوفير بعض وسائل الراحة التي استحقها منذ أمد هؤلاء الذين عانوا كثيرًا في السابق. وكان امتنان هؤلاء لمثل تلك المعاملة مؤثرًا بالقدر نفسه بعض هؤلاء الأساقفة ظنوا لوهلة أنهم انتقلوا إلى مملكة السماوات أو على الأقل إلى غرف فرشت على مستوى عال من الرفاهية التي لم يعتادوها من قبل.

وفي الوقت ذاته، فإن هذا الإحساس الجديد الذي بدأ يسرى في الكنيسة لم يكن في حقيقة الأمر مساعدًا على وحدتها، بل على العكس كان سببًا في ظهور التصارع والنزاع بين المسيحيين بعضهم البعض. ففي خلال عصر الإرهاب والاضطهاد فإن أغلب القادة المسيحيين كان ما يشغل بالهم ليس النقاء العقائدي بقدر ما كان يؤرقهم مسألة البقاء مع نير الاضطهاد، وكانت تلك هي القضية التي تشغل تفكيرهم اليومي. لكن الانتصار أدى إلى ظهور نوعية من الأسئلة التي طالما منع الاضطهاد ظهورها على السطح مثل: ما هي أهداف الانتصار؟ وما هو الشكل الذي يجب أن تكون عليه أي إمبراطورية مسيحية في المستقبل؟ هل المسيحية التي ظهرت وانتصرت بعد سنوات طويلة من الكدح والمعاناة يجب أن تكون ديانة لجميع الأشخاص في تلك الإمبراطورية؟ أم تكون فقط للنخب وهم أولئك الذين يرقون بأخلاقهم إلى درجة محددة من الفضيلة والإيمان؟ هل يجب أن تكون المهمة الأولى لرجال الدين المسيحيين هي مساعدة رعاياهم على تهذيب أنفسهم والعمل على كمالها؟ أم

أن مهمتهم فقط هي ممارسة الشعائر المقدسة؟ أو حتى إدارة شئون الكنيسة والحفاظ على النظام، تمامًا كما كانت تلك هي مهمة رجال الدين والكهنة الوثنيين؟ ما هي درجة الوحدة العقائدية والمذهبية الضرورية والصحية لنمو الكنيسة؟ إلى أي مدى يجب أن تخضع الكنيسة إلى قواعد ونظم محددة؟ وإلى أي مدى يجب أن تخضع إلى سلطة مركزية موحدة؟ ما هي العلاقة التي يجب على الأساقفة أن يقيموها مع الرهبان ورجال الدين؟ ومع الأباطرة ورجال الإدارة؟ مثل هذه المسائل كانت تثار على استحياء في البداية وبشكل متفرق، ومع هذا كان من المتعذر على المسيحية أن تصبح إيمانًا عالميًا أو أن تصبح الدين الرسمي للدولة دون الإجابة أو الوصول إلى تسويات معقولة لمثل تلك الأسئلة. إن أحد الأسباب للضجة الكبيرة التي أثارها الخلاف الآريوسي والنزاعات الدينية المكثفة حتى يومنا الحالي هو أن مثل تلك الخلافات والقضايا العقائدية المذهبية كانت تعمل وكأنها بمثابة عدسات مكبرة لمشاكل أخرى متعلقة بمثل هذا الخلاف، ليس من الضروري أن تكون قضايا مذهبية، ولكنها قد تتعلق بأحد الأسئلة السابقة التي تحتاج إلى إجابات حول القضايا اللاهوتية المتنازع عليها.

كانت تلك الخلافات حول العقيدة المسيحية لها حدودها وقواعدها بنفس درجة إلحاحها وأهميتها، فالآلهة القديمة غير الحقيقية فشلت في تحقيق الطمأنينة للبشر، وأصبح العالم مكان غريبًا ومحيرًا وملينًا بالعديد من المخاطر الجديدة، وفي الوقت ذاته مليئًا بالمغريات والآمال وكان البشر في حاجة ملحة للعثور على سبب يبرر وجودهم (ولو كان متاحًا، فلا بأس من معرفة أقدارهم ومصائرهم أيضًا)، من خلال الإيمان بالله الحقيقي، وتحديد علاقته بدقة بباقي أشخاص

الجنس البشري، لكن ما حدث هو أن محاولة تعريف علاقة المسيح بالله وعلاقته بالإنسان بلورت أيضاً أسئلة ومخاوف أخرى، وكان أحد تلك الأسئلة الأساسية هي إلى أي مدى كانت قيم وعادات العالم القديم صالحة للتطبيق، ويمكن الاسترشاد بها في طريقة التفكير والحياة الواجب تباعها في الإمبراطورية المسيحية؟ بعض المسيحيين مثل آريوس ويوسابيوس النيقوميدي كان لديهم شعور باستمرارية التاريخ واتصاله، ولكن مثل هذا الشعور لم يتواجد عند أكثرية المسيحيين. وأمثال هؤلاء الذين كانت مبادئهم وعلاقاتهم الاجتماعية الواسعة لا تمانع في صياغة وتطوير العديد من المثل المتفائلة، والإيمان بحرية ممارسة الشعائر الوثنية في الإمبراطورية، بدت لهم المسيحية باعتبارها الامتداد الطبيعي والتطور الحادث في اليهودية، مثل تلك الأفكار والمواقف بدت أقرب إلى مواقف الآريوسية أكثر من الأطراف المسيحية الأخرى. وعلى العكس فإن المعسكر المعادي للآريوسية كان ينظر إلى وجوده باعتباره علامة فاصلة في التاريخ تجب كل ما قبلها، وهؤلاء هم الذين طلبوا بإلحاح بتعديل وتطوير المسيحية من أجل إضفاء طابع من الغموض أو حتى الحذف التام للتميز السابق بين الآب والابن.

من منظور وقتنا الحالي، ربما يبدو غريباً أن ننظر إلى ما يطلق عليه: "الهرطقة الآريوسية" باعتبارها وجهة نظر محافظة، ولكن في القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع لم يكن ينظر إلى وجهة النظر القائلة بإنسانية المسيح، واختلاف طبيعة الله عن أي طبيعة أخرى باعتبارها هرطقة. على العكس من هذا فإن إخضاع الابن للآب كان طريقة منطقية ومعقولة للمحافظة على معتقدات الفرد حول السبب الأول والفريد للخلق غير المدرك بشكل كبير، عن طريق تصوير المسيح

باعتباره مثالا يحتذى به لباقي البشر للتطور والنمو الأخلاقي. بالنسبة للشباب المتشدد (المقاتلين) من أمثال أثناسيوس، فإن الطرق القديمة للتفكير والقيم الثقافية الباقية أصبحت بشكل متزايد غير ذات صلة بالديانة المسيحية، فالإنسانيات والمنطق اليوناني بالنسبة له ما هي إلا أشياء ضحلة، واليهودية بالنسبة لهؤلاء المتشددين ليست متعارضة فقط مع المسيحية بل إنها عدائية، وبينما كانت قلة مثيرة للإعجاب من الرهبان من أمثال الراهب أنطونيوس^[1] كانوا يتطلعون للوصول إلى الكمال في قلاياتهم في الصحراء، فإن أغلبية الناس كانت حاجاتهم الملحة هي الشعور بالأمن، وفقط كان الإله القادر والكنيسة القوية والإمبراطورية المتماسكة الموحدة هي التي يمكن أن تحقق مثل هذا الشعور، وهي التي يمكنها مساعدة هؤلاء البائسين من الناس في توفير الأمن الذي طالما تاقوا إليه.

ولم يكن مفاجأة أن نجد قسطنطين مشدودا بشكل طبيعي إلى هذا الاتجاه (الأخير)، فعلى الرغم من أنه آمن بالتطور الأخلاقي، لكنه كان متأكدا أنه لا يمكن تحقيق مثل هذا التقدم الأخلاقي دون سلطة حقيقية أو قواعد منظمة تضمن التجانس والوحدة. بالإضافة إلى أنه كان يكن مقننا لليهودية على المستوى الشخصي^[2]، (وبالتالي لم يكن من المحبذين لتصويرها على أنها امتداد للمسيحية وجذور لها كما يرى الآريوسيون). وأدت تجربته الشخصية إلى وصوله إلى قناعه بأن العالم

1- الراهب أنطونيوس مؤسس الرهبنة ليس في مصر وحدها، ولكن في العالم بأسره في أواخر القرن الثالث الميلادي، وإن كانت بعض المصادر تذكر أن أول راهب ذهب إلى الصحراء كان بولا الذي عاش سنوات عديدة في القرن الثاني وبداية القرن الثالث في كهفه متعبداً على البحر الأحمر ولم يكن أحد سيعلم عنه لولا أن لاقاه انطونيوس مصادفة - (المترجم).

2- Frend, Rise of Christianity, 499

الجديد الذي ساعد على خلقه وكان رمزه العاصمة الجديدة التي يقوم ببنائها "روما الجديدة" هو عالم مختلف تمامًا عن العالم القديم. لذلك فإن قسطنطين اعتبر هذا المجمع المسكوني الكبير فرصة عظيمة من أجل زيادة قوة المسيحية في العالم الجديد من خلال تسوية خلافاتها وتوحيدها عقائديًا وإعادة تنظيمها من الداخل. فالمسيحية هي التي ألهمت جيشه وأعطته النصر وأعادت تحديد مصير الإمبراطورية، وهي التي تملك الآن الإمكانية لتوحيد الشعب الروماني.

قسطنطين، الآن وعلى ما يبدو ينوى إعادة رد الجميل إلى المسيحية عن طريق تعليم الكنيسة درسًا في فضيلة القانون والنظام والإدارة الفعالة. في بداية يونيو من عام 325، وبمشاركة أكثر من مئتي وخمسين أسقفًا حضروا جلسات المؤتمر بدأت مداولات المجمع المسكوني الكبير. وكان هذا هو أكبر اجتماع شهدته التاريخ المسيحي حتى ذلك الوقت للقادة الكنسيين. وقد جاء أغلب هؤلاء الأساقفة من النصف الشرقي من الإمبراطورية، فقط عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة كانوا من أساقفة الغرب^[1]، من ضمنهم وأكثرهم أهمية ونفوذًا بطبيعة الحال كان الأسقف هوسيوس القرطبي الذي كان يحضر المؤتمر بصفته ممثلًا عن الإمبراطور وفي الوقت ذاته ممثلًا عن الكنيسة الإسبانية، وحضر أيضًا من الغرب: كاسيلنيوس من قرطاجنة، ونيقاسيوس من بلاد الغال، واثنان من رجال الدين الذين حضروا بصفتهم ممثلين لبابا روما. وإلى درجة ما فإن هذه الهيمنة العددية لأساقفة الشرق تعزى إلى عدم اهتمام أساقفة الغرب بصفة عامة بالخلاف الأريوسي الذي بدا للكثيرين

1- ذكر الدكتور رافت عبد الحميد في كتابه: "الدولة والكنيسة"، الجزء الثالث، أن عدد أساقفة الغرب في مجمع نيقية كان ثمانية أساقفة فقط من ضمن 318 أسقف - (المترجم).

منهم مجرد مسألة إغريقية غامضة، فأغلب الاجتهادات الفكرية العقائدية خلال القرنين: الثاني والثالث الميلادي جاءت من الشرق حيث تراث الإسكندرية وحيث كان تراث الفكر الإغريقي حاضراً بقوة، ولعبت الثقافة المنتشرة في تلك المناطق دوراً مهماً في ظهور تيارات فكرية وعقائدية مختلفة في الكنيسة الشرقية على عكس الغرب الذي كان يتميز رجال الدين فيه بجهلهم الشديد بالقضايا العقائدية والفكر المسيحي المبني على أسس من المنطق والفلسفة. وهذه الهيمنة لأساقفة الشرق عكست أيضاً الحجم الضخم والقوة الحيوية لكنائس الشرق، وربما كانت هذه هي أحد الأسباب التي جعلت قسطنطين يختار مدينة في الشرق بآسيا الصغرى كمقر لعاصمته الجديدة ولم يخترها في غرب الإمبراطورية.

ولعدم التناسب بين أعداد القساوسة الممثلين للغرب مع هؤلاء الممثلين للشرق، فإن البعض لا يعتبر مجمع نيقية مجعاً مسكونياً (عالمياً) إذ كانت صفة العالمية أقرب في المجمعات المسكونية التالية لاحتوائها على عدد متقارب تقريباً من أساقفة الشرق وأساقفة الغرب واحد من المجمعات المسكونية وهو مجمع روميني - سلوقية في عام 359 شهد حضور أكثر من 500 أسقفاً من الشرق والغرب وبالتالي كان هذا المجمع (روميني - سلوقية) جديراً بلقب مسكوني (عالمي) إلا أنه ومع ذلك لم يعتبر كذلك حيث تم إلغاء النتائج التي أسف عنها بتبني العقيدة الأريوسية وبالتالي فقد صفة العالمية، فالمجمع الكنسية التي أسفرت أعمالها عن عقائد وصفت لاحقاً بأنها غير أرثوذكسية لم تفقد فقط صفة المسكونية، بل واختفت تماماً من تاريخ الكنيسة الرسمي. ولعل هذا السبب يفسر استمرار اعتبار مجمع نيقية في التاريخ بصفته المجمع المسكوني الأول. وهذا مرجع

نتائج أسفرت عن عقيدة أرثوذكسية تعرف بما يطلق عليه اصطلاحاً الآن اسم عقيدة نيقية التي تضمنت أفكار ومعتقدات مشابهة لما يؤمن به أغلب المسيحيين في يومنا هذا في مختلف أنحاء الكرة الأرضية. والأمر المثير حقاً أن هذه الوثيقة (وثيقة الإيمان النيقية) كان لها تأثيرات متناقضة مع بعضها البعض لمدة تربو على نصف القرن من الزمان. فهي لم تؤد إلى خلق حالة التجانس والوحدة (التي كان قسطنطين يأمل أن يسفر عنها هذا المجمع المسكوني)، ولكن في الحقيقة أدت إلى زيادة انقسام المجتمع المسيحي بدرجة أكثر عنفاً وضرورة بين الآريوسية والمعسكر المعادي لها.

ما نعرفه الآن حول مجمع نيقية جاء من تعليقات بعض الأساقفة الذين شاركوا في أعمال المجمع، وبعض الوثائق الأخرى التي نسخت وحفظت، ومن ضمنها بالتأكيد وثيقة عقيدة الإيمان النيقية، ولا توجد أية سجلات رسمية على مجرى سير الأحداث بالمجمع، ومع هذا فإن عدداً من الأحداث الدرامية التي شهدتها المجمع قد وثقت^[1]. ومن تلك الحوادث نستطيع أن نقدم صوراً لبعض المحادثات والمناقشات الساخنة في أروقة المؤتمر.

اجتمع الأساقفة في القاعة الكبرى بالقصر: قاعة حكم قسطنطين^[2]، وجلسوا على مقاعد خشبية تمتد بطول القاعة، مع تخصيص مقاعد

1- Descriptions of the council and its work are to be found, inter alia, in Kelly, *Early Christian Creeds*, 3d ed., 205—262; Hanson, *Search*, 152—207; Barnes, *Constantine and Eusebius*, 208—223; and Philip Hughes, *The Church in Crisis: A History of the General Councils, 325-1870* (Garden City, NY: Doubleday [Hanover House], 1961).

2- The setting and Constantine's speech are described in Barnes, *Constantine and Eusebius*, 215.

الصفوف الأمامية لرجال الكنيسة البارزين، وعندما جلس الجميع، دخل الغرفة مجموعة من أصدقاء الإمبراطور المسيحيين (إيذاناً بقرب دخول الإمبراطور) وعندها وقف الجميع، سرعان ما دخل الإمبراطور وظل واقفاً أمام الجميع مرتدياً عباءته الأرجوانية، ومكلاً بالتاج الإمبراطوري من الذهب المرصع بالألماس البراق، ومن موقع إدراكه أنه من الناحية الرسمية مجرد ضيف، فقد طلب الإذن بالجلوس من الأساقفة المجتمعين وتلقى على إثر هذا همهمة بالموافقة. كان قد تم تزويد القاعة بمقاعد مزخرف جلس عليه الإمبراطور على مسافة من الأساقفة، لكن تلك المسافة كانت تسمح له بالمشاركة في مناقشتهم،... جلس الأساقفة، وبعدها وقف يوسابيوس القيساري لإلقاء التحية الرسمية على الإمبراطور.

ليست الإثارة في التحية في حد ذاتها، ولكن الإثارة تكمن في شخصية من ألقى التحية الرسمية. فيوسابيوس القيساري الذي تم إصدار قرار الحرمان الكنسي عليه في المجمع السابق يقوم في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر بإلقاء التحية الرسمية للإمبراطور، فإيا له من أمر غريب حقاً. وخلال تلك الخطبة رحب يوسابيوس بقسطنطين باعتباره مبعوث السماء للمسيحيين، وكان واضحاً أن قرار الحرمان الكنسي الصامد ضده في أنطاكية كان مشروطاً ولم يؤخذ على محمل الجد. ولعل الهدف من قرار الحرمان الصادر بحقه في أنطاكية هو تهديده إذا يتعاون هو ورفاقه من أتباع مذهب الخشوعيين (القائلين بأن الآب أدنى مكانة من الآب، وخاضعا له) من أجل إيجاد وسيلة للتوافق مع باقي الأساقفة الأخوة في نيقية. يوسابيوس كانت لديه علاقة طويلة وممتدة مع قسطنطين، وقدم إلى الإمبراطور في السابق بعض النصائح حول الأمور الدينية، خلال حملات الإمبراطور في الشرق. ربما كان إعطاء يوسابيوس الكلمة الافتتاحية أمراً مقصوداً لكي

يظهر الإمبراطور رغبته ونواياه الصادقة في الوصول إلى تسوية كاملة وعادلة، وخلق حالة من التناغم بين المسيحيين، وربما أراد أيضًا بشكل غير متعمد توضيح أن قرارات الحرمان الكنسي الصادرة ضد بعض رجال الدين مثل يوسابيوس القيساري خلال المجمع الكنسية المكانية (المحلية) لها تأثير محدود على سير أعمال المجمع الدينية. أعرب الإمبراطور عن رغبته بشكل واضح في خطبته التي قالها باللغة اللاتينية، والتي ترجمت إلى اللغة اليونانية بواسطة مترجم (ولبهجة الأساقفة وسرورهم فإنه لاحقًا سوف يتحدث مع الأساقفة باللغة اليونانية، وهي اللغة التي كان قسطنطين يستطيع أن يتحدث بها دون أي ضيق في المباحثات والخطابات غير الرسمية). كانت ردود الأفعال على هذا الخطاب إيجابية، ففي هذا الخطاب قارن بين الصراع الدائر في الكنيسة وبين الحرب الأهلية (التي خاضتها الإمبراطورية منذ أمد قصير)، وحض الأساقفة على عدم منح الشيطان النصر الذي فشل مضطهدوهم في الحصول عليه عن طريق القوة، وطلب منهم التحدث بصراحة، وإخراج ما بداخل صدورهم إلى العلن لأن هذا هو الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها حل الخلاف بشكل حقيقي، ولم يأخذ قسطنطين أي موقف معلن حول القضايا محل الخلاف، فقط التمس منهم السعي نحو تحقيق السلام والتجانس في الكنيسة. وسط تصفيق حار، جلس الإمبراطور بعدما أنهى كلمته، وقام بعض الأساقفة إتباعًا للعادات القديمة بتقديم بعض الالتماسات إلى الإمبراطور لحل بعض المشاكل الخاصة بهم، إلا أنهم تلقوا درسًا قاسيًا في ضرورة إبقاء مشاكلهم الخاصة بعيدًا عن مجرى هذه المناقشات في المجمع المسكوني، وسرعان ما تم حرق الالتماسات التي تقدموا بها في إجراء رمزي على ضرورة الالتزام بقضايا

المجمع فقط. كان الخلاف الآريوسي يأتي في مقدمة تلك القضايا⁽¹⁾، واستغرقت تلك القضية وحدها أسبوعين من المناقشات، ومع أن آريوس كان حاضرًا جلسات المجمع، إلا أن مكانته بصفته قسًا (مثل أثناسيوس في ذلك الوقت) وليس أسقفًا منعتة من التحدث ومخاطبة حشد الأساقفة أو حتى المشاركة في المناقشات العامة، ولكن كان واضحًا أن وجود آريوس ترك تأثيرًا كبيرًا على المشاركين في المؤتمر، وإحدى القصص التي هي على الأرجح ملفقة تروي أن أسقفًا شابًا من بلاد الغال يدعى نيقولا (وهو فيما بعد القديس الأسطوري المرتبط باحتفالات أعياد الميلاد) كان حانقًا أشد الحنق على هرطقة آريوس المعلنة إلى الدرجة التي جعلته يصفع آريوس العجوز على وجهه. على أية حال فإن المجمع أيضًا شهد وجود مجموعة من المؤيدين لآريوس بقيادة يوسابيوس النيقوميدي المتواجد مع مؤيديه بكامل قوتهم، وفي المقابل فإن المجموعة المعادية للآريوسية كان يتم توجيههم وتحريكهم بواسطة ألكسندروس أسقف الإسكندرية.

من غير المعروف على نحو من الدقة تسلسل الأحداث بعد خطبة قسطنطين، ولكن على الأرجح فإن يوسابيوس القيساري قام بالإعلان على تأكيد إيمانه المتماشي مع الفكر الأرثوذكسي، ومع أن قضائه الاسمين كانوا هم الأساقفة ولكن المخاطب الحقيقي للتماسه كان هو الإمبراطور نفسه، وقام بتقديم عقيدة إيمان خاصة به قال إنها

1- من القضايا الأخرى المهمة التي ناقشها المجمع وإن كانت أقل أهمية من الخلاف الآريوسي هو قضية الاختلاف في الاحتفال بميعاد الاحتفال بعيد الفصح بين المسيحيين في الشرق والغرب والاتفاق على ميعاد واحد للاحتفال، وهو الخلاف الذي سيعاود التكرار والظهور مسببا خلافا وهوة بين الكنيسة الشرقية والغربية إلى يومنا الحالي حيث تختلف مواعيد الاحتفال بعيد الفصح في المناطق الجغرافية المختلفة - (المترجم).

مستمدة من عقيدة التعميد المستعملة في مدينته، وطلب على هذا الأساس أن يتم السماح له مرة أخرى بالعودة إلى شراكة الكنيسة، والوحدة مع إخوانه الأساقفة، وإلغاء قرار الحرمان الصادر بحقه.

بدأت وثيقة الإيمان (المقدمة من يوسابيوس القيساري) بالتأكيد على الإيمان بالله الواحد الآب القدير، خالق جميع المخلوقات (المرئية وغير المرئية)، وواصل الإعلان عن إيمانه بقوله:

”الرب الواحد يسوع المسيح، كلمة الله، إله من إله، نور من نور، حياة من حياة، الابن المولود، المولود الأول قبل الخلق جميعه، مولود قبل كل الدهور من الآب، ومن خلاله جاءت جميع الأشياء إلى الوجود، وهو الذي تجسد من أجل خلاصنا وعاش بين البشر، وتألّم وقام من الموت، وفي اليوم الثالث صعد إلى الآب، وهو الذي سوف يأتي ثانية بكامل مجده ليدين الأحياء والأموات“^[1].

التلاوة التي قام بها يوسابيوس أحدثت التأثير المرجو منه على قسطنطين، وقبل أن يستطيع أي شخص آخر الرد على تلك الوثيقة، فإن الإمبراطور لم يكتف فقط بأن يعلن أنها مقبولة، ولكن أوضح أنها تعكس معتقداته هو شخصيًا، وكان هناك تعديل واحد فقط سوف يقوم باقتراحه بإضافة أن الآب والابن كانا من جوهر واحد، وأن الآب والابن يشاركان نفس الجوهر أو ما يطلق عليه الهوموسية (Homousios).

كان اقتراح الإمبراطور (الذي على الأرجح قد أعد سلفًا بناءً على مشورة هوسيوس) هو رد فعلي على تلك المشكلة المحيرة. فعقيدة يوسابيوس القيساري (التي أعلن عنها) بدت من ظاهرها أنها تتماشى

1- Kelly, Early Christian Creeds, 182.

تمامًا مع النسخة الأرثوذكسية للفريق المعادي للآريوسية، طالما أنها تشدد على ألوهية المسيح دون أن يبدو في مكانة أقل بأي صورة من الصور لمكانة الآب.

المشكلة كانت تكمن في "أن كل كلمة في هذه الوثيقة، كما كتبت لأول مرة يمكن تفسيرها من منظور آريوسي" فالآريوسيون اعتقدوا بصدق أن السيد المسيح يحمل بعض الصفات الإلهية، منذ أن تبناه الآب ورفعَه إلى مرتبة الإلهية، وعليه تصبح عبارة إله من إله، ونور من نور، وحياء من حياة التي استخدمها يوسابيوس كدليل على إيمانه الأرثوذكسي لا تعنى بالضرورة أن الابن كان مماثلاً تماماً للآب أو أنه يقف على قدم المساواة معه، فكل ما يمكن أن يعنيه هذا الكلام أن المسيح عند نقطة ما وفي مرحلة محددة أصبح إلهًا. آريوس نفسه جادل من قبل بأن المسيح كان إلهيًا ولكنه ليس الله الحقيقي^[1].

بطريقة مماثلة فإن القول بأن المسيح كان كلمة الله (بالرجوع إلى إنجيل يوحنا 1:1..... "في البداية كان الكلمة، والكلمة كان عند الله)، أو عبارة أن الله خلق العالم من خلاله يمكن أن تفسر إما بشكل حرفي أو مجازي. فالقول بأن المسيح كان بشكل حرفي هو كلمة الله أو القوة الخلاقة فإن هذا يعنى أنه كان أحد جوانب الله أو أحد أنشطة الله. ولكن هذا التفسير من وجه نظر آريوس سوف ينزع من المسيح وجوده الإنساني المنفصل، فالإنسان الابن في هذه الحالة سوف يختفي ويذوب تماماً في الله الآب. لهذا السبب جادل آريوس بأن المسيح كان كلمة الله بشكل مجازي وليس بشكل حرفي، وعليه فإن أية قوى خارقة وهبت له، هي قوى أعطاهها الآب

1- Hanson, Search, 13.

إلى الابن، وهذا يعنى وجوداً أسمى وأعلى يعطى ويمنح، مع وجود خاضع له (أدنى منه) يأخذ تلك الهبات والمنح^[1].

المذهب الذي يحظى بشعبية في الشرق "الابن مولود قبل بداية الدهر" كان يشكل إزعاجاً لآريوس، فوجود المسيح قبل الزمان قد يدل على أنه اختير لكي يلعب دوراً مميزاً في تاريخ الكون، ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أنه كان ندّاً أو مساوياً لله نفسه. كانت إحدى العبارات في عقيدة يوسابيوس "المولود الأول قبل سائر الخلائق" تبدو وكأنها تشير ضمناً أنه بغض النظر عن درجة التميز التي كان عليها المسيح، إلا أنه كان جزءاً من الخلق وليس جزءاً من الخالق" ولذلك كانت المعضلة التي تواجه هوسيوس والفريق المعادي للآريوسية كيف يمكن صياغة وثيقة للإيمان بعبارات لا يمكن لأتباع آريوس من أنصار مذهب التبعية (المؤمنين بأن المسيح أدنى وأقل مكانة من الله وبخضوعه إلى الله) أن يفسروها بطريقتهم الخاصة. كانت الإجابة على مثل هذه المشكلة متمثلة في كلمة يونانية واحدة. باستثناء كلمات الكتاب المقدس ربما تكون تلك الكلمة هي الأهم في تاريخ الديانة المسيحية. كانت تلك الكلمة هي الهوموسية، مقطع هومو Homo باللغة اليونانية تعنى نفس الشيء ومقطع أوساوس Ousia يعنى الجوهر essence أو المادة substance وعليه فإن الهوموسية كانت تعنى أن يسوع المسيح والله كانا من نفس الجوهر (المادة)، ويعنى هذا أنهما فعلياً كانا شيئاً واحداً، وعلى هذا الأساس لن يكون بمقدور المتشددين الآريوسيين أن يوقعوا وثيقة إيمان بهذا بالمعنى بضمير مستريح. وأتاحت (تلك الكلمة) أفضلية إضافية بأنها متماشية مع فكرة أن الآب والابن وإن كانوا مختلفين من

1- Ibid., 16.

بعض الجوانب إلا أنهما اشتركا في هوية أساسية واحدة.

ما لم يفهمه قسطنطين أن الكثير من الأساقفة كانوا يعتبرون تلك الكلمة مثيرة للاستفزاز. فمصطلح الهوموسية كان في حقيقة الأمر يتردد في دوائر اللاهوت بالكنائس الشرقية لفترة من الزمان، ولكن أغلب رجال الكنيسة لم يرحبوا به خاصة أنه كان مصطلحاً فلسفياً إغريقياً ليس له صدى في الكتاب المقدس، الأمر الأكثر خطورة وأهمية أن هذا المصطلح كان مرتبطاً بالهرطقة السابليانية: وهي فكرة أن يسوع المسيح كان وجهاً أو نشاطاً لله يفتقد لأي وجود حقيقي لذاته.

لم يمض وقت طويل من بدء مناقشة المجمع للقضية الخلاف الآريوسي، حتى كان خطاب كتب بواسطة يوسابيوس النيقوميدي زعيم الآريوسية يقرأ بصوت عال أمام الأساقفة، ومن غير المعروف ما إذن كان يوسابيوس قد قرأ هذا الخطاب بنفسه أم لا (والأرجح أنه لم يفعل)، حيث أن لغة هذا الخطاب كانت غير منضبطة، وربما يكون قد سرب بواسطة أحد رجال المعسكر المعادي للآريوسية بغرض إحراجه، وإذا جاز لنا أن نصدق يوستاسيوس الأنطاكي فإن وقع هذا الخطاب كان بمثابة القنبلة، وأحدث إثارة هائلة بين الحضور وألحق خزيًا لا يمحي بكاتب هذا الخطاب^[1].

الخطاب نفسه اختفى، وربما بالغ يوستاسيوس الأنطاكي الذي كان أحد المتشددین ضد الآريوسية في وصف تأثير هذا الخطاب، ولكن العديد من الأساقفة الآخرين شهدوا بأن تلك الوثيقة تم تزييقها إلى قطع صغيرة في وجود مؤلفها برهانا على سخطهم وعدم موافقتهم على ما جاء فيها. وفقا للأسقف أمبروز الذي سيعرف لاحقا باسم

1- Ibid., 160. This account follows that of Hanson, 160162-.

القديس أمبروز st Ambrose من ميلانو، فإن أحد فقرات هذا الخطاب استهزأت بمصطلح الهوموسية، لتوضح كم هو سخي ومثير للسخرية أن تساوى الابن مع الآب قائلة: تخيل أن أحد الحمقى يقول إن يسوع المسيح ابن الإنسان، وأن القادر العظيم خالق كل شيء الذي لا تدركه العقول والأبصار هما من نفس مادة الجوهر. هل الله بطريقة ما قسم جوهره من أجل صنع الابن؟ ولو كان هذا صحيحا، فكم هو عدد الأبناء الذي يستطيع الله تكوينهم عن طريق المزيد من الانقسامات؟ لا يمكن لأية فكرة أن تكون أكثر سخافة من تلك الفكرة. (من وجهة نظر الفريق الآريوسي) فإن الهوموسية كانت أمراً لا يضاھيه شيء في السخافة. مثل هذه الكلام البلاغي العدائي أعطى كلا من ألكسندروس وأثناسيوس السلاح الذي طالما كانا يتطلعان إليه لمحاربة الآريوسيين، حيث يمكن استخدام هذا المصطلح لاختبار إيمان الذين يرفضون مساواة المسيح مع الله، وسيستعملون هذا المصطلح للكشف عنهم وتحديدهم. وبطريقة ما فإن قسطنطين تم إقناعه بالموافقة على هذه الإستراتيجية وأصر على أن يقوم يوسابيوس القيساري بإضافة تلك الكلمة (الهوموسية) إلى إقرار الإيمان الخاص به^[1]، وعلى الأرجح فإن المعسكر المضاد للآريوسية توقع أنه سيرفض هذا الأمر، ولأن هذا الفعل سيعتبر من قبيل سلوك العصيان التي تعتبر إساءة للإمبراطور نفسه، فإن من المؤكد أن يكون رد فعل الإمبراطور على هذا العصيان عزل يوسابيوس ونفيه. ولكن آمالهم خابت وتحول تفاؤلهم إلى ذعر وخيبة أمل، فالأسقف قبل هذا التعديل وأضاف صاغرا إلى وثيقة

1- Quoted and discussed in Kelly, Early Christian Creeds, 214.

إيمانه تلك الكلمة، وبالتالي تمت الموافقة على إعادته مرة أخرى إلى شراكة الجماعة المسيحية.

ما الذي دعي يوسابيوس (القيساري) لكي يوافق على إدراج مصطلح الجوهر الواحد (الهوموسية) في وثيقة إيمانه؟ بالتأكيد لعب الضغط الذي مارسه الإمبراطور قسطنطين دورًا في موافقته تلك. لكن هذا لم يكن هو العامل الوحيد، فثمة سبب آخر فعال ربما ساعد على هذه الموافقة، ألا وهو الغموض. ففي حقيقة الأمر، ومع أن هوسيوس وألكسندروس ذهبا إلى أبعد مدى من أجل كشف وعزل أتباع المذهب الآريوسي، إلا أن جهودهم تلك انهارت على وقع الحقيقة بأن من المستحيل العثور على كلمات غير غامضة لا تحتمل التأويلات المختلفة، فمصطلح الجوهر الواحد (هوموسية) نفسه بعد المجمع أصبح تفسيره محلا لخلاف كبير بين بعض الأساقفة الرافضين لهذا المصطلح وللعجب من المعسكر المعادي للآريوسية ذاته وبين بعض الأساقفة الآريوسيين أنفسهم الذين على غير المتوقع أيدوا هذا المصطلح، وكما لاحظ أحد الكتاب فإنها قليلة تلك الكلمات في اللغة اليونانية التي كان لها مثل تلك التفسيرات والمعاني الكثيرة كما كان الحال مع مصطلح الجوهر^[1]. الهوموسية، يمكن أن تعنى الجوهر الواحد ولكن أيضًا يمكن أن تعنى نفس المادة أو نفس الواقع أو نفس الكينونة أو حتى قد تعنى نفس النمط، وكما كتب الفيلسوف الأفلاطوني الكبير بورفيري ذات مرة قائلاً أن أرواح البشر والحيوانات هي من جوهر واحد (هوموسيوس) أو من نوع عام واحد^[2]. إذن كان هذا هو المقصود حقًا من تلك الكلمة

1- Kelly, Early Christian Creeds, 243.

2- Ibid., 244. And see Hanson, Search, 181202-.

في مجمع نيقية، ففي هذه الحالة فإن أيًا من أتباع الآريوسية يمكن أن يتبعها ويوافق عليها وهو مطمئن البال، فالآريوسيون وافقوا منذ البداية على أن كلا من الله والمسيح كانا يحملان طبيعة إلهية ولكن من جوانب مختلفة، وربما يجادل أحد الآريوسيين المتشددين (على الرغم أنه هذا لم يحدث) فيقول أن كل الوجود البشري الذي خلق على صورة الله هو من جوهر واحد معه، على أية حال فإن يوسابيوس يقوله هذه التعديل وضع أعداءه في مأزق حقيقي، وبرغم أنهم انتابهم الشك في أنه فسر تلك الكلمة بمفهوم غير أرثوذكسي، إلا أنه كان من العسير عليهم أن يتهموه بالهرطقة دون موافقة الإمبراطور^[1]. وعندما جاء الوقت لصياغة المسودة النهائية لما سيكون عقيدة الإيمان التي انتهي إليها المجمع، والتي ستكون بمثابة الامتحان الذي على جميع الأساقفة اجتيازه من أجل إثبات عقيدتهم الأرثوذكسية، فإن المعسكر المعادي للآريوسية حاول استبعاد أي غموض قابل للتأويل من قبل الآريوسيين، وتصف عقيدة نيقية^[2] السيد المسيح بأنه:

”ابن الله، المولود من الآب، المولود فقط من جوهر الآب، إله من إله، نور من نور، إله حقيقي من إله حقيقي، مولود وليس مخلوق، يشارك الآب جوهرًا واحدًا (هوموسية)، ومن خلاله أتت جميع الأشياء إلى الوجود^[3]“.

1- This argument is made by Barnes, Constantine and Eusebius, 216, citing Opitz, Urkunde, 22.7.

2- The creed recited by Christians today, although based in large part on the Nicene Creed, is actually an altered version of that creed adopted at the Council of Constantinople in 381. See the discussion in Chapter XI, *infra*.

3- Kelly, *Early Christian Creeds*, 215—216. Kelly translates *ousia* as “substance” here, and the creed as recited today translates *ho-moousiosas*

كان الإعلان بأن الابن هو إله حقيقي من إله حقيقي، رد فعل على وجهه النظر الآريوسية التي كانت تؤكد على أن المسيح له طبيعة إلهية إلا أنه غير متماثل تماماً مع الله، كما أن عبارة: "مولود غير مخلوق"، وضعت لمواجهة آرائهم بأن المسيح قد تم خلقه مثل باقي المخلوقات، وفي النهاية فإن عقيدة نيقية نصت على إدانة بعض التعاليم الآريوسية كالآتي:

"بالنسبة لهؤلاء الذين يقولون، أنه كان هناك وقت لم يكن فيه موجوداً، أو أنه لم يوجد قبل ولادته، أو أنه خلق من العدم، أو هؤلاء الذين يؤكدون بأن ابن الله هو من مادة مختلفة (هاييوستاسيس hypostasis) عن الله نفسه، أو أنه قابل للتغيير والتبديل، جميع هؤلاء ملعونون من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرسولية"^[1].

تقديم تلك الوثيقة إلى الأساقفة أدى إلى خلق حالة عامة من عدم الارتياح بين صفوفهم. أبدت أغلبية الفريق الآريوسي معارضة لتلك الوثيقة لأسباب واضحة، لكن حتى بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا أقل تعلقاً بالأفكار الآريوسية وخاصة المتعلقة بخضوع المسيح إلى الله انتابتهم أيضاً الشكوك حول تلك الوثيقة، حيث أن اللغة التي كتبت بها كانت غير مسبوقة وبطريقة مثيرة للهواجس والقلق، فكلمة الجوهر الواحد (الهوموسية) كانت ما تزال تثير الانزعاج في النفوس لأنها تزيل التمييز تماماً بين الآب والابن، وسوف نرى أنه حتى أثناسيوس نفسه فإنه بعد عشرين عاماً من مجمع نيقية كان يتجنب استخدام هذا المصطلح (هوموسية) في كتاباته^[2]، كما أن القول بأن

"consubstantial"-of the same substance.

1- Ibid., 216.

2- يؤكد الدكتور رأفت عبد الحميد في موسوعته الدولة والكنيسة على تلك الملاحظة المهمة

المسيح والله كان من نفس الوجود أو من نفس المادة فإنهم بذلك يقتربون كثيرا في قولهم هذا من السابليانية (وهو المذهب الذي ينظر إلى المسيح باعتباره إلها فقط وسيوصم بالهرطقة في المجامع الكنسية)، وعندما طُلب من الأساقفة توقيع هذه الوثيقة، فإن العديد منهم ومن ضمنهم يوسابيوس القيساري طالب بالمزيد من التوضيحات حول بعض العبارات الواردة في الوثيقة قبل توقيعها. وقبل أن يرد أعضاء المعسكر المعادي للآريوسية على هذه المطالب، فإن قسطنطين زاد الطين بله من خلال تقديم تفسيرات من لدنه على مثل هذه التساؤلات، وبالطبع لم تؤد توضيحات قسطنطين إلا إلى جعل المسألة أكثر غموضاً.

بحلول منتصف يونيو، كان جليا لهوسيوس أنه بغض النظر عن الاختلافات في تفسير عبارات وثيقة الإيمان الصادرة من المجمع، فإن أغلب الأساقفة كانوا مستعدين للتوقيع عليها، وعليه فإن وثيقة الإيمان تلك قرأت بصوت عال أمام حشد الأساقفة، مع الإعلان بأن تلك الوثيقة تمثل موقف الكنيسة المقدسة الرسولية. أرسل بعدها قسطنطين موظفي البلاط إلى كل أسقف على مقعده مع نسخة من الوثيقة من أجل التوقيع عليها في التو واللحظة، وبالفعل قام جميع الأساقفة بالتوقيع عليها باستثناء اثنين فقط من الأساقفة الليبيين المؤيدين بقوة لآريوس. وعلى الفور أصدر الإمبراطور قراره

المتعلقة بعدم استخدام أثناسيوس لمصطلح الهوموسية في كتاباته الكبيرة باستثناء مرة واحدة فقط، ويرير الدكتور رأفت عبد الحميد هذا الموقف الغريب من أثناسيوس المدافع الأول عن عقيدة نيقية بأنه كان في قراره نفسه غير مبال لاستخدام هذا المصطلح لعدم ذكره في الكتاب المقدس أو كتابات آباء الكنيسة الأوائل، ولكنه وافق عليه حتى يسد الطريق على الآريوسيين الذين يضعون المسيح في مرتبة أقل من مرتبة الله - (المترجم).

بنفي هذين الأسقفين بمصاحبة آريوس، وكان من ضمن الموقعين على الوثيقة بعضا من أهم زعماء ومناصري الآريوسية، ومن ضمنهم يوسابيوس القيساري، ويوسابيوس النيقوميدي، وبولينوس الطرابلسي، وثيوجينس النقي. ووفقا لأحد المؤرخين القدامى فإن الأساقفة الليبيين الصادر بحقهم قرار النفي، أثناء مغادرتهم القاعة، توقفوا عند مقعد زعيم الآريوسية السابق يوسابيوس النيقوميدي، وألقوا عليه التقرير والنقد القاسي لتخليه عن قضية الآريوسية وإذعانه لإرادة الإمبراطور.

لا يمكن إنكار الضغط الذي مارسه قسطنطين على الأساقفة من أجل التوقيع على مرسوم الإيمان، فكانت عقوبة النفي التي أنزلت بالقلة المتشددة من الآريوسيين (الذين رفضوا التوقيع على وثيقة إيمان نيقية) خير دليل على عاقبة معارضة الإمبراطور، وكان واضحا أن بعض القساوسة الذين شعورا بأنهم قد وقعوا وثيقة الإيمان تحت الإكراه اعتقدوا أن توقيعهم على تلك الوثيقة كان مبررا. ولقد كتب يوسابيوس القيساري نفسه خطابا طويلا إلى رعية كنيسته، موضحا لهم أن مصطلح الهوموسية، وكلمة مولود غير مخلوق لا تعنى أن المسيح يشارك الله نفس جوهره، أو تعنى أنه كان هو الله نفسه، ولكنها فقط تعنى أنه كان خلقا فريدا لله. وقد ذهب يوسابيوس النيقوميدي إلى مدى أبعد من هذا، وقام بتوضيح أنه على الرغم من قبوله القوام عام لعقيدة نيقية (كما تم تفسيرها من وجهه النظر الآريوسية)، إلا أنه لم يقبل اللعنة (الموجهة إلى المخالفين لتلك العقيدة)، والتي كانت قائمة على الفهم الخاطئ لتعاليم آريوس، وبسبب هذا الخطاب أو لقبوله استضافة بعض القساوسة الآريوسيين في نيقوميديا، فإن قسطنطين قرر لاحقا إبعاد يوسابيوس النيقوميدي

إلى المنفى بصحبة ثيوجينس النيقى بعد مرور ثلاثة أشهر من صدور القرارات الختامية للمجمع المسكونى.

وبنفي يوسابيوس النيقوميدى أصبحت الحركة الآريوسية بمثابة جسد بلا رأس، وفى مثل هذا الوضع ربما يظن المرء أن الخلاف الآريوسى قد انتهى للأبد أو أن المعسكر الآريوسى قد تلقى الضربة التى لا قوام له من بعدها. والعكس كان صحيحاً، فخلال ثلاث سنوات وعلى الرغم من الاعتراضات والاحتجاجات الشديدة المتأججة للمعادين للآريوسية، فإن قسطنطين سوف يعفو عن آريوس ويوسابيوس وزملائهم المنفيين، وسيسمح لهم بالعودة مرة أخرى من منفاهم والانضمام إلى شراكة الكنيسة مرة أخرى، وسيقربهم منه بشده، ويجعل من يوسابيوس أقرب مستشاريه، ويلح على أثناسيوس الذى أصبح الآن أسقفًا للإسكندرية خلفاً لألكسندروس على إعادة قبول آريوس فى شراكة كنيسة الإسكندرية مرة أخرى. بل وبعد عقد فقط من الزمان بعد هذا التاريخ سيجد أثناسيوس نفسه فى المنفى، وسنجد أن الآريوسية فى طريقها لتصبح العقيدة اللاهوتية المهيمنة على شرق الإمبراطورية. يا له من تبدل غريب وغير متوقع للأحوال، فكيف جرت الأمور على هذا المنوال؟ ولماذا انتهت إلى تلك النتيجة على الرغم من كل المقدمات التى كانت تشير إلى اندثار الآريوسية بعد هزيمتها الساحقة فى مجمع نيقية ونفى زعمائها؟ دعونا إذن نتتبع الإجابة على هذا السؤال.

لقد ظل مجمع نيقية منعقدا لمدة شهر بعد قرار نفى آريوس وزملائه الليبيين، وبعد أن استطاع المجمع التوصل إلى وحدة مذهبية (أو هكذا خيل لهم)، فإن القضية التالية التى أراد المجتمعون من الأساقفة وعلى رأسهم الإمبراطور بحثها والتوصل إلى قرارات حاسمة بشأنها كانت إعادة التنظيم الإدارى للكنيسة، وما غاب عن ذهنهم حقا

أن تلك المحاولات لإعادة تنظيم الشئون الإدارية وخلق نظام موحد للكنيسة سيؤدي لا محالة إلى إعادة اشتعال الصراع الديني، خاصة إذا كان التنظيم الإداري المقترح يتضمن المزيد من التدخل الحكومي في شئون الكنيسة. وفي ضوء الحقيقة القائلة بأن الإجماع على مذهب عقائدي واحد لم يتحقق بعد على أرض الواقع فإن استمرار الصراعات والخلافات الدينية سوف يدمر أية محاولات حقيقية حسنة النية للقيام بأي إصلاح إداري حقيقي في شئون الكنيسة.

الحاجة إلى الإصلاح كانت واضحة، فالكنيسة التي انبثقت بعد عقود طويلة من الاضطهاد كانت مهياة بشكل سيء للغاية للمشاركة في حكم الإمبراطورية الرومانية من وجهة نظر الإمبراطور التي شاركه فيها أغلب الأساقفة، ذلك أن الوضع الداخلي للكنيسة كان فوضوياً إلى درجة خطيرة. فلم يكن هناك سلطة موحدة للكنيسة أو البابا، ومع السلطات غير المحددة الممنوحة للكنيسة فإن هذا الوضع لم يكن ليرضى أحد (فضلا عما يشكله من خطر على سلطة الدولة). فعلى سبيل المثال بينما كان أساقفة المدن الكبرى يمارسون سلطة مفترضة على رجال الدين في أقاليم تلك المدن،^[1] فإن نطاق ومدى تلك السلطة لم يكن واضحاً. وأخذت بعض المجموعات الانشقاقية مثل أتباع ميلتيوس Melitians في مصر تتسلل إلى تيار الكهنوت، وتنقل الأساقفة والقساوسة والشماسون من كنيسة إلى كنيسة، ومن أبرشية إلى أبرشية، بناء على أهوائهم. كانت كل كنيسة تعتبر منفصلة في حد ذاتها، ولذلك لم يكن غريباً ما رأيناه في الخلاف الآريوسي من أن الشخص الذي يتم

1- على سبيل المثال أسقف مدينة الإسكندرية كانت له سلطة مفترضة على جميع رجال الدين في مصر وفي المدن الخمس الليبية (المترجم).

إصدار قرار الحرمان الكنسي ضده في كنيسته بإقليم ما، كان بإمكانه أن يشارك في قداس كنيسة بمنطقة أخرى في ذات الوقت.

وأكثر من هذا، فإن إجراءات ترسيم وتعيين رجال الدين المسيحي كانت غير منتظمة أو محددة وتختلف من منطقة إلى أخرى، والمؤهلات المطلوب توافرها في القساوسة والوظائف الكهنوتية الأخرى كانت غامضة ومتغيرة من مكان إلى مكان. وكانت نتيجة هذا الوضع في بعض الأحيان كارثية وسببا للفضائح، حيث تم ترسيم بعض الأشخاص المشهورين بفسادهم المالي أو سلوكهم الجنسي المنحرف كقساوسة، وتم انتخابهم أساقفة بعد ذلك، وحتى عندما كان رجال الدين شرفاء ومؤهلين بشكل جيد فإن المشكلة كانت في تبني كل كنيسة طريقاً خاصاً بها مختلفاً عن الكنائس الأخرى للتعامل مع رجال الكهنوت، ففي بعض المناطق الكنسية كان زواج القساوسة أمراً مقبولاً ويتم التعايش معه، بينما في مناطق أخرى فإن مثل هذا الزواج كان غير مقبول، وكان يتم إجبار القساوسة المتزوجين على الانفصال عن زوجاتهم، وفي بعض المناطق فإن المعترفين بارتكابهم جريمة الزنا كان يتم قبولهم وعودتهم للكنيسة بعد فترة قصيرة من الندم والكفارة، بينما في مناطق أخرى كان لا يمكن السماح بمثل هذا الأمر إلا بعد فترة طويلة وشاقة من التكفير عن هذا الإثم، وحتى مواعيد الأعياد الدينية، كانت مختلفة من كنيسة إلى أخرى، فعيد الفصح كان يحتفل به عقب انقضاء الفصح اليهودي في بعض المناطق، بينما كان يستخدم تقويم مختلف في مناطق أخرى^[1].

1- كان هذا التضارب في ميعاد عيد الفصح راجعاً إلى استخدام الكنائس الشرقية للتقويم القمري في حساب ميعاده، وهو الأمر الذي كان يؤدي إلى اختلاف مواعيد من عام إلى آخر، وكان هذا الخلاف حول تحديد موعد عيد الفصح من الأمور التي ناقشها مجمع نيقية ح (المترجم).

بالنسبة لقسطنطين فإن مثل هذه الاختلافات كانت أمراً لا يمكن التسامح فيه، وبمقارنه الكنيسة المسيحية بمؤسسات الكهنوت الوثني، فإن الأخيرة كانت تبدو مؤسسة شديدة التنظيم، ولم يكن مقبولاً أن تتبنى المسيحية تقويماً للأعياد معتمداً على التقويم اليهودي، فالكنيسة كانت تفضل في ذلك الوقت أن تنفصل تماماً عن النظام اليهودي أو الوثني وأن تنظم البيت من الداخل.

وافق أغلب الأساقفة على تبنى ما يعرف باسم القواعد الدينية العشرين للقانون الذي يحكم مؤسسة الكنيسة وسلوك رجال الدين، ووافقوا أيضاً على التعامل مع أتباع ميلتيوس والفرق المسيحية المتشددة التي نشأت من مرجل الاضطهاد، وحاولوا تحديد ميعاد محدد للاحتفال بعيد الفصح، ولكن دون تحقيق الإجماع عام حول القضايا الدينية والسياسية الجوهرية، فإن القواعد القانونية أصبحت مجرد أسلحة في أيدي الأطراف المتصارعة. ولهذا السبب، هذا السبب تحديداً فإن كل مسألة تم طرحها للمناقشة في مجمع نيقية بغض النظر عن مدى ما تبدو أنها متفق عليها أو بديهية إلا أنها كانت سبباً للشقاق والنزاع بدلاً أن تكون سبباً للتوافق وحل المشكلات.

بعض قواعد نيقية الدينية والقانونية تطور مباشرة من الخبرة التي اكتسبها الأساقفة من الخلاف الآريوسي. فعلى سبيل المثال، أصبح محظوراً تماماً على رجال الدين أن يستقبلوا ويضموا إلى كنائسهم الأشخاص الصادر ضدهم قرار حرمان كنسي من أساقفة كنيسة إقليم آخر (كما فعل يوسابيوس النيقوميدي مع الآريوسيين). المشكلة الكامنة في مثل تلك القاعدة أنها افترضت وجود حد أدنى من الاتفاق على تعريف مفهوم الهرطقة ومفهوم الأرثوذكسية (الدين القويم). ولكن لم يوضع في الحسبان ماذا سيكون عليه الحال إذا ما سيطر رجال الدين

المهرطقون على كنيسة في إقليم ما، وأصدروا قرار الحرمان ضد الأساقفة والقساوسة الأرثوذكس في هذا الإقليم؟ فما هو العمل في تلك الحالة؟ فهؤلاء الذين يصفون أنفسهم بالأرثوذكس في الكنائس الأخرى سيشق عليهم أن يصموا آذانهم ويغمضوا أعينهم وتقسو قلوبهم على اضطهاد إخوانهم الأرثوذكس في تلك الكنائس، فما العمل إذن؟ (وهذا هو ما حدث فعلا عقب هذا التاريخ بعدة سنوات عندما صدر قرار حرمان كنسي ضد أسقف الإسكندرية أثناسيوس من مجمع مسيحي يغلب عليه الآريوسيون)، في حالة أثناسيوس على وجه التحديد، فإن الكنيسة التي وافق أسقفها على استقباله وضمه إلى شعب كنيسته لم تكن إلا كنيسة روما وبابا روما نفسه، الذي أدت مزاعمه بامتداد سلطته على جميع رجال الدين وعدم تقيده بقرارات المجمع المكانية إلى حالة من الغضب وإلى اشتعال فتيل صراع مرير بين الكنيسة الشرقية والغربية. تضمنت قوانين نيقية بعض القواعد الدينية الأخرى الأقل ارتباطا بالخلاف الآريوسي، ولكنها كانت مثيرة للمشاكل والقلقل بالقدر ذاته. فمن ضمن أشياء أخرى عديدة، فإن قوانين نيقية نصت على المكانة المتميزة لأساقفة الإسكندرية وأنطاكية وروما، وعلى خضوع كل رجال الدين في إقليمهم لسلطة هؤلاء الأساقفة، وأرست قواعد انتقال القساوسة من كنيسة إلى كنيسة أخرى (وفقا لرغباتهم)، وتحديد قواعد واضحة لتعيين وترسيم الأساقفة. واضعين في الحسبان أن منصب الأسقفية أصبح في تلك الآونة الأخيرة غاية في القوة والنفوذ، فالأساقفة كانوا أعلى منصب كهنوتي في الكنيسة، ويشكلون المجلس الأعلى من جسم الكنيسة المنوط به اتخاذ القرارات الهامة، وكانت تلك القاعدة الأخيرة على وجه التحديد قابلة لإحداث العديد من المشاكل، حيث نصت على أن انتخاب الأساقفة الجدد يكون بمعرفة جميع أساقفة الإقليم وإذا كان هذا متعذرا فيمكن

لاجتماع ثلاثة من الأساقفة أن ينتخبوا أسقفًا جديدًا بشرط موافقة باقي الأساقفة الغائبين وأسقف المدينة العالمية (مثل أسقف الإسكندرية أو أنطاكية) على هذا الإجراء مرة ثانية، بدت تلك القاعدة معقولة مادام المرء سيفترض حسن النية، وأن رجال الكنيسة لن يسيئوا استخدام مثل هذه القاعدة الدينية في ذروة خلافاتهم، لكن تخيل في خضم نزاع شرس محتد، وليكن مثلاً حول اختيار أسقف جديد لمدينة متروبوليتانية خلفاً لأسقفها الراحل، فإن قيام ثلاثة فقط من الأساقفة بتأمين وصول أسقف مثير للجدل ومختلف عليه إلى عرش الأسقفية، ومع اعتراض باقي الأساقفة فإن هؤلاء الأساقفة الثلاثة سوف يزعمون أنهم عقدوا اجتماعهم بموافقة باقي الأساقفة. وماذا لو ادعى أكثر من مرشح من الذين ينتمون إلى مذاهب عقائدية مختلفة، أن كلا منهم تم انتخابه كأسقف للمدينة بشكل قانوني سليم؟ ولسوء طالع الكنيسة ووحدها، فإنه لن يمضي وقتاً طويلاً حتى أصبحت تلك المخاوف واقعا فعليا وليس مجرد أسئلة افتراضية.

مدفوعاً نحو تحقيق النظام، فإن القوة الدافعة والمحركة لمسار مجمع نيقية كان تحقيق الهدف المنشود من الوحدة المذهبية والنظام الإداري للكنيسة، لذلك فإن المجمع اتخذ خطوات فعالة للتعامل مع أتباع ميلتيوس، الذين استمروا في إظهار العصيان لسلطة أسقف الإسكندرية. فأتباع الأسقف الهرطيق ميلتيوس^[1] من الأقباط نظروا إلى أنفسهم باعتبارهم أكثر إخلاصاً وطهارة من رجال الدين الرسميين، واستمروا في ممارسة شعائرتهم باعتبارهم كنيسة مستقلة. وكالعادة، فإن قسطنطين

1- ميلتيوس أسقف أسيوط والذي رفض التسويات أو التنازلات التي قام بها بعض رجال الدين والمسيحيون مع السلطات الرومانية أثناء فترة الاضطهاد (المترجم).

اعتبر مثل هذا الانقسام أمراً لا يمكن التسامح معه، ولكن من أجل تجنب الصدام المباشر معهم فإنه انتهج أسلوب أقل تشدداً من ذلك الذي اتبعه مع الدوناتيين في شمال أفريقيا، ولذلك أصدر المجمع قراره بأن ميلتيوس بإمكانه أن يظل أسقفًا، ولكن دون أن يكون لديه السلطة لترسيم قساوسة خارج مدينته، وبالنسبة لهؤلاء القساوسة الذين تمت سيامتهم بواسطة ميلتيوس فإنهم أيضاً سيحتفظون بمركزهم الكهنوتي، ولكنهم لن يسعوا للترقي أو أجراء أي فعل مستقل آخر دون إذن ألكسندروس أسقف الإسكندرية. لم يكن مفاجئاً أن مثل هذه الإجراءات القمعية الهينة لم تنجح في إخضاع الميليتين لسلطة أسقف الإسكندرية. وسوف تشهد السنوات القادمة تحالفهم مع الأريوسيين في حملة دؤوب للتخلص من مضطهديهم السكندريين.

نظرة إلى المستقبل سوف تظهر لنا بوضوح أن مجمع نيقية كان بمثابة نقطة تحول في التاريخ ففي حين كان المجمع يتطلع إلى حل نهائي ودائم للخلاف الأريوسي من وجهة النظر الكاثوليكية، فإن النتيجة كانت عكس هذا، فتعريف يسوع المسيح كإله (كما قرر المؤتمر) كان النقطة الفاصلة التي توقف المسيحيين بعدها على التعامل بقدر من التحضر والمدنية في مثل هذه الخلافات اللاهوتية. فعندما بدأ هذا الخلاف، فإن آريوس وخصومة كانوا ميالين إلى معاملة بعضهم البعض كرفقاء مسيحيين يحملون أفكاراً خاطئة، وكان قسطنطين يأمل أن هذا المجمع العظيم والمقدس سوف يوحد كلمة المسيحيين ويلم شملهم، ويجمع بين الأطراف المتخاصمة على أساس قاعدة واحدة مشتركة من الاعتراف المتبادل، وعن طريق تصحيح الأفكار الخاطئة، وعندما تبددت تلك الآمال واستمر الصراع في الانتشار، بل وازداد ضراوة، فإن الخصوم بدأوا في مهاجمة بعضهم

البعض، ولكن هذه المرة ليس باعتبارهم رفقاء مخطئين ولكن باعتبارهم آثمين غير تائبين، فاسدين خبثاء، أو حتى عبيدًا للشيطان. ومع أن الجميع يعتبرون خطاة حتى أولئك الذين تم تعميدهم باسم المسيح. إلا أن تحول الخصوم من مسيحيين سيئين إلى أعداء للمسيح كان بمثابة مسافة طويلة تم قطعها. لم يذهب الأساقفة في مجمع نيقية إلى هذا المدى فمع أنهم اعتبروا آريوس ليس أثمًا فقط بل ومتعنتًا أيضًا، إلا أنهم لم يفعلوا كما فعل ألكسندروس وأثناسيوس عندما قارنوا بين آريوس وبين هؤلاء الذين قاموا بصلب المسيح وقسموا ملابسه بينهم. وسريعا فإنهم لم يكتفوا بوصف خصومهم بأنهم أعداء للمسيحية، بل وأيضًا عملاء وعبيد للشيطان، وسريعا سيتضح أن تلك المسافة من عدو للمسيح إلى عبد للشيطان هي مسافة قصيرة، وخطوة هينة مقارنة بالمسافة التي قطعت لتحويلهم من مسيحيين سيئين إلى أعداء للمسيح. وستكون تلك الخطوة نذيرًا مشئومًا بالعنف المحتمل. حاول قسطنطين أن يظهر في مجمع نيقية بصفته صانع السلام، وكان قراره بنفي آريوس من أجل محاولة فرض ما ظن أنه إجماع الأساقفة على عقيدة لاهوتية موحدة يعنى ضمنا إعطاء الفريق المعادي للآريوسية (المنتصر في هذا المجمع الكنسي) الحق في استخدام قوة الدولة الرومانية ضد أعدائهم. وكان الدرس الذي على جميع أطراف النزاع ومن ضمنهم آريوس نفسه أن يتعلموه بسرعة أنه "إذا ما كانوا يريدون الحفاظ على أمالهم في كسب تلك المعركة فإن الدولة من الآن فصاعدا هي الذي ستحدد مآل هذا الصراع".

الفصل الخامس

خطايا الجسد وشهوات العقل

قبل أن يغادر الأساقفة مدينة نيقية عقب انتهاء أعمال المجمع المسكوني، قام قسطنطين بترتيب احتفال خاص في يوم 25 يوليو 325 بمناسبة انتهاء أعمال المجمع المسكوني الذي تزامن مع الذكرى العشرين لتولى قسطنطين منصبه كأغسطس: وهو ما يعرف تقليدياً باسم فسينيلا. وللاحتفال بالحدثين معاً، فإن قسطنطين قام بدعوة القساوسة لتناول العشاء معه في قصره، وهو الحدث الذي شبهه يوسابيوس القيساري منتشياً بأنه مثل تناول العشاء مع السيد المسيح في الجنة^[1].

كال قسطنطين المديح للأساقفة وقام بتكريمهم، وأخبرهم عن تجربته الشخصية للتحويل إلى المسيحية، وقام بإعطائهم بعض الهدايا، وأزال أي شك في قلوبهم تجاه التزامه التام بقضية تقدم المسيحية في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وقام بتوديعهم قبل عودتهم إلى أوطانهم ناصحاً إياهم بالحفاظ على روح التعاون والسلام التي سادت مجمع نيقية (من وجهة نظره). كان واضحاً أن الإمبراطور يعتقد بأن قرار اجتماع جميع الأساقفة في مكان واحد كان بمثابة وحي من الله، وكما كتب لاحقاً إلى أهل الإسكندرية وصفاً هذا

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 219.

الاجتماع قائلاً: "بأن العناية الإلهية زودتنا ببركاتنا لعصمتنا من كل أشكال الخطأ، متحدين في إقرارنا بنفس الدين ونفس قواعد الإيمان فإن إبليس لن يكون له أية سلطة علينا بعد الآن، في نفس الخطاب فإنه يصف نفسه بتواضع بأنه مجرد زميل مسيحي، وخدام وقع على عاتقه في مجمع نيقية مهمة البحث والوصول إلى الحقيقة"^[1].

الغريب، أن حاجة قسطنطين لمثل هذا السلام والتناغم في إمبراطوريته، والتي قوتها تجاربه الشخصية، كانت نفسها العوامل التي أدت على إلغاء أي تأثير للتسويات التي توصل إليها مجمع نيقية.

كانت التجربة الشخصية المؤلمة التي تعرض لها قسطنطين، متمثلة في ابنه الأكبر كريسبوس Crispus الذي كان شاباً رياضياً مفتول العضلات في منتصف الثلاثينيات، وأمه ميرفينا تلك السيدة التي جاءت من خلفية غامضة والتي لم يعرف ما إذن كانت زوجة الإمبراطور الأولى أو كانت مجرد خلية له، على أية حال فإن هذا الأمير الشاب أصبح الآن يحكم النصف الغربي من الإمبراطورية باعتباره قيصرًا لقسطنطين، واتخذ من مدينة تريير مقرًا لحكمه، وكان من الواضح أنه خليفة قسطنطين المحتمل في عرش الإمبراطورية، بالإضافة إلى نسبه وإلى خبراته الإدارية في الحكم، فإنه أضاف إلى مواهبه خبرات عسكرية ضخمة، فخلال الحرب الأهلية بين قسطنطين وليكينوس، فإن المناورة الاستراتيجية البارة التي قام بها كريسبوس في مضيق البوسفور وأدت إلى تدمير أسطول ليكينوس الحربي، جعلت من السهل على قسطنطين تحقيق نصر ساحق على غريمه والقضاء على ليكينوس في إقليم بيزنطية .

1- Quoted in Frend, Rise of Christianity, 500.

لم تعد والددة كريسبوس في ذلك الوقت رفيقة لقسطنطين (سواء كزوجة أو كعشيقة)، ففي عام 307م، بعد وقت قصير من المناداة به كأغسطس خلفاً لوالده الراحل في عام 307، قام قسطنطين بتطليق ميفرنا وهجرها، وذلك من أجل الزواج بامرأة تنتمي إلى طبقة النبلاء تدعى فوستا. كان هذا بمثابة زواج سياسي، ففوستا كانت شقيقة حليفه المؤقت ماكسنتيوس، الذي سيلحق به الهزيمة لاحقاً في معركة جسر مالفينان الشهيرة، وما إذا كان هناك حب متبادل بين قسطنطين وفوستا أم لا فإن ذلك أمر غير معروف، لكنها على أية حال ظلت بجانبه في البلاط، وأنجبت له ثلاثة أبناء. وبغض النظر عن طبيعة العلاقة بينهما، فإن سلوك قسطنطين تجاه زوجته كان معصوماً من الخطأ. فالإمبراطور آمن بصدق بالمثاليات الرومانية المتمثلة في الفضيلة والعفة وعدم إقامة علاقات خارج إطار الزواج، وهو الاعتقاد الذي أصبح متسماً بالتطرف بعد اعتناقه للمسيحية (وانعكس هذا التشدد في مجموعة من القوانين التي سيصدرها من أجل المحافظة على العفة و الطهارة والحياة الزوجية) فمن ضمن القوانين الأولى التي أصدرها قسطنطين، كانت بعض القرارات شديدة الصرامة ضد جرائم الاغتصاب، والزنا، وترك منزل الزوجية، وعدم التزام النساء بالعفة، ومن ضمن أشياء أخرى كثيرة فإن تلك القوانين نصت على أن الحارس أو الوصي الذي يقوم بإغواء من هي تحت وصايته، يجب أن ينفى وتصادر كل أمواله، والفتاة التي تهرب يجب أن تعدم مع من قام بإغوائها والخادم الذي يساعدها على الهرب يكون جزاؤه بأن يصب رصاص منصهر في حلقه، تعاملت تلك القوانين مع النساء بصرامة أكبر مما تعاملت به مع الرجال، وربما كان السبب الواضح لمثل هذا التفريق في المعاملة هو الحفاظ

على النظام الاجتماعي الذي تسيطر عليه الهيمنة الذكورية. لكن عدم تمسك الرجال بالعفة لم يكن أمراً مباحاً، فعقوبة الرجل الذي يدان بارتكاب جريمة الاغتصاب هي الموت حرقاً دون امتلاكه حق الاستئناف، والنفي كان هو مصير المرتكب لجريمة الزنا، وحُظر على الرجال المتزوجين أن يحتفظوا بأية خليات، وفرضت عقوبات متنوعة على أشكال السلوك الجنسي غير المستقيم، كان بعضها يصل إلى حد الإعدام^[1].

سرعان ما سوف تتأثر أسرة الإمبراطور نفسه من تلك القوانين بطريقة درامية غير متوقعة. فمع نهاية أعمال مجمع نيقية، فإن قسطنطين ارتحل إلى روما الجديدة (القسطنطينية) من أجل متابعة التقدم في أعمال الإنشاء بالمدينة، ومن هناك ارتحل ناحية الغرب بصحبة أعضاء البلاط ومن ضمنهم زوجته فوستا وهوسيوس. وفي بداية عام 326، فإنه وصل إلى مسامعه سلسلة من الاتهامات المريعة الموجهة ضد ابنه كريسبوس. لم يفصح أبداً عن طبيعة تلك الاتهامات، ولكن كريسبوس كان متهماً بسلوك جنسي مشين لا يمكن غفرانه أبداً. والشائع أن فوستا أو أحد الأشخاص الذين يتصرفون بناء على رغبتها كان وراء تلك الاتهامات المشينة التي طالت كريسبوس، وكان مفاد تلك الاتهامات أن كريسبوس وقع

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 220—221. See, more generally, A. H. M. Jones, *The Later Roman Empire*, 284—602, vol. II (Norman, OK: University of Oklahoma Press, 1964), 972979-; Peter Brown, *The Body and Society: Men, Women, and Sexual Renunciation in Early Christianity* (New York: Columbia University Press, 1988). This is the best source of information and insight on this subject overall.

في غرام زوجة أبيه، وعندما حاول إغواءها صدته عن محاولاته
الذنيئة فما كان منه إلا أن حاول اغتصابها.

فوستا كان لديها من الدوافع الكافية لكي توجه تلك الاتهامات إليه،
فالتخلص من كريسبوس كان يعنى تمهيد الطريق أمام أبنائها لخلافة
قسطنطين في العرش، وعلى الأرجح فإن حقيقة تلك المسألة ستظل في
طبي الكتمان إلى الأبد، لكن ما نعرفه أن قسطنطين باشر التحقيق في
تلك الاتهامات الموجه ضد ابنه كريسبوس، ووجد أن الأدلة مقنعة بما
يكفى لإدانته، على الفور ودون أدنى تردد وهو في ثورة الغضب من
تلك الخيانة أصدر حكم الموت على فلذة كبده، ونفذ حكم الإعدام في
كريسبوس عقب المحاكمة مباشرة في الضيعة الملكية بمدينة بولا Pola
بإيطاليا، وهو نفس المكان الذي باشر فيه الإمبراطور بنفسه محاكمة
قضية مشابهة قبل وقت ليس بالبعيد وهى قضية النبيل الارستقراطي
سيونيوس روفوس البنيوس الذي اتهم بممارسة الزنا والسحر الأسود،
وأُسفرت تلك المحاكمة عن إدانته والحكم عليه بالنفي الدائم.

لكن محنة قسطنطين ومعاناته لم تنته بعد، ففي يوليو وصل إلى
روما، فقط ليجد أمه في مواجهة معه. هيلينا التقية، الإمبراطورة
المسيحية التي ستصبح رمزا للتقوى والإيمان المسيحي في جميع أنحاء
الإمبراطورية، فقد اتهمته بإعدام حفيديها بتسرع بناء على اتهامات
باطلة. وبشكل لا يقبل الشك قامت بتقديم أدلة.

على أن فوستا كانت هي العقل المدبر وراء تلك المؤامرة الذنيئة
من أجل التخلص من المنافس الرئيس لأبنائها على العرش. ويستطيع
المرء تخيل المواجهة التي اتبعت هذه الصدمة بين قسطنطين وبين
زوجته فوستا. ومع أن تفاصيل ما جرى في تلك المواجهة غير معلوم
بدقة، إلا أن نتيجة هذه المواجهة موثقة ومعلومة حيث انتهت

بموت فوستا، فعقب تلك المواجهة الدرامية انسحبت فوستا إلى حمامات القصر وماتت هناك مختنقة من بخار الماء بالحمامات، ويعتقد الكثير بأنها ماتت منتحرة خوفاً من إعدامها، إلا أن البعض يشيرون إلى أنها ربما قتلت بعد إغلاق باب الحمام عليها بواسطة عملاء قسطنطين، وتركها تموت بواسطة البخار الحارق.

لم يمض وقت طويل على هذه الحوادث حتى طلب هوسيوس الإذن لمغادرة بلاط قسطنطين والعودة إلى أبرشيته في إسبانيا، ربما تكون تلك المغادرة مرتبة من قبل، وربما يشك المرء أنها مرتبطة بكل هذا الرعب الذي شاهده هوسيوس في البلاط، على أية حال منحه الإمبراطور الإذن بالرحيل بما يعنيه هذا من حرمان المعسكر المعادي للآريوسية من مستشار ماهر. وأيضاً وافق قسطنطين على رغبة أمه بقيامها برحلة الحج إلى الأراضي المقدسة. (وهي الرحلة التي ستلعب دوراً كبيراً في مجرى أحداث التاريخ).

وبغض النظر عما إذا كانت رحلة الحج تلك مجرد رحلة للتكفير عن الذنوب أو كانت وسيلة لصرف الانتباه عن الكارثة التي لحقت بهم والتأكيد على تقوى واستقامة العائلة الإمبراطورية، فإنها كان لها تأثير مفيد وصحي على المسيحيين^[1]. فخلال رحلتها إلى الأراضي المقدسة بفلسطين فإن تلك المرأة ذات الثمانين ربيعاً فعلت عدداً لا يحصى من الأعمال الخيرية وسلوك الإحسان، وقامت بتأسيس العديد من الكنائس في بيت لحم وأورشليم (القدس)، ومن ضمنها كنيسة الميلاد nativity وكنيسة القيامة holy sepulche، وقامت بتحرير العديد من السجناء

1- Hanson, Search, 210, believes that the trip was not a "pilgrimage of reparation," since that would have "multipl[ied] the bad publicity already gained for the imperial house."

من السجون و العمل القسري (السخرة) في المناجم، وإعادة المنفيين إلى أوطانهم، وبدأت الأساطير حول أعمالها الخيرية تزدهر وتنتشر على نطاق واسع بشكل فوري، ف قيل على سبيل المثال أنها وجدت قطعاً من الصليب الحقيقي في أورشليم مع انتشار بعض القصص عن قدرتها على معالجة المرضى، ولم يمض وقت عقب عودتها مرة أخرى إلى نيقوميديا حتى ماتت في سلام وبجانبها ابنها الإمبراطور، وكان هذا إيذاناً بنهاية أصعب الشهور التي مرت عليه في حكمه.

دائماً ما شكلت السياسة والجنس توليفه غاية في القوة، ولكن تلك التوليفة خلال القرن الرابع الميلادي بالذات كانت ذات طبيعية متفجرة، وخاصة عندما تحولت الإمبراطورية إلى المسيحية، وأصبحت السياسة مشبعة بالعاطفة الدينية. فالمواطنون الرومان كانوا معتادين على سماع قصص الصخب الجنسي والدراما والمآسي بين أشخاص النخبة الحاكمة. ففي البلاط كانت شئون الدولة غالباً شئونا عائلية (فالمتحكمون في شئون الدولة هم أشخاص العائلة)، ولكن الطبقة الحاكمة الآن تضم أساقفة مسيحيين متحمسين مخلصين أو حتى مهووسين بفكرة العفة والطهارة الجنسية، ومن ثم كان أمراً محتوماً أن تأخذ الخلافات حول بعض القضايا الدينية منظوراً جنسياً من بعض جوانبها، فلم يكن كافياً وصف الخصوم بأنهم مسيحيون سيئون أو حتى هراطقة، ولكن يجب وصمهم الآن ببعض الصفات الدالة على الانحراف الجنسي مثل أنهم غاوون للنساء أو مغتصبون، أو معتادون على ارتياد أماكن العاهرات، هذه النزعة لإضفاء طابع الاتهامات الجنسية على المتخاصمين زادت الأمر اشتعالاً (وجعلت احتمالات العنف أكثر قوة)، وبالتالي زادت من صعوبة حل تلك المشكلات .

لم يكن أتباع المسيح فقط هم المهتمين بخلق معايير أخلاقية للممارسات

الجنسية، فحتى بين أوساط الوثنيين فإن الزنا واتخاذ الخليلات أصبح من الأمور غير المستحبة، وكان حفاظ الفتيات على عذريتهن أمراً يلقي تقديراً كبيراً^[1]، ولكن المسيحيين على وجه الخصوص كانوا منجذبين إلى فكرة الطهارة والعفة والمثال البطولي لإنكار الغريزة الجنسية، إنكاراً تاماً بسبب مباركة المسيح لهؤلاء الذين خصوا أنفسهم في سبيل مملكة السماء^[2]، بعض المتشددین أخذوا تلك النصيحة بشكل حرفي وقاموا بخصي أنفسهم، وعلى ما يبدو أن الأمر كان من الخطورة والانتشار إلى درجة أن الأساقفة في نيقية شعروا أنهم مجبرون على شجب هذا السلوك والتأكيد على أن الرجال الذين قاموا بخصي أنفسهم غير مؤهلين لترسميهم كقساوسة. فلم يكن الإخصاء التطوعي مقبولاً أبداً، (على الرغم من أن البعض يذكر أن أوريجين العظيم فعل الأمر نفسه)، وفي المقابل فإن العزوبة كما مارسها النساك من أمثال الراهب المصري انطونيوس كانت تحظى بإعجاب وتقدير واسع، فكما كتب يوسابيوس القيساري قائلاً "طريقتان من الحياة أعطاهما الرب إلى كنيسته، الأولى فوق الطبيعية، وتتجاوز الخيال البشري العادي، والتي تقرر وتوافق على التخلي على الزواج، وحمل الأطفال، وحياسة الممتلكات والثروة مثل بعض الأجسام السماوية العالية، فإن هؤلاء (النساك) يراقبون حياة البشر من علي، مؤدين واجباتهم الدينية كرجال كهنوت الله القدير تجاه الجنس البشري بأكمله"^[3].

1- On this subject generally, see Paul Veyne, ed., A History of Private Life, vol. I, From Pagan Rome to Byzantium, trans. Arthur Gold-hammer (London, 1987).

2- Matthew 19:12 RSV, 23.

3- Quoted in Peter Brown, The Body and Society, 205.

وفي الوقت نفسه وبشكل مشابه انتشر قيام الكثير من الفتيات العذارى بتكريس أنفسهن للكنيسة. وكما كان متوقعًا ومنتظرًا منهن فإن الأرامل كان عليهن أن يعشن محجّجات عن أية علاقات أخرى، وتم النظر إلى حياة العذرية وكأنها بمثابة وضع مقدس، ولجأ البعض إلى الزواج المسيحي أو الزواج دون إقامة أية علاقة جنسية، وهو الأمر الذي كان أيضًا يحظى بقيمة عالية، ومع هذا ففي ذلك الوقت لم يكن ينتظر من جميع رجال الكهنوت أن يظلوا عزابًا. وعادة ما كان القساوسة يتزوجون، والدليل على أن زواج القساوسة كان أمرًا مقبولاً في ذلك الوقت هو القول المأثور بأن "أبناء القساوسة يجب أن ينتهجوا نفس نهج آبائهم ويلتحقوا بالكهنوت". من أجل تفادي الفضائح، فإن مجمع نيقية تناول تلك القضية، ونص على أن رجال الكهنوت غير المتزوجين يجب ألا يعيشوا في منازلهم مع نساء بالقرب منهم باستثناء أقربهم الأقربين من عصبتهم، ولكن تلك المناقشات جعلت مطالبة تمسك رجال الكهنوت بالزواج المسيحي (دون اتصال جنسي) تأخذ بعدا دراميا، فها هو ذا الناسك المصري بيفنتيوس (الذي فقد إحدى عينيه أثناء عصر الاضطهاد) يفتح المناقشات الجارية ويصيح بصوت هادر بأعلى صوته بأن العزوبية هي أمر مستحيل على أغلب الرجال والنساء، وعلى المجلس ألا يفرض عبئا فوق الطبيعية على كاهل رجال الكهنوت^[1].

العزوبية كانت أمرًا محبذًا للأساقفة، ولكن في الحقيقة كان هناك العديد من الأساقفة المتزوجين أيضًا. وفي إحدى الحالات المشهورة، فإنه عندما تم ترشيح قس ليبي لتولى أسقفية طليثمة فإنه أخبر أسقف الإسكندرية بأنه لن يقبل هذا المنصب إلا إذا تم السماح

1- Ibid., 256.

له بمواصلة الاتصال الجنسي مع زوجته فعلى حد قوله: لا يمكنني الانفصال عنها، وكتب قائلاً ولا أستطيع في الوقت ذاته أن أكون برفقتها بشكل سرى وكأنني زان، بل إنني أبتغى وأبتهل إلى الله بأن تكون لي ذرية صالحة^[1]. (وتشير الدلائل بأنه تمت الاستجابة لطلبه). كان هذا التضارب في المواقف والآراء حول طبيعية الحياة الجنسية التي يجب على رجال الكهنوت اتباعها لم تؤثر فقط في خلق حالة من الغموض على السلوك الواجب لرجال الكهنوت إتباعه بل أيضاً سببت الكثير من المتاعب للمسيحيين العاديين. فما الذي يعنيه أن تعيش كمسيحي تقي في مجتمع ما بعد الوثنية؟ هل هي الرغبة فقط في الذرية الجميلة؟ التي اعتبرت منذ قديم الأزل رغبة مشروعة ومقبولة، والآن هل يجب أن ينظر إليها باعتبارها خطيئة؟ وإذا كان هذا صحيحاً فكيف يمكن للمرء أن يظهر روحه من تلك الشهوات؟ منشأ هذا التوق الشديد إلى الطهارة والبعد عن العلاقات الجنسية أياً ما كانت يظل غامضاً إلى حد بعيد. فكما كتب كاتب بشكل مستتر عن الجهود التي بذلها آباء الصحراء من أجل جعل القلب لا يشعر بالوحشة و يكون مستعداً ملء هذه الوحشة عن طريق الحب الإلهي وإخضاع شهواتهم إلى إرادتهم إلى الدرجة التي يستطيعون عندها التخلص من كل الشهوات والرغبات الجنسية^[2]، كان مثل هذه النزعة من الزهد الكامل تعتبر مثلاً متطرفاً لاتجاه عام لدى المسيحيين من أجل تغيير وتحسين أنفسهم عن طريق محاكاة يسوع المسيح، وعبر أسقف الإسكندرية (وأحد مفكريها الكبار) كليمنت في

1- Ibid., 292293-.

2- Ibid., 224235-.

القرن الثاني الميلادي بعبارات واضحة بقوله ” كانت المثل الإنسانية العليا التي جاءت من فلاسفة اليونان تعلمنا أن نقاوم الانجراف لشهواتنا، لكي لا نصبح مجرد عبيد خائعين لها، بل علينا تهذيب وتدريب الفطرة على سلوك الأهداف المعقولة والطبيعية“. وأضاف قائلاً ”ولكن المثل المسيحية تدعونا لتجاوز تجربة الشهوة بالكامل“^[1]. والأمر المثير في مثل هذا الرأي ليس فقط أنه يمثل الوجه المتطرف من البيورتانيين (المتطهرين)، ولكن هو التفاؤل في الاعتقاد بقدرة الإنسان على كبح شهواته بالكامل والوصول إلى الكمال الذاتي. ومثل الحركات الثورية اللاحقة، فإن المسيحية المبكرة رأت في نفسها القدرة على صنع نماذج بشرية جديدة، وفي الحقيقة فإن العديد من الأشخاص راودهم مثل هذا الشعور واعتقدوا بصدقه وواقعيته، وليس المقصود هو خلق مجتمع اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة، ولكن النظر إلى أنفسهم وإلى أجسادهم وأخلاقهم باعتبارها مادة طيبة ولينة قابلة للتشكيل، وصياغتها بالطريقة التي يرونها في اتجاه محاكاة المسيح، تماماً كما يقوم الصائغ الماهر بصناعة وتشكيل قطعة حلوى جديدة من فنه بالطريقة التي يراها. كان هذا بكلمات أخرى هو الإحساس الجديد بقوة الإرادة التي يمتلكها الإنسان من أجل التحكم في الحاجات الجسدية والعاطفية الضرورية. شعور مثل هذا يولد إحساساً كبيراً بالراحة في العقيدة الأريوسية القائلة بأن المسيح وصل إلى الكمال بقوة إرادته وليس لأنه إله بطبيعته.

كان مثل هذا التفاؤل المتطرف هو أحد الجوانب التي ميزت مسلك الإنسان في سعيه لتغيير نفسه (نحو الكمال)، ولكن التركيز على الشهوات

1- Cited in ibid., 31.

والرغبات الجنسية ربما يدعونا للاعتقاد بأن العديد من الأشخاص في القرن الرابع الميلادي كانوا يشعرون بالدنس وعدم الطهارة. ربما أحد منابع هذا الشعور هو انجذابهم المستمر إلى الإغواء والإغراءات الكثيرة التي كانوا يتعرضون لها في مجتمع مازالت قيم الوثنية هي التي تحكمه، وكان المصدر الآخر لمثل هذا الشعور بالخزي، وإن كان أقل وضوحًا وقوة من المصدر الأول هو إدراكهم (وهم محقون تمامًا) بأنهم مواطنون في إمبراطورية استبدادية مهددة بالزوال نتيجة لعوامل خارجية بالغة القوة، يقفون أمامها بلا حول لهم ولا قوة.

نحن نعرف أن الأشخاص الذين يتعرضون لتجربة أليمة مثل التعرض لأحد الجرائم أو الحوادث أو القمع غالبًا ما يشعرون بأنهم ملوثون لضعفهم وقلة حيلتهم أمام تلك التجارب. وهذا ما يفسر أن أغلب الحركات الثورية تبدأ أعمالها بمحاولة تطهير المجتمع من تلك الممارسات والأفكار غير النقية. مثل هذا الشعور بالخزي والعار يمكن أيضًا أن يتعاظم بطريقة أكبر من هذا، مع إدراك أن عاطفة وشهوة المرء ربما تكون في الحقيقة أكثر جموحًا بكثير مما اعتقد أنها عليه، الحضارات الكلاسيكية واليهودية رسخ في وجدانها منذ زمن بعيد أن أكثر الممارسات الجنسية متعة هي أمر غير مكروه بل ومحجب، على شرط أن يتم التعامل معها بطريقة من الاعتدال وتحت سيطرة العقل، ومع التداعي الواضح لأسس النظام القديم، فإن العقل بدا وكأنه كمرشد واهن وغير فعال ولا بد الاستعاضة عنه بالإيمان، وأصبحت الأذهان الآن منتبهة للرغبات المتأججة، والتي بدت في بعض الأحيان كما لو كانت خارجة عن السيطرة وسببًا قدريرًا للهلاك. ومن ثم جاء هذا التناقض الحاد، رجال ونساء لديهم الاعتقاد بأن لديهم القوة والإرادة للوصول بأنفسهم إلى الكمال، ولكن في

الواقع فإن أغلب هؤلاء كانوا عاجزين عن ذلك الأمر. كتب القديس أوغسطين من هيبو^[1] قائلاً "العقل يعطي أوامره للإرادة" ولن يعطي العقل الأوامر إلا إذا رغب في إعطائها، ومع هذا في بعض الأحيان لا تستجيب الإرادة لتك الأوامر^[2]. بينما شدد أتباع المذهب الآريوسي على قدرة البشر على إتباع النموذج الأخلاقي للسيد المسيح، فإن المعارضين للآريوسية من أمثال القديس أوغسطين نفسه أكد على ضرورة تقييد النفس (العبودية الذاتية) self-enslavement والتي تضمنت الحاجة الملحة للمسيح بصفته إلهاً، فقط الله هو الذي يستطيع تحرير البشر من تلك القوى الهدامة للعادات والشهوات الجنسية، و فقط وحده هو المسيح الإله هو الذي يستطيع أن يسمح البشر حتى ولو ظلوا خاطئين بآسئين. بالنسبة لطرفي هذا الخلاف، فإن الجنس كان رمزاً بالغ الدلالة على قوة وضعف الإرادة البشرية. وبينما كان قسطنطين في سفره بالغرب، والذي لاقى فيه تلك التراجيديا العائلية، فإن آريوس كان في المنفى في إقليم إيليريا على مقربة من الساحل الدلماسي مع مجموعة من أتباعه، من بينهم يوزويوس Euzoius القس الأنطاكي الذي أصر على الذهاب معه وكان بمثابة مساعده الرئيس. وصدر أيضاً قرار النفي بحق يوسابيوس

1- القديس أوغسطين الأفريقي الفيلسوف المسيحي الشهير، ولد فيما يعرف حالياً بمدينة أهراس بالجزائر في عام 354 م وتوفي في 430 م واعتنق هذا الفيلسوف الكبير المسيحية في العام 384 بعد تأثره بسيرة الراهب المصري الكبير أنطونيوس، وعين أسقف مدينة هيبو بالجزائر ولذلك يعرف باسم أوغسطين من هيبو ومن أشهر أعماله موسوعة مدينة الله التي كتبها ردّاً على التيار المناصر لعودة الوثنية مرة أخرى كنتيجة لغزو القبائل البرابرة لأنحاء عديدة من الإمبراطورية الرومانية، ونهب روما من قبل القائد الوندالي الشهير جيسريك (المترجم).

2- The Confessions of St. Augustine, trans. Rex Warner (New York: Mentor Books, 1963), 176177-.

النيقوميدي. كانت بلاد الغال هي على الأرجح المكان الذي نفى إليه يوسابيوس وفي صحبته ثيوجينس أسقف نيقية مع حاشية صغيرة. ولا توجد أية سجلات حول أنشطة هؤلاء الأساقفة فور نفيهم، عقب انتهاء أعمال المجمع المسكوني، ولكن الأمر المؤكد أنهم استمروا في التواصل مع بعضهم البعض ومع المفكرين الآخرين في أنحاء الإمبراطورية، والدليل على ذلك تلك الحملة المنظمة التي قاموا بها على الفور من أجل كسب ود وعطف الإمبراطور، وتقويض مركز قادة المعسكر المعادي للآريوسية.

كانت استراتيجية الآريوسيين لتحقيق هذا الهدف بارعة وبسيطة، وتحمل كل دلالات المهارة والحكمة السياسية ليوسابيوس النيقوميدي. فالإمبراطور قسطنطين أراد السلام والتناغم في الكنيسة فوق كل اعتبار آخر، وكان مقتنعا تمام الاقتناع أن مجمع نيقية المسكوني تم تدبيره بوحى من الله، وبالتالي فإن العقيدة التي استقر عليها المجمع كانت بالتأكيد هي الأساس الذي يمكن أن يحقق مثل هذا السلام والتناغم. حسناً، إذا كان ما يبحث عنه الإمبراطور هو الإجماع، فسوف يريه يوسابيوس وآريوس أنهم هم القادرون على تحقيق هذا الإجماع، ولكن ليس على أساس الإيمان بعقيدة نيقية القائمة على التطابق والتماثل التام بين المسيح والله، ولكنهم يستطيعون أن يحققوا هذا الإجماع عن طريق تفسيرهم الخاص لعقيدة نيقية، فبدلاً من المصطلح المثير للجدل الهوموسية (نفس الجوهر) اقترحوا مصطلح الهومويوسية (التشابه في الجوهر) Homoousios ويشاركونهم في وجهة النظر تلك تقريباً كل أساقفة النصف الشرقي من الإمبراطورية، بل وسيعلمون استعدادهم للعيش في سلام مع هؤلاء الذين يختلفون معهم في آرائهم اللاهوتية. وإذا

أمر الفريق المعادي للآريوسية باستبعادهم بعد ذلك من الكنيسة ومهاجمة إيمانهم سيكونون هم الذين يتحملون مسؤولية تغذية التطرف الإيديولوجي، وزيادة العداء الشخصي، وبالتالي سيكونون هم الذين يقفون أمام تحقيق حلم الوحدة المسيحية (وتوحيد الإمبراطورية الرومانية كما يريد قسطنطين).

كان قسطنطين ينتظر أن يجلب المجمع المسكوني الأول بنيقية السلام والوحدة. ولكن إذا لم يتحقق هذا السلام، فإنه في هذه الحالة سيكون أمامه خياران: الأول هو نفى وتجريم عدد أكبر من الأساقفة، على الأرجح من الفريق الآريوسي (وان كان هذا الأمر غير مؤكد، فيمكن أن يطال النفي أيضًا بعض أساقفة الفريق الآخر)، الخيار الثاني أن يمارس قسطنطين المزيد من الضغط على كلا الفريقين من أجل التعايش السلمي بينهما. كان يوسابيوس يراهن على أن الإمبراطور سيلجأ إلى الخيار التوافقي، ويسلك طريقا أكثر مرونة للتعامل مع تلك القضية، وربما كان من الممكن أن يقوم قسطنطين بهذه الخطوة بالفعل لولا المحنة والكارثة التي كان يمر بها بعد مقتل ابنه كريسبوس وزوجته فوستيا المأساوي، فقسطنطين في ذلك الوقت كان يتوق بشدة إلى العثور على السلام داخل الإمبراطورية وقبلها بداخل نفسه وفي حياته الشخصية.

وبحلول عام 327، فإن الآريوسيين قاموا بتصعيد حملتهم من أجل تحقيق أهدافهم، وساعدهم في ذلك النجاح تصرفات الفريق المعادي للآريوسية، التي اتسمت بعدم فطنة كافية، ومحاولة تقوية انتصارهم في نيقية عن طريق التخلص من أي تفسير يعتقدون أنه يفسر عقيدة نيقية بطريقة غير أرثوذكسية، وكان طبيعيا أن يأتي على قمة أهدافهم التالية التخلص من يوسابيوس القيساري الذي على

الرغم من توقيعه علي مرسوم نيقية، إلا أنهم كانوا يعتقدون أنه يفسره بشكل خاطئ، والدليل على هذا هو تلك الرسالة التي بعثها إلى شعب كنيسته يخبرهم فيها أن كلمة الهوموسية لا تعنى مماثلة المسيح لله تمامًا أو أن المسيح يقف على قدم المساواة مع الله، ولكن كانت تعنى أن ألوهيتهما رفعتهما فوق باقي المخلوقات. وفي الوقت ذاته فإن يوستاسيوس أسقف أنطاكية المعادي للآريوسية، والذي ساعده هوسيوس على الوصول إلى منصب الأسقفية في مجمع أنطاكية (الذي سبق مجمع نيقية المسكوني)، قام بالإدلاء بالعديد من التعليقات العنيفة على موقف الآريوسيين، واتهمهم بالتظاهر بالموافقة على عقيدة نيقية، في حين أنهم في حقيقة الأمر يريدون أن يجردوها من معناها الحقيقي.

كان هذا الهجوم على الآريوسيين بالتأكيد خطأ تكتيكي، ليس فقط لأن الإمبراطور قسطنطين كان يتوق إلى إنهاء هذا الجدل والخلاف حول الآريوسية، ولكن لأن رحيل هوسيوس إلى إسبانيا جعل من صديقة القديم يوسابيوس القيساري أقرب مستشاري الإمبراطور الدينيين.

حتى هذه اللحظة فإن هجوم يوستاسيوس على الآريوسيين لم يكن كافيا لقيامهم بهجوم مضاد، ولكن يوستاسيوس نفسه ارتكب خطأين كبيرين بعد ذلك: الخطأ الأول، أنه قام بتقديم تفسيراته اللاهوتية الخاصة والتي أصر عليها باعتبارها هي نموذج الأرثوذكسية الحقيقية، كما لو كانت ترياقا للأفكار الآريوسية التي تخضع المسيح لله، الخطأ الثاني أنه جعل من نفسه عرضة لبعض الاتهامات بالسلوك الجنسي المشين على الرغم من أن تلك الاتهامات اكتنفتها حالة من الغموض. من بين هذين الخطأين اللذين ارتكبهما يوستاسيوس، فإن الخطأ اللاهوتي كان هو الأكبر، وكانت المشكلة التي لم يعها كلا طرفي الخلاف

بعد، هي أن كل من سيتصدى لشرح العلاقة بين الآب والابن بشيء من التفصيل سيعرض نفسه للاتهام بالهرطقة بكل سهولة، ويرجع هذا إلى أنه سيكون صعباً إن لم يكن مستحيلاً أن تصف علاقة المسيح بالله دون إما أن تنكر طبيعته البشرية تماماً كما فعل أتباع الهرطقة السابليانية أو دون أن تضع ألوهيته موضع تساؤل كما فعل الآريوسيون المتطرفون. وتكمن جذور المشكلة الحقيقية أن عقيدة التوحيد اليهودية المسيحية تفترض وجود رب واحد غامض يتمتع بقوة غير محدودة، وهو الذي لم يخلق فقط العالم بكل مخلوقاته وأشياءه، بل أيضاً خلق الزمان والمكان^[1]. إذا كان المسيح فعلاً هو الله، فإن العنصر البشرى به يجب أن يتضاءل إلى أن يصبح شيئاً لا قيمة له، ولكنه إذا كان شيئاً آخر غير الله، فإنه دون أن يدركه المرء باعتباره مخلوقاً شبيهاً بالملائكة فإنه سينظر إليه في هذه الحالة باعتباره مجرد إنسان.

بالنسبة لأطراف الخلاف الآريوسي، فإن نتائج أي محاولات لفهم الأمر (طبيعة العلاقة بين المسيح والله) سيقابلها ردود فعل سلبية وعقوبات صارمة. لذلك بينما كان أمراً غاية في الأمان أن نتقد آراء الخصوم الآخرين حول طبيعة السيد المسيح، فإنه سيكون أمراً غاية في الخطورة أن تطور آراءك الخاصة وتذيعها حول تلك المسألة (ففي الأغلب سوف تجد طرفاً ما يتهمك بالهرطقة). وقد دفع آريوس هذا الثمن بعد نشره لكتابه "المأدبة" والذي ملح فيه ضمناً على أن المسيح هو مخلوق كسائر مخلوقات الله. على الطرف الآخر كان يوستاسيوس الأنطاكي يمثل النقيض التام لأفكار آريوس، إذ أنكر

1- See The Confessions of St. Augustine, Book XI, 257284-.

العنصر البشرى في المسيح عندما أصر على أن كلمة الهوموسية تعنى أن المسيح والله كانا واقعاً أو فرداً واحداً، وهو ما أطلق عليه مصطلح "هيبوستاسيس"^[1] Hypostasis، وعلى الرغم من أحد الذين تعرضوا للعنة الكنسية (الأنثيميا) anathema في مجمع نيقية قال كلاماً مشابهاً لذلك الذي قاله يوستاسيوس، ومع ذلك ظل البعض ينظر إلى الأمر باعتبار المسيح مجرد فعل من أفعال الله، وفي هذه النقطة بالذات فإن أغلب أساقفة الشرق في ذلك الوقت كانوا يعتقدون أمراً مشابهاً، ويميلون إلى قبول وجه نظر آريوس في تلك المسألة، ومفادها أنه بينما كان الآب والابن على اتفاق في كل شيء، لكنهما كانا واقعين مختلفين لا يمكن ولا يجب أن يندمجا معاً^[2].

حاول يوستاسيوس أن يدافع عن نفسه ضد الاتهامات الموجه له بالسابليانية، وأقر أن المسيح كانت لديه طبيعة بشرية أيضاً، ولكنه أصر بحرارة و(بشكل مثير للبس) على أن كلا من الطبيعتين البشرية والإلهية (الناسوت واللاهوت) ظلت منفصلة ومختلفة بشكل تام. واستمر في جداله قائلاً "الله نفسه لم يكن من الممكن أن يعاني ويتألم على الصليب، ولذلك فإن المسيح عندما أعلن أن "الآب أعظم مني" وعندما حافظ على موقفه بأن "الآب فقط وليس الابن هو الذي يعلم موعد يوم الحساب (القيامة)، وعندما تساءل المسيح قائلاً لماذا تدعونني بالصالح، فلا يوجد صالح إلا الله؟ (وهي نصوص الأناجيل التي يستند عليها الآريوسيون لإثبات وجهة نظرهم بأن المسيح أقل مكانة من الله). حيث كان المسيح الإنسان هو الذي

1- See the extensive discussion of hypostasis and ousiaby Hanson, Search, 181- 207.

2- This doctrine was associated with the Arian thinker, Asterius. Ibid., 226.

يتحدث وليس المسيح ابن الله“^[1]. كانت تلك محاولة جريئة من يوستاسيوس لصياغة مذهب الطبيعتين للسيد المسيح، ولكن نتيجة تلك المحاولة أنها صورت المسيح كشخص مصاب بالشيزوفرينا (الفصام)، إذ صورته كشخصية إنسانية عرضة للخطأ وخاضعة للضعف البشري مرتبطة بطريق ما غامضة بالله السرمدي على مر الزمان والعالم بكل شيء والقادر على كل شيء. لكن هذا المذهب الذي اقترحه يوستاسيوس لم يوفر له الحماية الكافية لوقايته من تصميم الآريوسيين على مهاجمته.

وبعد عامين من انتهاء أعمال مجمع نيقية المسكوني فإن الآريوسيين بدأوا هجومهم المضاد. ففي عام 327م نجح يوسابيوس القيساري في الدعوة إلى انعقاد مجمع كنسي في أنطاكية للنظر في الاتهامات الموجهة إلى أسقف أنطاكية يوستاسيوس بالهرطقة وبالسلوك الجنسي المشين، والتي وجهها له منشقون عنه في أبرشيته بمدينة أنطاكية. وعلى الأرجح فإن قسطنطين تدخل من أجل إجبار يوستاسيوس على عقد المجمع وحضوره، وإلا بديهيًا كان سيمنع عقد المجمع في المدينة التي تخضع لسلطانه الكنسي. على أية حال لم يجد المجمع المنعقد تحت رئاسة يوستاسيوس نفسه في أنطاكية صعوبة في إدانته بتهمة الهرطقة السابليانية وبالسلوك الأخلاقي المشين وإصدار قرار الحرمان الكنسي في حقه وعزله من منصبه مع ستة أساقفة آخرين من نفس الإقليم ليواجهوا نفس مصير يوستاسيوس، وقام قسطنطين بمراجعة القضية بنفسه ثم أصدر بعدها قراره بتأييد قرارات المجمع، وأضاف إليه قرار النفي إلى إقليم إيليريا، وأصدر المجمع المنعقد

1- Ibid., 211- 217.

في نيقية بعدها قراره بتعين بولينوس من صور (المعروف بتعاطفه مع الآريوسيين) أسقفًا جديدة لمدينة أنطاكية المتروبوليتانية، وهكذا بدأت دفعة الأمور تعكس اتجاهها مرة أخرى ناحية صعود الآريوسية. وبالعودة مرة أخرى ليوستاسيوس، فإننا سنجد أنه على الرغم من أن التفسير الذي قدمه حول طبيعة السيد المسيح الحقيقية كان يحتل المرتبة الأولى في صدارة الاتهامات الموجهة ضده، إلا أن الاتهامات الجنسية الموجهة ضده لم تكن أيضًا قليلة الأهمية. أحد المعلقين يقر بأن تلك الاتهامات بالسلوك المشين ربما تمت المبالغة في وصفها أو أنها اختلقت برمتها من الأساس، إلا أنه ومع ذلك اعتبرها أكثر خطورة من تهمة الهرطقة الموجهة إليه^[1]. كان واضحًا أن تلك التهم كانت تتضمن إقامة يوستاسيوس علاقة جنسية غير مشروعة مع امرأة ليست زوجته، وأنه قام بإهانة أم الإمبراطور خلال رحلة الحج التي قامت بها إلى الشرق^[2]. كانت تلك هي المرة الأولى التي تظهر فيها مثل هذه النوعية من الاتهامات في الخلاف الآريوسي ولكنها بالتأكيد لن تكون الأخيرة، فالاتهامات بالفساد (الأخلاقي) ستصبح الآن هي السمة المميزة للصراع الآريوسي، وهو الأمر الذي سيؤدي لا محالة إلى تسارع العداء بين الطرفين عن طريق إعطائه مظهر سلسلة من الخصومات الشخصية العنيفة.

هل تمت المبالغة في تلك الاتهامات الموجهة ليوستاسيوس؟ الإجابة على الأرجح نعم. هل تم اختراعها من الأساس أم تزيفها والمبالغة فيها؟ ليس بالأمر المهم. ولكن في الأغلب كانت الاتهامات الموجهة

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 228.

2- Ibid., citing various sources, including the Arian historian Photirgus.

للأساقفة بالفساد لها بعض الأساس، وليس هذا راجعاً إلى أن قادة الكنيسة خلال القرن الرابع الميلادي كانوا فاسدين أو رجالاً وضيعين، ولكن المعايير الأخلاقية لسلوكهم كانت في تغير مستمر، وامتلأت بالعديد من التناقضات. فكما أوضحت سابقاً فإن التزام رجال الدين بالعزوبة كان أمراً لم يستقر على قرار نهائي فيه بعد. ولكن في جميع الأحوال حتى في المناطق التي كان زواج رجال الدين فيها مسموحاً فإن الاحتفاظ بعشيقات كان أمراً مستهجناً بطبيعية الحال، ولو ثبت أن يوستاسيوس احتفظ بعشيقة كما زعمت تلك الاتهامات فإنه سيتم إدانة هذا السلوك دون أي تردد، وما يزيد هذه القضية صعوبة أنه في ذلك الوقت وعلى الرغم من الحقيقة التي مؤداها أن العديد من الأساقفة والقساوسة كانوا متزوجين، وبعضهم حتى كان على اتصال جنسي بنساء قبل الزواج منهن. إلا أن هاجس مفهوم الطهارة والعفة الجنسية الذي لم يحسم بعد، أدّى إلى أن أي علاقة لرجل دين مع امرأة (مهما كانت تلك العلاقة عفيفة) ستجعله عرضة لأن يواجه خطر الاتهام بالسلوك الجنسي غير الأخلاقي، وهذا ما يفسر قرار مجمع نيقية بإلزام رجال الكهنوت بإبعاد أي امرأة عن منازلهم باستثناء أمهاتهم أو أخواتهم فقط، وعلى ما يبدو فإن هذا القرار لم يوضع موضوع التنفيذ الفعلي من قبل رجال الدين.

وبشكل مساو في الأهمية، فإن الأساقفة المسيحيين، وبينما كان منتظراً منهم أن يكونوا رجال مسالمين أنقياء، إلا أنهم كانوا من أكثر رجال الإمبراطورية تمتعاً بالنفوذ السياسي والقوة. كانت التناقضات بين المثل الأخلاقية والسلوكية التي مثلتها حياة السيد المسيح وبين متطلبات حفاظ الأساقفة على مناصبهم في القرن الرابع الميلادي مثيرة للكرب. فواجبات الأساقفة وطموحهم غالباً ما دفعهم إلى الاشتراك في

المؤامرات السياسية، وإلى فساد الذمة المالية، وإساءة استعمال السلطة القضائية (فرجال الدين في تلك الأزمنة كانوا يقومون بدور القضاة في العديد من القضايا وخاصة الإرث)، وممارسة العنف المطلق والوحشي ضد خصومهم، مثل هذا السلوك سوف ينتج عنه لا محالة العديد من نقاط الضعف التي يمكن لأعدائهم السياسيين وخصومهم العقائدين أن يستغلوها لتوجيه الاتهامات لهم. وأكثر من هذا بما أنهم الآن يعملون في خدمة الإمبراطور، فإن رجال الكنيسة الكهنوتيين يمكن أن توجه لهم الآن تهمة اهانة الإمبراطور، وهو ما حدث بالفعل في حالة يوستاسيوس الذي وجهت إليه تهمة اهانة أم الإمبراطور، وأسوأ من هذا، فإنه لن يمضي وقت طويل حتى يجد الأساقفة على كلا جانبي الخلاف الآريوسي مضطرين للدفاع عن أنفسهم ضد تهمة الخيانة العظمى.

على أيه حال، فإن كل ما أراده قسطنطين هو السلام في الإمبراطورية وكان يمر في هذه الأيام بحالة مزاجية هادئة وطبع ميال للتسامح وبمجرد انتهاء أعمال مجمع أنطاكية (في عام 327م) فإن آريوس والقس يوزيوس كتبوا إلى سلطات نيقوميديا طالبين الإذن بالمثل أملاً من الإمبراطور، وأعربا عن أملهما في إعادة الانضمام إلى شراكة الكنيسة والتأكيد للإمبراطور على أن آراءهما اللاهوتية ستكون مقبولة من باقي الأساقفة. وقد رد قسطنطين بلطف على تلك الرسالة، مذكراً إياهم بأن سيكون باستطاعتهم جعل مدة نفيتهم أقصر إذا تخلوا عن عنادهم وفي الوقت ذاته فإنه سمح لهم في تلك الرسالة بالحضور لمقابلته، وهو ما تم بالفعل حيث استقبلهم في بلاطه بنيقوميديا في نوفمبر 327.

كانت شخصية قسطنطين السياسية تتسم بالقدرة على الموازنة بين كل الأطراف، فمن أحد الجوانب كان هو أقوى رجل في العالم، ومن جانب آخر فإنه كان يحكم الإمبراطورية من خلال مجموعة صغيرة

ومتجانسة من رجال النخبة. كان السفر عبر البحر أمراً سهلاً إلى حد كبير، وسهولة السفر تلك أدت إلى أن الموظفين الرومان المدنيين الكبار وضباط الجيش والأثرياء وقادة الكنيسة كانوا يعرفون بعضهم بشكل كبير ونشأت بينهم علاقات العداوة والصداقة. كان المثل الرسمي بين يدي الإمبراطور يخضع لطقوس معينة، ولكنه في جوهره كان تبادلاً للعواطف. قسطنطين الذي اعتبر نفسه قاضياً عادلاً، كان غالباً ما يتأثر بما قد يلاحظه من صدق أو إخلاص أو ذكاء أو ما يلتمسه من مدى عمق أحساس الأشخاص الذين يسعون لنيل رضائه. فلو أظهر آريوس إحساساً صادقاً بالندم ورغبة حقيقية في العيش بسلام مع إخوته القساوسة ففي هذه الحالة يمكن لقسطنطين أن يتغاضى عن حقيقة اختلاف آرائه قليلاً عن عقيدة نيقية.

لا بد أن آريوس كان مقنعا في حديثه، فبغض النظر عن الأوصاف الدنيئة التي نعتها إياه خصومه بها (المهرطق لم يكن أسوأها)، كان ولكن إخلاصه للمسيح والكنيسة كان في الواقع حقيقياً، تماماً كما كانت رغبته للعيش في سلام مع المسيحيين الآخرين حتى المختلفين معه في المذهب العقائدي. وعندما وصل آريوس مع يوزيوس إلى القصر، استمع قسطنطين إليهما باهتمام، وأعرب عن رغبته في مساعدتهما للعودة مرة أخرى إلى مناصبهم الكنسية في الإسكندرية، مشروطاً بضرورة قيامهما بكتابة وثيقة إيمانية تتماشى مع العقيدة الأرثوذكسية المسيحية، وهو ما قام به الاثنان، وقدا بالفعل وثيقة إيمان تشبه الوثيقة الأصلية التي أقرها يوسابيوس القيساري (في مؤتمر نيقية)، وأكددا فيها إيمانهما بالوهية المسيح دون استخدام كلمة الجوهر الواحد (الهوموسية)، ولاقت تلك الوثيقة القبول لدى قسطنطين. لكن المجمع الكنسي فقط هو الذي كان يستطيع

إلغاء قرار الحرمان المفروض على آريوس (فحتى الإمبراطور نفسه لا يستطيع فعل ذلك)، ولذلك قام باستدعاء مجموعة كبيرة من الأساقفة لكي يقرروا مدى صحة إيمان وعقيدة آريوس.

اجتمع مجمع نيقيوميديا مبكرا في أوائل عام 328^[1]، وفحص الأساقفة المجتمعون عقيدة آريوس ويوزيوس، وقاموا بامتحانهم بشكل شخصي، وأعلنوا في النهاية أن آراءهما متماشية مع الإيمان الأرثوذكسي^[2]، وعقب ذلك أعلن الأساقفة المجتمعون في نيقيوميديا بإجلال عودتهما مرة أخرى إلى الشراكة مع الكنيسة (وإلغاء قرار الحرمان الكنسي ضدهما). وقد تعهد آريوس وهو منتش بأن يساعد الإمبراطور في حلمه وهدفه باستعادة السلام للكنيسة. وعلى الفور كتب الإمبراطور قسطنطين إلى أسقف الإسكندرية يطلب منه السماح لآريوس بالعودة إلى مدينة الإسكندرية والدخول مرة أخرى في شراكة كنيسة، وفي غضون ذلك، وبمجرد ذیوع قرارات مجمع نيقيوميديا (بتبرئة آريوس) فإن يوسابيوس النيقوميدي وثيوجينس النيقى تقدما بالتماس (من أجل إعادةتهما مرة أخرى إلى منصبيهما، وأعلنا استعدادهما لقبول عقيدة نيقية بأكملها بما فيها مصلح الجوهر الواحد - الهوموسية - والتي فسروها بالطبع من منظور آريوسي)،

1- Although a council did meet in Nicomedia, it is unclear how large and representative it was. Barnes (Constantine and Eusebius, 229) and certain other scholars think it was a "second Council of Nicaea" on the scale of the first, while Hanson (Search, 174—178) thinks it was much smaller.

2- كلمة أرثوذكسي تعنى الصحيح أو الحقيقي أو الدين القويم، وبالتالي فإن استخدام مصلح العقيدة الأرثوذكسية لا يعنى المذهب الأرثوذكسي الحالي الذي تدين به بعض الكنائس الشرقية وأهمها الكنيسة القبطية المصرية ولكن المقصود من تلك الكلمة أن إيمانها صحيح أو قويم - (المترجم)

وبالفعل نظر المجمع المنعقد في نيقوميديا في التماسهما، وأعلن أن إيمانها يتماشى مع الإيمان الأرثوذكسي. ومرة أخرى أصدر الإمبراطور قراره بعودتهما إلى تقلد مناصبهما السابقة. وعلى الفور تم عزل أساقفة نيقوميديا ونيقية الحاليين المنتمين إلى المعسكر المعادي للآريوسية والذين حل محلهم يوسابيوس النيقوميدى وثيوجينس النيقى (المتعاطفين مع الآريوسية). وهكذا وبعد مرور أكثر قليلا من عامين على مجمع نيقية فإننا نجد أن أغلب قراراته الهامة تم إلغاؤها فعليا، ولم يستعد أنصار الآريوسية فقط كراسي الأسقفية في كل من أنطاكية ونيقية، ولكن سرعان ما سرقى يوسابيوس النيقوميدى نفسه ليصبح أسقفًا للقسطنطينية معززا من مكانته باعتباره قائداً سياسياً للآريوسيين^[1]، ولم تقف سلسلة انتصارات الآريوسية عند هذا الحد، فبعد ذلك بـ عدة سنوات فإن أحد الخصوم الرئيسيين لآريوس وهو الأسقف مارتيلليوس الأنقري Marcellus of Ancyrs سوف يصدر ضده قرار الحرمان والعزل من وظيفته بسبب اتهامات مشابهة لتلك التي وجهت من قبل ليوستاسيوس الأنطاكي، لم يكن هناك شك أن نجاح هذا الهجوم المضاد للآريوسية يعود جزئياً إلى رغبة الإمبراطور الملحة لتحقيق السلام المنشود في الكنيسة، ولكن الفطرة اللاهوتية التي تمتع بها أغلب أساقفة الشرق كان لها دور أيضاً في هذا النجاح. ففي الشرق، كان أغلب رجال الكنيسة موالين إلى وضع حدود فاصلة بين الآب والابن، وإلى الإحجام عن استخدام مصطلح الجوهر الواحد، وبينما يجدون السيد المسيح، فإنهم بدلا من قيامهم بتشبيه

1- فزعيم الآريوسية ليس آريوس نفسه، ولكن كان يوسابيوس النيقوميدى، إذ يجب ألا ننسى أن آريوس لم يكن أسقفا بل قسا (المترجم).

المسيح بالله، سوف يؤكدون في المقابل على عظمة الله غير القابلة للإدراك الكامل، وعلى الأهمية والفائدة التي يمثلها السيد المسيح للبشر من خلال كونه نموذجاً يمكن للإنسانية أن تحتذي به.

ولهذا لم يكن رجوع الآريوسية واستعادتها قوتها مجرد مناورة سياسية بارعة من يوسابيوس النيقوميدي وآريوس ولكن كانت دلالة على أن حالة الإجماع الظاهرة التي بدا عليها الأساقفة في مجمع نيقية لم تكن إلا وهمًا زائفًا أنتجته رغبة الأساقفة في إرضاء الإمبراطور لتحقيق حلمه في استعادة وحدة الكنيسة. كان هناك بعض الدروس التي يمكن تعلمها من تلك التجربة، فالإجماع لا يمكن أبداً تحقيقه عن طريق صياغة شفوية، ذلك أن الخلافات العميقة كانت نادراً ما تحل دون تغير حقيقي في طريقة تفكير أطراف النزاع، والأهم من ذلك أن الإجماع الزائف ربما يكون سبباً لتفاقم النزاع أكثر من الاختلاف الصريح.

كانت الحركة الآريوسية في صعود مستمر، ولكن لم تجر الأمور على نفس المنوال الحسن بالنسبة لآريوس نفسه، فعلى الرغم من الوفاق بينه وبين الإمبراطور، إلا أن ألكسندروس أسقف الإسكندرية رفض بإصرار عودة آريوس إلى كنيسة الإسكندرية محتجاً بأنه لا يوجد مكان في الكنيسة للهراطقة غير التائبين. وفي عام 328 أرسل قسطنطين خطاباً إلى ألكسندروس يصر فيه على أن آراء آريوس تم قبولها الآن من الأغلبية العظمى للأساقفة ويطالبه فيها بضرورة التزام كنيسة الإسكندرية بقرارات مجمع نيقوميديا. وعند هذه النقطة فإن ألكسندروس قرر إرسال أثناسيوس إلى العاصمة من أجل الدفاع عن قضيته، وبينما أثناسيوس في مهمته تلك في العاصمة في أبريل من العام نفسه، فإن الأسقف العجوز ألكسندروس قضى نحبه، وعلى

الفور بدأ أساقفة الإسكندرية المشاورات لاختيار خليفته في منصب الأسقفية، وعندما علم أثناسيوس وهو في نيقوميديا بتلك الأنباء قطع رحلته على الفور مدعياً أن ألكسندروس قد اختاره خليفة له في منصبه، وهرع إلى الإسكندرية من أجل السعي وراء هذا المنصب. فقط تحليل تلك الأحداث بعد وقوعها قد يمكننا من إدراك الأهمية التاريخية لتلك اللحظة المحورية. فمع عودة أثناسيوس إلى الإسكندرية فإن تاريخ الخلاف الآريوسي، بل وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية سوف يأخذ منحى جديداً، فإذا كان قسطنطين يظن أن ألكسندريوس شخص عنيد فذلك فقط لأنه لم يقابل أثناسيوس بعد. كان أثناسيوس ذو الشعر الأحمر رجلاً ممن يوصفون بأنهم رجال ما بعد عصر الاضطهاد، أو الرجال الجدد حيث شغلوا مناصبهم الكهنوتية بعد وصول عصر الاضطهاد إلى نهايته، والذين كان آباؤهم على الأرجح من الوثنيين، ولكنهم مع ذلك تلقوا تعليمًا مسيحيًا وليس كلاسيكيًا، والذين كان طموحهم لا حدود له، والذي وجدوا من عالم العلاقات والنفوذ والسياسة مجالاً لمواهبهم، كانت تلك التوليفة من المهارة والفتنة النظرية والتمسك العنيد بالمبادئ مع الضراوة والشراسة السياسية، إنه ذلك المزيج من المهارات التي وجدت في رجال من أمثال: مارتن لوثر وجون كالفن وفلاديمير لينين.

قريباً سوف ينظر إلى أثناسيوس باعتباره زعيم المعسكر المعادي للآريوسية، ولكنه كان عليه أولاً أن يتبوأ منصب أسقف الإسكندرية، وهي ليست مهمة سهلة لإنسان بلغ بالكاد الثلاثون عاماً. كان عمره (الصغير هذا) مصدراً للخلاف تقريباً منذ اللحظة الأولى التي انتخب فيها، حيث كانت القواعد التي تحكم انتخاب الأساقفة تنص على أنه يجب أن يبلغ المرشح لمنصب أسقف الإسكندرية من العمر على الأقل

ثلاثين عاما، وكان شرط السن هذا من الأعراف القليلة التي لا لبس فيها من بين القواعد التي تحكم اختيار الأساقفة، ولكن المشكلة كانت تتمثل في عدم وجود سجلات لتوثيق تواريخ الميلاد، خاصة إذا كان المولود من أبوين من عامة الناس، ويميل الكتاب المتعاطفون مع أثناسيوس إلى اعتبار أن عام 295 أو 296 هو عام الذي ولد فيه أثناسيوس، وهو ما يجعل عمره اثنين وثلاثون أو ثلاثة وثلاثين عاما عند وفاة ألكسندروس، ولكن من ناحية أخرى فإن البعض يذكر أن تاريخ ميلاده الحقيقي كان في عام 299 وهذا ما يجعله لم يبلغ الثلاثين عاما عند وفاة ألكسندروس، ويصبح بالتالي غير مؤهل للمنصب الذي تم إعداده له منذ فترة طويلة والذي أصبح فجأة شاغرا بوفاة ألكسندروس.

وبغض النظر عما إذن كان عمره يجعله مؤهلا للمنصب أم لا، فإن أثناسيوس أبحر فور تلقيه تلك الأنباء إلى الإسكندرية، وهناك كان ما يربو على أكثر من خمسين أسقفا مجتمعين ليلاً ونهاراً من أجل التباحث في مسألة اختيار أسقف جديد لتلك المدينة المتروبوليتانية. ما حدث عقب عودته يظل أمراً غامضاً، حيث مر أكثر من شهر كامل من المناظرات والمجادلات دون انتخاب أسقف جديد، وتوجد بعض الأدلة التي تشير إلى أن مجموعة من الأساقفة الميليتيين بالإضافة إلى مجموعة أساقفة آخرين تمت سيامتهم بواسطة ألكسندروس نفسه كانوا يجتمعون بشكل منفصل في الإسكندرية و كانوا يسعون إلى اختيار مرشح يمكن أن ينال موافقة كلا الطرفين^[1]. كانت طائفة الميليتيين الأطهار^[2] قد تشكلت عندما فر أسقف الإسكندرية من

249-Thus, Barnes, Constantine and Eusebius, 230; Hanson, Search, 248 -1

2- الميليتيون نسبة إلى الأسقف ميلتيوس أسقف أسيوط (لوكوبولس) الذي رفض أي شكل من أشكال التسوية أو التفاهم مع اضطهاد السلطات الرومانية للمسيحيين واعتبر أن لأي

المدينة هربا من القمع الذي اشتد نيره في أيام الاضطهاد العظيم، ومازالوا يشكلون جزءا كبيرا ونشطا من أساقفة الكنيسة المصرية. وقد اعترضت تلك المجموعة من الأساقفة على اختيار أثناسيوس كأسقف جديد لقربه الشديد من الأسقف الراحل ألكسندروس، والذي كان بالطبع لا يلقي الحب من جانب الميليتين، بالإضافة إلى صرامته وقسوته السياسية التي اشتهر بها. حتى بعض الأساقفة الموالين لألكسندروس ربما اعترضوا عليه بسبب شبابه وجراته، ولكن في النهاية فإن تلك الجرأة هي التي ستنتصر في ذلك اليوم.

تقول القصة المنتشرة على نطاق واسع أن أثناسيوس وقد نفذ صبره في المجادلات مع الأساقفة المجتمعين، استطاع إقناع مجموعة من الأساقفة بالذهاب معه إلى كنيسة ديونسيوس وهناك تمت سيامته خلف الأبواب المغلقة أسقفا جديدا لمدينة الإسكندرية (واستندوا في فعلهم هذا إلى قرار مجمع نيقية السابق الإشارة إليه، والذي ينص على أن الحد الأدنى للأساقفة القادرين على تكريس أسقف جديد هو ثلاثة أساقفة، مشرطين على أن الأسقف المرشح يجب أن يحصل على موافقة مكتوبة من الأساقفة الآخرين). مستخدماً نفوذه السياسي ذو الثقل الكبير، فإنه استطاع تأمين إصدار قرار من مجلس مدينة الإسكندرية يصف انتخابه كأسقف جديدا للمدينة بأنه اختيار الشعب، ويقام أثناسيوس بإرسال هذا القرار إلى الإمبراطور قسطنطين مع خطاب يزعم حصوله فيه على موافقة أساقفة الإسكندرية.

لعبت رغبة قسطنطين في تجنب حالة الفوضى التي كانت تعصف

شكل من تلك الأشكال التي قام بها المسيحيون تحت وطأة الاضطهاد مثل تقديم القرابين في المعابد الوثنية هي أشكال لا يمكن التساهل معها أو غفرانها، وهذا على عكس رأى أسقف الإسكندرية نفسه بطرس الذي هو نفسه فر إلى الصحراء هرباً من نير الاضطهاد-المترجم)

بعده مدن بسبب التنافس على منصب الأسقفية فيها، بالإضافة إلى أنه ربما يكون قد نظر إلى أثناسيوس باعتباره إنسانا يتمتع بمواهب غير عادية وأنه الوريث الشرعي لألكسندروس. على أية حال فإن الإمبراطور قبل ادعاء أثناسيوس دون المزيد من التحقيق، وكتب إلى المدينة يخبرهم بشكل رسمي موافقته على هذا التعيين، لكن الإمبراطور كان واهما في اعتقاده أن هذا الإجراء من شأنه أن يجلب السلام إلى المدينة. على الفور، باشر أسقف الإسكندرية الجديد عمله بالقيام برحلة في أنحاء سلطته الكنسية مع إعادة تنظيم المناصب الكنسية عن طريق تصعيد مؤيديه لتولى المناصب القيادية للكنيسة، وفي المقابل فإن خصومه شرعوا في انتخاب أسقف آخر للإسكندرية. بعد فترة قصيرة من الهدوء، فإن الأساقفة الميليتيين لجأوا إلى عاداتهم القديمة، التي تضمنت تقديم بعض الخدمات الكنسية خارج حدود سلطتهم، والقيام بترسيم رجال الكهنوت دون الحصول على موافقة أثناسيوس. وكان رد فعل أثناسيوس على مثل هذا التصرفات إرساله جماعات مسلحة من مؤيديه إلى المناطق الخاضعة لسيطرة الميليتيين (والتي كان أغلبها من المناطق الناطقة باللغة القبطية). وهناك قاموا بضرب مؤيدي قائد الميليتيين يوحنا الأركافي John Arcaph. وإحداث جروح بهم، ووفقا لما ذكره الأركافي فإن أنصار أثناسيوس المسلحين قاموا بحرق الكنائس، وتدمير ممتلكاتها، وسجن رجال الدين، بل وفي بعض الأحيان قتل القساوسة المنشقين^[1].

مثل تلك الأفعال، وأشياء أخرى من نوعيتها، سوف تلازم

1- Hanson, although a supporter of Athanasius's theology, accepts the truth of at least some of these charges. See his. Search, 249255-.

أثناسيوس لسنوات عديدة قادمة. وكما لخص كاتب طريقة حكم
أثناسيوس كما يأتي:

”في مدينة الإسكندرية نفسها فإنه تمتع على الدوام بدعم شعبي
وهو الأمر الذي حظي به منذ البداية، وعزز تلك السيطرة على
الجماهير عن طريق تشكيل مليشيا من أتباعه ومؤيديه الكنسيين،
وفي السنوات التالية وبناء على رغبته فإنه كان بمقدوره تحريك
الجماهير كيفما شاء، وحيثما شاء، كما كانت لديه القدرة على تعطيل
أعمال الإدارة المعتادة في المدينة كلما دعت الحاجة إلى ذلك. وامتلك
قوة مستقلة عن سلطة الإمبراطور عززها وحافظ عليها عن طريق
العنف. وكان هذا الوضع مصدر قوة وضعف في الوقت ذاته لمنصبه.
فكونه مثل زعماء المليشيات، كان يثير حالة من الشك والريبة من
حوله، ولكنه في العادة كان قادرا على تجنب الإدانة في أي تهم
محددة، مع ادعائه البراءة الكاملة“^[1].

عقب عودته إلى الإسكندرية، فإن أثناسيوس وجد نفسه في مواجهة
تحد مزدوج. هذا التحدي لم يكن متمثلاً فقط في رفض الميليتين توليه
منصب الأسقفية، ولكنه تلقى خطاباً من يوسابيوس النيقوميدي
الذي أصبح الآن أسقفًا لعاصمة الإمبراطورية القسطنطينية يطالبه
فيها بالسماح لآريوس ويوزيوس وزملائهم الآريوسيين بالعودة مرة
أخرى إلى مناصبهم الكنسية تنفيذاً لقرار مجمع نيقوميديا. وربما
أخبره الرسول الذي حمل تلك الرسالة إليه، أنه في حالة رفضه إطاعة
تلك الأوامر، فإن الإمبراطور قسطنطين على الأرجح سوف يبدأ في
اتخاذ الإجراءات من أجل عزله من منصبه. ودون شك فإن مثل

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 230231-.

هذا التهديد جعل الأسقف حديث العهد بمنصبه ينظر إلى الأمر باعتباره اختباراً حقيقياً لقوة إرادته وتصميمه كأسقف للإسكندرية، لذلك كان رده الذي أعطاه للرسول هو رفضه القاطع للاستجابة تلك الطلبات بدعوى أن القرارات التي اتخذها مجمع نيقية بوصف هؤلاء الرجال بالهرطقة لا يمكن أبداً إلغاؤها بواسطة مجمع كنسي أقل شأنًا من مجمع نيقية المسكوني.

ولا بد أن يوسابيوس عندما تلقى هذا الرد قام بإحالة الأمر برمته إلى الإمبراطور قسطنطين، والدليل على هذا أن الخطاب التالي الذي تلقاه أثناسيوس كان من قسطنطين نفسه. بالنسبة لقسطنطين وكما قال سابقاً، لم تكن هناك مسألة أكثر أهمية من السلام في الكنيسة، ولو لم يقبل أثناسيوس بعودة آريوس ورفاقه مرة أخرى إلى كنائسهم في الإسكندرية، فسوف يقوم بإرسال مسؤول إلى الإسكندرية من أجل طرده من منصبه الكنسي. ولم ينتظر أثناسيوس وقتاً طويلاً حتى قام بإرسال رده إلى الإمبراطور يخبره فيه أنه وعلى الرغم من رغبته القوية في إرضائه، إلا أنه يجد نفسه مضطراً إلى عدم الانصياع إلى أوامره، فكنيسة الإسكندرية لا يوجد بها مكان لأعداء المسيح. وبهذا الرد فإن أثناسيوس سوف يصبح من الآن فصاعداً الهدف الأكبر للآريوسية والخصم اللدود لها..... الآن، وقد رسمت خطوط المعركة فإن الصراع سوف يأخذ منحني جديداً.

الفصل السادس

كأس القربان المكسورة - The Broken Chalice

في عام 330، قام قسطنطين بتدشين عاصمته الجديدة في نفس موقع مدينة بيزنطة القديمة حيث تلتقي قارتا أوروبا وآسيا. وتفقد بصحة ابنه الأكبر قسطنطيوس بإجلال حدود المدينة قبل أن يدخل الكنيسة الكبرى المجاورة للقصر الإمبراطوري من أجل حضور الاحتفال الديني بافتتاح المدينة رسمياً. أطلق الإمبراطور على العاصمة اسم روما الجديدة بما يحمله هذا الاسم من دلالة على أنها ستصبح عاصمة لإمبراطورية جديدة مسيحية. ولكنه لم يبد معارضة عندما سمع الناس في الشوارع يطلقون على المدينة الجديدة اسم القسطنطينية (مدينة قسطنطين).

كان الإمبراطور سعيداً بوتيرة البناء في المدينة، حيث كانت تسير كما ينبغي تماماً. ومن أجل بناء عاصمة عظيمة فإن المهندسين الكبار قاموا بتوظيف الآلاف من الحرفين والعمال بالإضافة إلى عشرات الآلاف من العبيد. وتم الحصول على المسلات والأعمدة والتماثيل التي استخدمت لتزين الكنيسة والقصر الإمبراطوري، بل حتى حجارة المباني من المدن الكبرى الأخرى على البحر المتوسط (أو بشكل أقل تهذيباً تم نهبها من تلك المدن). كما أن بعض المناطق أصبحت خالية من السكان، بعد أن أخذوا في الهجرة إلى المدينة المتربوليتانية الجديدة بحثاً عن

فرص العمل والترقي في السلم الاجتماعي في المجتمع الجديد. القصر الإمبراطوري نفسه وبسبب ضخامته التي شيد بها لتتناسب مع معايير فخامة الشرق، كان مدينة صغيرة في حد ذاته.

كانت أغلبية مباني العاصمة غير جاهزة بعد للاستخدام، وفي مقدمتها قصر الإمبراطور الضخم المطل على البوسفور والذي كان عبارة عن سلسلة مرتبطة من القصور والأفنية، ومبان حكومية مخصصة لسكن عائلة الإمبراطور وحاشيته الشخصية، وحرسه الخاص، وحشد ضخّم من المسؤولين الإداريين... كانت الكنيسة التي أطلق عليها اسم كنيسة الرسل المقدسين قد قامت مجاورة للقصر الإمبراطوري^[1]. وكان هناك تناقض بين الفخامة التي بنى عليها قلب المدينة وبين الجزء الخارجي منها والذي كان بمثابة حصون لحماية المدينة. كانت احتمالات غزو البرابرة تهديدًا حاضرًا بقوة حتى في تلك الأعوام التي تشهد استقرارًا نسبيًا، خاصة في موقع المدينة الذي يبعد بمسافة متساوية عن كل من الحدود الفارسية وجبهة الدانوب. من جهة البحر كانت المدينة تطل على مضيق البوسفور وكانت محمية بشكل جيد بواسطة الأسطول الإمبراطوري. ومن جهة الأرض شيد جدار مزدوج كان يمثل آخر التطورات في التحصينات الرومانية الهندسية، كانت وسيلة الدفاع تلك من القوة إلى درجة أنه سوف ينقضي أكثر من ألف عام قبل أن يمكن اختراقه.

1- On cultural life in Constantinople and other ancient cities see Richard Tomlinson, *From Mycenae to Constantinople: The Evolution of the Ancient City* (London: Routledge, 1992). See also Paul Veyne, ed., *A History of Private Life*, vol. 1, *From Pagan Rome to Byzantium*, trans. Arthur Goldhammer (London: 1987).

الأصالة (القيمة) الحقيقية التي ميزت القسطنطينية تكمن في أنها كانت أول مدينة كبرى (متروبوليتانية) يؤسسها إمبراطور مسيحي وتكرس للديانة المسيحية. كانت تلك الخطوة بمثابة إعلان للعالم أن الديانة التي أسسها يهودي مدان^[1] أصبحت الآن هي الدين الرسمي للدولة. ففي مدينة قسطنطين لم كان هناك أي مذابح للنصر، ولا توجد أية تماثيل أو لوحات للآلهة والإلهات، ولا يوجد صور للسيد المسيح ولا لمريم العذراء ولا للحواريين، ويرجع هذا إلى أن أغلب المسيحيين في ذلك الوقت المبكر نسبياً من المسيحية كانوا مازالوا متمسكين بالتعاليم اليهودية التي تحرم التصوير والنحت للقدسين. وكان رد فعل يوسابيوس القيساري الحاد على طلب أخت الإمبراطور بالحصول على صورة للسيد المسيح معروفاً بشكل واسع حين قال "أنا لا أعرف حتى كيف يمكن أن تطلبي مثل هذا الطلب لرسم صورة لمخلصنا". كان هذا الطلب لا معنى له كما قال الأسقف، فبينما صورة للمسيح الإله سوف تكون مستحيلة وفي الوقت ذاته فإن صورة للمسيح الإنسان ستكون غير مناسبة^[2].

وحتى أثناء بناء العاصمة الإمبراطورية فإن الخلاف حول طبيعة السيد المسيح ظهر وكأنه لا مفر منه، فالمزيد من تطورات النزاع كانت تلوح في الأفق. ومع أن الآريوسيين والمتعاطفين معهم الآن يسيطرون على أنطاكية، قيسارية، صور، نيقوميديا، فإن الأنظار اتجهت الآن إلى الإسكندرية، حيث ذكر أن أثناسيوس يلجأ إلى إرهاب

1- المؤلف يشير إلى السيد المسيح باعتباره ولد يهوديا وتمت إدانته من قبل السلطات الرومانية- (المترجم).

2- Jaroslav Pelikan, *Jesus through the Centuries: His Place in the History of Culture* (New Haven: Yale, 1985), 8586-.

خصومه وقمعهم من أجل المحافظة على سلطته ونفوذه في المدينة. في نفس العام الذي دشن فيه قسطنطين عاصمته الجديدة (روما الجديدة)، فإن يوسابيوس النيقوميدي والذي أصبح الآن في وضع مستقر في أبرشيته استقبل وفدا من الأساقفة المصريين الميلتيين. وقدم الأساقفة الأربعة شكواهم بأن أثناسيوس قام بإرسال عصابات مسلحة من مؤيديه إلى كنائس الميلتيين، وقاموا بالتحرش بأتباع الأساقفة الميلتيين وضربهم، ومنعهم من ممارسة الشعائر الدينية في كنائسهم على الرغم من أن مجلس نيقية أكد على صلاحيتهم وسلطتهم كأساقفة مسيحيين باستطاعتهم إقامة الشعائر الدينية. واشتكوا ليوسابيوس على أنهم لم يتلقوا أي رد على الخطابات التي قاموا بإرسالها إلى قسطنطين، ولذلك لجئوا إليه حيث كان معروفاً أنه كان من المقربين للإمبراطور لكي يقدم التماسهم إلى الإمبراطور بالنيابة عنهم، أو إذا كان ممكناً أن يؤمن لهم موعداً للمثول بين يدي الإمبراطور في نيقوميديا.

ولأكثر من عام، فإن الشائعات حول سلوك أثناسيوس العنيف انتشرت في جميع أنحاء الشرق، ولم يكن يوسابيوس في حاجة إلى أحد لتحريضه ضد أثناسيوس، بل إنه في الحقيقة كان ينتظر تلك اللحظة منذ أمد بعيد، ووافق على مساعدة الأساقفة الميلتيين ولكن على شرط أن يساعدوا بدورهم آريوس في العودة مرة أخرى كرفيق مسيحي (في الكنيسة المصرية)، وافق الأساقفة الميلتيون على هذا الشرط، وعلى الفور بدأ يوسابيوس في محاولة عرض قضيتهم على الإمبراطور، ولكن ما لفت انتباهه وظن أنه يمكن أن يكون مفيداً أكثر لقضيتهم هو ما ذكره أحد الأساقفة الميلتيين أن أثناسيوس متورط في الابتزاز المالي عن طريق إجبار المصريين على توريد العباءات الكتانية

إلى كنيسة الإسكندرية، وممارسة أنواع من المضايقات الشديدة من أجل إجبار التجار المصريين على دفع تعويضات نقدية عند عدم تسليم تلك العباءات^[1].

ونصح يوسابيوس الأساقفة الميلتيين بإضافة تلك الاتهامات إلى الادعاءات الأخرى ضد أثناسيوس، فيوسابيوس بما يتمتع به من فطنة ودهاء سياسي أدرك أن الإمبراطور ربما لن ينحاز إلى بعض الأساقفة المنشقين بسبب الإجراءات التي يتخذها أسقف مدينة الإسكندرية المتروبوليتانية لإجبار هؤلاء الأساقفة المنشقين على الخضوع لسلطة أسقف المدينة، حتى لو بدت تلك الإجراءات في بعض الأوقات قاسية وعنيفة (فالخضوع للنظام كان أحد أولويات الإمبراطور). ولكن في الوقت ذاته فإنه على الأغلب لن يظهر نفس القدر من التسامح تجاه أي اتهامات بممارسات إدارية ومالية فاسدة.

وعندما علم أثناسيوس بتلك الاتهامات التي تثار ضده، قام بإرسال اثنين من أساقفة الكنيسة الكبار من أجل الدفاع عن موقفه أمام قسطنطين، وقام في الوقت ذاته بمغادرة الإسكندرية، وعلى الأرجح فإنه توجه إلى صحراء طيبة Theban desert للمكوث هناك فترة من الوقت مع الرهبان في تلك المنطقة. وربما كان مغادرة المدينة قرارًا حكيمًا من أثناسيوس، حيث كان يمكن القبض على أي شخص في الإسكندرية في أي وقت بواسطة جنود الإمبراطور حتى لو كان هذا الشخص هو أسقف الإسكندرية نفسه. ومع أن الكثيرين من

1- This charge is somewhat inconsistently described in Barnes, Constantine and Eusebius, 231232-; Barnes, Athanasius and Constantine, 21; and Hanson, Search, 255256-.

الرهبان كانوا من الآريوسيين^[1] إلا أن أثناسيوس بدأ في تكوين قاعدة دعم له بين أوساط الرهبان، وكان حليفه الأكبر بينهم هو الناسك الشهير أنطونيوس^[2] الذي كان في نظر المصريين بمثابة بطل قومي^[3].... في غضون ذلك أخذ قسطنطين في تقصى الحقيقة حول الاتهامات الموجهة ضد أثناسيوس، وأسفر التحقيق المبدئي الذي أجراه بناء على شهادة القسيسين (الذين أرسلهما أثناسيوس) عن وصول الإمبراطور إلى قناعة بعدم صحة أغلب الاتهامات الموجهة ضد أسقف الإسكندرية، وعليه قرر الإمبراطور استبعاد الاتهامات

1- يشير الدكتور رأفت عبد الحميد في موسوعته: "الدولة والكنيسة" إلى أن غالبية الرهبان المصريين لم يكونوا في حقيقة الأمر من الآريوسيين، بل على العكس كانوا من المتعاطفين بشدة مع أثناسيوس، و في مقدمتهم أبو الرهبانية أنطونيوس الذي توثقت بينه وبين أثناسيوس أواصر المودة والاحترام والإعجاب العميق المتبادل، كما لعب الرهبان في صحاري مصر دورا كبيرا في إخفاء و حماية أثناسيوس خلال فترات نفيه وهروبه المتكررة التي بلغت خمس مرات على فترات متباعدة، ويرر الدكتور رأفت عبد الحميد هذا الموقف المعادي للآريوسية من قبل الرهبان المصريين بأن أغلب الرهبان في ذلك الوقت لم يكونوا متعمقين في الفكر اللاهوتي المسيحي، و لم تكن لهم خلفية فلسفية مثل المفكرين المسيحيين الأوائل، ولذلك كانوا يميلون إلى تبني أفكار تؤكّد على ألوهية المسيح أكثر من الآراء الآريوسية - لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتاب: الدولة والكنيسة للدكتور رأفت عبد الحميد - الجزء الثالث (المترجم).

2- القديس أنطونيوس (250 - 355) يعتبر كما يقول الدكتور محمد محمد مرسى الشيخ في كتابه تاريخ مصر البيزنطية هو المؤسس الحقيقي للرهبنة و حياة التفرد في مصر البيزنطية، و يذكر أن أنطونيوس قابل القديس بولا الذي كان يتعبد وحيدا في أحد كهوف البحر الأحمر، حيث ظل الراهب بولا في ذلك الكهف من سن مبكرة حتى بلغ من العمر 113 عاما، و كان أول شيء قاله لانطونيوس عندما قابله "كيف هو حال العالم"، ولولا أن عثر عليه القديس أنطونيوس في أعماق الصحراء لظل أمره مجهولا للعالم، وأول من أدخل النظام الحالي للأديرة الرهبانية هو القديس باخوم الذي أسس أول دير رهباني في العالم بأسره في عام 315 بالقرب من دندره في صعيد مصر - لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع على كتاب محمد محمد مرسى الشيخ - تاريخ مصر البيزنطية، وكتاب تاريخ العصور الوسطى للدكتور محمد عمران - (المترجم).

3- See Athanasius, The Life of Antony and the Letter to Marcellinus, op. cit.

بالابتزاز الموجهة ضده، إلا أنه في الوقت ذاته أصدر أوامره لأثناسيوس بالتوقف عن منع الميليتيين من ممارسة شعائرهم الدينية المسيحية. ربما ظن أثناسيوس أن مشاكله مع الإمبراطور قد انتهت بهذه القرارات، ولكن المشاكل الحقيقية في الواقع كانت على وشك أن تبدأ، فبعد عدة شهور ستسبب حادثة في متاعب أكثر من تلك التي سببتها اتهامات الفساد المالي للأسقف المتختم أساسًا بالمشاكل. فبينما كان أثناسيوس يتجول في إقليم مريوط خارج الإسكندرية، مع حاشية تضم من بينها القس مكاريوس Macarius (الذي كان ثاني اثنين من الأساقفة الذين تولوا مؤخرًا مهمة الدفاع عن أثناسيوس أمام الإمبراطور) والذي كان يحظى بثقة أسقف الإسكندرية على الرغم من أفعاله التي كانت تتسم بالميل إلى استخدام العنف. في تلك المنطقة (مريوط) كان يعيش كاهن مسيحي Presbyter يدعى إسكيراس Ischyrras وهو رجل دين كانت مؤهلاته أو السلطة الممنوحة له من قبل الكنيسة من أجل تقديم الخدمات والشعائر الكنسية محل تساؤل بدرجة ما. إسكيراس تمت سيامته قبل عدة سنوات بواسطة كوللوتس Colluthus الذي كان طائفياً مثيراً للمشاكل، إلى الدرجة التي دفعت كنيسة الإسكندرية إلى عدم الاعتراف بسلطته كأسقف. وفي تحد واضح للأوامر الصادرة له من قبل أثناسيوس بالتوقف عن القيام بأي واجبات كنسية كرجل دين، فإن إسكيراس أخذ يباشر بمهام راعي كنيسة صغيرة في المنطقة، وقام أثناسيوس بإرسال ساعده الأيمن (مكاريوس) إليه من أجل إجباره على تنفيذ تلك الأوامر والتخلي عن وظيفته الكهنوتية. بالفعل قام مكاريوس بزيارة إسكيراس، وتركت تلك الزيارة آثاراً بالغة على جسد إسكيراس، حيث قام مكاريوس ورجاله بضربه بقسوة، وقام بقلب

المذبح في كنيسته، وتكسير الأثاث ومن بينه كرسي الأسقف وتحطيم الكأس المستخدمة في شعائر تناول القربان المقدس (الافخستاريا). على الفور، قام إسكيراس بإرسال خطاب إلى الأساقفة الميليتيين في نيقوميديا متضمنا المعاملة السيئة التي تعرض لها. واستمرت الاتهامات الموجهة ضد أثناسيوس في التزايد خلال فصلي الربيع والصيف من عام 331م. بالإضافة إلى لجوئه إلى استخدام العنف وتدنيس المقدسات sacrilege (تكسير الكأس المقدسة)، فإن أحد الأشخاص أقسم على أن أثناسيوس قام بتقديم علبة مجوهرات من الذهب إلى أحد الموظفين الكبار المشكوك في تورطهم في مؤامرة ضد الإمبراطور. كان هذا الاتهام الأخير بالذات على جانب كبير من الخطورة، حيث يعنى توجيه الاتهام لأثناسيوس ضمناً على الأقل في تورطه في أنشطة تعد من قبيل الخيانة العظمى. ووجد الأساقفة الميليتيون اتهاماتهم السابقة بقيامه بالابتزاز وأضافوا تأكيدهم على أن أثناسيوس تمت سيامته أسقفاً قبل أن يبلغ عامه الثلاثين (وهو ما يعنى بطلان تعيينه أسقفاً من الأساس). على إثر تلك الاتهامات تم استدعاء أثناسيوس إلى البلاط الإمبراطوري لمقابلة قسطنطين نفسه. ووصل أثناسيوس إلى نيقوميديا في شتاء 321، وهناك تقابل مع الإمبراطور في قصره بضواحي المدينة،

مرة أخرى، أستمع قسطنطين إلى طرفي النزاع بنفسه. وبدا عليه التأثير بإخلاص وذكاء أسقف الإسكندرية الواضح واستقامته الشخصية، كما أنه لم يكن مستعداً على تصديق الرواية من وجهه نظر الأساقفة الميليتيين، وانتهى إلى أنه لا يوجد دليل محدد على الاتهامات الموجهة ضد أثناسيوس وقام بإرسال خطاب شديد اللهجة إلى الكنيسة المصرية ينتقد فيه بقوة الأساقفة الميليتيين باعتبارهم صناعاً للمشاكل، بينما

وصف أثناسيوس في تلك الرسالة بأنه من رجال الله الحقيقيين^[1]. لا توجد سجلات توضح لنا كيف تمكن أثناسيوس من الدفاع عن نفسه أمام الإمبراطور (وكيف استطاع أن يقلب المائدة تماماً على الميلتين) إزاء التهم الموجهة له باستعمال العنف وتدنيس المقدسات، ولكن في رسالة كتبها أثناسيوس لاحقاً فإنه لم ينكر أن إسكيراس قد تعرض للضرب أو أن الكأس المزعوم استخدامه في طقوس القربان المقدس تم تكسيه بعلمه، ولكن دفاعه كان قائماً على أن إسكيراس لم يكن قسيساً من الأساس حيث لم يتم ترسيمه من قبل كنيسة الإسكندرية، وبالتالي فإن الكأس المقدسة المزعومة المحطمة ليست كأساً مقدسة بأية حال من الأحوال. وكما وصف أحد المعلقين هذا الوضع باختصار: بينما صاح خصومه موجّهين له الاتهامات بالعنف وتدنيس المقدسات، فإن أثناسيوس رد قائلاً:تدنيس المقدسات- لا، فقط هو العنف^[2].

ظل أثناسيوس في نيقوميديا بضعة أشهر بسبب مرض ألم به، ولم يتم الكشف عن طبيعة هذا المرض، وربما استغل فرصة مكوثه في العاصمة نيقوميديا من أجل مناقشة موضوع طبيعة المسيح مع قسطنطين، وهو الأمر الذي أدّى بالتأكيد لتغير بعض آراء الإمبراطور، والدليل على هذا التغير هو الخطاب القاسي الذي سيكتبه الإمبراطور بعد فترة قصيرة إلى آريوس، وينتقد فيه بقسوة آراءه مما يعكس وجهة نظر الإمبراطور الجديدة في هذا الموضوع، على أية حال عندما عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية في صيف عام 332 م، فإنه كان في

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 232.

2- Hanson, Search, 257.

موقف أقوى من أي وقت مضى. فالإمبراطور الآن يدعم موقفه ويؤيده بقوة، وينتقد في المقابل آراء الفريق الآريوسي والميلتي. وفي الخريف قام برحلة إلى ليبيا، موطن آريوس الأصلي، من أجل الضغط على رجال الكهنوت في المدن الخمس الليبية لمنع القساوسة المتعاطفين مع آريوس من الحصول مناصب الأساقفة هناك. آريوس نفسه كان في تلك المنطقة في الوقت ذاته، على الأرجح من أجل حشد الدعم والتأييد بين مناصريه (فتلك المنطقة كانت توجد بها قاعدته الشعبية الأولى التي انطلقت منها شهرته)، وأثارت تلك الأنشطة التي يقوم بها أثناسيوس غضب آريوس بدرجة كبيرة إلى الدرجة التي دفعته إلى كتابة خطاب شديد اللهجة إلى الإمبراطور، وهو الأمر الذي سرعان ما سوف يندم عليه بشدة.

آريوس كان لديه أسباب حقيقية للغضب، فبعد أربع سنوات من وعد قسطنطين له بالعودة إلى الإسكندرية وإصدار أوامره لأثناسيوس بالسماح له بالعودة إلى كنيسته فإن هذا الوعد لم يتحقق، أربع سنوات مرت وهذا الأسقف العنيد يرفض أن ينفذ قرارات مجمع نيقيوميديا، أو أن ينصاع لأوامر الإمبراطور المباشرة، فأريوس ما زال فعليا في المنفى (على الرغم من مغادرته لمنفاه في إقليم إيليريا إلا أنه كان غير قادر على العودة إلى الإسكندرية)، وفي الوقت ذاته فإن أثناسيوس مازال يمارس القمع والاضطهاد على أتباعه، بل في بعض الأحيان اتسم هذا القمع بالوحشية. ومن موقع عدم قدرته على تحمل هذا الوضع قام آريوس بإرسال خطاب إلى الإمبراطور بهذا المعنى، وعلى الرغم من أن نص هذا الخطاب غير موجود، إلا أنه من الواضح أنه كرر فيه مرة أخرى معتقداته، منتقدا بشدة الفريق المعادي للآريوسية، ومطالباً الإمبراطور بفرض قرارات نيقيوميديا،

لكن الخطأ الكارثي الذي قام به آريوس هو توجيه التهديد إلى الإمبراطور بقوله أنه في حالة لم يجبر الإمبراطور أثناسيوس على تنفيذ قرار عودته إلى شركة الإسكندرية فإنه سوف يجد نفسه مضطرا إلى إعطاء أوامره إلى أتباعه بعدم الانصياع لسلطة كنيسة الإسكندرية (وكان هذا خطأ كبيرا من آريوس، فالتهديد بالقيام بأعمال شغب كان هو آخر شيء يمكن أن يتحملة إمبراطور كل ما يرغب فيه هو تحقيق السلام في الكنيسة).

اللهجة الآمرة التي كتب بها آريوس خطابه إلى قسطنطين وما حملته من تهديد بالانقسام، جعلت الأخير يشن غضبا، وأن تنتابه واحده من نوبات الغضب الهائل التي اشتهر بها، وقام بكتابة خطابين وصلا إلى الإسكندرية في بداية عام 333م، الخطاب الأول خاطب فيه المسيحيين في كافة أنحاء المدينة، والخطاب الآخر كان المخاطب فيه آريوس ومؤيديه. في الخطاب الأول فإن الإمبراطور يصم فيه آريوس بأنه عدو المسيحية وأصدر أوامره بحرق كتاباته، مهددا بإعدام كل من يرفض تنفيذ تلك الأوامر والتي كانت تشبه القرارات التي أصدرها قسطنطين أول مره بمجرد وصوله إلى عرش الإمبراطورية بوصف بعض الطوائف المسيحية بالهرطقة واعتبارها خارجة عن القانون. ولكن الفرق بين تلك الطوائف التي تم قمعها في البداية مثل الغنوصية Gnosticism والمانوية Manichean وبين الآريوسية، أن الأولى كانت ينظر إليها على نطاق واسع في الإمبراطورية باعتبارها طوائف مهرطقة على عكس الآريوسية.

كان الخطاب الثاني طويلا للغاية، ويبدو كما لو كان بمثابة خطبة مكتوبة في نوبة غضب هستيرية، وقد قرئت في العلن في قصر الحاكم في الإسكندرية، وفيها يتهم آريوس بأنه خادم للشهر، وأنه

النسخة المماثلة للشيطان، والحية التي تنفث سمومها عبر ما يكتبه، والذي وصلت به الجراءة والوقاحة للتعبير عن سمومه من خلال كتابة رسالة تهديد إلى سيده الإمبراطور، ولم يتورع في تلك الرسالة على التأكيد على المعتقدات التي تمت إدانتها في مجمع نيقية. كان المستوى الذي شن فيه قسطنطين هجومه الشخصي على آريوس متدنيا إلى درجة صادمة، ولكن يحب أن نتذكر أن قسطنطين (مثل الكثيرين من معاصريه) دائما ما كان يحول أي نزاع ملتهب إلى عدااء شخصي. فوصم الأشخاص ببعض الأسماء المسيئة لم يكن خارج طبعه. وأطلق على آريوس أوصاف: الأحمق، المخادع، المغفل، العاق، فارغ العقل، الثرثار، بل وذهب إلى انتقاد حتى مظهره الشخصي فيقول: لكن الله ينزل عقابه على هؤلاء المجرمين الذي يحدثون الأذى والضرر بالكنيسة، انظر على سبيل المثال إلى آريوس، وإلى جسده النحيل الهزيل، فلامحه الدالة على الهم والقلق: ورأسه الأصلع، ومحياه شديد الشحوب، ومظهره نصف الميت، كل هذه العلامات تشهد على تفاهته وجنونه. اعتقد قسطنطين رجل الله أنه استطاع معرفة حقيقة آريوس، الذي ألقى بنفسه في الظلام الدامس^[1].

على الأرجح فإن هذا الخطاب الذي قام قسطنطين بإرساله إلى آريوس يعكس مدى النفوذ الذي كان يتمتع به أثناسيوس الآن، والقوة التي يستطيع أن يؤثر بها على الإمبراطور في ذلك الوقت، فخطاب قسطنطين ذهب لكي يشجب ويندد بآراء آريوس المهرطقة، وعلى الأخص إصراره على أن الابن لديه جوهر Hypostasis (إنساني) مختلف عن جوهر الآب. كان هذا الرأي واضحا بالدرجة الكافية

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 233.

على حد قول الإمبراطور لاعتباره خارجًا عن الكنيسة، وخاصة بعد قيام مجمع نيقية بشجب وإدانة تلك الأفكار. ويسخر قسطنطين من أفكار آريوس ورأيه بأن مساواة المسيح بالله في حقيقة الأمر ينقص من قدر الله، مرددًا بسخرية قوله "أنا لا أريد أن يصبح الله جزءًا من تلك الإهانة أو يتعرض لمثل هذا الاعتداء" أو كما كتب آريوس من قبل "بأخذك منه لتجعله مساويًا مع الابن، فإنك بهذا المسلك تنتقص منه لتعطي الابن"^[1]، وفي النهاية فإنه هدد بفرض غرامات مرهقة على أتباع آريوس ومؤيديه، وفرض واجبات شاقة من الخدمة العامة على رجال الكهنوت الذين يتواصلون معه، واختتم الرسالة باستدعائه إلى القصر الإمبراطوري. (ولكن من حسن حظ الآريوسيين، فإن الإمبراطور قسطنطين لم ينفذ أيا من تلك التهديدات التي كتبها في خطابه الرسمي، فسرعان ما سوف يغير رأيه مرة أخرى).

ما إن تلقى آريوس هذا الخطاب الغاضب من الإمبراطور، فإنه شد على الفور رحاله إلى نيقوميديا على الرغم أنه من غير المعروف بدقة متى قام بهذه الرحلة، أو ماذا حدث في مقابلاته مع قسطنطين. ولكننا يمكننا أن نكون واثقين من أنه قدم اعتذاره إلى الإمبراطور عن هذا الخطاب الحاد الذي كتبه في نوبة غضب، وتكلم باطراد عن معتقداته، وعلى الأرجح أشار إلى السلوك الذي لا يليق برجال الدين الذي يتبعه أثناسيوس، الأهم أن مكانة أثناسيوس بدأت تتزعزع لدى الإمبراطور، فمع وصول آريوس إلى القصر الإمبراطوري كانت اتهامات جديدة قد وجهت إلى أثناسيوس. كانت تلك الاتهامات خطيرة، وتضمنت هذه المرة اتهامات بالقتل، فأساقفة الشرق تحت

1- Hanson, Search, 9.

قيادة وتنظيم يوسابيوس النيقوميدي كانوا يتحركون هذه المرة ضد أثناسيوس في أسلوب منهجي ومنظم.

وبغض النظر، عما إذا كان السبب هو اتجاه تيار الآراء اللاهوتية بقوة ضد أثناسيوس، أو أن الإمبراطور تأثر بإخلاص آريوس وتقواه وقوة منطقته، فإن الإمبراطور عفا مرة أخرى عن آريوس، وسمح باستكمال إعادة اندماجه مع الكنيسة، وفي دلالة على سرعة تبدل مواقف الإمبراطور تجاه الآريوسية فإنه بحلول عام 335 كان الإمبراطور يستعد لكي ينظم حفل استقبال للهرطوق السابق في مدينة القسطنطينية.

مشاهدة قسطنطين وهو يغير موقفه وميوله باستمرار بين العدوين اللدودين آريوس وأثناسيوس ربما يعطى انطباعاً للمرء بأنه كان شخصاً متقلباً ومتذبذباً، لكن ليس بالضرورة أن يكون هذا الانطباع حقيقياً، فصحیح أن الإمبراطور كان سهلاً أن ينجرّف إلى الغضب أو تسيطر عليه العاطفة، ولكنه في ذلك الأمر كان يمارس حريته وقوته في التعبير عن آراءه بعفوية. فقسطنطين كان يستطيع أن يحكم على الأشخاص من خلال محاورته معهم، ويستطيع من خلال تلك المحاورات تقدير إخلاصهم وصدقهم. وفي حالة الخلاف الآريوسي فإن المسألة كانت تتعدى هذا، فإن تطور النزاع نفسه أدى إلى تغير في آراء الإمبراطور لأن كل طرف بدا وكأنه يمتلك جزءاً أساسياً لا غنى عنه من الحقيقة، فكثير من الأشخاص الأقل تقلباً من قسطنطين كانوا منحازين لطرف ما في الصراع ثم وجدوا أنفسهم بعد ذلك يميلون إلى الطرف الآخر. وباختصار فإن هؤلاء الأشخاص كانت تنتابهم الشكوك حول ماهية الفريق الذي هو على صواب وماهية الفريق الذي على خطأ، وفي محاولتهم لإنهاء حالة الشك المزعجة تلك فإنهم أخذوا

يؤكدون بعنف أن جانبًا واحد فقط من الطرفين هو الذي يمتلك الإيمان والصدق والحقيقة المطلقة.

قبل زيارة أثناسيوس إلى العاصمة، كان الإمبراطور قد اتخذ موقفًا منحازًا إلى آريوس ومؤيدًا لعودته إلى الكنيسة مرة أخرى، لأنه رأى من خلال بصيرته أننا إذا نحنا الخلافات اللاهوتية جانبًا فإن آريوس كان في قلبه مسيحيًا تقيًا. كانت آراء المدرسة القائلة بخضوع المسيح لله subordinationists تقليدية ومنتشرة في الشرق ويعتنقها عدد كبير من المسيحيين الأتقياء ومن بينهم عدد كبير من الأساقفة. بالإضافة إلى أنهم أكدوا على الطبيعية الإلهية للمسيح ابن الله، المولود قبل بداية الزمان مشاركًا في الحكم بجانب اليد اليمنى للآب في السماوات، والمقدر له أن يعود مرة أخرى من أجل إقامة مملكته. وإذا كانت هذه الأفكار تعبر حقا عن الإيمان المسيحي؟ لماذا تنقسم الكنيسة بمثل تلك الضراوة حول فقط طبيعية العلاقة بين الآب الإلهي والابن الإلهي؟

كانت إجابة أثناسيوس كما عبر عنها لاحقًا في كتابة المعنون: "أربع محاورات ضد الآريوسية"^[1]. موضحًا أن الآريوسية في جوهرها كانت ضد المسيحية، إذ إنها منطقيا ستقود إما إلى الاستنتاج بأن المسيح كان مجرد إنسان (وهو تمامًا الموقف اليهودي تجاه المسيح) أو الاعتقاد بأنه إله ثان أو شبه إله DemiGod (من طبقة تالية وأدنى من الله نفسه)، وهو الأمر الذي يعتبر وثنية خالصة. إذا كان المسيح مخلوقًا بدلاً من أن يكون خالقًا، وإذا كان كاملاً كما قال آريوس بواسطة قوة إرادته بدلاً من أن يكون كاملاً بطبيعته، فإنه إذا كان حقًا قد

1- Schaff and Wace, Athanasius: Select Works and Letters, 303447-.

امتك طبيعته كابن لله عن طريق التبني، وخلوده عن طريق ترقيته بواسطة الله فإن هذا كله سيجعل منه بلا شك أكثر الرجال قداسة في التاريخ، ولكن لن يميزه بأي طريقة عن باقي المخلوقات البشرية، يمكن أن يكون في هذه الحالة نبياً ولكنه سيظل إنساناً. حتى بالنسبة لهؤلاء الذين نظروا إلى المسيح باعتباره المسيا⁽¹⁾ المخلص Messiah، كما اعتقد عدد قليل من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، فهو مع ذلك سيظل إنساناً. بالتأكيد سيكون في هذه الحالة ضرباً من ضروب الوثنية أن تعبد مجرد إنسان، بالإضافة إلى أنه في تلك الظروف لا توجد أية حاجة لعبادته، فلا يوجد أي مخلوق بشري له القدرة على التخليص من الخطايا وقهر الموت. ولكن افترض أن من بين الأشخاص من آمنوا بكلام الآريوسيين حرفياً، فهم في هذه الحالة سيزعمون أنهم يؤمنون بأن المسيح مجرد مخلوق مختلف تماماً عن باقي المخلوقات، فهو ليس مجرد بشر فقط (ناسوت فقط) بل أيضاً يمتلك طبيعية إلهية (اللاهوت)، هذا الوضع يفضي بنا إلى احتمالين: الاحتمال الأول أن الابن هو إله ثان مساو للآب. هناك العديد من الوثنيين الذين يعتنقون مثل تلك المعتقدات الوثنية السابقة، والذين عن طريق جهلهم وقلة علمهم يعتقدون فعلاً بشيء مشابه، بالتأكيد تلك الفكرة منفرة للمسيحيين تماماً كما هي لليهود. فإلهان اثنان؟ لماذا اثنان فقط؟ أو إذا كان المسيح إلهاً ثانياً؟ فلماذا لا نعلن أن الروح القدس هي إله ثالث، ولماذا نتوقف عند هذا الحد؟ ولكن هذا الاعتقاد يمكن أن يفتح الباب أمام فيضان من الآلهة على قدر ما يسمح خيال البشر باختراع الآلهة. وحتى الآريوسيون أنفسهم لا

(المخلص الذي تكلمت عنه كتب العهد القديم) - (المترجم 1-

يستطيعون تحمل مثل هذه الوثنية الصارخة، وربما هذا يفسر إصرار الآريوسيين على أن الآب أعظم من الابن.

بينما الاحتمال الثاني الذي يذهب إليه هذا مذهب الخضوع (اعتبار الابن أقل مكانة من الآب وإخضاعه لإرادة الآب) هي أن المسيح ليس بالإله ولا بالإنسان، ولكنه شيء ما بين الله والإنسان، الآريوسيون يفترضون شيئاً من هذا القبيل عندما يقولون إن المسيح إله ولكنه ليس إلهاً حقيقياً، ولكن ما الذي يمكن أن يعنيه هذا حقاً؟ إذا كان المخلص مخلوقاً وسطياً بين الإنسانية والألوهية، فهو في هذه الحالة لا بد وأن يكون ملاكاً أو نصف إله demigod، فبعض الوثنيين يفهمون قصة ولادة مريم العذراء بشكل خاطئ، ويأخذونها باعتبار المسيح ولد لإله وإنسان، بشكل شبيه لولادة هرقل Hercules من إله وأم بشرية. لكن فكرة أن أبوة الله للسيد المسيح كانت مشابهة لأبوة الإله زيوس Zeus لهرقل الذي تسبب في حمل فتاه بشرية، كانت بالنسبة للمسيحيين مثيرة للاشمئزاز بدرجة كبيرة ولا تستحق حتى مجرد التفكير، أو الاعتقاد فيها بأي درجة من الدرجات.

من أجل تفادي مثل هذه التدايعات، فإن الآريوسيين يتحدثون عن خلق المسيح باستخدام مصطلحات مجردة، ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون تفادي الاتهام بأن الله خلق ذرية له في صورة مخلوق نصف إلهي هي أفكار وثنية، بغض النظر عن الطريقة التي ظهر بها إلى الوجود.

الفكرة البديلة بأن المسيح كان ملاكاً ليس بالضرورة أن تكون وثنية، ولكن في الوقت ذاته فإن هذا المعتقد إذا صح فسوف يحمل زلة كبيرة، كما صورها اليهود الأوائل المعتقدون للمسيحية، ولكن ما الذي يجعل ملاكاً يستحق العبادة أكثر مما يستحقه

إنسان عادي؟، إن اليهود أرجعوا أصل الإيمان إلى الملائكة، ولكنهم لم يفكروا أبداً في عبادتهم. في الحقيقة وكما يقول أثناسيوس فإن هذا هو ما يجعل العقيدة الآريوسية غير مستقرة، متأرجحة إلى الخلف وإلى الأمام بين الوثنية واليهودية.

فالمسيحية الحقيقة فيما يرى أثناسيوس، تصر على أن المسيح كان إلهاً وإنساناً في الوقت ذاته وبشكل أبدي، لقد كره الآريوسيون فكرة أن الله يمكن أن يتألم على الصليب، ولكن الله بشكل جلي يستطيع أن يفعل أي شيء يريده، وبالتالي فإن الفكرة الجوهرية للمسيحية والتي هي ذاتها الفكرة التي ينكرها الآريوسيين هي أن الله اختار أن يكون له وجوداً بشرياً وأن يتألم على الصليب من أجلنا. أو بكلمات أخرى، فإن المسيح كان له وجود بشري ووجود إلهي في الوقت ذاته، وإذا كان هذا الأمر صعباً على الفهم، فهو إذاً أمر صعب على الفهم، من قال إن فهم الله أمر سهل؟

قد يستطيع المرء تخيل قسطنطين، وقد تأثر بواسطة تلك الحجج (التي ساقها له أثناسيوس عندما كان يتناقش معه حول طبيعة السيد المسيح). وحتى عندما تلقى خطاب آريوس البعيد عن اللياقة وقيامه بإملاء رده القاسي العنيف الذي أرسله لآريوس. ولكن عندما قدم آريوس الذي وصفه قسطنطين من قبل بالمهرطق (الهرطيق) إلى القصر لمقابلته بعد ذلك بعدة شهور، فإن الإمبراطور وجد لديه إجابات وافية على حجج أثناسيوس اللاهوتية، فأثناسيوس حاج بأن الله الآب هو نفسه الله الابن. وقال إن الله فعلياً أصبح المسيح على الرغم أننا في الإنجيل نجد أن الابن يصف نفسه بأنه وجود آخر غير الآب وأقل منه شأنًا، نقب (أثناسيوس) خلال العهد الجديد من أجل العثور على أدلة تؤيد موقفه، وكان النص الوحيد الذي استطاع العثور عليه هما سطران

في أنجيل يوحنا ” أنا والآب شيء واحد“^[1] ”من رأي فقد رأى الله“^{[2][3]}، ولكن بالنظر إلى سياق النص الذي وردت فيه تلك الآيات فإننا سنجد بوضوح أن المسيح كان يتكلم عن تمثيله لله وليس كونه هو الله نفسه. هل من الممكن أن يكون المسيح هو الله دون أن يعلم هذا؟..... ربما، فقط إذا تخيل المرء وجودا ذا طبيعتين، كل طبيعية تجذب الوجود في اتجاه معاكس، فالإله ذو العلم والقدرة الكلية يقابله قوة عكسية متمثلة في طبيعية بشرية ضعيفة وجاهلة. أثناسيوس بالتأكيد لم يرد خلق مثل هذا المسخ، فعلى الرغم من ادعائه الإيمان بأن العهد الجديد هو كلمة الله، فإنه ببساطة يتجاهل أية كلمات غير متماشية مع فكرته تلك حول المسيح، فهو لم يستطع إيجاد أي أسس أو أدلة في الكتاب المقدس يمكن أن تقوم عليها نظريته، لذلك فإنه والمتشابهون معه في

1- John 10:30 RSV, 117.

2- John 14:9 RSV, 123.

3- عندما يقول السيد المسيح أنا والآب شيء واحد فلا يعنى هذا بالضرورة أنهما نفس الشيء، ولكن الأقرب إلى الذهن أنهم يشكلان شيئاً واحداً، فعلى سبيل المثال كثيرًا ما يقول الناس أنا وأخي شيء واحد، فهل هذا يعنى أنهم نفس الشيء، أم يعنى أنهم يقفان مع بعضهما البعض متحدتين ومتفاهمين. وعندما قال السيد المسيح من رأي فقد رأى الآب فإن هذا لا يعنى على الإطلاق أن المسيح والله شيء واحد بل يمكن يعنى أنه يمكن الاستدلال على الله من معرفة صنعه، فرؤية الشيء تعنى إدراكه، وإدراك الشيء يتم عن طريق الاستدلال على أثره من آثاره، وبالتالي فإن رؤية آثار الشيء تعنى رؤية الشيء نفسه وعندها تصبح رؤية السيد المسيح هي رؤية لله، بل إن في الحقيقة رؤية أي من مخلوقات الله هي رؤية لله، فكل المخلوقات هي تعبير عن قدرة الله، فرؤية زهرة جميلة أو طائر غلاب هو في حقيقة رؤية لله من خلال رؤية قدرته وأثره، فأنت تستطيع رؤية الله عن طريق رؤية صنعه، كل صنعه وليس ما تراه فقط بديعًا من صنعه بل يمكن أن ترى الله من خلال كل خلقة أيًا ما كان هذا الخلق قبيحًا أم جميلًا وإن كنت أظن انه لا يوجد شيء يمكن أن يطلق عليه خلق قبيح وأن ما اعتاد الناس على وصفه بالقبح هو راجع لعجزهم عن فهم هذا الخلق. - (المترجم).

نفس طريقة الفكر قاموا باستعارة كلمة الهوموسية Homoousios من الفلسفة الإغريقية من أجل التعبير عن تلك الفكرة.^[1] لكن ما الذي كانت تعنيه تلك الكلمة غير الموجودة أصلاً في الكتاب المقدس، أثناسيوس يقول إنها كانت تعني أن الله يستطيع القيام بفعل أي شيء يريد القيام به، ولذلك فهو اختار أن يجعل من نفسه إنساناً من أجل خلاصنا. فيسوع المسيح ليس أحد مخلوقات الله، ولكنه كما يصير أثناسيوس كان هو الله نفسه متجسداً في صورة آدمية. قد تبدو تلك العبارات وكأنها حقائق واضحة، ولكنها في حقيقة الأمر مثيرة للحيرة بطريقة بائسة تدعو إلى الرثاء.

هل يستطيع الله أن يفعل أي شيء يريد القيام به؟ الإجابة هي نعم بالتأكيد، باستثناء تلك الأشياء غير المتماشية مع كونه إلهاً، فهل يستطيع أن يختار أن يكون شريراً أو جاهلاً؟ هل يستطيع أن يكون شيطاناً؟ هل يستطيع إلا يكون شيئاً على الإطلاق؟ الإجابة لا، فالإله المسيحي هو الإله السرمدي لبنى إسرائيل، خالق العالم. فأثناسيوس دأب على القول بأن

1- الدكتور رافت عبد الحميد له رأي مغاير في هذا الموضوع، فهو يعتقد أن أثناسيوس نفسه قبل تلك الكلمة على مضض، ولم يكن هو أول من اقترح استخدامها ولكن أول من اقترح مصطلح الهوموسية هو ديونسيوس أسقف روما وبعث بهذا المصطلح في رسالة بها إلى سمييه ديونسيوس أسقف الإسكندرية في منتصف القرن الثالث الميلادي، وفي مجمع نيقية فإن من قدم اقتراح استخدام الهوموسية كان هوسيوس القرطبي، وهو الأمر الذي لاقى قبولاً من باقي الأساقفة ورجال الكهنوت المعادين للآريوسية، وعلى رأسهم ألكسندريوس وأثناسيوس من أجل قطع الطريق على الآريوسين بالقول بأن المسيح في مرتبة أقل وأدنى من مرتبة الله والدليل على هذا أن أثناسيوس نفسه على الرغم من أنه كان مشهوراً بغزارته في الكتابة لم يستخدم كلمة الهوموسية إلا مرة واحدة فقط في كتاباته العديدة، فضلاً على أن كلمة الهوموسية لم يأت ذكرها في الإنجيل في كتابات آباء الكنيسة الأوائل - لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى كتاب "الدولة و الكنيسة" - الجزء الثالث للدكتور رافت عبد الحميد - (المترجم).

هذا الإله المتعالي جعل من نفسه مخلوقاً بشرياً، تألم، ومات، ثم بعث نفسه من جديد، أليس هذا الخليط من الخالق والمخلوق يبدو وكأنه قريب إلى الوثنية؟ أدرك الأسقف تلك الحقيقة، وبالتالي حاول تفادي تداعياتها، وعلى سبيل المثال أصر على أن الله لم يخلق المسيح كما يؤمن الآريوسيون، أو تبناه كابن له، ولكنه ولده من طبيعته. وفي الوقت ذاته كان يقول، أن فكرة أن يكون للآب ذرية عن طريق الاتصال بمخلوق بشري بوسيلة من وسائل الاتصال الطبيعية هي فكرة مقززة ومثيرة للاشمئزاز لأي مسيحي ولا يمكن له حتى مجرد أن يفكر فيها أو يتأملها. ولذلك فإنه يسرع ليضيف قائلاً إن وسيلة الله لإيجاد المسيح تتعدى حدود القدرة البشرية على الفهم^[1]. وفي الصفحة المقابلة يسخر أثناسيوس من اعتقاد الآريوسيين، وقولهم بأن المسيح باعتباره مخلوقاً لله فإنه كانت لديه الإرادة اللازمة من أجل الاختيار بين السمو في الفضيلة أو بين رفض تلك الفضيلة. بالطبع وفقاً لآريوس، فإن السيد المسيح اختار الفضيلة من خلال إرادته الفريدة القوية. في المقابل يقول أثناسيوس أن هذا غير صحيح، فالمسيح باعتباره إلهاً كان كاملاً بطبيعته، وليس بمقدوره التغيير، كما كان يفعل بنو الإنسان العاديون. ولكن كيف يتأتى لنا أن ندعو المسيح بالفاضل، وكيف يمكن لنا أن ندعوه بالطهارة إذا لم يكن لم يملك القدرة على الاختيار؟ كيف يمكن أن يصبح المسيح نموذجاً يحتذى به للسلوك الإنساني إذا لم يكن يملك القدرة على التغيير؟ كانت الإجابة الجاهزة لديهم أن تلك المسألة تتعدى حدود الفهم البشري.

كانت المشكلة لا تكمن فقط في أن نظرية أثناسيوس تمزج بين الله

1- القول بأن المسائل المتعلقة بتلك القضية تتخطى حدود القدر البشرية على الفهم ربما يكون حجة تستخدم لتبرير عدم تقديم إجابات على الأسئلة المطروحة ورفض التفسيرات المتاحة، فمن السهل عليك الهدم و لكن من الصعب عليك البناء - (المترجم).

وخلقه، ولكنها تزيل المسيح تماما من النسيج البشري، ومن عالم ملئ بالاضطرابات الأخلاقية، وتضعه في عالم سماوي سرمدى، إذا كان المسيح غير متغير، فكيف لنا أن نأمل بمحاكاة سلوكه؟ على الأقل يمكننا أن نحكي شيئا مشابها لنا، وإذا كان المسيح ليس هو الله نفسه وليس مثله أو حتى حالة وسطية بين البشر والله، فكيف له في هذه الحالي أن يتدخل بالإجابة عنا؟ من الواضح أن أثناسيوس كان يعتقد أن محاكاة سلوك المسيح هو أمر مقصور على بعض القديسين في الصحراء من أمثال أنطونيوس، في حين أن باقي الخطاة من أمثالنا عليهم أن ينتظروا يحدوهم الأمل في نيل الخلاص غير المستحق. وهكذا تحل الشعائر المقدسة في الكنيسة محل التضحية الفعلية التي يقوم بها الشخص، ويحق للمرء أن يتساءل عندئذ عما سيكون عليه موقف المسيح حيال هذا الأمر؟

لا نعلم ما إذا كان قسطنطين قد وجد منطق آريوس مقنعا أم لا، ولكن المؤكد أنه بعد تلك المواجهة معه، فإن قسطنطين توقف عن إطلاق اسم المهرطق على آريوس وبدأ في ممارسة ضغط فعال (على أثناسيوس) من أجل السماح بإعادة قبوله مرة أخرى في الكنيسة. وفي الوقت ذاته، عندما قدم الميليتيون اتهامات جديدة ضد أثناسيوس فإن الإمبراطور أخذ هذه الاتهامات الجديدة على محمل الجد هذه المرة. كانت تلك الاتهامات تتضمن ارتكاب جريمة القتل بناء على أوامر من أثناسيوس، فوفقا لما قاله الميليتيون، فإن أحد أتباع أثناسيوس الرئيسين في مصر العليا (صعيد مصر) قام بحرق منزل أرسينيوس Arsenius الأسقف الميليتي في مدينة هيبسلا Hypsele،^[1] وقتل

1-مدينة هيبسلا القديمة والتي كانت تقع في مكان قرية شطب في الوقت الحالي، وهي إحدى قرى مركز أسيوط وتبعد اقل من ثماني كيلومترات من مدينة أسيوط الحالية بصعيد مصر - (المترجم).

القاطنين في المنزل ومن بينهم الأسقف نفسه، ولم يكتف بذلك بل أخذ الذراع اليمنى من جثة أرسينيوس لاستخدامها في طقوس الشعوذة والسحر، وقدم الميليتيون يدًا مقطوعة في حالة سيئة كدليل على صدق كلامهم. وقدموا المزيد من الوثائق التي تثبت اتهاماتهم السابقة بأن مؤيدي أثناسيوس بناء على أوامره قاموا بالاعتداء على القس إسكيراس وتدمير ممتلكات كنيسة مريوط.

على الفور، أصدر قسطنطين أوامره إلى أخيه غير الشقيق ديلماتIOS (الذي كان بمثابة أهم مسؤول إمبراطوري في الشرق) بالتحقيق في مزاعم اتهام أثناسيوس بالتحريض على القتل، وبعد ذلك قام على الأرجح بناء على نصيحة يوسابيوس النيقوميدي بإرسال خطاب إلى أساقفة مصر وأساقفة الشرق يخبرهم فيه أن مجمعا كنسيا سوف ينعقد في مدينة قيسارية في بداية عام 334 للتعامل مع تلك المسألة.

أثناسيوس تعامل بسرعة مع تلك التطورات، فغادر الإسكندرية إلى مكان غير معلن عنه خارج المدينة، ودون شك فإنه ارتحل إلى أحد الأديرة الرهبانية، ومن هناك قام بإرسال مبعوثيه للقيام بمهمتين: الأولى الحصول على اعتراف من إسكيراس يقر فيها أن الاتهامات التي قام بتوجيهها إليه هي اتهامات زائفة ولا أساس لها من الصحة، وأنه قدمها بناء على التهديد من الأساقفة الميليتيين، المهمة الثانية والأكثر صعوبة هي العثور على أرسينيوس.

لم يتطلب الأمر الكثير من الوقت للحصول على اعتراف إسكيراس. ربما وقع القس على اعترافه الجديد بزيغ ادعاءاته السابقة تحت الضغط، حيث أنه لاحقًا قام بإنكار اعترافه هذا، ولكن في الوقت الراهن فإن هذا الاعتراف سيحقق الغرض منه وهو تبرئة ذمة

أثناسيوس، ولذلك صرف قسطنطين النظر عن الاتهامات الموجهة إلى أثناسيوس في قضية إسكيراس، وقرر عدم عرضها في المجمع المزمع عقده في قيسارية، ولكن القضية الأهم وهي قضية قتل أرسينيوس ظلت هي المكون الرئيسي في جعبة الاتهامات الموجهة إلى أثناسيوس. وفي غضون ذلك كان أتباع أثناسيوس يحاولون بكل جهد تحديد مكان أرسينيوس ولم تكن تلك بالمهمة السهلة، فأثناسيوس كان على يقين بأنه مازال على قيد الحياة، لأنه علم من مصادره أنه بعد حرق منزل أرسينيوس وتدميره فإن أرسينيوس تعرض للضرب وسجن في سقيفة، ولكنه تمكن من الهرب من أسريه واختفى عن الأنظار^[1]. وبينما أخذ أتباع أثناسيوس في التفتيش في كل أنحاء الريف بحثًا عن رجل الدين الحي المزعوم قتله، فإن رجال الكنيسة الذين استدعاهم الإمبراطور إلى قيسارية بدأوا اجتماعهم الكنسي بالمدينة. وأرسل ديلماتيوس المراقب الروماني إلى أثناسيوس يطالبه فيها بحضور اجتماع قيسارية الكنسي، كان رد أثناسيوس الجريء هو رفض الدعوة وإعطاء أوامره لأتباعه بتكثيف البحث عن أرسينيوس. وأخيرًا، وصلت أنباء مبشرة ومريحة فجأة إلى أثناسيوس، إذ أخبره عملاؤه أن تقارير مؤكدة وصلتهم تؤكد على أن أرسينيوس قد شوهد في دير في صحراء طيبة، وسابق رجال أثناسيوس الزمن للإمساك به، ولكنهم وجدوا أن الأسقف المراءوغ قد اختفي وأفلت من أيديهم مرة أخرى. ربما ساعد بعض الواشين أرسينيوس على الهرب، ووجه عملاء أثناسيوس

1- At the Council of Tyre in 335 the Melitians produced evidence that Plusianus, an Athanasian bishop, had committed these actsofviolence, allegedly on Athanasius's orders. Barnes, Constantine and Eusebius, 336.

أصاب الاتهام إلى رئيس الدير وإلى واحد من الرهبان يدعى إيليا بمساعدة القس على الهروب، وعندما أنكروا مسؤوليتهم عن الأمر فإن رجال أثناسيوس قبضوا على الإنسانين ونقلوهم تحت الحراسة إلى الإسكندرية، وهناك و طبقاً للأسلوب المتبع في هذا العصر فقد تم تعذيبهم بواسطة الضابط الأعلى للعسكرية الرومانية (دوق مصر) the Duke of Egypt من أجل الحصول على معلومات منهما، وتحت وطأة التعذيب فإن الرهبان اعترفوا بأنهم ساعدوا الأسقف علي الهرب عن طريق توفير مركب يقله عبر النيل إلى البحر ومن هناك نصحاه بأن يتوجه إلى صور، ويلتمس هناك ملاذاً آمناً تحت اسم مستعار عند بولينيوس أسقف صور المعروف عنه أنه أحد الزعماء المتعاطفين مع الآريوسية. والآن فإن أثناسيوس كان يعلم أن أرسينيوس يعيش تحت اسم مستعار في صور تحت حماية بولينيوس. وفي صور استطاع أسقفها إقناع أرسينيوس المرعوب بأن يكشف هويته الحقيقة ويقدم نفسه إلى السلطات. على الفور، قام أثناسيوس بإرسال مبعوثين إلى قسطنطين ينبئه فيها بتفاصيل مصير الأسقف الذي يتهمونه بقتله، وكيف أنه يعيش حياً في صور وكلتا يديه سليمتين، ويطلب من الإمبراطور أن يأمر بحل مجمع قيسارية المنعقد. ووافق الإمبراطور على طلبات أثناسيوس وأمر بحل مجمع قيسارية، وأرسل إلى أثناسيوس رسالة أخرى يزكي فيها على أفعاله ويشجب الاتهامات الباطلة التي يوجهها له خصومه من الميليتيين.

ولكن حتى مع هذه النتيجة الحاسمة، والنصر الساحق الذي حققه أثناسيوس على خصومه، إلا أن الأسقف السريع الغضب كان مخطئاً بشدة عندما ظن أن متاعبه قاربت على الانتهاء، فالكثير من أساقفة الشرق، حتى من بين المتعاطفين مع آرائه اللاهوتية كانوا غاضبين بدرجة

كبيرة وغير موافقين عن سلوكه العنيف هذا^[1]. وفوق هذا، فإن يوسابيوس النيقوميدي أدرك بذكائه أنه إذا نفذ صبر الإمبراطور حيال أثناسيوس بسبب الإضرابات والمشاكل التي يثيرها باستمرار من حوله، فإنه على الأرجح سيقوم بتحويل الأمر برمته إلى مجمع كنسي لكي يفصل في تلك المسألة، وهذا ما كان يريده يوسابيوس ويحاول أن يفعله في قيسارية. وكانت الاستراتيجية الواضحة التي سيتبعها يوسابيوس من الآن فصاعدًا هي زيادة الضغط على أثناسيوس ومن ثم على قسطنطين.

وهنا لعب قائد الميليتين الماهر وعميق التفكير يوحنا الأركا في John Arcaph أسقف ممفيس دورًا حيويًا شديد الأهمية في تلك الاستراتيجية. حيث قام يوحنا في العام 334 بالإعلان عن خضوعه رسميًا لسلطة أثناسيوس كأسقف الإسكندرية (أسقف مصر بالتبعية)، وبعدها قام بإرسال رسالة إلى الإمبراطور يخبره فيها بأمر التصالح، والائتلاف ويعلن عن التماسه ورغبته الحارة في لقاء الإمبراطور المسيحي العظيم.

مبتهجا بمنطق وعقلانية يوحنا، قام قسطنطين باستدعائه إلى القصر للقاءه، ولكن بمجرد وصوله إلى القسطنطينية دخل يوحنا في نطاق سلطة يوسابيوس. وعلى الفور اتحد قائدًا الآريوسيين والميليتين معا ضد عدوهم المشترك أثناسيوس. سريعًا سيكون التحالف الآريوسي الميليتيني قادرًا على تقديم أدلة جديدة على عصر الإرهاب الذي يمارسه أثناسيوس في الإسكندرية.

على غير المتوقع، فإن أثناسيوس بعد انتصاره في قضية أرسينيوس وجد نفسه في موقف أكثر خطورة مما سبق. فالوثيقة التي أرسلت

1- See Hanson's extensive discussion in *Search*, 246—273. At the Council of Tyre such anti-Arians as Paul of Constantinople voted against Athanasius.

إلى قسطنطين بواسطة يوحنا الأركاني ويوسابيوس قدمت صورة عن إنسان عنيف حاقد تواق للانتقام غير مؤهل لشغل منصب أسقف الإسكندرية، وأعادت على مسامع الإمبراطور الاتهامات السابقة بالاعتداء على إسكيراس، وكسر الكأس المستخدمة في القربان المقدس، وأضافت أن عملاء أثناسيوس قاموا بالاعتداء المتكرر على إسكيراس قبل مهاجمة كنيسته. وأكثر من هذا، فإن أسقفًا مليتيًا يدعى كالينيكيوس Callinicus كان مستعدًا للإدلاء بشهادته بأنه عقب قيامه بشجب مهاجمة أثناسيوس لإسكيراس، فإن جنود أثناسيوس القوا القبض عليه وقاموا بتعذيبه، كما ادعى خمسة أساقفة آخرين بأنهم تعرضوا للسجن لأنهم شككوا في شرعية انتخابه كأسقف للإسكندرية، وقاموا بتحديد هوية مساعد أثناسيوس الذي قام بحرق منزل الأسقف أرسينيوس وتقييده وضربه بوحشية، وكان هذا المتعصب يدعى بلاوزانيوس Plausanius. وكما توقع يوسابيوس، فإن رد فعل قسطنطين كان غاضبًا إزاء تلك الاتهامات، وأصدر أوامره إلى مجموعة من الأساقفة للاجتماع في صور، والتشاور وإصدار قرارهم إزاء تلك الاتهامات، كما قام بإرسال مبعوث هام هو الكونت ديونيسيوس Count Dionysius لتمثيله في هذا الاجتماع. ولأول مرة في الخلافة الآريوسي فإن الإمبراطور يصدر قراره باتخاذ إجراءات عسكرية في هذا الشأن، حيث أصدر أوامره بالقبض على رجل أثناسيوس في القسطنطينية مكاريوس ووضع يديه في الأصفاد، وبالفعل ألقى الجنود القبض عليه وتم اقتياده إلى صور من أجل ضمان حضوره الاجتماع الكنسي المخصص للتشاور في قضية أثناسيوس. ثم قام بالكتابة إلى أثناسيوس بالإضافة إلى عدد كبير من رجال الكهنوت والشهود يأمرهم بحضور اجتماع صور وإلا فإنهم

يخاطرون بإنزال عقوبات شديدة القسوة عليهم.

توجد أدلة قوية (في صورة خطابين مكتوبين على ورق البردي، تم اكتشافهما في عام 1914)^[1]، وتشير هذه الأدلة بوضوح إلى أن رد فعل أثناسيوس على هذه المطالب كان الاختفاء عن الأنظار، وكان مترددًا بين الامتثال للأوامر والتوجه إلى صور وحضور الاجتماع الكنسي وبين تجاهلها، وقام أعوانه بإرهاب المصريين الذين قدموا بعض الأدلة ضده ومنعواهم من مغادرة البلاد لحضور المجمع كشهود كما طالب بذلك الإمبراطور، ونستطيع أن نستدل على حالة الإرهاب في مصر من خلال رسالة قام بكتابتها أحد الرهبان الميليتيين في مايو 335 بشكل شخصي إلى راهب آخر يصف الحالة في مصر قائلا "إنه (أثناسيوس) القي القبض على أسقف مصر السفلى وقام بحبسه في سوق اللحوم، كما تحفظ أيضًا علي كاهن من تلك المناطق، والقي بشماس في السجن الكبير، بينما تعرض (الأسقف) هراسيوس Herascius للسجن منذ اليوم الثامن والعشرين في المعسكر، شكرًا للرب فإن الضرب الذي تعرض إليه توقف الآن. وفي اليوم السابع والعشرين فإنه تم إجبار سبعة أساقفة على مغادرة المنطقة"^[2].

بوضوح، فإن الأسقف أدرك الخطر المحدق به. وحاول بعض مؤيديه تهريب مكاريوس من السجن، ولكن السلطات أحبطت علما بالمحاولة وأحبطت المؤامرة وألقت القبض على المشتركين فيها. أخيرًا حسم أثناسيوس أمره، وقرر التوجه إلى صور من أجل حضور المجمع الكنسي، ولعل السبب في اتخاذ هذا القرار هو إدراكه بأنه

1- (121) The letters, published by H. I. Bell in *Jews and Christians in Egypt*, vol. VI (London, 1924), are described in Hanson, *Search*, 252- 254.

2- Ibid., 253.

أصبح الآن لا يملك الكثير من الخيارات، فلقد كان واضحًا لأي ذي عقل أو فطنة أن قسطنطين كان عازمًا هذه المرة على تنفيذ أوامره بالقوة. حضر مجمع طرابلس الكنسي ما يربو على مائة أسقف^[1]، كان من بين الحضور أساقفة متعاطفون مع الآريوسية، بينما كان يوجد أيضًا عدد غير قليل من الأساقفة المعادين لها، من بينهم: اسكندر من تسالونيكيا، وبولس من القسطنطينية، ومارتيلليوس من أنقرة. ومع أن الأساقفة المصريين غير المتعاطفين مع الميليتية أو الآريوسية شكلوا جبهة قوية من أجل الدفاع عن أثناسيوس، إلا أنهم في حقيقة الأمر لم يساعدوه كثيرًا بسبب سلوكهم المثير للاضطرابات والتمزق داخل أنشطة المجمع، بل إن المجمع نفسه استشهد بسلوك هؤلاء الأساقفة المصريين غير المنضبط كدليل على عدم صلاحية أسقف الإسكندرية لشغل منصبه. وكان لأثناسيوس أسباب قوية تدفعه للشعور بأن الآريوسيين متجهون للإجهاز عليه. ولكن كما علق أحد الكتاب فإن التحالف الآريوسي الميلتي لم يكن بإمكانه تغيير الحقيقة القائلة بأن سلوك أثناسيوس العنيف لم يكن له علاقة بعقيدته. فالاتهامات الموجهة له بمجمع صور كانت الاستخدام غير المنضبط للعنف ضد خصومه (دون الخوض في المسائل العقائدية). وبصفة عامه فإن مسؤوليته عن تلك الاتهامات (بغض النظر عن تبرئته عن بعض الحوادث) كان مدعوما بعدد وفير من الأدلة^[2].

1- Hanson says the number was "about 60" (Search, 259), but this is probably incorrect, since there were forty-eight Egyptian bishops in Athanasius's camp, and they were a minority of the council (Barnes, Constantine and Eusebius, 237).

2- Hanson, Search, 255.

كانت المجادلات والحوارات في المجلس الكنسي عاصفة، ومع وجود الكثير من الشهود كل منهم لديه قصة متناقضة مع الآخر فإن الوضع ازداد غموضاً وتشابكاً، وتم استدعاء العديد من الأسماء من بينهم إسكيراس الذي أصبح الآن يؤكد على أنه تعرض للاعتداء من قبل مكاريوس الذي حطم الكأس المستخدم في طقوس القربان المقدس وهو الاتهام الذي أنكره مكاريوس تحت القسم. كرر الميليتيون رواية القصص عن عنف أثناسيوس، بينما ادعى أتباع أثناسيوس أنهم هم الذين تعرضوا للاعتداء. بعد أسابيع من المشاحنات فإن الأساقفة قرروا إرسال لجنة إلى إقليم مريوط لإجراء مقابلات مع الشهود هناك، والوصول إلى حقيقة تلك الاتهامات ومن ضمنها مسألة الكأس المكسور. واستتبع هذا القرار المزيد من المشاحنات حول من يناط به تشكيل تلك اللجنة. كانت النصيحة والأوامر التي تلقاها الكونت ديونيسيوس هي صدور قرارات المجمع بالإجماع، وهو الأمر الذي وجد أنه بالنظر إلى حالة الانقسام السائدة بين الأساقفة من المستحيل تحقيقه، فعلى الرغم من قيام أثناسيوس بإعداد قائمة من الأساقفة المتعاطفين مع الآريوسية والذي أصر على ضرورة استبعادهم من عضوية اللجنة المزمع تشكيلها، إلا أن جميع أساقفة لجنة التحقيق المختارة كانوا متواجدين في قائمة أثناسيوس تلك.

غادر أعضاء لجنة التحقيق متجهين إلى مصر في أغسطس بصحبة إسكيراس وفرقة من الجنود الإمبراطوريين. وخلال الشهرين التاليين فإن مصر كانت في حالة اضطراب وتأهب متواصل، وقام إسكيراس وأقربائه ورجال الكهنوت الميليتيين والآريوسيين بالإضافة إلى فيلاجريوس Philagrius وإلى مصر (الذي كان يعتبر أعلى ممثل للإمبراطور في إدارة الإقليم) بمساعدة اللجنة في جمع الأدلة وتقصى الحقائق، وفي المقابل فإنهم لاقوا الصعوبات من رجال الكهنوت الموالين لأثناسيوس الذين

وضعوا باستمرار العراقيل في طريقهم. احتج (أتباع أثناسيوس) بأن إسكيراس لم يتم أبدًا ترسيمه قسيسًا بطريقة سليمة، وبالتالي فإن جميع إجراءات التحقيق هي إجراءات متحيزة وغير عادلة، وأعاقوا عمل اللجنة لجمع الأدلة اللازمة للقضية. واتهم أتباع أثناسيوس اللجنة بأنها كانت تحصل على الأدلة عن طريق التهديد والتعذيب. وفي المقابل فإن اللجنة وجهت اتهامات إلى أتباع أثناسيوس بأنهم يقومون بإرهاب واختطاف الشهود. وبنهاية سبتمبر، كان واضحًا أن تقرير اللجنة سوف يدين أثناسيوس، وقبل أن تعود إلى صور غادر أثناسيوس المدينة باستخدام قارب صغير تحت جناح الظلام متوجها إلى القسطنطينية. وبينما أخذ الأساقفة أسبوعين راحة من أعمال التحقيق، توجهوا خلالها إلى بيت المقدس بناء على طلب الإمبراطور من أجل حضور احتفال تدشين كنيسة القيامة في بيت المقدس Hol Sepulchre، وعقب عودتهم مرة أخرى إلى صور فإنهم تحركوا بسرعة من أجل إدانة أثناسيوس بتهمة استخدام العنف وعدم الطاعة، من خلال إصدار أوامره إلى مكاريوس لضرب إسكيراس وكسر كأس الأفخرستيا (القربان المقدس)، وترهيب الشهود وعرقلة العدالة ورفض حضور مجمع قيسارية، ومحاولة إفساد مجمع صور بالاشتراك مع أتباعه، والفرار من المجمع من أجل تفادي قراراته.

في النهاية، أصدر المجمع قراراته، ومن بينها الحرمان الكنسي ضد أثناسيوس، وعزله من منصب أسقفية الإسكندرية، ومنعه من العودة إلى الإسكندرية مرة أخرى.

نالت قرارات المجمع موافقة جميع الأساقفة الحاضرين بلا استثناء بما فيهم الأساقفة المعادون للآريوسية، ولكن رد الفعل كان مغايرًا في

الإسكندرية، حيث اندلعت على الفور أعمال العنف والشغب ضد هذه القرارات، فأثناسيوس كان يحظى بشعبية واسعة في المدينة، وكان بإمكانه الاعتماد دائما على أعوانه في تحريك الجماهير العنيفة. ولكن ما كان يشغل بال الأساقفة في صور لم يكن أعمال العنف والشغب في الإسكندرية بقدر مسألة هروب أثناسيوس. فهروب أسقف الإسكندرية كان مدعاة لقلقهم أكثر من الشغب في الإسكندرية، فهم يعلمون جيدا كيف يمكن لأسقف الإسكندرية أن يكون مقنعا، ولم يرغب عن ذهنهم كيف استطاع أثناسيوس في السابق التأثير على قسطنطين خلال إقامته الأخيرة بالقصر، وأنه بإمكانه التأثير عليه مرة أخرى. وأدرك الأساقفة أنه إذا تحققت مخاوفهم فإن قرار الإمبراطور في هذا الشأن سيكون هو النهائي بغض النظر عن أية قرارات أخرى اتخذها أو قررها المجمع الكنسي، وعلى الفور قرر المجمع تكليف ستة منهم كلهم ينتمون إلى الحزب الآريوسي للتوجه فوراً إلى القسطنطينية من أجل عرض قرارات المجمع أمام الإمبراطور. وباختصار وبغض النظر عن قرارات المجمع، فإن مصير كل من أثناسيوس والخلاف الآريوسي نفسه كان موضوعا الآن على المحك في انتظار نتيجة الالتماسات الأخيرة التي سيحاول طرفا النزاع تقديمها إلى الإمبراطور مباشرة.

الفصل السابع

الموت في القسطنطينية - Death in Constantinople

في السادس من نوفمبر 335، عاد قسطنطين إلى روما الجديدة (القسطنطينية) مع حاشية ضخمة. وفي أكتوبر قام مع مرافقيه بزيارة نيقوبولس Nicopolis على البحر الأسود ثم عاد مباشرة إلى مدينته، ملقيا التحية في طريقه على الأهالي الممتنين له والموظفين المحليين على امتداد المدن والقرى المنتشرة في طريق العودة. بمجرد وصول الموكب الإمبراطوري إلى الميدان الرئيسي قبل البلاط، فإن حشداً هائلاً من الجماهير تجمع هناك مطلّقين صيحات الابتهاج للترحيب به. فقسطنطين كان مازال رمزاً مؤثراً على الرغم من تقدمه في السن. يركب منتصباً على ظهر حصان ضخم، يومئ برأسه للجماهير المبتهجة، جميع الأشياء بدت وكأنها تسير في طريقها الصحيح كما كان مخططاً لها بالضبط، وفجأة برز للعيان أمام صف الجنود الذي يحجز الجماهير عن الإمبراطور إنسان أشعث في أسمال بالية من ملابس الحداد، وركع على ركبتيه أمام الإمبراطور، وبدأ في الحديث بنبرة جهورية لممثل درامي. لم يكن هذا الإنسان إلا أثناسيوس نفسه، بوجهه المغطى بالأتربة وثيابه الممزقة فإن الإمبراطور بالتأكيد لم يستطع التعرف عليه. فقسطنطين لم يره منذ ما يزيد على ثلاث سنوات، وعندما تمكن الإمبراطور في النهاية من

التعرف على شخصية أثناسيوس، فإنه تأثر بمظهره الذليل وكلماته اليائسة^[1]. ربما يكون قسطنطين قد أعجب بحس الأسقف المسرحي، هذا الحس المسرحي الذي صادف هوى لدى الإمبراطور الذي كان يرغب في لعب دور الحاكم الحكيم المتسامح. توسل أثناسيوس إلى الإمبراطور من أن ينقذه مرة أخرى من أعدائه الضارين، فمجمع صور (من وجهة نظر أثناسيوس) كانت تحركه فقط كراهية وأنانية الآريوسيين. فكيف يمكن لأي شخص أن يدعي أن هذا التجمع يمثل إرادة الله؟ وناشد أثناسيوس الإمبراطور بأن يقوم باستدعاء أساقفة المجمع إلى القسطنطينية من أجل أن يوضحوا له على أي أساس أصدروا قرار الحرمان الكنسي بحقه.

تردد قسطنطين. فالامتثال لهذا الطلب كان يعنى إعادة فتح أعمال مجمع صور مرة أخرى.

من ناحية أخرى فإن قرارات أي مجمع كنسي لم تكن تنفذ تلقائياً، فقرارات النفي والعزل على وجه الخصوص يجب أن يصدر بها أمر من الإمبراطور نفسه، فإذا كان الأساقفة في صور لم يصدروا قرارهم بمعزل عن الهوى، أو لم يكن دافعهم هو البحث عن الحقيقة المجردة أو السعي بنزاهة وصدق وراء وحدة الكنيسة، وماذا لو كان حقيقياً فعلاً أن الأساقفة في صور ينفذون ببساطة سياسة انتقامية ضد أثناسيوس؟ ففي هذه الحالة فإن قراراتهم ستصبح مجرد تعبير عن إرادة متكبرة لأشخاص تافهين، إرادة يجب ألا تنفذ. فكر قسطنطين لوهلة، ثم قرر بعدها الاستجابة لطلب أثناسيوس. وأصدر أوامره إلى الأساقفة الذين مازالوا في صور للحضور إلى القسطنطينية من أجل البرهنة على أنهم لم

1- The incident is described in Barnes, Constantine and Eusebius, 239240-.

يصدروا قراراتهم بتحيز أو عن هوى ضد أثناسيوس بل أصدروها بناء على أسس العدالة ووضع الأدلة والقرائن في نصابها الصحيح. عدة ساعات لاحقة، بعدها وصل الأساقفة الستة الذين أرسلهم مجمع الأساقفة في صور في وقت سابق ممثلين عنه إلى القصر، وعلموا بأمر الخطاب الذي أرسله الإمبراطور إلى المجمع، ولكنهم لم يتمكنوا من مقابلة الإمبراطور على الفور حيث تم إخبارهم بواسطة مسؤول البلاط أن يعودوا بعد يومين، وحينئذ سيسر الإمبراطور استقبالهم كما قال مسؤول البلاط الذي أضاف بأنه متأكد أنه لن يزعجهم اشتراك الأساقفة المتوقع قدومهم من صور في النقاش بينهم وبين الإمبراطور.

اجتمع الأساقفة الآريوسيون في اليوم التالي من أجل التشاور في ذلك الموقف المتداعي (وبدا لهم النصر الذي توهّموه في صور وهو على وشك الانهيار)، وعلى الأرجح فإن الأسقف الميلتي يوحنا الأركيفي وبعضاً من زملائه سوف يشتركون بدورهم في هذا الاجتماع المرتقب بين الإمبراطور والأساقفة. وتدرجياً تأكد شعور المنتصرين في مجمع صور بأن إنجازاتهم التي حققوها تنسل من بين أيديهم. فأثناسيوس وحلفاؤه كانوا يملئون أذن الإمبراطور بحججهم منذ أكثر من أسبوع. والله وحده يعلم كم هي حجم الأكاذيب التي أخبروه بها؟ الأسوأ، وعلى الرغم من أن الأدلة الكثيرة التي توفرت للمجمع حول العنف الذي ينتهجه أثناسيوس إلا أن الأسقف السكندري استمر في إنكار كل الاتهامات الموجه له بارتكاب تلك الجرائم مثل تحطيم الكأس (المتنازع في قدسيته) بكنيسة إسكيراس بالمريوطية، وتدمير بعض ممتلكات الكنائس الأخرى، وحرق منزل أرسينيوس، والضرب الوحشي لبعض القساوسة الميلتيون والآريوسيون. وأكثر ما

كان يخيف المعسكر الآريوسي هي حقيقة مؤداها أنه حتى ولو اقتنع قسطنطين بصحة هذه المزاعم، فقد كان من السهل عليه أن يتفهم هذه الأساليب القاسية ويتقبلها باعتبارها جزءاً من طريقة الحكم وضرورة من ضرورات الإدارة، وفي هذه الحالة قد ينجو أثناسيوس بأفعاله، وأقصى ما يمكن أن يصيبه هو تحذيره بأن يعدل من طريقه إدارته القاسية. فبعد كل شيء، أليس الإمبراطور المسيحي يجد نفسه في بعض الأحيان مجبراً على معاملة أعدائه بقليل من العنف؟

عند هذه النقطة، أدرك الآريوسيون أن عليهم أن ينتهجوا استراتيجية أخرى، وهنا سأل العقل المدبر للمعسكر الآريوسي يوسابيوس النيقوميدي عملاءه المصريين الذين يوالونه بالأخبار عما إذا كان قد نما إلى علمهم أية أفعال عدائية صدرت من أثناسيوس في الماضي، هذه المرة ليست موجهة ضد المعسكر الآريوسي ولكن ضد الإمبراطور نفسه؟ وبالفعل حصل يوسابيوس على بعض الاتهامات الجديدة أو ربما تمكن من الحصول على تلك الأدلة في وقت سابق، ولم يستخدمها أثناء مجمع صور لأنه كان يدخرها إلى الوقت الملائم حيث كانت تلك الاتهامات تتضمن أعمال عدائية موجهة ضد الدولة وليس الكنيسة. على أية حال فإنه كان بحوزته الآن معلومات غاية في الأهمية، وكان القائد الآريوسي مستعداً لاستخدامها في الاجتماع المزمع عقده بين الأساقفة المشاركين في مجمع صور والإمبراطور في اليوم التالي في حضور أثناسيوس مع مؤيديه من الأساقفة المصريين. وكما كان متوقعاً فإن هذا الاجتماع كان أقل ما يوصف به أنه كان اجتماعاً صاخباً مشتعل¹¹، فأثناسيوس ومعه الأساقفة المصريون

1- Ibid. See also Athanasius, "Defence Against the Arians," in Schaff and

مؤيدين له أنكر بشدة الاتهامات التي وجهت إليه في صور، وتحدي إجراءات اللجنة والمجمع الكنسي، وقام بدم خصومه واصفًا إياهم بأنهم مهرطقون وأعداء للمسيحية بل ومتآمرون. في حين كرر الآريوسيون ذكر الأدلة التي قدمت في مجمع صور ووصفوا أتباع أثناسيوس بتصرفهم وكأنهم رجال عصابات كاذبون. ولكن هذا الجو المشحون من الاتهامات والاتهامات المضادة كان في صالح أثناسيوس وخدم قضيته، حيث أظهرت لقسطنطين أن الأساقفة لم يكن بمقدورهم أن يصدروا حكمهم وقراراتهم بناء على أدلة العقل والمنطق، ولكنهم كانوا يعملون في وسط جو مشحون بالاضطراب وكانت الرغبة في الانتقام هي المحرك الرئيسي لأحكامهم، وعليه فلا يمكن أن يتم إلزام الأساقفة الآخرين بالانصياع لقرارات صدرت في مثل هذه الظروف.

وبينما يسدل الاجتماع أستاره، والأمور تسير في اتجاه مصلحة أثناسيوس الذي اقترب بشدة من تحقيق انتصار آخر على الآريوسيين، أثناء تلك الأجواء ضرب يوسابيوس النيقوميدي ضربته غير المتوقعة والقاضية في الوقت ذاته، كانت تلك الضربة هي محاولة إثبات أن أثناسيوس كان في مسلكه يتحدى الإمبراطور نفسه، حيث ذكر يوسابيوس أنه عندما أصدر قسطنطين أوامره إلى أثناسيوس بالحضور إلى صور بسبب الاتهامات الجنائية الموجهة إليه فإن الأسقف فكر في عدم إطاعة أوامر سيده، فبعد أن صعد أثناسيوس على ظهر السفينة المتجه ناحية صور نزل منها مرة أخرى في ثورة من الغضب والخوف، مقسمًا أنه لن يحضر أبدًا مجمع الأعداء، خلال تلك الفترة،

وعلى حد قول يوسابيوس فإن أثناسيوس أخبر المقربين منه بأنه إذا حاول الإمبراطور إجباره بالقوة على الذهاب إلى صور، فإنه سيعرف كيف يرد على هذا الأمر، وسيستخدم سيطرته على ميناء الإسكندرية من أجل منع السفن المحملة بالغلل من مغادرة ميناء الإسكندرية والإبحار إلى موانئ البحر المتوسط الأخرى^[1].

صدمت تلك الاتهامات التي ساقها يوسابيوس ضد أثناسيوس الجميع حتى قسطنطين نفسه المشهور بقوة التحمل، فعلى الرغم من أن امتلاك أثناسيوس لنفوذ كبير على رجال البحر وعمال الموانئ في مدينته وقدرته على مقاومة السلطة الإمبراطورية كان أمرًا معلومًا للكافة، إلا أن صدور مثل هذا التصريح إن كان قد صدر منه حقا كان بمثابة سيف مسلط مباشرة إلى قلب الإمبراطورية. فإقليم مصر وليبيا كانا أغنى المناطق الزراعية وأكثرها إنتاجًا للحبوب في الإمبراطورية الرومانية بأسرها، وكانت بمثابة سلة غلال العالم الروماني. وكانت مدن كبيرة مثل القسطنطينية وأنطاكية وأثينا وروما لا تستطيع البقاء لمدة شهر دون شحنات الحبوب القادمة من مصر بانتظام، وكان تأخير تلك الشحنات يعنى إشعال شرارة أعمال الشغب بواسطة الغوغاء في الإمبراطورية، وربما تؤدي حالة الفوضى إلى سقوط الإمبراطور نفسه،

1- There are differing accounts of this charge against Athanasius. Barnes, Athanasius and Constantius, 178179-, thinks that the charge was that Athanasius, who had legal access to the grain supply for purposes of supporting widows and orphans, was threatening "to divert to his own purposes grain needed to prevent riots in the imperial city [Constantinople]." Others (e.g., Chadwick, The Early Church, 135) believe that he was charged with threatening to delay the grain ships by calling a dock strike. Hanson, Search, 263, doubts that Athanasius ever made such a threat.

بغض النظر عما إذا كان إمبراطورًا مسيحيًا أم لا. وقد سأل قسطنطين أثناسيوس بأن يرد على هذا الاتهام الموجه له، ووفقًا لشهود العيان فإن أثناسيوس أنكر الأمر برمته، ودافع عن نفسه قائلاً إنه مجرد مواطن في الإسكندرية وأسقف للمدينة، وليس إنسانًا ذا ثروة أو نفوذ كبير. فكيف يتأتى له إذا أن يمنع إبحار السفن المحملة بالغلال من ميناء المدينة؟ كيف يمكن للإمبراطور أن يصدق أن بإمكانه مجرد التفكير في فعل مثل هذا الشيء؟ ومع رؤية رد فعل أثناسيوس المتوقع، فإن يوسابيوس أعلن أنه مستعد لقسم اليمين بأن أسقف الإسكندرية إنسان شديد الثراء، ويتمتع بنفوذ هائل في المدينة، وأنه دون أدنى شك كان قادرًا بالفعل على منع مغادرة السفن للميناء ووقف شحن الغلال، وأنه نطق بهذا التهديد بالفعل، وأنه مستعد لتقديم شهود عيان على صحة كلامه.

عند هذه المرحلة، فإن قسطنطين بدأ في توبيخ أثناسيوس بأسلوب عنيف. ولأن أثناسيوس لم يكن معتادًا على مثل هذه الإساءة، فإنه بدأ في فقدان السيطرة على نفسه. بالنسبة لإنسان ضئيل الحجم مثل أثناسيوس فإن صوته كان جهوريًّا إلى حد بعيد، ويذكر شهود العيان أن أثناسيوس صاح في وجه الإمبراطور قائلاً "احذر، فالله سيحكم بيني وبينك"^[1].

اشتعل قسطنطين غضبًا، وأصدر قراره على الفور بإدانة أثناسيوس، ونفيه لمدة غير محددة إلى المدينة الحدودية تريير Trier. وسوف يظل هناك لعدة سنوات قادمة. وبينما أخذ أتباعه وأنصاره في الإسكندرية في إثارة أعمال الشغب من فترة لأخرى، فإن حلفاءه من رجال الدين

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 240.

المعادين للآريوسية أخذوا يناشدون الإمبراطور في العفو عنه، ومن هؤلاء الذين قدموا التماساتهم كان الراهب أنطونيوس الذي كتب الخطاب تلو الخطاب إلى قسطنطين مناشدا إياه السماح لأثناسيوس بالعودة إلى أبرشيته. وفي رد قسطنطين على هذه الخطابات فإنه وصف أثناسيوس بأنه شخص مثير للمشاكل يتسم بالعنف، ولا يمكن الوثوق به لإدارة شئون الكنيسة، وأدان الإمبراطور الشغب الذي يقوم به أهل مدينة الإسكندرية وأخبر أنطونيوس أن عليه التوقف عن التدخل في الأمور التي لا تعنيه.

كان وضع أثناسيوس غير طبيعي وشائك، فقد اتخذ قسطنطين قراره بعدم فرض تنفيذ قرارات مجمع صور، وبالتالي فإنه لم يوافق على تعيين أي شخص تم ترشيحه من قبل الآريوسيين أو الميليتيين لخلافة أثناسيوس في منصب أسقف الإسكندرية. كان موقف الأسقف السكندري تكتنفه حالة من الضبابية، فعلى الرغم من كونه أصبح الآن في طي النسيان بعد نفيه، وعدم قدرته على استعادته السلطة أو الحظوة عند الإمبراطور، ولكنه في الوقت ذاته لم يتم الاعتراف بقرار إدانته الصادر من مجمع صور من قبل الإمبراطور. وبالطبع كان وجود أحد رجال الكنيسة الشرقية العظام في مدينة بدائية خشنة مثل مدينة ترير، فإنه كان بمثابة عملاق بين الأقزام، وسيكون لهذه الفترة التي سيقضيها أثناسيوس في الغرب تأثير عظيم ليس فقط على مسيرته كرجل دين ولكن أيضاً على تاريخ الكنيسة. فقد استخدم أثناسيوس قدراته العقلية، وجاذبية تعرضه للاضطهاد من قبل الآريوسيين من أجل إقناع أساقفة الغرب بصحة آرائه اللاهوتية. كان الأسقف المحاصر في أرض المعركة لم يبلغ الأربعين من عمره بعد. وحيداً وليس بالوحيد، فأثناسيوس الذي كان يعيش في مدينة

تريز على الحدود الألمانية بين ظهري أناس يتحدثون باللغة اللاتينية (بينما لغة أثناسيوس الأولى هي اليونانية) ومع ذلك فإنه عمل وخطط واستطاع كسب الكثير من الأنصار في الغرب، وانتظر فرصته بصبر من أجل الرجوع مرة أخرى.

وبينما أخذ نجم أثناسيوس في الأفول في الشرق، فإن قوة آريوس أخذت في الصعود. وفي عام 335 بينما الأساقفة مجتمعين في صور، كان آريوس في القسطنطينية برفقة زميله يوزيوس ومجموعة من أتباعه. وهناك استطاع إقناع الإمبراطور باتخاذ بعض الإجراءات من أجل تأكيد إعادة قبوله في شراكة الكنيسة، واستغل قسطنطين دعوته لجميع أساقفة الشرق بالذهاب إلى بيت المقدس من أجل المشاركة في الاحتفال بتدشين كنيسة القيامة، وقام بإرسال خطاب إلى الأساقفة أعلن فيه أن آريوس ويوزيوس قد قدما وثيقة إيمان نُظر إليها على نطاق واسع على أنها أرثوذكسية، بل قام الإمبراطور بنفسه بإجراء مقابلة معهما من أجل اختبارهما ووجد أنهما ملتزمان بمبادئ المسيحية بصدق وإخلاص في تحقيق مصلحة الكنيسة ورخائها. وسوف يقرر الأساقفة الشرقيون تلك المسألة بأنفسهم عن طريق عقد مجلس كنسي في أورشليم قبل بدء مراسم الاحتفال.

كانت الرسالة صحية وكريمة، لكن مضمونها كان واضحًا. أثناسيوس والمعسكر المعادي للآريوسية خسر المعركة، وأراد الإمبراطور قسطنطين يحدوه الأمل أن يحتفل بالذكرى الثلاثين لاعتلائه العرش مع تحقيق الكنيسة لوحدها وإنهاء الخلافات بين الفرق المتصارعة. في شهر سبتمبر اجتمع الأساقفة في أورشليم، كانت أغلبية الحضور من الأساقفة الشرقيين من أتباع نظرية خضوع المسيح لله subordinationists بطريقة أو بأخرى. والذين قرأوا خطاب

الإمبراطور وسمعوا مباشرة من آريوس ويوزيوس ودرسوا عقيدة الإيمان التي أعلنوها، في النهاية أعلنوا قبول آريوس ويوزيوس مرة أخرى في شراكة الكنيسة بلا أي قيد أو شرط. كانت عقيدة آريوس تبدو وكأنها من أعمال الرسل على حد قولهم، وقبول الآريوسيين في شراكة الكنيسة سوف يضمن الوحدة المسيحية والسلام.

أسقف واحد فقط انشق عن الصف، فمارتيلليوس الأنقري المعروف بعذائه الشديد للآريوسية رفض أن يدخل في شراكة مع الهرطقة (على حد وصفه)، وأعطاه المجمع مهلة عدة شهور لتغيير موقفه، ولكنه نص أنه في حالة إصراره على موقفه برفض التواصل (الدخول في شراكة الكنيسة) مع الآريوسيين فإنه لن يكون بمقدوره الاستمرار في منصبه الأسقفي. بعد ذلك اشترك أساقفة المجمع في الاحتفالات الضخمة بتدشين كنيسة القيامة بمشاركة إخوانهم الآريوسيين.

أرسل قسطنطين رسالة إلى جميع الأساقفة (الحاضرين وغير الحاضرين لمجمع أورشليم) يخبرهم فيها بأن المجمع وجد أن آراء آريوس بعد دراستها أرثوذكسية، ويسألهم قبوله هو ورفاقه مرة أخرى في شراكة المسيحية، ربما شعر آريوس في تلك اللحظة أن كفاحه الطويل المضني قد كلل أخيرا بالنجاح. والآن قد حان الوقت للدخول مرة أخرى في مملكته.

وعند نهاية مراسيم الاحتفالات في أورشليم، شد رحاله إلى الإسكندرية (ولم لا وهو يحظى الآن بدعم الإمبراطور وأساقفة الشرق)، وفي الطريق قابل مجموعة من أتباعه المبتهجين بانتصاره. وقام بعض الآريوسيين بإرسال خطاب إلى بعض الأساقفة في الإسكندرية يسألونهم إعداد مراسم قبول آريوس ورفاقه مرة أخرى في الكنيسة، لكن أغلبية أساقفة الإسكندرية الذين مازالوا على ولائهم لأثناسيوس

لم يستجيبوا لتلك الطلبات. وكان ردهم أن استقبال أعداء المسيح بمثابة الأمر المستحيل، وحتى خطاب قسطنطين نفسه لن يحثهم على تغيير موقفهم هذا.

بعض أتباع آريوس ربما أرادوا نقل الصراع إلى الشارع. ولكن إما بسبب عدم اتفاق هذا السلوك مع مبادئهم أو لأن أعدادهم وقوتهم كانت ببساطة اقل من قوة الفريق الآخر، لذلك فإنهم عدلوا عن تلك الفكرة، وقرر قادة الآريوسية أن أفضل وسيلة هي العودة إلى القسطنطينية مرة أخرى، وبسط الموضوع أمام الإمبراطور. وعندما وصلوا إلى العاصمة، وجدوا أن الإمبراطور قد غادر المدينة، لشن حملة ضد السارماتيين Sarmatians^[1] علي امتداد نهر الدانوب، ووجد الآريوسيون أن المجتمع المسيحي بالعاصمة يشهد اضطراباً كبير، فصحة أسقف المدينة ألكسندريوس الطاعن في السن (حوالي سبعة وتسعين عامًا) في تدهور كبير، ولم يتأخر الصراع حول هذا المنصب الأسقفي الهام في الظهور وحتى دون انتظار موت الأسقف المريض^[2]. كان في مقدمة المتنافسين الأسقف بولس المعادي للآريوسية، والذي كان نائباً عن ألكسندريوس في مجمع صور والذي صوت ضد أثناسيوس لعدم موافقته على أساليبه وليس اعتراضاً على آرائه، إذ كان بولس من المؤيدين بحرارة لعقيدة نيقية، وفي

1- السارماتيين مجموعة من القبائل الإيرانية التي ازدهرت في الفترة بين القرنين الخامس قبل الميلاد و الرابع الميلادي، ترجع أصولهم إلى منطقة سهول الإستبس اليورسيه، وكانوا ينتشرون و يسيطرون على المناطق حول بحر قزوين - المترجم

2- There is some disagreement about the succession of bishops in Constantinople, but the best opinion is that Alexander died in 337 and was then replaced by Paul.

المقابل كان الآريوسيون يأملون في تحسين موقفهم عن طريق دفع مرشح من معسكرهم وهو شماس يدعى ماسيدونيوس، كانت المصادمات ومشاحنات الشوارع بين أنصار الفريقين المتصارعين هي سمة المدينة الرئيسية والحدث المتكرر يومياً. ولم تكن القسطنطينية وحدها التي تعاني من الفوضى، بل إن الوضع في مدينة أنقرة كان عاصفاً بدرجة أكبر من ذلك، فالأسقف مارتيلليوس أحد أشد أعداء الآريوسية ضراوة، لم يكتف فقط برفض الدخول في شراكة مع الآريوسيين ورفض قرارات مجمع صور وأورشليم، بل قام أيضاً بإرسال رسالة إلى قسطنطين يصف فيها (الآريوسيين) بالملحدين الهرطقة، كان مارتيلليوس شخصاً متهوراً لا يتمتع بالحنكة والدراية اللازمة، وكانت آراءه اللاهوتية تتجه نحو تعريف المسيح باعتباره الله، وبالتالي إنكار أي وجود منفصل للابن. بعد المجيء الثاني على حد قوله فإن مملكة المسيح سوف تأتي لنهايتها، وسيصبح المسيح والله شيئاً واحداً^[1]، بوضوح كانت مثل تلك الآراء تجعله عرضة للهجوم والاتهام بإتباع الهرطقة السابليانية، وبما أن مارتيلليوس كان يشغل منصب أسقف أنقرة منذ فترة طويلة فكان من الطبيعي العثور على الكثير من المزاعم بإساءته السلطة الممنوحة له. وقد اقترح يوسابيوس النيقوميدي عقد مجمع كنسي آخر يعقد هذه المرة في القسطنطينية عقب عودة قسطنطين إلى المدينة.

كان المجمع المزمع عقده يهدف إلى مناقشة اتهامات الهرطقة الموجهة إلى مارتيلليوس وبحث الوسائل الواجب اتخاذها من أجل ضمان عودة آريوس إلى موقعة الكنسي الصحيح بالإسكندرية. ولاحقاً

1- See the extensive discussion in Hanson, Search, 217- 235.

في الربيع فإن الإمبراطور أنهى حملته العسكرية الناجحة، وعاد مرة أخرى إلى قصره وعلى الفور أصدر قراره باستدعاء أساقفة الشرق من أجل عقد مجمع كنسي آخر.

قبل عقد من الزمان من هذا التاريخ، عندما اجتمع مجمع نيقية المسكوني الكبير، لم يكن قسطنطين يتخيل أن الأساقفة سيتجمعون بشكل سنوي لمناقشة الاتهامات الموجه لبعضهم بالسلوك الإجرامي أو الهرطقة. كانت قرارات المجمع تصدر غالبًا بقيام فريق الأساقفة الذي يسيطر على أعمال المجمع بإدانة رجال الكنيسة المنتمين للفريق المعارض، وأدت مثل تلك الحزبية وعدم الموضوعية في أعمال المجمع الكنسية إلى ادعاء الرجال الكنسيين المدانين بعدم شرعية تلك المجمع، ومن ثم يحاولون الدعوة إلى انعقاد مجمعات كنسية جديدة ربما تكون لهم فيها الغلبة لإصدار قرارات معاكسه. وربما كانت تلك المشكلة في حسابان الإمبراطور، وبشكل واضح، تصور أنه عقب إزاحة بعض مثيري المشاكل الجريئين والمتعصبين من أمثال أثناسيوس ومارتيلليوس من مناصبهم الكنسية، فإن رجال الكنيسة الذين يتمتعون بقدر من العقلانية سوف يكون بمقدورهم تعلم التعايش مع بعضهم البعض على الرغم من بعض الاختلافات في الآراء. لكنه في اعتقاده هذا كان يكرر نفس اعتقاده القديم الخاطئ في نيقية (بتصوره إمكانية تحقيق السلام عن طريق نفي قادة الآريوسية). كان افتراض قسطنطين قائماً على أن الاختلافات العقائدية بين المسيحيين ليس ذات أهمية، ولا تعكس اختلافًا في الطبقات الاجتماعية أو الثقافة أو القيم الأخلاقية في المجتمع المسيحي، ويمكن حلها بسهولة عن طريق العثور على

الكلمات الصحيحة^[1]، وبقدر عال من العقلانية، فإن قسطنطين رفض صياغة أي قرارات لاهوتية أو حتى تقرير مدى صلاحية بعض الأشخاص لشغل المناصب الكنسية العليا بنفسه. ومن ثم فإن الدعوة إلى مجامع كنسية كانت هي الطريقة المثلى لضمان أن السلطات الدينية هي التي سوف تقرر المسائل الدينية والأمور العقائدية، ولكن في الوقت ذاته فإن الإمبراطور لن يتخلى عن سلطته بصفته الحاكم الأعلى في إنزال العقاب ببعض رجال الدين (مثل إصدار قرارات النفي)، والأهم أنه لن يتخلى عن حقه في إصدار العفو، فلو لم تكن الانقسامات بين المسيحيين بعضهم البعض تحدث بمثل هذا العمق لربما كان من الممكن عليه أن يتخلى عن إصراره على لعب دور القاضي الأعلى الذي يفصل في القرارات الصادرة من الأساقفة ضد بعضهم البعض، فعن طريقه هو وحده يستطيع الأساقفة المدانون استئناف قرارات المجامع الصادرة ضدهم وادعاء البراءة والزعم بأنهم تعرضوا للظلم والإساءة. وهذا الوضع ناتج من عمق الانقسامات، وبالتالي كانت النتيجة أن قرارات تلك المجامع لم تكن أبداً نهائية، فالطرف الخاسر في تلك المجامع دائماً ما كان يلجأ إلى الإمبراطور بصفته الملاذ الأخير لاستئناف الحكم أو حتى انتظار موته (بما أن موت الإمبراطور كان يعنى فعليا انتهاء جميع العقوبات التي أصدرها هذا الإمبراطور). لهذا فإنه إلى أن يستطيع طرف أو آخر فرض آراءه بالقوة أو بالإقناع في الصراع ويحقق التجانس المنشود ويخلق الإجماع من جديد بين الأساقفة فإن حرب المجامع سوف تستمر لفترة ليست بالقصيرة.

1- أو كما وصفها قسطنطين في أول خطاب بعث به إلى آريوس والكسندريوس أسقف الإسكندرية في ذلك الوقت بأن خلافهما أمر تافه ولا يستحق عناء إثارة المشاكل من حوله (المترجم).

في صيف عام 336، اجتمع الأساقفة الشرقيون في القسطنطينية في حضور الإمبراطور، وكما كانت هي الحال في مجمعي: صور وأورشليم فقد حضر المجمع عدد من أساقفة الغرب، ومن ضمنهم فالنس من مورسا وأورساشيوس من سينجيديوم (بلجراد)، فالآريوسية كانت الآن في طريقها إلى الانتشار الواسع في البلقان، وقام الأساقفة بدراسة الخطاب المطول الذي قام مارتيلليوس بإرساله إلى قسطنطين، وتوصلوا إلى أن الأفكار التي وردت فيه ما هي إلا محض هرطقة. وعليه أصدر قسطنطين أمره بنفي مارتيلليوس إلى الغرب وأختار المجمع باسيلئوس الأسقف الآريوسي المعتدل خلفا له، وهو آريوسي معتدل كان مقدراً له أن يلعب دوراً حاسماً في الفترة القادمة. بعد ذلك وجه المجمع أنظاره إلى قضية آريوس ويوزيوس، وقرأ على المجمع وثيقة إيمان كتبها آريوس وقام الأساقفة بمناقشة تلك الوثيقة، واستجوب قسطنطين القس المثير للجدل بنفسه، وأعلن الأساقفة المشاركون أنهم يشعرون بالرضا عن عقيدة وشهادة آريوس وانتهوا إلى إصدار قرار بأن آراءه مقبولة وأصدر المجمع قراراً بإعادة قبوله مرة أخرى في الكنيسة.

كان مجمع القسطنطينية هو المجمع الرابع الذي ينعقد منذ عودة آريوس من المنفي ويعلن أن آراءه اللاهوتية أرثوذكسية، ولكن نظراً لإصرار قادة كنيسة الإسكندرية منذ وقت طويل على رفض تنفيذ تلك القرارات فإن يوسابيوس النيقوميدي قرر أن هذا الحشد يجب أن يتخذ المزيد من الإجراءات هذه المرة، فالمجمع يجب أن يحصل على ضمانات بإعادة قبول آريوس في شراكة كنيسة الإسكندرية وأن يعاد قبوله في شراكة الكنيسة في مراسم كنسية يشرف على تنفيذها أساقفة يحظون برضاء كل من الآريوسيين واللا-آريوسيين. كان المرشح الأمثل تلك المهمة هو ألكسندريوس أسقف القسطنطينية

الذي يحظى باحترام واسع من كلا المعسكرين، وبالتالي فإن قيمته ليست فقط لكونه محسوبًا على الفريق الداعم للعقيدة النيقية ولكن لكونه أيضًا أسقفًا لمدينة روما الجديدة (القسطنطينية) عاصمة الإمبراطورية المسيحية. وكان ترأس قامة مسيحية بمثل هذه المكانة لمراسم إعادة قبول آريوس في الشركة المسيحية أمرًا مهمًا للغاية، وسيجعل من الصعب على رجال الدين السكندريين الإصرار على رفض قبول آريوس في شراكة كنيسة الإسكندرية، ولو فعلوا هذا فإن قسطنطين سيكون له كل الحق في التنكيل بهم (فهم الآن يخالفون إجماع الأساقفة المشمول بتأييد الإمبراطور).

كان مكاريوس (مساعد أثناسيوس الرئيسي) برفقة ألكسندريوس عندما جاءت الأنباء بضرورة استقبال آريوس في كنيسة الرسل القديسين. ووفقًا لمكاريوس الذي جاء ذكر روايته تلك في وقت لاحق على لسان أثناسيوس - فإن الإنسان المسن ذرف الدموع عندما رأى الوثيقة، معلنًا أنه لن يتواصل أبدًا مع مبدع الهرطقة الأول^[1]. وعندما وصل يوسابيوس وآريوس وبعض الأساقفة المقربين من الآريوسية إلى كنيسة الرسل القديسين في صباح يوم الأحد، فإن ألكسندريوس رفض السماح لهم بالدخول، وقام يوسابيوس بتحذيره بأنه بفعله هذا يعيق إرادة الإمبراطور وإرادة المجمع الكنسي وأعطاه مهلة حتى المساء من أجل التفكير وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، وأعلن بوضوح أنه عند عودة المجموعة في الصباح فلا بد من السماح لهم بالدخول، ووفقًا لما ذكره مكاريوس فإن ألكسندريوس انسحب

1- Athanasius, "To Serapion, concerning the death of Arius," in Schaff and Wace, Athanasius: Select Works and Letters, 564- 565.

عندئذ إلى صومعته، حيث أخذ في البكاء والصلاة والتضرع إلى الله أن يجنبه خزي المشاركة في قداس للاحتفال بالمهرطق الأكبر. وبينما كان الأسقف العجوز منتظرًا استجابة الله لدعواته (إذا كان لأحد أن يصدق قصة مكاريوس) فإن يوسابيوس والآريوسيين اجتمعوا في المساء للتشاور عما سوف يفعلونه إزاء الأحداث المتوقعة في الغد، وعلى الأرجح فقد تباحثوا في الرد الذي يجب عليهم اتخاذه إذا استمر الأسقف ألكسندريوس في الإصرار على غلق أبواب الكنيسة في وجوههم. هل يجب عليهم في هذه الحالة سؤال قسطنطين بأن يرسل جنودًا من أجل إجبار الأسقف على فتح أبواب الكنيسة؟ ولكن إذا قام بهذا، أليس هذا الإجراء من شأنه إفساد الغرض من الأمر برمته؟ وفجأة، وكما وصفه أثناسيوس في وقت لاحق "فإن شيئًا رائعًا ومذهلاً حدث في ظروف استثنائية"^[1].

فوفقا لرواية أثناسيوس للأحداث، بينما كان آريوس يتحدث بمنتهى الحيوية، شعر فجأة بالآلام مبرحة في المعدة وحاجة ملحة للذهاب إلى الحمام: ومن ثم انسحب إلى المرحاض من أجل إراحة نفسه، وجلس، ولكن نوبة مبرحة من الألم داهمته وأصبح الألم غير محتمل، وعندما استوحش رفاقه تغيبه، وذهبوا لتفقدته عقب تأخره الطويل وجدوه ممدًا على أرضية الحمام بجانب المرحاض. لم يكن هناك حاجة لاستدعاء الطبيب لكي يتأكدوا أن رفيقهم قد مات.

عندما أعاد أثناسيوس، رواية القصة، لم يستطيع منع نفسه من التعبير عن شعوره بالارتياح. فمع أنه لن يبدى ابتهاجه بالموت على حد قوله، إلا أنه يؤكد على أن الرب نفسه هو الذي أجاب على

صلوات الأسقف ألكسندريوس ووصم الهرطقة الآريوسية، مظهرًا أنهم لا يستحقون الدخول في شراكة مع الكنيسة. واللغة التي استخدمها لوصف الطريقة التي مات بها آريوس يمكن أن تخبرنا الكثير عن مشاعره حيال موت القس:

”انسحب آريوس مدفوعًا بحاجات الطبيعية، وفجأة، وكما في لغة الكتاب المقدس: ”سقط على قمة رأسه، وعلى الفور صعدت روحه عند سقوطه إلى بارئها، وبذلك جرد من الدخول في شراكه المسيحية ومن حياته معًا“^[1]

كانت آية الكتاب المقدس التي استشهد بها أثناسيوس هي من سفر أعمال الرسل التي تقول ”الآن فإن هذا الإنسان اشترى حقلاً في مقابل إثمه وخبثه، وسقط على قمة رأسه، متمزقا إربا في المنتصف، وبرزت جميع أمعاؤه إلى الخارج ” كان الإنسان المشار إليه في هذه الآية هو بالتأكيد يهوذا الإسخريوطي Judas Iscariot. وقد اعتقد أثناسيوس بشكل واضح أن هذا الوصف يلائم آريوس تمامًا، فهو يجب أن يلقي نفس مصير يهوذا خائن المسيح. واستمر أثناسيوس في القول بشكل مثير ”وكانت هذه هي نهاية آريوس، ويوسابيوس ورفاقهم، مقهورين بالخزي والعار، وقاموا بدفن شريكهم في الجريمة، بينما ألكسندريوس المبارك وسط حالة البهجة السائدة في الكنيسة، احتفل بالشراكة مع الأتقياء والمؤمنين“^[2].

”مقهورين بالخزي“ تعبير فيه مغالاة على الأرجح أو ربما يكون مجرد اختلاق، وعلى جانب آخر فإن الخرافات في العصور الرومانية

1- Ibid

2- Ibid

المتأخرة كانت بدرجة ما تسيطر على العقول أكثر مما عليه الحال الآن. فالكثيرون من الأشخاص كانوا يعتقدون أن طريقة موت الشخص تعبر عن مسلكه في الحياة، والموت عن طريق الإسهال ربما يكون مخزياً حتى دون أن يأتي التشابه بين الطريقة التي مات بها يهوذا وبين موت آريوس إلى عقولنا. ثم إن مصادفة موت آريوس في الليلة التي تسبق اليوم المفترض إعادة قبوله في الكنيسة (قبل ساعات فقط من مراسم إعادته إلى شراكة الكنيسة)..... على الأرجح فإن رفقاء آريوس لم يكونوا يشعرون بالخزي والعار (كما صورهم أثناسيوس) ولكن في الوقت ذاته لم يكونوا بالتأكيد سعداء بتوقيت وطريقة موت رفيقهم^[1]. وفي الحقيقة لم يكن من قبيل المفاجأة أن يعتقد البعض أن تلك الحادثة لم تكن من قبيل المصادفة على الإطلاق، ولكنها من فعل الإنسان الظالم أكثر من كونها من فعل الله العادل. فآريوس الذي كان في ذلك الوقت رجلاً عجوزاً في السبعينيات من العمر، لم يكن بالتأكيد أول إنسان في مثل عمره الذي يلقي حتفه من مرض معوي، أو ربما مات من جراء أزمة قلبية حدثت نتيجة مزيج من المرض والإثارة الناشئة من جراء انتظاره لأهم يوم في حياته. ومع هذا، فإن السم كان الخيار المفضل كأداة للقتل لدى كثير من الرومان المتأمرين، ومن وجهة نظر أعداء آريوس فإنه من

1- Barnes, Constantine and Eusebius, 137, puts this very strongly, stating that Arius's death was "by the standards of the age, damning," and that afterward not even those sympathetic to his views would defend him. This may be somewhat overstated; there were other reasons, discussed in the text, for the Arians to avoid identifying themselves as such and defending Arius by name.

الصعب على المرء أن يتخيل لحظة أكثر إلحاحًا لقتل (خصمهم) من عشية ليلة الانتصار العظيم للمهرطق الأكبر، وتزايدت الهمسات حول التسمم الذي تعرض له آريوس وأدت إلى موته^[1]، وهو الأمر الذي ذكرته بعض المصادر التي تناولت حادث موت آريوس^[2]. 136. على الرغم من أن الدليل الوحيد على جريمة القتل تلك هو توقيت الموت والطريقة الغريبة التي مات بها آريوس^[3].

على الرغم من المزايا الدعائية المباشرة التي وفرها هذا الحدث لأتباع أثناسيوس، فإن موت آريوس في الواقع لم يكن له تأثير كبير على مجرى الأحداث التالية في الخلاف الآريوسي. ويذكر أحد المعلقين أن هذا يرجع إلى أن آريوس حتى قبل موته توقف عن التأثير في المسألة برمتها، فكلًا الجانبين استبعدوه من الخلاف منذ زمن طويل، وكما أدرك آريوس نفسه بتألم شديد أنه أصبح كما مهملاً^[4]. ولكن قد يبدو هذا الأمر شاذًا وغريبًا، فإذا كان آريوس كما مهملاً، فللمرء

1- موت آريوس بهذه الطريقة الغامضة يثير الكثير من الشبهات على احتمالية تعرضه للتسمم، فالموت بهذه الطريقة بالشعور بالآلام الحادة في المعدة أو مغص يعنى إما التعرض لإصابة بإحدى الكائنات الممرضة الطفيلية أو التسمم، وعلى حد علمي لا يوجد أي نوع من الكائنات الممرضة التي يمكن أن تسبب الآلام في الأمعاء أو المعدة يمكن أن تقتل إنسانا بهذه السرعة في غضون ساعات قليلة كما حدث مع آريوس، و لذلك يبقى الاحتمال الأرجح وهو تعرض آريوس للتسمم، وإلى هذا الرأي يذهب الدكتور رأفت عبد الحميد، حيث يشير لجريمة القتل في بحث بديع منشور في مجلة كلية الآداب - جامعة المنصورة العدد التاسع عشر أغسطس 1996 بعنوان "اغتيال آريوس" و فيه يتقمص الدكتور رأفت عبد الحميد دور المحقق الجنائي ليسوق الأدلة التي تثير حالة من الشكوك حول تعرض للاغتيال، - (المترجم).

2- For example, Frend, Rise of Christianity, 528.

3- يشير المؤرخ ادوارد جيبون في كتابة اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها إلى أن آريوس مات مسمومًا (المترجم)

4- Chadwick, The Early Church, 136.

حينئذ أن يتساءل بتعجب لماذا قطع الإمبراطور وأربعة مجالس كنسية كل هذا الشوط من أجل ضمان الاعتراف بشرعية أفكاره اللاهوتية المسيحية وإقرارها؟^[1]

الأمر الذي لا لبس فيه، أن الدور الذي لعبه آريوس نفسه كأحد قادة الحركة (الآريوسية) كان وللعجب الشديد محدوداً للغاية منذ البداية، ويرجع هذا جزئياً إلى الحقيقة التي مؤداها أن آريوس كان مجرد قس وليس من أرباب الكنيسة (الأساقفة). وبعد رجوعه من المنفى فإن يوسابيوس النيقوميدي والقيساري كليهما هيمنا بشكل واضح على الحركة التي أصبحت الآن يطلق عليها اليوسابية أكثر من الآريوسية، وبغض النظر على المقدار الذي كانوا يدينون فيه لآريوس من الناحية الأيديولوجية أو إعجابهم بهم على المستوى الشخصي، إلا أن هؤلاء الأساقفة المتعاطفين مع الآريوسية كانوا بعيدين جداً عن اعتباره حتى مجرد ند لهم!

”لم نكن أبداً أتباعاً لآريوس (إذ كيف يمكن لنا نحن الأساقفة) أن تكون أتباعاً لكاهن؟ ولم نقبل أي شكل من أشكال الإيمان غير هذا الذي تقرر منذ البداية، ولكننا في الحقيقة اقتربنا منه بصفتنا محققين وقضاة أكثر من كوننا أتباعاً له“^[2].

كانت تلك هي كلمات الأساقفة خلال ما اصطلح أن يطلق عليه اسم مجمع التكريس في أنطاكية في عام 341م، الذي انعقد عقب قيام أسقف روما بانتقاد رجال الكنائس الشرقية لإتباعهم أفكار مجرد قس

1- There is no evidence of which I am aware that Arius was “painfully” aware of any such negligibility.

2- Document quoted by Athanasius and translated by Harlson in Search, 285.

هرطيق. وقام أساقفة الشرق في هذا المجمع بشرح المسافة البعيدة التي تفصل الأساقفة عن القساوسة والكهنة الصغار، ولكنهم قاموا أيضًا بتوضيح كيف أن الأفكار الآريوسية أصبحت محافظة ومتماشية مع الدين المسيحي والقواعد التي أقرها مجمع نيقية وذلك عقب الحملة التي قام بها الآريوسيون من أجل استعادة ثقة قسطنطين مرة أخرى وإعادة قبول الآريوسيين في الشراكة مع الكنيسة.

آريوس لم يفقد أهميته الأيدولوجية، ولكن أفكاره مع مرور الوقت – كما عبر عنها الأساقفة – فقدت جانبها المتطرف والخطر وأصبحت أفكارهم أكثر اعتدالاً، فأتباع مذهب التبعية وخضوع المسيح لله أصبحوا الآن أقرب إلى المنتصف من خلال محاولتهم التأكيد للإمبراطور والكنيسة بأن المسيح ربما لم يكن مماثلاً بشكل تام لله ولكنه كان أقرب إليه من باقي البشر بكثير، وحتى قبل موته فإن آريوس نفسه وعلى الأرجح بناء على إلحاح من يوسابيوس عدل الكثير من أفكاره و آرائه لتصبح أقل صراحة وأكثر غموضاً، وبالتالي تسمح بمرونة أكبر للجميع لتفسير تلك الآراء كما يتراءى لهم، وخاصة معتقداته التي تشدد على أن انتماء المسيح الحقيقي هو مع البشرية (التأكيد على ناسوت المسيح). وعلى سبيل المثال، فإن الأفكار التي نادي بها آريوس في السابق مثل افتراض أن المسيح قد خلق من العدم أو أنه لم يعرف الآب أو أنه كان قابلاً للإغواء وللخطيئة أصبحت الآن تتوارى إلى الوراء في الفكر الآريوسي. وبدلاً من تلك الأفكار المتطرفة، فإن الأفكار الآريوسية أصبحت تركز الآن منذ بداية مجمع أنطاكية في عام 328 على قرب وتشابه وجود المسيح مع وجود الله، وعلى نحو متكرر يشبه الترتيل في الجنازات الشعائرية فإن الآريوسيين أخذوا الآن في ترديد عبارات كما لو كانوا يرتلون بها بأن المسيح هو كلمة الله، المولود

قبل الدهور، المخلوق الفريد الذي ليس كمثله شيء، وأنه وجود إلهي بالكامل. فالعقيدة الآريوسية أصبحت تركز الآن على أفكار يشوبها قدر من الغموض حول انتماء المسيح وطبيعية وجوده.

باختصار، كانت استراتيجية الآريوسية المعتدلة قائمة على التأكيد على التشابه بين المسيح والله وليس التماثل بين المسيح والله، ولمدة عقدين من الزمان كانت تلك هي الفكرة السائدة. وبحلول عقد الخمسينات من القرن الرابع الميلادي (350م) نجحت في نيل تأييد الغالبية العظمى من الأساقفة ودعمهم، وكانت قريبة للغاية من أن تصبح هي العقيدة المسيحية الرئيسية، ومع أن الخلاف كان أبعد ما يكون عن الانتهاء، إلا أنه مع انتهاج الآريوسية طريقاً وسطاً فإنها أصبحت بذلك عرضة لإمكانية الهجوم غير المتوقع عليها من اليمين ومن اليسار، وفي الوقت ذاته استطاع الجيل الجديد من المفكرين الآريوسيين إحياء أفكار مؤسس الآريوسية الأول وأكثرها جرأة، ثم تطوير تلك الأفكار شاقين الحركة الآريوسية بذلك إلى جناحين: متطرف ومعتدل، وسوف يحاول أثاناسيوس عقد تحالف بين هذا الجناح المعتدل وبين أنصاره تحت شعار أنصار العقيدة اللاهوتية النيقية. وخلال الأربعين سنة التي تلت موت آريوس فإن الخلاف الذي يحمل اسمه (الآريوسي) سوف يزداد اشتعالاً بواسطة العديد من التدخلات والتفاعلات بين الكنيسة والدولة ليستمر شوكة في حلق للعالم الروماني.

شهدت القسطنطينية حادث موت ثانيا كانت له آثار وتوابع أكبر بكثير من توابع موت آريوس، وأدى إلى حدوث معارك ضارية بين الآريوسيين وأتباع أثاناسيوس بطريقة لم تشهدها المدينة من قبل، هذه المعارك لم تحدث فقط في شوارع المدن، ولكن أيضاً في العديد من الكنائس في مدن الشرق الكبرى.

كان الموت الذي أدي إلى تلك الأحداث هو موت قسطنطين نفسه. فالإمبراطور سقط صريع المرض في عام 337م، مباشرة بعد عيد الفصح. وذهب أولاً لكي يتعافى في منتجع صحي، ثم قام بعد ذلك بزيارة ضريح القديس لوقيانوس الأنطاكي بالقرب من هيلينابولس Helenopolis [1] المدينة التي أعاد تسميتها على اسم والدته الراحلة تكريماً لذكراها، لكن لا المياه العلاجية ولا الصلوات كان لها التأثير المرجو، وفي شهر مايو رجع مرة أخرى إلى نيقوميديا عاصمته القديمة، لكنه عاد هذا المرة إنساناً محطماً طاعناً في السن، وطلب من الأسقف يوسابيوس أن يقوم بتعميده، ومثل العديد من الشخصيات الهامة، فإن قسطنطين لم يرد أن يصبح مسيحياً بالكامل بينما يواجه احتمال ارتكاب الخطيئة بحكم منصبه وما يتطلبه من أفعال ليست بالضرورة أن توصف بأنها أفعال حميدة، ولذلك أصر التعميد إلى آخر حياته، وها هو الآن يشعر أن هذه هي اللحظة المناسبة لكي يرتدي الرداء الأبيض للرجال المتنصرين. وبينما كان قسطنطين ممداً على فراش الموت، كان رداؤه الأرجواني الإمبراطوري قد أخذ منه، في دلالة على انتهاء عصره وغيابه عن العالم المادي. ومباشرة قبل موته حضر إليه يوسابيوس (النيقوميدي) واستمع إلى اعترافاته وقام بأداء الشعائر اللازمة، وأتى قادة الجيش لإظهار الاحترام الواجب له، وعندما تمّنوا له عمراً مديداً ذكرهم بأن أمر الله قد نفذ. وصعدت روح قسطنطين إلى بارئها في الثاني والعشرين من مايو 337 في عشية الاحتفال بعيد العنصرة [2] بعد حكم استمر لواحد وثلاثين

1- هولونوبولس (بثانيا) في آسيا الصغرى، تركيا الحديثة (المترجم).

2- عيد العنصرة عيد مسيحي يحتفل فيه بحلول الروح القدس على تلاميذ السيد المسيح بعد صعود السيد المسيح بعشرة أيام حسب رواية أعمال الرسل، ويشير الاسم إلى الخمسين يوماً التي مرت بين عيد القيامة إلى عيد العنصرة - (المترجم).

عاما، منها ثلاثة عشر عاما كحاكم وحيد للإمبراطورية. وحمل جثمان الإمبراطور ممدا داخل تابوت ذهبي في موكب يترأسه قسطنطيوس Constantius (ابن الإمبراطور الراحل) متجها إلى القسطنطينية حيث دفن بالقرب من كنيسة الرسل المقدسين.

على أية حال، كان متعذراً على الإمبراطورية الرومانية أن تحافظ على وحدتها عقب وفاة الإمبراطور العظيم. فقد خلف قسطنطين ثلاثة من أبنائه، وكان كل منهم بمثابة قيصر يحكم ثلث الإمبراطورية، أكبرهم هو قسطنطين الثاني Constantine II الذي كان يحكم فرنسا وبريطانيا وأسبانيا من عاصمته في مدينة ترير. أما قنسطانز Constans، وهو الأصغر من أبنائه فقد آل إليه حكم إيطاليا واتخذ من ميلانو مقراً ومستقراً له، بينما آل إلى الابن الأوسط قسطنطيوس Constantius حكم النصف الشرقي من الإمبراطورية واتخذ من مدينة أنطاكية مركزاً لقيادته. كان هناك أيضاً هناك العديد من المطالبين بالعرش أغلبهم كانوا من أقرباء قسطنطين من خلال زواجه الثاني، وأحد هؤلاء المطالبين كان ابناً للمسؤول الذي تولى التحقيق في اتهامات القتل التي وجهت إلى أثناسيوس في الماضي والذي كان يحكم البلقان بصفته قيصراً. وفي غضون أشهر قليلة فإن أغلبية هؤلاء المطالبين بالعرش سيكونون أمواتاً.

فرحيل قسطنطين أعقبته حمائم دماء بين أقربائه (المتنافسين على الحكم)، فعمليات القتل التي تحدث أثناء التنافس على السلطة في أعقاب رحيل الحاكم كانت أمراً معتاداً في ذلك العصر، وعلى الأرجح فإن أوامر القتل تلك صدرت من قسطنطيوس الحاكم الشرقي للإمبراطورية، ويحتمل أيضاً أن الجيش (الذي أعلن في شهر سبتمبر ترقية أبناء قسطنطين من مرتبة القصير إلى رتبة أغسطس) كان له يد في حوادث القتل تلك. وبغض النظر عن المسؤول عن أعمال القتل، فإن النتيجة كانت مذبحة

مروعة راح ضحيتها أكثر من عشرين من النبلاء من ضمنهم جميع المطالبين بالعرش باستثناء أبناء قسطنطين الثلاثة وأبناء إخوة قسطنطين الصغار جالوس Gallus، وجوليان Julian (الإمبراطور المستقبلي جوليان الذي سيشتهر في التاريخ لمحاولته إحياء الديانة الوثنية وإعادة عبادة الآلهة القديمة للإمبراطورية). ولاحقاً فإن الإخوة الثلاثة (أبناء قسطنطين) التقوا في مدينة بانونيا Pannonia وقاموا بإعادة تقسيم الإمبراطورية مع زيادة الأقاليم التي يسيطر عليها قنسطانز وقسطنطيوس، ولكن لن يمض وقت طويل حتى يدخل الشك والريبة في علاقاتهم بين بعضهم البعض، وسرعان ما سوف تندلع أعمال العنف وينشب القتال بين الأخوة الأعداء. في عام 340 م، قام قسطنطين الثاني بتهور بغزو أقاليم أخيه قنسطانز، ولكنه سرعان ما تعرض للهزيمة، وقتل في المعركة. هذا النصر أعطى الفرصة للأخ الأصغر قنسطانز للسيطرة على كافة الغرب. وبعد عشر سنوات لاحقة شهدت أراضيه تمرداً جديداً، هذه المرة تحت قيادة قائد من بلاد الغال يدعى ماجننتيوس Magnentius، استطاع أسر قنسطانز وإعدامه أثناء محاولته الهرب. في عام 353 وبعد اندلاع الحرب بين ماجننتيوس وقسطنطيوس التي استطاع فيها الأخير هزيمة ماجننتيوس^[1] وتدمير جيشه وبذلك أصبح قسطنطيوس هو الابن الوحيد الباقي من أبناء قسطنطين العظيم وقد استطاع إعادة توحيد المملكة بأكملها تحت حكمه.

كانت هذه الأحداث الدموية لها تأثير كبير على الخلاف الآريوسي، لأن يوسابيوس النيقوميدي كان مقرباً من قسطنطيوس، الذي قريبا

1- على الرغم من عدم مقتل ماجننتيوس في المعركة، إلا أنه قام بالانتحار بعدما تبين من هزيمته (المترجم)

سيصبح أسقفًا لمدينة القسطنطينية، ولأن قسطنطيوس كان متعاطفًا مع وجهة النظر الخضوعية (الابن أدنى مكانة من الآب وخاضع له) التي كان يدين بها أغلب أساقفة الشرق، الأكثر من هذا أن أثناسيوس وبينما كان في منفاه بالغرب، فإنه كان على اتصال قوى مع بعض أعداء لقسطنطيوس والمنافسين له.

ربما كان أثناسيوس والإمبراطور على عدااء مع بعضهما البعض لأسباب عقائدية في جميع القضايا، لكن تورط الكنيسة في الشئون التي قسمت الدولة بعنف والعكس (تورط الدولة في شئون الكنيسة) أعطى الخلاف الديني البعد المميت الذي تم تجنبه في السابق.

بدأ التصاعد في وتيرة النزاع بين الأخوة الثلاثة مباشرة بعد موت قسطنطين، عندما صدر قرار من الأباطرة الثلاثة بالسماح لكافة الأساقفة المنفيين بالعودة إلى أسقفياتهم. وكانت تلك القرارات متماشية مع الأعراف السائدة في الإمبراطورية بالسماح بعودة كل المنفيين بعد موت الإمبراطور الجالس على العرش الذي أصدر قرارات النفي تلك. وعلى الرغم من توقيع قسطنطيوس على مثل هذا القرار، لكن مع وجود الكثير القضايا السياسية والعسكرية الثقيلة التي كانت تشغل باله فإنه على الأرجح لم يكن يدرك الأبعاد الحقيقية للسماح للأساقفة المنفيين والصادرة بحقهم قرارات إدانة من مجامع كنسية بالعودة إلى مدنهم التي أصبحت الآن تحت سيطرة أعدائهم ومخالفهم من الناحية العقائدية (بالإضافة إلى أن سكان تلك المدن المشبوبين بالعاطفة والحماس الديني الشديد كانوا منقسمين أيضًا بشدة حول تلك الخلافات اللاهوتية). ربما كان قسطنطين الثاني في الغرب مدرّكًا

بشكل أكبر للعواقب الخطيرة لمثل هذا القرار من أخويه^[1]، وتمهيداً لعودة أثناسيوس إلى الإسكندرية فإنه قام بإرسال خطاب إلى الكنيسة، (على الأرجح قام الأسقف بكتابته بنفسه وفيه يحض فيه المؤمنين المخلصين على الترحيب بعودة الرجل العظيم مرة أخرى).

لم يرجع أثناسيوس مباشرة إلى الإسكندرية، ولكنه قام بما يرقى إلى مستوى الجولة السياسية لأقاليم الدانوب: آسيا الصغرى، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، قبل العودة إلى مدينة الإسكندرية، وفي كل مكان زاره قام بحشد الأنصار ضد الآريوسية، وكذلك بمساعدة المنفيين العائدين لمدنهم وأبرشياتهم من أجل تثبيت أقدامهم واستعادة نفوذهم مرة أخرى، وإعادة تنظيم المعارضة ضد الأساقفة المهرطقين، كما أنه انخرط بشكل نشط وفعال في الخلافات المحلية. وكان العنف يصاحبه في جولاته تلك ككلب وفي يترحل حيثما توجه صاحبه، ومما زاد من العنف أن كلا جانبي الصراع كانا يحظيان الآن بدعم شعبي، وكانوا جاهزين تماماً لاستخدام الغوغاء الغاضبين من أجل طرد رجال الكهنوت الذين لا يحظون باحترامهم أو للدفاع عن الشاغلين للمناصب الكهنوتية من فريقهم. كانت النتيجة لهذا العنف المتصاعد هو ما يشبه الحرب الأهلية في العديد من المدن الرئيسية في الإمبراطورية.

في القسطنطينية التي شهدت مؤخراً وفاة الأسقف ألكسندريوس، تدخل أثناسيوس بجانب الأسقف بولس المعروف بعدائه للآريوسية من أجل دعم حظوظه لتبوء منصب أسقفية المدينة ضد الشماس ماكدينوس (المتعاطف مع الآريوسية). كان الرأي العام في المدينة

1- Barnes, Athanasius and Constantius, 34, gives Constantine II "the initiative" in issuing the decree.

منقسما بشكل حاد وعميق. ووسط جو مشحوناً تم تنصيب بولس كأسقف عام بواسطة عدد لا يتجاوز أصبع اليد من زملائه الأساقفة المتعاطفين معه (على الأرجح من ضمنهم أثناسيوس نفسه).

كان الجو السائد في مدينة القسطنطينية ينذر بالعنف الصاخب، وعندما عاد قسطنطيوس إلى المدينة بعد وقت قليل، قام بإبطال ترسيم بولس كأسقف، بل إنه قام بنفيه وأصدر قراره بتعين يوسابيوس النيقوميدي كأسقف جديد للعاصمة الإمبراطورية. وجرت أحداث مشابهة في أنقرة، حيث تمكن مارتيلليوس المدعوم من الغوغاء من طرد باسيليوسليوس والسيطرة على الأبرشية هناك، كما شهدت مدينة غزة وأماكن أخرى أحداثاً مماثلة.

وفي غضون ذلك عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية، ووفقاً لكلام أعدائه "فإنه استعاد السيطرة على الكنائس بواسطة القوة والقتل والحرب"^[1].

بعد ذلك التاريخ بعدة شهور، انعقد مجمع ضخم من الأساقفة في أنطاكية وأعلن أنه بالإضافة إلى الاتهامات القديمة التي ثبتت صحتها ضد أثناسيوس في مجمع صور، ثبت قيامه بارتكاب العديد من الأعمال الوحشية الأخرى، ففي أعقاب عودته إلى الإسكندرية ألقى القبض على خصومه وقام بتسليمهم إلى حاكم المدينة ثيودورس من أجل سجنهم أو حتى إعدامهم، وقام بتمويل حملة العنف تلك من خلال الاستخدام السيئ لأموال الأعمال الخيرية والإحسان.

أصدر المجمع قراره بعزل أثناسيوس من منصبه، وعلى الفور قام الإمبراطور قسطنطيوس بتأييد قرار العزل هذا. وكان رد أثناسيوس

1- This statement by the bishops at the Council of Serdica (343) is translated by Barnes in Athanasius and Constantius, 35.

على هذا القرار هو عقد اجتماع لحوالي ثمانين من الأساقفة المصريين في أوائل عام 338، حيث براءوه من جميع الاتهامات الموجهة إليه، ومن ثم اتهم خصومه بالهرطقة، ووصف تصرفاتهم بأنها مؤامرة مبعثها كراهية المسيح، وحث الراهب الشهير أنطونيوس على القدوم من الصحراء من أجل الشهادة بأن أثناسيوس هو إنسان الله بينما الآريوسية هي هرطقة شيطانية.

لم تساعد تلك الإجراءات أثناسيوس كثيراً، فعندما اجتمع قادة الكنائس الشرقية مرة أخرى في أنطاكية في شتاء 338 - 339 في حضور الإمبراطور قسطنطيوس أصدروا قرارا بإدانة العنف والأذى الذي يمارسه أثناسيوس، وتجديد قرار الإدانة الذي أصدره مجمع صور في السابق وأصدروا مرة أخرى قرارا بعزله من منصبه. وقاموا باختيار جورج الأسقف ذي السمعة الطيبة من كبادوكيا، ولكن هذه المرة فإن قراراتهم سيتم تنفيذها بالقوة، حيث قرر قسطنطيوس الاستجابة للالتماس المقدم إليه من خصوم أثناسيوس المصريين بتعين فلاجريوس Philagrius عدو أثناسيوس القديم كوال جديد لمصر بدلا من ثيودورس والى مصر المناصر لأثناسيوس. وقبل أن يفض المجمع جلساته أصدر قرارات بعزل مارتيلليوس أسقف أنقرة وإرساله إلى المنفي وإعادة الأسقف باسيليوس مرة أخرى إلى عرش الأسقفية.

وفي 16 مارس من عام 339 تحرك فلاجريوس بصحبة الجنود من أجل إلقاء القبض على أثناسيوس في كنيسة إيوناس The church of Theonas التي اتخذها مقر إقامة له. لكن أثناسيوس استطاع الفرار بعد تلقيه تحذيرا من أعوانه باعتزام فلاجريوس إلقاء القبض عليه، ثم اندلعت أعمال للعنف والشغب (مشابهة لتلك التي صاحبت عودته إلى المدينة) عقب انتشار أنباء محاولة القبض عليه،

وتصاعدت أعمال العنف عندما قام فلاجوريوس بمصاحبة الأسقف الجديد جورج إلى المدينة في الثاني والعشرين من أبريل. وتم إحراق كنيسة ديونسيوس، كما تعرض عدد من الأشخاص من كلا الجانبين للإصابة أو القتل، واندلعت أعمال العنف في يوم أحد الفصح في كنيسة كورينيوس^[1]. وبعد عدة أسابيع تم قمع الغوغاء المؤيدين لأثناسيوس، وأصبحت كل كنائس الإسكندرية تحت سيطرة جورج الكبادوكي على الأقل في الوقت الراهن. عند هذه النقطة لو كان قسطنطيوس استطاع القبض على أثناسيوس فإنه كان سيقوم على الأرجح بإعدامه لاتهامه بارتكاب جرائم كبرى، ولكن أثناسيوس بحلول ذلك الوقت كان قد استطاع الفرار من المدينة في السادس عشر من إبريل. مستخدماً قارباً، وتوجه إلى روما.

ماذا حدث فعلاً في الإسكندرية خلال ذلك الشهر العاصف؟ كان عنوان رسالة عامة قام أثناسيوس بنشرها على أهل الإسكندرية، وصف فيها العنف ضد أتباعه بأنه عنف من جانب واحد فقط عديم الجدارة، ومرعب بدرجة فوق الاحتمال، ووجه اتهامات إلى جورج الكبادوكي بأنه إنسان مجنون وأداة للآريوسيين، وأنه قام بحض الوثنيين و اليهود والأشخاص المختلين على مهاجمة المؤمنين المخلصين وإشعال النيران في الكنائس، وجلد العذارى المقدسات (الراهبات) واغتصابهن، وقتل الرهبان، وتدنيس الأماكن المقدسة، ونهب خزائن الكنائس وثوراتها^[2]. وقام برسم صورة عن الأحداث من أجل إثارة غضب ورعب المطلعين عليها: حيث صور اليهود على سبيل المثال

1- Ibid., 49.

2- Athanasius, "Circular Letter," in Schaff and Wace, Athanasius: Select Works and Letters, 94.

يتراقصون فرحا عراة في مياه التعميد بالكنائس. وبالتأكيد لم يذكر (أثناسيوس) أي شيء عن العنف الذي قام به أتباعه لمعارضة جورج الكبادوكي ومقاومة تنصيبه أسقفًا جديدًا للإسكندرية. فالحقيقة الجلية أنه في الإسكندرية كما هو الحال في العديد من المدن الأخرى كان من الممكن تحريض مليشيات الغوغاء المنتمية لكلا الطرفين، وكان أمرًا معتادًا ومتكررًا لطرفي النزاع (الخلافاً الآريوسي) أن يلجئوا إلى استخدام تلك المليشيات المسلحة لحسم الخلافات اللاهوتية في السنوات العصيبة التي أعقبت وفاة قسطنطين. ولكن كان من المستبعد بنسبة كبيرة قيام أي طرف بتشجيع الوثنيين أو اليهود على القيام بأعمال عنف بشكل منهجي ضد الفريق الآخر. فعلى الرغم من أن الفوضى العارمة في المدينة كانت دائماً تغرى الناس باللجوء إلى الحجج الجاهزة وإلقاء اللوم على اليهود والوثنيين. ولكن من الصعب على المرء أن يتخيل أثناسيوس وهو يعلم بنبأ قدوم الأسقف جورج ليحل محله في منصب أسقف المدينة دون أن يدعو أنصاره لكي يهبوا لنصرة الكنيسة المقدسة ضد الآريوسيين المختلين كما وصفتهم رسالة الأسقف بوضوح، وفي المقابل فإن جورج الكبادوكي لم يكن يعتمد فقط على الجنود من أجل ضمان اعتلائه كرسي الأسقفية ولكنه كان في الوقت ذاته يحظى بدعم من بعض الغوغاء العنيفين. كان أثناسيوس يحظى بشعبية دائماً، وله أتباع كثر في الإسكندرية، ولكن آريوس (الذي عاش فترة طويلة في الإسكندرية) كان له أيضاً نصيب وافر من المؤيدين السكندريين، ومن ناحية أخرى فإن عدداً ضخماً من الميليتيين والكولوثيانين Colluthians والعديد من الخصوم الآخرين كانوا يكونون قدراً كبيراً من الكراهية لأثناسيوس. وبتنحية اللاهوت جانباً فإن الأساقفة الكبار باعتبارهم أشخاصاً

مرموقين في سلم الإدارة الإمبراطورية كانوا بمثابة عمود الصواعق لامتصاص غضب واستياء الكثير من المواطنين الرومان للتعبير عن شكواهم المتزايدة في ذلك العصر وصب جام غضبهم على تلك الطبقة^[1]. وقد كانت الاتهامات التي تم توجيهها إلى أثناسيوس بإساءة استغلال الأموال التي دفعت له من الإمبراطورية من أجل أعمال البر والإحسان واستخدامها بدلاً من ذلك في تنفيذ حملات العنف ربما تعكس حالة البؤس والفقر المتزايد بين أشخاص طبقة المجتمع التي كانت تعتمد بشكل رئيس على مثل هذا الدعم المالي والإحسانات. ولذلك لم يكن صعباً بعد كل هذه المعاناة على الآريوسيين والميليتيين أو حتى فقراء المدينة بأن يرحبوا بأسقف أجنبي باعتباره محرراً. وقد أظهرت أعمال العنف والشغب في الإسكندرية والأماكن الأخرى بوضوح أنه ليس بالضرورة أن يعبر الأساقفة عن مواقف وآراء الناس الحقيقية. وأن الدعم الذي يحظى به أثناسيوس بين الأساقفة المصريين (الكثيرون منهم تم ترسيمهم بواسطة أثناسيوس نفسه) في مجمع الإسكندرية لم يكن بالضرورة يترجم إلى دعم كاسح في شوارع المدينة. وبالمثل لم تمنع قوة رجال الدين الآريوسيين في مجمع أنطاكية من استمرار الصراع من أجل السيطرة على المدينة المضطربة، ولكن الأمر الأكثر لفتاً للانتباه كان التقارب في ميزان القوة بين القوى المتصارعة، والضراوة والشراسة التي كانت تميز هذا الصراع في المدن الكبيرة الهامة مثل القسطنطينية وأنطاكية وقيصرية وأنقرة وصور وغزة، كان هذا التوازن في ميزان القوى أمراً إيجابياً من أجل تقليل حدة العنف، حيث إن العكس

1- See, e.g., Michael Grant, *The Fall of the Roman Empire* (New York: Collier Books/Macmillan, 1990), esp. 5168-.

وهو التفاوت في ميزان القوى بين أتباع الآريوسيين أو خصومهم من أتباع أثناسيوس كان في الأغلب يؤدي إلى زيادة العنف، ولعل تفسير هذا الأمر هو أن اختلال ميزان القوى كان كثيراً ما يغري أنصار أحد فريقَي الخلاف بمحاولة فرض آرائهم بالقوة ويجعل النصر والهزيمة أمراً مؤقتاً.

لكن ما هو السر وراء هذا الانقسام العميق؟ وكيف يمكن لكل طرف من أطراف الصراع أن يحظى بمثل هذا الدعم الجماهيري وفي الوقت ذاته لا يستطيع أي منهما إقناع الطرف الآخر بصحة موقفه أو إخضاعه لآرائه؟ ولأن القليل فقط كان معروفاً حول الطريقة التي يفكر بها عامة الناس فإنه كانت هناك نزعة لتصوير الصراع باعتباره نزاعاً حاداً بين عدد قليل من قادة الكنيسة الذين كانوا راغبين في استغلال الجماهير الساذجة المتقلبة الأهواء من سكان المدن في صراعهم هذا. كانت توجد بعض الحقيقة في هذا التصور، حيث كان دائماً هناك دائماً احتجاجات على جعل تلك القضايا اللاهوتية مسألة يتداولها عامة الناس^[1]. فالأساقفة كانوا يشجعون هذا الاتجاه من أجل جذب الجماهير إلى قضيتهم، ولكن الأمر المستعصي على الفهم هو ما الذي كان يجذب تلك الجماهير إلى تلك القضايا اللاهوتية؟ وما الذي يجعل سكان مدن مثل القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية منشغلين بمثل تلك المسائل العقائدية إلى مثل هذه الدرجة؟ أو لماذا استمر كل من طرفي معركة الخلاف الآريوسي فترة طويلة في شن تلك المعركة متمتعين بقوى شبه متكافئة؟

بعض عناصر الإجابة على تلك الأسئلة نوقشت في الصفحات السابقة. فنحن نعلم أن سكان المدينة من المتحدثين باللغة اليونانية كانوا أناساً مشغولين، وعاطفيين، يميلون إلى الجزم والتوكيد ولا يختلفون كثيراً عن

1- Hanson, Search, 268.

سكان المدن في العصور اللاحقة. ولكن السبب الأهم الذي جعل هؤلاء عامّة يلعبون دوراً مهماً في الصراعات اللاهوتية أن تلك الطبقة كانت في العادة مهمشة، ولم يكن لها أي تأثير مسموع في السياسة العامة كما أنها لم تكن تمتع بالكثير من الحقوق القانونية وكان الأمان لمثل تلك الطبقة يعنى الاحتماء تحت ظل حماية نصير قوى^[1]. ونحن نعلم من خلال تطور مثل هذه الخلافات حول المسائل الدينية، فإن هؤلاء الرجال الذين لعبوا دوراً في هذا الصراع وبرغم تمتعهم بمكانة عالية في بعض الأوقات، إلا أنهم كانوا في يعانون من خطر تقلب الأحوال. وكان الانضمام لطرف ما في هذا الصراع قد يوحى بالإحساس بالقوة، كما أنه يمكن أن يعود عليه بفوائد مادية واجتماعية، ولكنه في الوقت ذاته يعرض المرء للكثير من المخاطر.

كانت النقطة المفقودة على أية حالة، هي دوافعهم الأيدلوجية، أو ما كانت تعنيه الأفكار اللاهوتية بعد تبسيطها لهم، وبوضوح فإن الناس في قتالهم بالشوارع لم يكونوا يخاطرون بحياتهم على سبيل المثال من أجل الدفاع عن التفسير الذي قدمه باسيليوس الأنقري حول الكلمة الموجودة قبل الأزل في مقابل التفسير الذي قدمه مارتيلليوس، بل توجد أسباب أخرى. فالقضايا اللاهوتية على نحو مجرد (دون النظر لاعتبارات القوة الأخرى) لم تكن هي السبب الوحيد في اشتراك هؤلاء الأشخاص بعمق في مثل هذا الصراع. ولعل العلاقة القوية التي كونها هؤلاء الأفراد على المستوي الشخصي مع المسيح الناصري لعبت أيضاً دوراً مهماً في انخراطهم في الصراعات اللاهوتية. فيسوع المسيح من

1- See Peter Brown's discussion of the relationship between worldly and "invisible" patronage in *The Making of Late Antiquity*, 63 et seq.

الناحية التاريخية كان حبراً يهودياً rabbi مشى في وقت ما على الأرض، ثم مات ثم قام من بين الأموات: وهو الذي سوف يأتي إلى الأرض ثانية من أجل إقامة مملكته، كانت صورته تبدو كما لو كانت على خلفية فسيفساء قديمة. كانت واقعة صلبه قد مر عليها أكثر من ثلاثة قرون من الزمان، ومملكته سوف تتحقق عندما يحين وقت تحققها.

كانت الكنيسة بالتأكيد منتصرة ولكن انتصارها هذا أدى إلى إثارة العديد من الأسئلة، وكانت الإجابة على أحدها تؤدي إلى إثارة المزيد من الأسئلة. وبالنسبة لأغلب المسيحيين فإن السؤال الأهم حول ذات المسيح كان متعلقاً بصورة المسيح التي يجب أن يحتفظ بها المسيحيون في عقولهم وقلوبهم. كانت المشكلة هي وجود العديد من الصور المفترضة حول المسيح التي لم تكن بالضرورة متوافقة مع بعضها البعض، وعلى كل مسيحي أن يختار من ضمن تلك الصور ما يلائمه اعتماداً على طبيعية حاجاته الملحة وعلى ما يحتاج أن يراه في المسيح. وفي العقيدة الثانية لأنطاكية التي تم اعتمادها في مجمع التكريس في عام 341 م، فإن الكلمات الآتية استخدمت من أجل وصف المسيح: المجد *Glorify Jesus*: الله، الملك، الرب، الكلمة، الحكمة، النور، الطريق، الحقيقة، البعث، الراعي، الباب، صورة الله، الوسيط بين الله والإنسان، رسول إيماننا، أمير حياتنا^[1]. 147 ربما يصعب على المرء أن يفرق بين كل هذه المصطلحات أو أن يعطيها وحدة غامضة أو مميزة عند التحدث بها أو ترتيلها بينما العيون موصدة. لكن المرء إذا نظر باهتمام وتمعن في كل هذه الأوصاف، فإنه سوف يجد أن بعض تلك الصفات والصور تلغى وتعارض بعضها البعض، كما هي الحال في

1- Kelly, *Early Christian Creeds*, 268269-.

بعض الصور غير المتوافقة والنماذج المتعاكسة المستخدمة في يومنا الحالي في اختبارات الذكاء من أجل البرهنة على القدرات الذهنية من خلال الإدراك البصري من خلال إدراك الصور غير المتوافقة مع بعضها البعض. وبالمثل كيف يمكن أن يكون المسيح هو الله وفي الوقت ذاته يكون هو الوسيط بين الله والإنسان؟ هل يمكن أن يكون ملكا وراعيا؟ قاضيا ومحاميا؟ الآب ذا القوة اللامحدودة، والأخ المخلص والصديق؟ أغلب المؤمنين كانوا يريدونه أن يكون كل هذه الأشياء معا، لكن الانشقاق بين المسيحيين المؤمنين بعقيدة نيقية والآريوسيين أدى إلى تعميق الهوة بين هؤلاء الذين يتطلعون إلى المسيح باعتباره القادر القوى أو الحاكم العادل وبين هؤلاء الذين هم في حاجة إلى المسيح في صورة النصير المحب والصديق.

لا يستطيع أي طرف من أطراف هذا النزاع أن يتنكر تماما للصورة التي ينظر إليها باعتبارها تمثل المسيح أو أن يغير فكرته عنه، ولم يكن من الممكن على هذا الأساس أن يتبني كل فريق موقف الآخر، فيطلق الآريوسيون على المسيح أنه "إله من إله"^[1] أو أن يصف أتباع أثاناسيوس المسيح "بأنه نموذج ومثال"^[2]. فكل فريق ركز تمامًا على صورة واحدة فقط للمسيح، وكال الاتهامات القاسية على الفريق الآخر، وسقط كلا الفريقين فريسة للمخاوف التي سيطرت عليه بأن الفريق الآخر يحاول القضاء على المسيح. فبينما أدان أثاناسيوس الآريوسية ووصمها بأنها تحاول أن تنزل من مكانة المسيح إلى الدرجة التي يزول معها مجده وتفقد أقواله قوتها، فإن الآريوسيون اتهموا

1- Ibid., 268. The Second Creed of Antioch was a moderate Arian creed.

2- Discussed in Hanson, Search, 450.

كلا من أثناسيوس ومارتيلليوس بأنهما يرفعان من مكانة المسيح إلى الدرجة التي يفقد معها عاطفة الحب، ويخفضان من مكانة الله إلى الدرجة التي يزول معها المجد. ربما كانت تلك النقاط هي من بين المفاتيح الرئيسية التي تفسر العنف المتفشي في ذلك العصر، حيث نظر كل فريق إلى الآخر باعتباره يمثل تهديدًا على الوفاء بأحد الحاجات الملحة والضرورية له.

تمت السيطرة على أعمال العنف في الإمبراطورية على الأقل مؤقتًا من خلال الطرد الجبري للأساقفة المعادين للآريوسية من مناصبهم الأسقفية، ومن أبراشياتهم، وعلى رأس هؤلاء بالطبع كان أثناسيوس في الإسكندرية، وبولس في القسطنطينية، ومارتيلليوس في أنقرة، وعدد آخر من الأساقفة المعادين للآريوسية. ولم يكتف الإمبراطور بطردهم من مناصبهم، بل قام بنفيهم من الشرق إلى الغرب. وبدأ الكثيرون من هؤلاء الأساقفة في التوافد على روما حيث كان أثناسيوس قد استطاع الفرار إليها من قبل، والتماس الحماية من الأسقف يوليوس (بابا روما) أو حتى من قنسطانز إمبراطور الغرب نفسه. ومن ناحية أخرى أخذ الآريوسيون في تهنة بعضهم البعض على تخليص الشرق من أكثر أعدائهم ضراوة، ولكن ما لم يكن يدر بخلدهم في ذلك الوقت هو النتائج غير المحسوبة لترحيل الأساقفة المعادين للآريوسية من الشرق إلى الغرب وخاصة إلى روما. فمن الآن فصاعدًا فإن حبر روما Roman Pontiff سيلعب دورًا مهمًا في الخلاف اللاهوتي وسيكون أحد الأطراف الرئيسيين في الخلافات اللاهوتية، وتدرجيًا ستزداد الهوة بين كنائس الشرق والغرب إلى أن يحدث الانقسام الأكبر بين الكنيسة الشرقية اليونانية والكنيسة الغربية الرومانية.

الفصل الثامن

الشرق ضد الغرب - East against West

عندما وصل أثناسيوس إلى روما بعد فراره من مصر، ذهب مباشرة لكي يلتبس ملجأ لدى يوليوس أسقف روما، وتحدث إليه باعتباره نذًا له مدرّكًا تمامًا أن يوليوس كان أحد المؤيدين بحماس للعقيدة المسيحية كما أقرها مجمع نيقية، وكان مصممًا على إثارة مشاعره عند طريق ذكر الأعمال الوحشية التي ارتكبت بواسطة الآريوسيين ضد المؤمنين المسيحيين. ووجد أثناسيوس في يوليوس مستمعًا متفهمًا ومتعاطفًا بشدة مع ما يقوله، ربما فكر يوليوس في أن يلعب دورًا في الخلاف الآريوسي، وأن يقوم على سبيل المثال بالدعوة إلى عقد اجتماع كنسي كبير تحت رعايته من أجل الدفاع عن العقيدة المسيحية الصحيحة، والمساعدة في إنهاء حالة العنف في الشرق. ودرس يوليوس الأمر بتمعن ثم تردد.

كان لحبر روما سبب للتردد: فحتى بالنسبة للأساقفة في الغرب الذين يتمتعون بسلام نسبي كان الوضع خطرًا. فأبناء قسطنطين الثلاثة كانوا من المسيحيين، وجميعهم من حولهم يوجد رجال من قادة الكنيسة يتطلعون لنيل رضا الإمبراطور، كما أن بعض الأساقفة الكبار كانوا يعملون أيضًا كمستشارين في البلاط الإمبراطوري. وأصبحت المسائل الدينية متشابكة بشدة مع سياسات الإمبراطورية، إلى درجة أن الانحياز

إلى جانب ما في الصراعات اللاهوتية ضد الجانب الآخر كان غالباً ما يوحى ضمناً بالانحياز إلى أحد أشخاص العائلة الإمبراطورية المتنافسين على السلطة، وكان اتخاذ مثل هذه القرارات في مثل هذه الظروف أمراً محفوفاً بالمخاطرة، فعندما يتصارع الأباطرة فإن الدماء كانت تتدفق كالأنهار، والوقوف مع الإنسان الخطأ أو الفريق الخاسر يمكن أن ينظر إليه باعتباره خيانة. وكان السؤال الملح على أثاناسيوس: من هو الإنسان المناسب من بين هؤلاء الأباطرة الثلاثة الذي يجب الوقوف معه؟ وكان من الحكمة بما فيه الكفاية لتجنب انتقاد قسطنطين بشكل مباشر على الرغم من أنه كان واضحاً أنه هو المسؤول الرئيس عن محنة رجال الدين المنفيين..... يمكن وصف قسطنطيوس باعتباره مستبدًا، ولكن في الوقت ذاته لا يمكن التغافل عن حقيقة مؤداها أنه كان الابن المفضل للإمبراطور الراحل قسطنطين الكبير، فضلا عن تمتعه بالمهارة والتصميم والرؤية الاستراتيجية وبإمكانه أن يكون رقيقاً بشكل ماهر أو أن يكون شديد القسوة وغديم الرحمة وفقاً لما يتطلبه الموقف، بالإضافة إلى تمتعه بذاكرة قوية كما هي الحال مع أغلب الحكام الرومان..... كل هذه الأسباب جعلت الإمبراطور قسطنطيوس ليس هو ذلك الشخص الذي ترغب في الدخول في عداء معه والإساءة إليه دون الاضطرار إلى ذلك.

على النقيض من قسطنطيوس الذي كان يتمتع بجاذبية زادت من قيمته، فإن قنسطانز الحاكم المباشر ليووليوس (أسقف روما) كان شاباً طائشاً متقلب الأهواء سريع الغضب والانفعال. وربما كانت شخصيته كذلك نتيجة لسنه الصغير وتجاربه غير الناضجة، كان قنسطانز يبلغ في ذلك الوقت ستة عشر عاماً فقط، وتمت ترقيته إلى رتبة قيصر في سن العاشرة ولم يكن قد بلغ الرابعة عشر عاماً عندما مات والده الإمبراطور

قسطنطين الكبير. وكانت علاقته مع أخوية الأكبر سنا يشوبها التوتر: وعند تقسيم الإمبراطورية أصر قنسطانز على ضم إقليم تراقيا إلى الجزء الخاضع لسيطرته من الإمبراطورية، في حين أن الأخ الأكبر قسطنطين الثاني والذي كان يبلغ من العمر 24 عامًا، كان معروفًا عنه عدم رضائه بإبعاده إلى الأقاليم البعيدة على الساحل الأطلنطي.

وكما كان يوليوس يعلم جيدًا، فإن أثناسيوس كانت لديه علاقات مع كلا من أخوة قنسطانز الاثنین، إذ أنه لم يكن في ذلك الوقت مكروهًا جدًا أو يشكل تهديدًا كبيرًا لقسطنطيوس، وفي الوقت ذاته كان يحظى بثقة قسطنطين الثاني، حيث استطاع أثناسيوس أن يكسب مودة الإمبراطور خلال نفيه الأول في مدينة ترير، وفي مقابل كل هذه التعقيدات فإن خبر روما المعروف بحذره عمد إلى الانتظار وترقب الأوضاع، ولم يرغب في التسرع باتخاذ موقف قد يجلب له الضرر في المستقبل، وأظهرت الأحداث التي جرت في ربيع عام 340 بأن حذره كان له ما يبرره. بعد أن استجاب الإمبراطور قسطنطين الثاني لنصيحة غير حكيمة، وقام بشن غزو متسرع لأقاليم أخيه الأصغر قنسطانز. وبالرغم من أنه لم تكن توجد أية أدلة على علم أثناسيوس المسبق بالهجوم أو أنه قام بنصح الإمبراطور بالقيام بهذا الغزو، إلا أن علاقاته السابقة مع الإمبراطور قسطنطين الثاني جعلت الشكوك تحوم حول قيامه بهذا الأمر، ولعل هذا يفسر رفض الإمبراطور قنسطانز السماح بلقائه بعد عدة سنوات لاحقًا^[1].

وعلى الرغم من تلك الأحداث، فإن الأساقفة المنفيين من الشرق

1- Barnes, Athanasius and Constantius, 52, considers the allegation that Athanasius urged Constantine II to attack his brother "plausible." I disagree; Athanasius was not usually that rash.

بدأوا في التوافد على روما، وكل واحد منهم يحمل قصة جديدة عن الأعمال الوحشية التي يرتكبها الآريوسيون وعن الاضطهاد الرسمي. وتدرجياً، قرر يوليوس أن يحسم أمره من أجل مساعدتهم ودعم قضيتهم، كان قراره هذا ناشئاً من التأثير الكبير للاختلافات الجوهرية بين رجال الكهنوت في الشرق والغرب، وكان الشعور عام بين أساقفة الغرب المتحدثين باللغة اللاتينية هو النظر بعين الريبة والشك إلى أساقفة الشرق المتحدثين باللغة اليونانية مع نزعتهم المستمرة إلى ابتكار توليفات وأفكار جديدة تمزج بين مبادئ المسيحية وبين الأفكار الأفلاطونية، وبصفة عامة فإن رجال الكنيسة في الغرب لم يتعرضوا لمثل هذا القمع والاضطهاد الذي تعرض له إخوانهم في الشرق، ولكنهم كانوا يكدون في بيئة مادية واجتماعية أكثر صعوبة وأقل تحضراً وأكثر عرضه لتهديدات الغزو المستمرة من البرابرة وأقل تمسكا بالمسيحية بشكل عام.

رجال الكهنوت المحاصرون باستمرار تحت التهديدات والمخاطر كان لديهم ميل ضعيف لمثل التوجهات الفكرية المتقدمة، ولم يكن لديهم تعاطف على الإطلاق مع محاولات بعض أساقفة الشرق لتبرير ألوهية المسيح، فالمسيح الذي قاموا بالتبشير به بين جماعات الوثنيين كان إلهاً يمشى على الأرض، وإذا كان هذا من شأنه أن يخلق بعض المشاكل والصعوبات للطبقات الوسطى المثقفة في الشرق، فليكن هذا إذن.

وفي ظل هذا الوضع فقد كان سهلاً على يوليوس أن يحشد الكنائس الغربية من أجل دعم أثناسيوس باعتباره القوة الداعمة لفكرة المسيح الإله وزعيم معسكر معارضة الآريوسية. لكن هل سيوافق الإمبراطور قنسطانز على مثل هذا الأمر؟ فبعد أن استطاع هزيمة

قسطنطين الثاني وإزاحته من طريقه، فإن الغرب بأكمله أصبح الآن خاضعا لسيطرة هذا الشاب الصغير، تماما كما كان هو الحال مع والده الذي سيطر على الغرب قبل أن يصبح الحاكم الوحيد للإمبراطورية بأكملها. بينما قسطنطيوس الذي يسيطر على الشرق كان يلعب نفس الدور الذي قام به ليكيانيوس من قبل والذي تسبب في اندلاع الحرب الأهلية بينه وبين قسطنطين. كان الخلاف الآريوسي في طريقة الآن ليأخذ بعدًا وكأنه نزاع ديني بين الشرق والغرب، فقد تصور الإمبراطور قنسطانز أن عليه الآن أن يحذو حذو أبيه وأن ينصر الإيمان والدين الحق ضد طغاة الشرق، إذا كان يفكر في تلك المسألة من معايير القوة والمصالح الخاصة،ربما كانت هناك بعض المصالح العملية من وراء دعم الأساقفة المنفيين من أجل إضعاف الشرق وإثارة القلاقل التي تضمن استمرار الخلافات اللاهوتية ملتهبة، وبالتالي إضعاف سيطرة أخيه على أقاليمه.

بعد هزيمة قسطنطين الثاني وصل مارتيلليوس الأنقري إلى روما في عام 340^[1]، ومع باقي الأساقفة الآخرين ناشد أثناسيوس ومارتيلليوس، ناشدًا يوليوس مرة أخرى أن يقوم بدعوة أساقفة الشرق والغرب لحضور مجمع كنسي كبير تحت رئاسته وهو ما قام به يوليوس بالفعل..... لا توجد أدلة مباشرة على أن يوليوس قام بمناقشة تلك المسألة مع قنسطانز، ولكنه على الأرجح ما كان بمقدوره أن يتصرف على هذا النحو دون الحصول على موافقة سيده الإمبراطور..... في البداية قام يوليوس بإرسال وفد من القساوسة

1- Barnes speculates that Marcellus went to Constans's court before coming to Rome (Ibid., 57). If so, this would support the idea that Constans backed the exiles for reasons of his own.

حاملين رسالة منه إلى الأساقفة في أنطاكية، وكانت تلك الرسالة بمثابة إعلان حرب، فيوليوس يشير فيها إلى الأساقفة الشرقيين باعتبارهم يوسابين وآريوسيين، ويوجه لهم النقد لتخليهم عن مبادئ مجمع نيقية، ويقوم بتحميلهم المسؤولية عن تفشي الإضرابات والفوضى في المدينة مؤخرًا. ثم يقوم بتوجيه الدعوة إليهم لحضور مجمع كنسي لمناقشة ومراجعة مسألة العزل الظالم لأثناسيوس ومارتيلليوس والأساقفة الآخرين من مناصبهم الكنسية^[1].

كان المجمع المزمع عقده تحت رئاسة يوليوس فريدًا من نوعه من نواح عديدة. فمن ناحية سيكون أول مجمع كنسي ينعقد بناء على دعوة أسقف روماني (حبر روما)، وليس بناء على دعوة الإمبراطور. ومن ناحية أخرى فسيكون أيضًا أول مجمع كنسي يتألف من أساقفة الغرب والشرق معا (مع توقع أن تكون أغلبية الحضور من أساقفة الغرب)، فجميع المجامع السابقة كانت تتألف بأغلبية عظمي من أساقفة الشرق فقط، وعلى سبيل المثال فإن مجمع نيقية المسكوني الكبير الذي كان يضم ما بين 270 إلى 280 أسقفًا كان يوجد عدد لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة من أساقفة الغرب والبقية من الشرق. وفوق ذلك كله سيكون هذا المجمع المزمع انعقاده هو أول مجمع يشهده الغرب من أجل مراجعة شرعية قرارات اتخذتها مجامع انعقدت في الشرق (بما يوحي به هذا ضمنيًا من سيادة كنسية روما على باقي كنائس الإمبراطورية). وكان يوليوس مدرغًا ومتوقعًا للطريقة التي سيرد بها الشرق على مبادرته تلك، فأسقف روما كان أبرز رجل دين في

1- Ibid.

الغرب، وكان يتمتع بسلطة واسعة على رجال الكهنوت الخاضعين لإشرافه^[1]، وترجع تلك السلطة والنفوذ اللتين كان يتمتع بهما أسقف مدينة روما إلى الصلات التي ربطت المدينة مع بطرس وبولس الرسولين، فلطالما شغلت المدينة جزءًا مميزًا للغاية في تاريخ الكنيسة، ولكن سلطة الحبر خارج منطقة نفوذه كانت دائما محل نزاع وغير معترف بها بشكل عام، فحتى تلك المرحلة من الأحداث لم تكن سلطة أسقف روما على جميع شئون المسيحية قد تم تأكيدها بعد. وقد جرى العرف على أن يهتم الأساقفة اللاتينيون بمشاكلهم في الغرب ونفس الحال مع أساقفة الشرق.

انتظر أساقفة الشرق قبل أن يردوا على خطاب يوليوس ودعوته حتى شهر يناير من عام 342، عندما اجتمع سبعة وتسعون من أساقفة الشرق في أنطاكية من أجل الاحتفال بتدشين الكنيسة الذهبية المثلثة الأضلاع التي بدء قسطنطين بناءها هناك. واستغل الأساقفة المجتمعون في مناسبة تدشين الكنيسة الفرصة لإعداد رد على خطاب يوليوس، وقد كان عدائيا كما كان متوقعًا. فكما أوضحنا فإن الأساقفة رفضوا الإشارة إليهم بمصطلح الآريوسيين^[2]، وعلى حد قولهم "كيف لنا نحن الأساقفة أن نوصف بتبعيتنا لكاهن (قس)؟" وقاموا بمناقشة وتبني العديد من الأفكار العقائدية التي حاولت أن تخلق حلولاً وسطية بين الآريوسية المتطرفة وبين نقيضها المتطرف من أفكار أثناسيوس ومارتيلليوس اللذين وضعوا المسيح والله في

1- Metropolitan bishops held the sees of Alexandria, Antioch, Cae-sarea, and Constantinople. Later Jerusalem would be added to this list.

2- Ibid., 137.

مرتبة متساوية^[1]. وعقب الانتهاء من تلك المناقشات قاموا بشن انتقاد لاذع ليووليوس واضعين إياه في مكانته التي يرونها والتي لا يجب أن يتجاوزها.

كان الرد القاطع هو لا، فلن يأتوا إلى روما من أجل حضور مجمع مسكوني هناك. أسباب الرفض كانت تتضمن أن الموعد غير ملائم، وأهم من ذلك أن مجرد دعوة يوليوس من شأنها الاعتداء على العرف الراسخ المتبع والذي يقضى بأن يحترم كل من أساقفة الشرق والغرب قرارات بعضهم البعض فيما يخص المسائل المتعلقة برجال الدين في كل منطقة. فما هي سلطة أسقف روما للحكم على قرارات صدرت من مجامع كنسية خارج نطاق نفوذه وسلطانه الكنسي؟ وأشار أساقفة الشرق في ردهم إلى أن يوليوس يناقض نفسه، فعلى الرغم من أنه يمتدح قرارات مجمع نيقية فيما يتعلق بالمسائل العقائدية إلا أنه في الوقت نفسه ينتهك القوانين الكنسية التي قررها نفس المجمع المسكوني والتي تنص على عدم إمكانية عقد مجامع كنسية لإلغاء قرارات صدرت من مجامع كنسية أخرى، وكذلك عدم جواز الدخول في شراكة كنسية مع رجال دين صدر بحقهم قرار حرمان كنسي في مكان آخر. كانت القرارات التي أخذت في صور وأنطاكية قانونية وشرعية تمامًا. وإذا استمر يوليوس في دعم واحتضان الأساقفة

1- A typical declaration of the Second Creed of Antioch, the so-called Dedication Creed, states that the terms Father, Son, and Holy Spirit denote "accurately the particular subsistence [hyposta-sis] rank and glory of each that is named, so that they are three in subsistence but one in agreement." Kelly, *Early Christian Creeds*, 269. Kelly remarks accurately that while the creed abandons certain "hard" Arian positions (e.g., that the Son is changeable), its "main drift" is "resolutely anti-Sabellian, anti-Marcellan" (270)

المحرومين كنسيًا فإن أساقفة الشرق سيجدون أنفسهم مضطرين للتوقف عن التواصل معه^[1].

تلقى يوليوس رد الأساقفة المجتمعين في أنطاكية وبوسع المرء يفترض أن هذا الرد لم يكن مفاجئًا على الإطلاق لديه، وعلى الفور قام بشن هجوم مضاد عن طريق كتابة خطاب مطول تمت الموافقة عليه من قبل مجمع كنسي يضم خمسين من أساقفة الغرب^[2]، يبدأ ذلك الخطاب بالإشارة إلى أن اللهجة التي كتبت بها رسالة مجمع التدشين تبدو مسيئة ومهينة له، ويقول في رده "لقد قرأت رسالتكم التي بعثتموها بواسطة الكهنة التابعين لي، ولكم فجعت أنني بعد أن كتبت إليكم في محبة وود صادقين، أتلقى مثل هذا الرد الذي كتب في لهجة غير لائقة ونبرة عدائية، حيث إن غرور كاتبه وكبرياءه، يبدو جليا في ثنايا تلك الرسالة"^[3].

وتساءل يوليوس عما يعطى الأساقفة الشرقيين المنقسمين على بعضهم البعض الحق في السيادة على زملائهم الغربيين؟ وبالنسبة للاتهام بأنه يحاول الانقلاب على قرارات المجمع السابقة رد قائلا بأن الآريوسيين أنفسهم غيروا الكثير من القرارات التي أصدرها مجمع نيقية من خلال العفو عن الهرطقة الذين أدانهم المجمع، والسماح لهم بالعودة إلى الشراكة مع الكنيسة. وأشار يوليوس إلى أن موقفه هو على العكس تمامًا من هؤلاء الهرطقة (الآريوسيين)، ذلك أن أثناسيوس ومارتيلليوس هم مسيحيون أرثوذكس بشكل تام، وأنه بعد الفحص الدقيق لكل

1- Summarized in Barnes, Athanasius and Constantius, 58—59.

2- Reproduced by Athanasius in his "Defence Against the Arians," Schaff and Wace, Athanasius: Select Works and Letters, 110—119.

3- Ibid., 111.

حالة على حدة، وجد أن قرار إدانتهم ونفيهم قرار ظالم لا يمكن الدفاع عنه. فليس هؤلاء الرجال هم الذين تسببوا في مثل هذه الحالة المخزية من الفوضى والاضطراب بل الآريوسيون هم المسؤولون عن هذا الوضع المتري من خلال طردهم أساقفة لا غبار عليهم من مناصبهم في أبراشياتهم ولا جرم ولا جريرة لهم إلا معارضتهم الآريوسية، ووضع مكانهم رجالاً مأجورين غير مؤهلين لهذه المناصب.

وبالنسبة لحقه في الدعوة إلى مجمع مسكوني عام، فإن يوليوس دافع عن هذا الحق بعبارات غامضة، ولا يزال تفسير تلك العبارات محل خلاف بين الدارسين حتى يومنا الحالي. فهو يؤكد من خلال تلك العبارات حقه في النظر في الخلافات والحكم على مدى أهلية الشاغلين للمناصب الكنسية في الأبراشيات الكبرى الأخرى، ولكن الكلمات التي صيغت بها تلك العبارات مبهمة^[1]، لكن الأمر الواضح أنه وضع كلا من أثناسيوس ومارتيلليوس على قدم المساواة من ناحية المسائل اللاهوتية والأخلاقية المثارة ضدهم، وهذا يعبر عن قصور فادح لدى يوليوس في فهم أبعاد المعضلة اللاهوتية، فأساقفة الشرق لم يوجهوا أبداً تهمة الهرطقة إلى أثناسيوس بينما مع مارتيلليوس فانهم اتهموه بالهرطقة السابليانية، وكان الاتهام الوحيد الموجه لأثناسيوس هو استعمال العنف، في حين أن فكر مارتيلليوس اللاهوتي جعل الابن يختفي تماماً في الآب.

كانت أهمية تبادل هذه الخطابات (بين يوليوس وأساقفة الشرق المجتمعين في أنطاكية) تتجاوز القضايا المثارة التي تحاول أن تعالجها.

1- See the divergent interpretations by Hanson, Search, 271, n. 136, and Barnes, Athanasius and Constantius, 61.

فمع دعوته لأساقفة الشرق بالحضور إلى روما ورفضهم تلبية تلك الدعوة، سيصبح الخلاف الآريوسي سبباً رئيسياً في الشقاق المتزايد بين الشرق والغرب.

مبكراً في عام 342 م، لفت حادث معين انتباه قسطنطيوس فجأة للمخاطر التي تحدق به، فبينما هو في غمار الحرب مع الفرس مرة أخرى، الذين كانوا يحاولون تحت قيادة الملك شابور Shapur إنهاء الاحتلال الروماني لبلاد ما بين الرافدين (الميزوبوتوميا)، وأثناء المعارك الضارية جاءت الأنباء إلى الملك بموت صديقه القديم يوسابيوس النيقوميدي والذي عين في منصب أسقفية القسطنطينية بفضل الإمبراطور الذي كان يقف قبل عدة سنوات من هذا التاريخ وراء جميع الترتيبات من أجل تعيينه في هذا المنصب بعدما خلا بنفي الأسقف بولس المعروف بعداوته الضارية للآريوسين وللغرب. الآن وفي لحظة واحدة تغير الموقف، ففي الوقت الذي أصبح فيه منصب أسقف القسطنطينية شاغراً بعد موت قائد الآريوسية الرئيسي بينما الإمبراطور بعيد عن العاصمة بأكثر من ألف ميل من الطرق الجبلية الوعرة في طقس شتاء سيئ، فإن كل الاحتمالات للتنافس على شغل هذا المنصب أصبحت الآن قائمة.

كان المعسكر المعادي للآريوسية يروج بالتأكيد فرحاً وابتهاجا بهذا الوضع، وأخذ مؤيدو الأسقف بولس وأتباعه يشجعونه على العودة مؤكدين له أنه سوف يحظى عند عودته بدعم هائل من الجماهير، وربما بتشجيع من أثناسيوس فإن الأسقف الصادر بحقه قرار النفي من الإمبراطور قسطنطيوس قام بالعودة من تلقاء نفسه إلى المدينة دون أخذ إذن أو عفو رسمي من قسطنطيوس الذي تقع المدينة تحت سلطانه، ولكنه بالتأكيد حصل على موافقة كلا من قنسطانز

وأسقف مدينة ترير. واستقبل كما وعد من قبل حشود كبيرة من الجماهير والمليشيات المسلحة، وتم تنصيبه كأسقف جديد للمدينة المتروبوليتانية في كنيسة "الرسل القديسين"، ولكن خصومه أيضًا لم يكونوا أقل فعالية ونشاطا حيث قاموا بانتخاب واحد من الآريوسيين المعتدلين هو ماكدونئوس كأسقف للمدينة وقاموا بتحريك قواتهم لتكون جاهزة لمواجهة مليشيات بولس في الشارع وأصبحت الحرب وشيكة بين الطرفين.

تميز قسطنطيوس غضبًا وهو في أنطاكية حيث كان يمضي فصل الشتاء مع جيشه عندما سمع بتلك الأنباء وادعاءات بولس، وقام بإرسال هرموجينيس Hermogenes أحد أكفأ قادته إلى القسطنطينية، حيث وصل إلى المدينة بصحبة عدد من جنوده. كانت الأوامر الصادرة إلى هرموجينيس بوضوح هي طرد بولس من الكاتدرائية والقبض عليه واحتجازه إلى حين قدوم الإمبراطور من حملته العسكرية الربيعية. وعلى أيه حال فإنه عندما وصل القائد إلى مدينة القسطنطينية وجدها في حالة فوضى عارمة، حيث كان أنصار كل من بولس وماكدونئوس يتصارعون في شوارع المدينة، ووجد أن عدد كبير من الناس قد قتلوا بالفعل، والنيران مشتعلة في جزء كبير من المدينة.... قرر هرموجينيس أن يمنح الجنود راحة في الليلة التي وصل فيها، على أن يباشر مهمته للقبض على بولس في اليوم التالي، وستوضح الأحداث أن هذا القرار كان كارثيا، فمستوى العنف المتفاقم في المدينة كان لا يتحمل مثل هذا التأخير، فالغوغاء استطاعوا تحديد البيت الذي يوجد فيه القائد وتمكنوا من إشعال النيران في المنزل وتمكنوا من أسرهِ هو ومضيفيه واقتادوهم إلى الشارع حيث انهالوا عليهم ضربا حتى الموت. في الصباح

استطاع قسطنطيوس بالكاد السيطرة على غضبه، وقرر على الفور السير إلى ناحية الشمال الغربي على رأس جيش متوجها إلى مدينة القسطنطينية، متحديا الظروف المناخية الصعبة في الشتاء فانه تمكن من دخول المدينة وإلقاء القبض على بولس. ليس معروفا على وجه الدقة ما هو مقدار المقاومة التي قابلها قسطنطيوس خلال القبض على بولس، ولكن بالتأكيد كان يوجد العديد من الجرحى والمقتلى. على الرغم من غضب قسطنطيوس العام إلا أنه قد خشي من مغبة إعدام بولس، فقتل الأساقفة لم يكن بالأمر الهين، ذلك أن القتل لن يجعل منه إلا شهيدا في أعين الناس متسببا في المزيد من الاضطرابات. لذلك فإن الإمبراطور قرر عدم ارتكاب مذبة بين أتباع بولس أو سجن جماعات كبيرة منهم، ولكن في الوقت ذاته فإن أعدادهم كانت من الكثرة بما يكفي لتبرير فرض عقوبات على المدينة بأسرها جزاء الأفعال الخبيثة لسكانها، وعلى أثر ذلك قام الإمبراطور بخفض الدعم المقدم إلى المدينة من القمح المجاني بمقدار النصف آملاً أن يؤدي هذا الإجراء إلى زيادة معاناة السكان وزيادة سخطهم، ومن ثم إلقاء اللوم على الفريق المعادي للآريوسية باعتبارهم المسؤولين عن تلك المعاناة. كما أنه جعل الأساقفة ينصبون ماكدونوس أسقفًا على المدين، بينما تم وضع بولس مقيداً في الأغلال على متن سفينة متجهة إلى الغرب. وبوصول السفينة إلى وجهتها، توجه بولس على الفور لمحاولة للقاء الإمبراطور قنسطانز في مدينة ترير، وطلب الإمبراطور من أثناسيوس حضور هذا اللقاء معه، وبعد ذلك قام بكتابة رسالة إلى قسطنطيوس وهي واحدة من بين مجموعة من الرسائل ذات النبرة العدائية التهديدية المتصاعدة، وقد أصر في تلك الرسائل على أن يقوم قسطنطيوس بإرسال وفد من الأساقفة الشرقيين لكي يشرحوا

له لماذا تم نفي أثناسيوس وبولس وعزلهما من مناصبهم وأن يسمح لهما بأن يدافعوا عن قواعد إيمانهم.

.... ربما يكون من الخطأ الاعتقاد أن قنسطانز كان فقط يحاول استغلال الخلافات الدينية المتفشية في الشرق من أجل تحقيق مكاسب سياسية لخدمة مصالحه الخاصة. فعلى الرغم من أنه كان بالتأكيد مهتما وراغبا بشدة في إضعاف قسطنطيوس ولن يتوانى إذا ما واثته الفرصة من أجل إزاحته عن السلطة، ولكنه من ناحية أخرى تعامل على الأرجح مع القضايا الدينية بجدية بالغة وإخلاص كما كان هو الحال مع أغلب أفراد عائلته، فضيوفه الدائمون أثناسيوس ومارتيلليوس وبولس كانوا قادة يتمتعون بكاريزما كبيرة وفي الوقت ذاته لاهوتين ماهرين ظهوروا بمظهر الضحايا المؤمنين المغلوبين على أمرهم. وبالتالي يوجد احتمال لا بأس به أنه بالإضافة إلى المصالح والمنافع السياسية فإنه بصدق كان يعتقد في قراره نفسه أنه بدفاعه عن هؤلاء الرجال ضد قسطنطيوس والآريوسيين فإنه ينحاز للمسيحية والإيمان الحقيقي ضد الهرطقة والاضطهاد، تماما كما فعل أبوه قسطنطين من قبل في حربه ضد ليكينيوس.

كانت الظروف مواتية لقنسطانز لفرض إرادته، فهو يعلم جيدا أن أخاه منشغل بشدة في الجبهة الشرقية في حربه مع الفرس، وأنه لن يستطيع مواجهة أي تحد عسكري مباشر معه، خاصة مع مثل هذا الانقسام المريع الذي يغرس أنيابه بعمق بين المواطنين في إمبراطوريته. سرعان ما رضح قسطنطيوس لطلب أخيه، فهو لم يكن في موضع يسمح له بالقتال على جبهتين مختلفتين (الجبهة الشرقية مع الفرس والجبهة الغربية مع قنسطانز)، وخاصة مع تفشي فوضى التنافس على المناصب الكنسية التي تقوض الحركة الطبيعية

للأعمال والتجارة في العديد من المدن الكبرى بالإمبراطورية. وفي ذلك الوقت، فإن قنسطانز بدأ بالفعل الكلام عن الحاجة عن مجمع كنسي مسكوني جديد مثل هذا الذي تمت الدعوة له بواسطة يوليوس أسقف روما، وربما ظن قسطنطيوس أن زيارة تكتيكية لوفد من أساقفة الشرق ربما تصرف النظر عن فكرة عقد مثل هذا المجمع الكنسي المسكوني. بالفعل سرعان ما وصل في عام 342 م أربعة أساقفة ممثلين لأساقفة الشرق إلى مدينة ترير، حاملين معهم نسخة من العقيدة المسيحية كما أقرها مجمع التدشين الرابع، والتي انتهجت مسلكاً أكثر توافقية. على الرغم من أن وثيقة الإيمان تلك لم تستخدم مصطلح الهوموسية المستخدم في مجمع نيقية، إلا أنها في الوقت ذاته أدانت الآراء الأريوسية المتطرفة حول خلق الابن من العدم أو خلقه من وجود آخر غير وجود الله، أو أنه كان هناك زمن لم يكن فيه الابن موجوداً⁽¹⁾. واحتوت أيضاً على عبارة واحدة تنتقد بوضوح الأفكار اللاهوتية لمارتيلليوس. كانت تلك الوثيقة - وفي الأغلب التفسيرات الشفوية التي قدمها الأساقفة - تضع أساساً لتسويات لاهوتية محتملة: تتمثل في قيام الشرق بإدانة الأفكار الأريوسية المتطرفة إذا تخطى الغرب عن دعمه وتأييده لأفكار مارتيلليوس السابليانية. ولكن تم رفض الصفقة المعروضة بشكل قاطع دون حتى مناقشة أساقفة الغرب لها. وبعد عدة أشهر من استقبال وفد أساقفة الشرق فإن قنسطانز أرسل إلى أخيه رسالة أخرى يصر فيها على ضرورة عقد مجمع عام من أساقفة الشرق والغرب في مدينة سرديكا (Serдика) (مدينة صوفيا الحالية) في الجانب الغربي بالقرب من الحدود بين الشرق والغرب.

1- Kelly, Early Christian Creeds, 272. See also discussion at 273.

وأدرك قسطنطيوس أن مثل هذه المجمع سوف تتم السيطرة عليه بواسطة رجال قنسطانز، ولكنه لم يشعر أنه في موقف قوى بما فيه الكفاية لرفض هذا الطلب، لذلك قام بإرسال عدد صغير نسبياً من الأساقفة (حوالي ستة وسبعون من الأساقفة كما ذكر في أغلب المصادر)، بصحبة ثلاثة من كبار المسؤولين إلى مكان الاجتماع.

كان مجمع سرديكيا كارثياً بمعنى الكلمة، حيث سادت فيه نبرة عالية من المشاحنات والمواجهات التي لم تنته إلا بالفشل الذريع الذي أصبح يهدد الآن بحدوث انشقاق تام بين النصف اليوناني والنصف اللاتيني من الكنيسة. ففي ربيع عام 343 قدم إلى مدينة سرديكيا البلقانية أكثر من تسعين من الأساقفة الغربيين، كان قائدهم هو الأسقف العجوز هوسيوس القرطبي مستشار الإمبراطور الراحل قسطنطين الكبير والأسقف الذي لعب الدور المحوري في مجمع نيقية المسكوني. وصل هوسيوس بصحبة الأساقفة الشرقيين المنفيين، باستثناء بولس الذي مثلت محاولته الدموية للمطالبة بمنصب الأسقفية حرجاً بالغاً لجميع حلفائه، وكان طبيعياً أن يغيب عن الاجتماع. أما أسقف روما يوليوس فقد كان حاضراً المجمع ولكنه لعب دوراً هادئاً، وبجلوس هوسيوس القرطبي على مقعد رئيس المجمع وبجانبه كل من يوليوس أسقف روما وماكسيمنيوس أسقف ترير فقد كان جلياً أن رجال قنسطانز يسيطرون على المجمع.

باستثناء أسقف واحد أو اثنين فإن جميع الأساقفة الغربيين كانوا متحدين في مواقفهم، وكانوا يتمتعون بثقة كبيرة وهم على أراضهم ووسط مؤيديهم في المدينة التي تضاعف عدد سكانها مع قدوم تلك الوفود الكنسية والمؤيدين لهم من المليشيات المعادية للآريوسية القادمين من الإسكندرية وبعض المدن الشرقية الأخرى. على النقيض من

هذا فإن الأساقفة الشرقيين ظهروا وكأنهم فرائس في طريقها إلى عرين الأسد. كانوا قد اجتمعوا قبل هذا في فليبوبولس^[1] Philippopolis على حدود أقاليم قسطنطينوس، وهناك تباحثوا في كيفية التعامل مع النتيجة شبه المؤكدة بتعرضهم للهزيمة في أي تصويت في ضوء قلة عددهم مقارنة بعدد أساقفة المعسكر الغربي، وعندما يأتي دور المجمع لتقرير المسائل العقائدية فإنه على الأرجح سيصدر قرارا بالحرمان الكنسي ضدهم. ومن موقع شعورهم بأنهم محاصرون تماما، فإنهم تفوقوا جميعهم الآن في أحد أجنحة القصر الإمبراطوري بصحبة ممثلين لقسطنطينوس. من مقرهم الرئيسي هذا فإن الأساقفة الشرقيين لعبوا على عنصر الوقت، وقاموا بإرسال خطاب إلى هوسيوس والأساقفة الغربيين يخبرونهم فيه رفضهم الاجتماع مع رجال من أمثال أثناسيوس ومارتيلليوس الذين تم طردهم من الكنيسة عن طريق مجامع كنسية صحيحة، وكان رد أساقفة الغرب بأنهم لن يقوموا باستبعاد أساقفة هم في شراكة روحية معهم وأن إدانتهم ونفيهم قد تمت بشكل ظالم، وأن عليهم بدلاً من تلك الطلبات أن يحضروا للاجتماع مع أساقفة الغرب من أجل بدء أعمال المجمع. استمرت المبارزة الدبلوماسية لعدة أيام، وفي النهاية قام هوسيوس بتقديم عرض من أجل تهدئة الأجواء والتوسط في المسألة التي تم رفضها من قبل أساقفة الشرق، في المقابل قام أساقفة الشرق بتقديم اقتراح لتشكيل لجنة مشتركة وإرسالها إلى مصر من أجل تقصى الحقائق حول أعمال أثناسيوس الضارة والسيئة، وبرفض الغرب مثل هذا الاقتراح، فإن المفاوضات بين الطرفين وصلت إلى طريق مسدود.

1- (مدينة في إقليم تراقيا - اليونان - المترجم)

في خضم المناورات المكثفة تلك، وصل خطاب فجأة من قسطنطينوس يعلن فيه انتصاره الدراماتيكي على الفرس. تلقف الأساقفة الشرقيون تلك الأنباء بترحاب شديد واعتبروها ذريعة مناسبة لمغادرة سرديكيا على الفور (وفي حقيقة الأمر فإنهم كانوا يتطلعون لأية ذريعة تؤدي هذا الغرض)، وتنفس أساقفة الشرق الصعداء وعلى عجل غادروا المدينة تاركين رسالة تشرح موقفهم مع قسا محلي، وبمجرد وصولهم سالمين إلى فيليبوبولس قرر الأساقفة الشرقيون إدانة خصومهم من الأساقفة الغربيين بتهمة الهرطقة وارتكاب جرائم العنف وسلوك مسلك غير أخلاقي، وقاموا بإرسال رسالة عامة إلى جميع الأساقفة والقساوسة يكررون فيها إدانة الأساقفة المنفيين، بل ويصدرون قرار الحرمان الكنسي ضد عدد من أساقفة الغرب ومن بينهم هوسيوس (القرطبي) ويوليوس (أسقف روما) وماكسيمينوس أسقف ترير، وأعلنوا تمسكهم بعقيدة إيمان شبيهة لتلك التي أعلنوها من قبل أمام الإمبراطور قنسطانز باستثناء إضافة اللعنة على كل من الآريوسيين المتطرفين^[1] وأتباع أثناسيوس على السواء^[2]. بعد ذلك رحلوا متجهين إلى أوطانهم ومدنهم على وعد باللقاء ثانية في العام التالي في أنطاكية.

في غضون ذلك ظل الأساقفة الغربيون مجتمعين في مدينة سرديكيا

1- The Eastern creed condemned "those who say that there are three Gods, or that Christ is not God." Kelly, Early Christian Creeds, 276.

2- The creed also condemned those who say "that before the ages he is neither Christ nor Son of God, or that Father and Son and Holy Spirit are one and the same, or that the Son is unbegotten, or that the Father did not beget the Son by His choice or will." Ibid.

للمدة لكافية للتوصل إلى ثماني وثائق مختلفة، وقاموا وهم غاضبون بشدة من الرحيل السري لأعدائهم (الأساقفة الشرقيين) بمخاطبة كل رجال الدين المسيحيين قائلين:

”دائمًا ما ارتكب الهرطقة الآريوسيون كثيرًا من الحماقات ضد خدام الله الذين يحافظون على الدين الكاثوليكي الحق. يدفعون عقيدتهم الفاسدة إلى الأمام، ويحاولون اضطهاد الأرثوذكس، والآن فإنهم هاجموا الإيمان بعنف شديد وبذلك لن يتجنبوا السخط الديني لأكثر الأباطرة رحمة وعدلاً“^[1].

واستمر الخطاب في الهجوم حتى وصل إلى التنديد وشجب الهروب الذي قام به الأساقفة الشرقيون. وأدرج أسماء أحد عشر أسقفًا آريوسيًا بغرض عزلهم من مناصبهم، وإصدار قرار الحرمان الكنسي بحقهم وشدد على التأكيد على جميع المسيحيين بعدم الدخول في شراكة، أو التواصل معهم، حيث إنهم بمثابة خدم الشيطان. و قام الأساقفة الغربيون بالدفاع عن المنفيين من الأساقفة وإدانة العنف ضد المسيحيين الأرثوذكس في الشرق (وتجنبوا توجيه أية إدانة مباشرة للإمبراطور قسطنطيوس على هذا الوضع وفي المقابل صبوا جام غضبهم ولومهم على هؤلاء الذين عن طريق أكاذيبهم ضلّوا الإمبراطور النبيل)، وفي النهاية قاموا بإلحاق هذه الرسالة بوثيقة طويلة وغير مترابطة حول العقيدة التي يقرونها والتي تضمنت ذمًا شديدًا للآريوسية، وهذه الوثيقة سوف تسبب لاحقًا حرجًا كبيرًا لأثناسيوس حيث إنها كتبت بلغة لاهوتية متواضعة، وكما أن الصيغ

1- Quoted in Barnes, Athanasius and Constantius, 75.

اللاهوتية التي تضمنتها ألغت تماماً أي تمييز بين الآب والابن^[1]. وعلى هذه الحال أنهى مجمع سرديكيا أعماله، وفي حقيقة الأمر لا يمكن اعتبار سرديكيا بأنها كانت مجمعا كنسيًا من الأساس حيث إن الأساقفة لم يجتمعوا أبدًا مع بعضهم البعض للتباحث (اقتصر الأمر على مجرد تبادل الرسائل). عند تلك المرحلة ربما تملك الطرفين الرعب والفرع للوضع الحالي وكيف سمحوا لاختلافاتهم وغضبهم أن يأخذهم إلى هذا المنحني وما أحدثه من انشقاق تام بين الشرق والغرب. ربما كان تأمل هذه الأحداث يمكن أن ينبثنا بأن القرون التالية سوف تشهد اتساعًا في هوة الشقاق بين الكنيسة الغربية والشرقية إلى أن يصبح هذا الخلاف عميقًا إلى الدرجة التي لا يمكن التوصل معها إلى أية حلول وسطية للتوفيق بين مواقف تلك الكنائس. وسيؤدي هذه الشقاق إلى انقسام العالم المسيحي للأبد إلى إيمان لاتيني (غربي)، وإيمان يوناني (شرقي).

مثل هذا الشقاق التام الذي حدث لاحقًا، فضلًا عن أنه كان أمرًا لا يفضل حدوثه على نطاق واسع، فإنه لم يكن متصورًا حدوثه من الأساس في القرن الرابع الميلادي. فالكنيسة قد خرجت منتصرة (من صراعاها مع الإمبراطورية الوثنية) قبل عقدين فقط من الزمان، فكيف تسمح الآن بتحولها إلى فصائل وأحزاب مختلف؟ وحتى بالنسبة للأباطرة (قسطنطيوس وقنسطانز) على الرغم من أن عداوتهم ساعدت على زيادة اشتعال الخلافات الكنسية وجعلها أكثر عمقًا، إلا أنهما بالتأكيد قد تساءلا بينهما وبين نفسيهما: كيف يمكن لأي منهما أن يأمل في أن يحكم (في يوم من الأيام) إمبراطورية واحدة موحدة إذا كانت الكنيسة منقسمة

1- See the discussion in Hanson, Search, 300—305.

بهذا الشكل على نفسها؟ وبالنسبة للمسيحيين المخلصين في إيمانهم فإن الكنيسة كانت أكبر من كونها مجرد مؤسسة بل كانت بمثابة نتاج الروح القدس، وانقسامها كان يعنى تدنيس جسد المخلص نفسه.

كانت فترة من التوافق بين الشرق والغرب وشيكة الحدوث، ولكن هذا التوافق لم يكن يعنى أبدا انتهاء الصدام بين الثقافة اليونانية الشرقية والثقافة الغربية اللاتينية، أو حتى انتهاء الصراع حول الجدل الآريوسي. كان السؤال هو كيف يمكن لهذا التوافق أن يحدث مع استمرار تدخل الكنيسة والدولة في شئون بعضهم البعض، بل إن وتيرة التنافس بين الإمبراطورين (قسطنطيوس وقنسطانز) أخذت في التصاعد؟ هذه الأسئلة هيمنت على عقول الأطراف المتصارعة بينما هم يحاولون التوصل إلى طريقة لتهدئة لنزاع، من أجل منع أنفسهم من جر الإمبراطورية الرومانية بأسرها للانغماس في حرب أهلية ضارية. بعد عدة أيام من مغادرة الأساقفة الشرقيين لمدينة سرديكيا، قام أساقفة الغرب بإرسال خطاب آخر لقسطنطيوس ولكن هذا المرة في نبرة أكثر اعتدالاً يطلبون منه إصدار أوامر إلى موظفيه للإحجام عن مراقبة النشاط الديني، وعلى الإمبراطور الرؤوف الرحيم أن يسمح لأتباعه بأن يختاروا أساقفة وقساوسة كنائسهم بحرية دون تدخل من السلطات. كما أن عليه أن يضع حدا للعنف المدني والاضطهاد الذي يتعرض له المسيحيون المخلصون من خصومهم المخادعين الذي سيطر الحسد والغيرة على قلوبهم. وناشد أساقفة الغرب قسطنطيوس بأن يسمح بعودة الأساقفة المنفيين إلى مناصبهم (الأسقفية) العادلة في الشرق وأن يدير ظهره لبدعة الآريوسية ووبائها^[1].

1- Barnes, Athanasius, 8081.-

قد يبدو هذا الخطاب في ظاهره بأنه التماس بفصل شئون الدولة عن الكنيسة، ولكنه بالتأكيد لم يكن كذلك. فلم يكن أي من أطراف النزاع يؤمن بهذا المذهب الحديث، ذلك أن أتباع أثناسيوس سيبتهجون إذا ما قام الإمبراطور بإرسال جنوده من أجل طرد كل الأساقفة الآريوسيين من مناصبهم وإحلال أساقفة من أتباع أثناسيوس لشغل أماكنهم. ولم يعتقد أحد حقًا بإمكانية قيام الأشخاص العاديين باختيار القيادات الدينية بحرية، ومع هذا فإن الخطاب يظهر النتائج غير المتوقعة لخلط الدين مع السياسة.

لقد تشكلت المسيحية في مراحل الاضطهاد. فالمسيح نفسه كان ضحية لإرهاب الدولة. وواحدة من أكثر المواد التي تنسج عليها القصص الدرامية هي الصراع بين الحق المضطهد والقوة الغاشمة. وخلال الجدل (الآريوسي) لم يكن هناك فقط صراع بين أفكار ومبادئ متعارضة أو بين الأساقفة والسلطة، ولكن كان هناك أيضًا صراع بين الأباطرة المتنافسين من أجل ضمان ولاء الرعية من عامة المسيحيين، وكان الاضطهاد (على الأقل عند ممارسته في حدود معينة) يمنح بعض المزايا، فكونك مضطهدًا من الدولة لم يكن يعنى إلا تمثيلك للجانب الآخر من المعادلة ألا وهو امتلاكك للحق. وفى المقابل فإنه يستدعى إلى الذهن ارتباطاً قوياً خيالياً لبلاطس آخر مستهتر^[1] وليهود متصلبين في الرأي وللعسكرية الرومانية القاسية في مواجهة الرب المتألم.

1- بلاطس الحاكم الروماني الذي يعزى له محاكمة وصلب المسيح، وربما يريد المؤلف القول بكلمة لا مبال أن بعض الحكام يمارسون الاضطهاد دون أن تكون القضية المثارة تعنيهم من قريب أو بعيد، ففي حالة بلاطس ووصف المؤلف له بأنه لا مبال لأنه قام بمحاكمة وصلب المسيح ليس بناء على رغبة منه أو كراهية منه للمسيح ولكنه استجابة لضغوط بعض الجماعات التي كانت تريد ذلك. (المترجم).

أثناسيوس وحلفاؤه عرفوا كيف يستغلون مثل تلك الصور وفعلوا ذلك في كل مناسبة. في البداية قاموا بتصوير قسطنطيوس كبيلاطيس جديد، حسن النية، ولكنه ضعيف، ولا يتمتع بالمبادئ، ويسهل السيطرة عليه وتحريكه من قبل قوى الشر والرجال ذوي الأغراض الخاصة، وبعد قليل فإن تلك الصورة سوف تتغير حيث يقوم أثناسيوس بمقارنته بيهوذا ونبيرون. وقد أمسك قنسطانز بالفرصة التي خلقتها الدعاية (التي يقوم بها أساقفة الغرب) حول الاضطهاد الذي يقوم به قسطنطيوس. فقنسطانز حرص على إبعاد نفسه أو أي موظفين سياسيين تابعين له عن الصورة تمامًا في سرديكيا، في حين أن أساقفة الشرق وصلوا إلى تلك المدينة برفقة المسؤولين السياسيين التابعين لقسطنطيوس مؤكدين بذلك حجة المعادين للآريوسية بأن العقيدة الآريوسية لا يمكن أن تبقى دون وجود قوة سياسية تدعمها. وأصر أثناسيوس وحلفاؤه على رأيهم بأنه إذا توقف قسطنطيوس عن ممارسة القمع والاضطهاد فإن شعب الكنيسة سوف يحتفي بأثناسيوس ومارتيلليوس باعتبارهم أبطالًا مسيحيين.

بالطبع (هذا التصور كما قدمه الغربيون) لم يكن حقيقيًا، فعلى المستوى الشعبي وعلى المستوى الكنسي أيضًا، كان الشرق منقسمًا من الناحية الوجدانية بشكل كبير حول القضايا التي يمثلها الخلاف الآريوسي. كانت حرارة هذا الخلاف والتقارب الشديد في ميزان القوى بين أطراف النزاع هي الأسباب التي أغرت كلا الطرفين لمحاولة الاستعانة بالسلطة الإمبراطورية من أجل دفع ميزان القوى لمصلحتها. وبصفة عامة فإن الإمبراطور قنسطانز في الغرب كان أقل تورطًا وتدخلًا في الخلاف الديني مقارنةً بأخيه قسطنطيوس في الشرق، ومرجع هذا الوضع ليس فقط لأن اهتمام الغرب بالمسائل الدينية وخاصة الخلاف الآريوسي كان أقل

حرارة بكثير مقارنة بالشرق، ولكن أيضًا لأن النظام المؤسسي وسلطة الدولة للتحكم في الأمور كانت في الشرق أكثر فاعلية وكفاءة مقارنة بالغرب^[1]. كان قسطنطينوس ميالًا إلى الاهتمام والانخراط في الخلافات الدينية والانحياز إلى بعض الأطراف، وعلى الرغم من تعاطفه مع أفكار المدرسة الخضوعية، إلا أنه كان مهتمًا بإقرار النظام والسلام المدني في الإمبراطورية أكثر من اهتمامه ورغبته في دفع الآريوسية إلى الأمام. وكان واضحًا أن تورط الدولة في البداية في شئون الكنيسة جاء بناء على مبادرات من المسيحيين أنفسهم.

لماذا إذن قام المسيحيون الذين يدركون تمامًا معنى الاضطهاد بدفع الدولة للانخراط في شئون الكنيسة؟ ربما تكمن الإجابة على ذلك في شيء واحد هو أن الرعاية الحكومية (لجماعة دينية ما) هي التي من شأنها أن تجعل أسس الإيمان لتلك الجماعة عامة في المجتمع بأسره. وقد لعب قسطنطين الكبير هذا الدور في الماضي عن طريق منح رجال الكهنوت المسيحي نفس الامتيازات السابقة التي كان طبقة الكهنة في الديانات الوثنية القديمة يتمتعون بها بالإضافة إلى بعض الامتيازات والحقوق الأخرى. وكانت محاولته للتخلص من الآريوسية في مجمع نيقية جزءًا من المخطط نفسه: وهو تحديد عقيدة عامة وموحدة للكنيسة التي يجب أن يتبعها ويؤمن بها كل المسيحيين في الإمبراطورية. وفي كلا الحالتين، فإن الدولة لم تكن مؤهلة لفرض الأفكار الدينية على غير المؤمنين، وبالقدر ذاته لم تكن مؤهلة لإعادة تنظيم المعتقدات الدينية أو تأكيد تلك المعتقدات لخلق حالة

1- In North Africa, however, Constans intervened ferociously against the Donatists, who were still challenging the authority of the mainstream Church.

الإجماع الديني. لمثل هذا السبب، وبالإضافة إلى المزايا المباشرة، فإن أغلب المسيحيين لم يشعروا بالخطر أو التهديد الذي يمثله الانخراط القوي للإمبراطور المسيحي في شئون الكنيسة.

بل إن تدخل الدولة ربما يبدو أمراً ملحاً وضرورياً عندما يرى الناس أن مؤسساتهم ورؤيتهم الدينية معرضة لخطر جدي بالانقراض، وفي هذه الحالة لا يملكون إلا اللجوء إلى الدولة، وهذا بالضبط ما فعله آريوس ويوسابيوس باللجوء إلى قسطنطين الكبير وما فعله أثاناسيوس ومارتيلليوس بالاستعانة بقنسطانز للدفاع عنهم ضد خصوم أكثر قوة وعدوانية. وفي مثل تلك الحالات فإن الطرف المعرض للخطر يطلب من الحكومة بأن تتدخل لكي تلعب دوراً في النزاع، ولكن اللجوء إلى السلطة من أجل الانحياز إلى أحد الأحزاب قد يكون أمراً مبرراً فقط إذا كان بغرض منع انتصار الشر أو في حالة ما إذا كانت الدولة منحازة فعلاً للجانب الخاطئ. وعندما قام أثاناسيوس بطلب المساعدة من قنسطانز لإعادته مرة أخرى على كرسي أسقفية الإسكندرية فقد استخدم كلا التبريرين السابقين، ذلك أن قوة قنسطانز فقط هي التي سوف تستطيع إلغاء الأفكار المتناقضة والمعادية للمسيحية بشكل جوهري وإنهاء الاضطهاد الذي يمارسه قسطنطيوس.

مثل هذه النوعية من الحجج ربما تبدو الآن مجرد أفكار عفا عليها الدهر تماماً. لماذا لم يحدث في تلك الأزمنة فصل بين الكنيسة والدولة مثل الذي حدث في أغلب الديمقراطيات الحديثة. في الحقيقة يرجع هذا الفشل إلى أن الفصل بين الدين والدولة يحدث فقط عندما تصبح أغلبية عامة الشعب غير مهتمة وهو الأمر الذي لم يكن قائماً في تلك الأزمنة. حيث كان عامة الناس مهووسين بالقضايا الدينية، وفي مثل هذا الوضع يصعب تعميم أفكار واحدة على المجتمع أو حتى

تعريض أفكار إحدى المجموعات الرئيسية المتنازعة لخطر الاندثار. في الأيام الأخيرة لروما فإن كلا السيناريوهين يبدوان وكأنهما، وبما للعجب، قد حدثا بشكل متزامن (بقاء جميع الأفكار الدينية متاحة أو تعرض بعض الأفكار للاندثار). فالشعب الروماني اهتم اهتماما كبيرا بالأفكار الدينية. واستطاع الإيمان المسيحي إزاحة المعتقدات الوثنية بالكامل، ووصلت الأفكار المسيحية الآن إلى الأراضي التي يقطنها البرابرة، لكن خطر الانقراض كان يهدد أحد التعريفات للإيمان المسيحي إما وفقا لتعريف آريوس أو أثناسيوس، واللذين كانا بطبيعية الحال تعريفين مختلفين للعقيدة المسيحية. كان خطر الاندثار هذا ناشئا نتيجة لانحياز قوة الدولة لأحد الفريقين المتخاصمين.

كيف يمكن لأحد ألا يستدعى مساعدة الدولة تحت مثل هذه الظروف، فهناك الكثير مما يمكن أن تجنيه بانتهاج هذا السبيل، وفي الوقت ذاته يوجد الكثير الذي يمكن أخسارته إذا تخليت عن هذا السبيل، وبالنسبة إلى أثناسيوس الذي قدم إلى الأساقفة الغربيين وثيقة يطالب فيها بالحرية الدينية في الشرق، فإنه لم يتردد للحظة في الاستعانة بالإمبراطور قنسطانز ودفعه لإجبار أخيه قسطنطيوس عن طريق التهديد باستخدام القوة العسكرية لو تطلب الأمر من أجل السماح لأثناسيوس بالعودة مرة أخرى لمدينة الإسكندرية واستعادة الأساقفة المنفيين لمناصبهم الأسقفية مرة أخرى. الحرية الدينية لم تكن هي القضية الرئيسية في واقع الأمر هناك، ولكن القضية الرئيسية كانت حقيقة الإيمان المسيحي التي يتوقف عليها مصير الخلاص، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف المنشود من تعميم الإيمان المسيحي القويم الذي يعتقد كل طرف أنه هو الوحيد الذي يحمله فلا بأس إذا من المخاطرة بتحمل أهوال الحرب الأهلية المحتملة فرما يستحق الأمر هذا.

سلسلة غير متوقعة من الأحداث (والتي يمكن اعتبار بعضها نوعاً من الكوميديا إذا غرضنا النظر عن المشاكل والمتاعب التي سببتها) والتي تجمعت في معسكر أثناسيوس ومكنته من استعادة منصبه، وفي الوقت ذاته ربما ساعدت على تجنب الحرب الأهلية بين الشرق والغرب.

كان موقع تلك الأحداث مدينة أنطاكية، والتي كانت تعتبر المقر الرئيسي للقيادة العسكرية لقسطنطيوس ومركز قوة الآريوسية. فعقب هذا الشقاق الخطير في سرديكيا فإن أساقفة الغرب قاموا بإرسال وفد صغير إلى مدينة أنطاكية من أجل توصيل رسالة إلى الإمبراطور برفقة رسالة أخرى معتدلة من قنسطانز يحدد فيها مطالبه بإعادة الأساقفة المنفيين إلى مناصبهم، وكان الوفد يتألف من: فنسينتيوس من كابوا Vincentius of Capua ويوفريتيس من كولونيا Euphrates of Cologne برفقة أحد قواد قنسطانز، وقاموا بحمل الرسالة إلى بلاط الإمبراطور، وهناك أظهروا كافة علامات الاحترام، وبعدها اتجهوا إلى مقر إقامتهم في المدينة لانتظار رد قسطنطيوس في المسألة المطروحة أمامه نتيجة للاتصالات الجديدة. كان أسقف أنطاكية ويدعى ستفانوس Stephanus ضمن القادة الآريوسيين الذين أدرجهم الأساقفة الغربيون في لائحة الأساقفة المتهمين بالإساءة، ممن صدر بحقهم قرار الحرمان الكنسي. وعلى ما يبدو فإنه كان غاضبا بشدة من هذا الإجراء، ومصمما على الانتقام عن طريق إفساد مهمة الأساقفة الغربيين: فنسينتيوس ويوفريتيس في أنطاكية. فقام بإرسال اثنين من القساوسة إلى أحد الخمارات (بيوت الدعارة) المعروفة، وكانت المهمة الموكلة إليهم هي استئجار عاهرة من أجل قضاء الليلة مع عضو الوفد الغربي الأكبر سنا يوفريتس الكولوني، وفي الصباح سوف يداهمون حجرة الأسقف

ويقبضون عليه متلبسا مع العاهرة في فراشه، من أجل إجباره على مغادرة أنطاكية في خزي وعار. فضيحة مثل تلك من شأنها أن تُلطخ سمعة القضية التي يدافعون عنها للأبد، وستمكن ستفانوس من الانتقام من الإهانة التي لحقت به.

فعل القسيسان ما طلب منهما تماما، ولكنهما ارتكبا خطأ واحد فقط. إذ لم يقوما بإخبار العاهرة بأن الشخص المطلوب اتهمه هو أسقف مسن من بلاد الغال، وعندما ذهبت إلى الغرفة وجدت الإنسان المسن ينام في سلام ووجدت عباءته الأسقفية ملقاة على كرسي بجانبه، فما كان من العاهرة (والتي للأسف لا نعرف اسمها) إلا أن فكرت بسرعة، وبدأت في الصراخ بصوت مرتفع طالبة المساعدة بعد أن ادعت أنها تعرضت للاعتداء، وسرعان ما امتلأت الغرفة بالمنقذين، وقامت المرأة الماهرة برواية قصتها وكشفت المؤامرة التي كانت تدبر ضد الأسقف المسكين دون خوف من انتقام ستفانوس ورجاله.

انتشرت القصة بسرعة في جميع أنحاء المدينة، ومع الفجر تجمع الغوغاء خارج أبواب الكاتدرائية، مطالبين ستفانوس بتبرير ما حدث أو مواجهة خطر العزل من منصبه. ووجد قسطنطيوس نفسه مضطرا لإرسال مبعوثين منه من أجل تهدئة الحشود الغاضبة، وتعهدوا أمام تلك الجماهير بإجراء تحقيق سريع وعاجل وهو الأمر الذي سرعان ما تحقق بالفعل، حيث استطاع الخدم في الماخور التعرف على القسيسين اللذين أرسلهما ستفانوس من أجل استئجار خدمات العاهرة، وأقر القسيسان بأن ستفانوس أصدر أوامره لهما للقيام بمثل تلك الحيلة القبيحة، وفي صيف عام 344 أصدر مجمع كنسي في أنطاكية قرار الحرمان الكنسي ضد ستفانوس بجانب العزل من منصبه كأسقف لأنطاكية.

كان المجتمعين في أنطاكية يعلمون جيدًا أن قسطنطيوس لم يكن يستطيع الصبر على مثل تلك التصرفات الصبانية ومحاولات التدخل في شئون الدولة، ولذلك أدركوا أن الوقت قد حان لكي يتوصلوا إلى تسوية مع الأساقفة الغربيين وليس إلى إثارة العداء معهم، وبالفعل أصدروا قرارهم بتأييد عزل ستفانوس واستبداله بأسقف جديد من المعتدلين، كما أن مجمع أنطاكية وفي خطوة أخرى نحو التسوية فإنه تبني مذهب أطلق عليه أسم: "المذهب الطويل المفصل" وهو عبارة عن وثيقة مطولة تعبر ثنائياها عن روح التهدة^[1]، حملها أربعة من الأساقفة الممثلين لمجمع أنطاكية إلى الأساقفة الغربيين في مدينة ميلانو. وقد أكدت وثيقة الإيمان تلك على الوحدة بين المسيح والله بشكل أقوى مما عبرت عنه أي وثائق إيمان سابقة صادرة عن مجامع الشرق الماضية: "..... الآب والابن متحدان مع بعضهما البعض دون أية وساطة أو مسافة حيث إن وجودهما غير منفصل، فالآب بأكمله يحتضن الابن ويحيط به، والابن بأكمله مرتبط بالآب وملتصق به، وهو وحده يستريح على الآب باستمرار"^[2].

وفي الوقت ذاته، وكعلامة منه على رغبته الحقيقة في الوصول إلى تسوية الأوضاع وتهدئتها، فإن الإمبراطور قسطنطيوس سمح بعودة بعض المنفيين من أتباع أثناسيوس إلى مدينة الإسكندرية، كما أصدر أوامره للمسؤولين في المدينة بالتوقف على معاملة أتباع أثناسيوس باعتبارهم متآمرين ضد النظام.

وقد صدرت عن الغرب أيضًا بعض الإيماءات التصالحية التي

1- Kelly, Early Christian Creeds, 279.

2- Ibid., 280.

تدل على رغبتهم في التوافق مع الشرق، حيث أصدر مجمع ميلانو المنعقد في عام 345 قرارًا بإدانة واحد من أتباع مارتيلليوس الأنقري من المتطرفين وهو الأسقف فوتنيوس السيراميومي Photinus of Sirmium، وعلى الرغم من أنهم لم يدينوا مارتيلليوس نفسه، إلا أن أثناسيوس وأغلب أساقفة الغرب باعدوا بينهم وبين مارتيلليوس وأفكاره المتطرفة، وفي العلن على الأقل فإنه كان في طريقة ليصبح نكرة. كان واضحًا أن كلا الطرفين يحاولان كبح جماح العناصر المتطرفة في معسكريهما وأن يتبنوا لغة أكثر اعتدالاً من أجل البرهنة على نواياهم الطيبة دون التنازل عن جوهر معتقداتهم والأفكار التي كانت حيوية للغاية وغير قابلة للتفاوض. كان السؤال الملح في تلك اللحظة هو: هل من الممكن حقًا لمثل تلك المبادرات التوافقية أن تؤدي فعلاً إلى تسوية سلمية لهذا الصراع دون التعرض للأفكار اللاهوتية محل الخلاف؟ وبغض النظر عن العداء المتزايد بين أباطرة الشرق والغرب بدت مساحة التنافر في الآراء العقائدية الدينية وكأنها تضيق، ومع هذا فإن الاختلافات الباقية كانت حادة وحيوية، فعلى الرغم من أن الشرقيين قد أصبحوا أكثر مرونة فيما يتعلق بمبدأ الخضوع أو الدونية إلا أنهم في الوقت ذاته لم يستطيعوا التخلي تمامًا عن فكرة أن الله والمسيح والروح القدس هم صور منفصلة وغير متساوية، وفي المقابل فإن الأساقفة الغربيين المجتمعين توقفوا عن الإصرار على مطالبة أساقفة الشرق بإدانة آريوس وأفكاره الرئيسية - وهو الأمر الذي رفضوا من قبل القيام به وعلى إثره قاموا بمغادرة مجمع سرديكيا غاضبين^[1]. الأمر الأكثر خطورة من هذا أن أيًا من

1- The document submitted to the Eastern bishops has not been preserved.

الإمبراطورين (قسطنطيوس وقنسطانز) لم يكن بمقدورهما أن يحلما بحكم قسمي الإمبراطورية الشرقي والغربي كحكام متحدتين إذا ما استمرت تلك الحرب الدينية، ولكن بدلا من سياسية التهدة فإننا نجد أن أجواء شبيهة بلعبة الشطرنج هيمنت على العلاقة بين الإمبراطورين، حيث كان قنسطانز يتلمس أية ميزة إستراتيجية يمكن من خلالها تحقيق المكسب. وقد جاءت تلك الخطوة مع قيام الأسقف بولس بالعودة مرة أخرى إلى القسطنطينية، وعلى الأرجح فإن بولس قام بتلك الخطوة الجريئة بموافقة ضمنية من الإمبراطور قنسطانز (على الرغم من أنه من المتعذر التأكد هذا الأمر ومعرفة ما إذن كان قنسطانز على علم بمخطط بولس قبل تنفيذه أم لا على وجه اليقين)، وعلى إثر عودته فإنه قام باحتلال الكاتدرائية في تحد واضح لقسطنطيوس، الذي كان يخشى من الدخول في تحد علني مع بولس (في ظل الأجواء المتوترة أصلا مع أخيه قنسطانز)، بالإضافة إلى أنه في حالة تعرض بولس للجرح أو للقتل فإن أتباع الأسقف سيقومون لا محالة بإشعال أعمال عنف وشغب واسعة. وفي النهاية وجد الإمبراطور الشرقي أنه لا يستطيع التغاضي عن الاستفزاز الذي قام به بولس باعتلائه كرسي أسقفية القسطنطينية على كره منه، ولم يجد قسطنطيوس بدًّا من الزحف ناحية الغرب

Several scholars (e.g., Barnes, 89; Hanson, 312) assert that their refusal to sign was based on objection to the manner in which it was presented, not to its content. Kelly (280281-) believes that they refused because the document required them to renounce the doctrine of the "three hypostases." The latter view seems preferable. Valens of Mursa and Ursacius of Singidunum did sign, apparently in order to keep their sees in Pannonia.

مرة أخرى باتجاه القسطنطينية هذه المرة من ناحية ميزوبوتاميا (بلاد ما بين الرافدين)، وعند وصوله وجد المدينة مشتعلة. ولعدة أيام لاحقة، وبينما كان بولس متحصنا بالكاتدرائية تلقى الدعوة التي طال انتظاره لها من أعلى سلطة مدنية في المدينة من فيليبوس الوالي البريتوري Praetorian Prefect الذي قام بسؤاله بالتكرم لزيارته في الحمام العام الشهير زاكيبيكوس Zeuxippus. علم بولس تمامًا ما تعنيه تلك الدعوة، فطبقًا للعرف السائد في تلك الأيام فلقد كانت الدعوة الصادرة من شخص ذي مكانة عالية لمصاحبه في الحمام عام تعنى رغبته في تكريم من وجه إليه الدعوة. لكن التسوية في الحقيقة كانت مستبعدة وكانت في الحقيقة آخر ما يخطر على بال الوالي البريتوري، إذ لم يكن بمقدور الإمبراطور أن يعترف ببولس كأسقف للمدينة دون أن يخسر حلفاءه الآريوسيين، ولذلك فإنه أصدر أوامره لوالي المدينة أن يتعامل مع المسألة بشكل سرى ودون أن تنعقد آمال الجماهير أو أي من الأطراف على حدوث أي تغير. وعند ذهاب بولس إلى حمام زاكيبيكوس العام في الموعد المحدد، فإنه وجد الحمامات خالية تمامًا من الناس باستثناء الوالي ومرافقيه المسلحين، كان الوقت متأخرًا جدًا للأسقف ليدرك الحقيقة ويحاول الهروب، وقبل أن يفكر حتى في الاستغاثة أو طلب العون فإن الأسقف التعس أصبح الآن مقيّدًا ومعصوب العينين حيث تم إيداعه على إحدى السفن الراسية في مضيق البوسفور، كانت وجهة السفينة هذه المرة هي إقليم تسالونيكي Thessalonica، وهو الإقليم الخاضع لسيطرة حاميه ونصيره الإمبراطور قنسطانز.

بعودة بولس مرة أخرى إلى قصره وفشله مغامرته الجريئة، ومع انتهاء أعمال مجمع ميلانو بلا نتائج حقيقية، فإن قنسطانز شعر

أنه اخذ كفايته من الأساليب الودية وأن الدبلوماسية المهذبة قد استنزفت كل سبلها. وفي صيف عام 345 قام بإرسال إنذار نهائي إلى قسطنطيوس، وقد ترك هذا الإنذار لقسطنطيوس مجالاً قليلاً للتفكير، حيث تقول الرسالة التي أرسلها قنسطانز:

”أثناسيوس وبولس هنا معي، وبسؤالهما اتضح لي تعرضهما للاضطهاد بسبب تقواهما فقط. وبناء عليه، فإنه عليك أن تقوم بالعمل على ضمان استعادتهما مناصبهم الأسقفية، وأن تطرد هؤلاء الذين يتشبثون عبثاً بمناصبهم، وسوف أرسل هؤلاء الرجال إليك. لكن إذا أصررت على الرفض فأؤكد لك بأنني سوف احضر إليك بنفسي، وأعمل على استعادة هؤلاء الرجال لعرشهم الكنسي الذي هو حق لهم حتى ولو كان ذلك ضد إرادتك“^[1].

كان هذا بالتأكيد تهديداً صريحاً بالحرب لا يمكن لأحد أن يخطئ تفسيره. وكان الإمبراطور قسطنطيوس مستعداً لأن يرضخ لمثل تلك التهديدات على أية حال، ولكن ما زاد من ميله للرضوخ هو موت الأسقف جريجوري الذي تولى منصب أسقف الإسكندرية بعد نفي أثناسيوس، وبينما كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق من أجل انتخاب أسقف جديد، فإن الجميع بما فيهم الإمبراطور قسطنطيوس كانوا يعلمون أن عملية الانتخاب ستكون مصحوبة بالإضرابات الشديدة

1- Translated by Barnes in Athanasius and Constantius, 89. Hanson questions the letter's authenticity on the ground that Constans would not have been willing "to plunge the Empire into civil war, no matter how irresponsible he may have been, for the sake of the restoration of a few bishops" (Search, 307). Hanson seems to underestimate the extent to which Constans was willing to take calculated risks in order to strengthen his own position and weaken that of his brother.

وخاصة مع استمرار تمتع أثناسيوس بشعبية واسعة في الإسكندرية حتى بعد نفيه، وربما حتى زادت تلك الشعبية لاتصاله المستمر بأتباعه من ناحية، ومن ناحية أخرى لظهوره بمظهر البطل المضطهد. وكان من المؤكد أنه إذا رجع إلى المدينة وشارك في أعمال المجمع فإنه سيتم انتخابه لا محالة أسقفا جديدا للمدينة، على أية حال فإن قسطنطيوس كان يعرف متى يسقط الملك على طاولة الشطرنج وينحني أمام الرياح، وبالفعل قام بإرسال خطاب إلى قنسطانز وأثناسيوس ينبئهما فيه بموافقته على منح أثناسيوس ممرا آمنا للعودة إلى الإسكندرية مع ضمان استعادة منصبه الأسقفي وسلطته الكاملة.

قرأ أثناسيوس الموجود في مدينة أكويليا بصحبة قنسطانز بتمعن شديد هذا الخطاب الذي كان يمتلئ بالعبارات المنمقة والمشاعر الكاذبة مثل: "مشاعرنا الطيبة المخلصة لم تهجرك أبداً حتى عندما حرمت من أراضي أسلافك وسلبت من ممتلكاتك وتجولت في البرية الموحشة"^[1].

ربما غمرت البهجة أثناسيوس بقرب عودته إلى منصبه، ولكنه لم يكن أحق إلى درجة الاندفاع للعودة من أجل تبوء منصبه القديم. فلقد كان يعلم جيدا أن موافقة قسطنطيوس على رجوعه إلى منصبه تمت فقط والسيوف مسلط على رقبتة، وأن العلاقة بين الأخوين- إمبراطوري الشرق والغرب في تدهور مستمر، وسيعتبره قسطنطيوس من الآن فصاعدا عدواً له. لذلك وكما فعل من قبل فإنه اتخذ طريقا طويلا وملتفا للعودة إلى موطنه، متوقفاً في المدينة تلو المدينة في طريق عودته حاشدا أتباعه في تلك الأماكن، أخذا تعهدات و ضمانات الحماية من كبار رجال السلطة الإمبراطورية. ومن المحتمل أنه قابل

1- Barnes, Athanasius and Constantius, 90.

قسطنطيوس في أنطاكية وتلقى منه تأكيدات شخصية بأنه لن يتعرض لأية مضايقات أثناء ممارسة لسلطاته كأسقف للإسكندرية، وبعدها في صيف عام 346 أي تقريبًا بعد مرور عام كامل على تلقيه خطاب الإمبراطور قسطنطيوس عاد مرة أخرى إلى مدينة الإسكندرية.

كانت هذه العودة بلا شك انتصارًا له. فأثناسيوس لم يكن يتمتع فقط بإخلاص وولاء قاعدة كبيرة من رجال الدين المصريين، ولكن أيضًا كان يتمتع بشعبية واسعة بين عامة الشعب وقد نمت تلك الشعبية أثناء فترة نفيه، وربما ترجع هذه الزيادة في شعبيته جزئيًا إلى محنته ولكنها أيضًا تعزي إلى تنامي الشعور القوي بالوطنية والقومية (باعتبار أن أثناسيوس هو ابن من أبناء البلد)، بالتأكيد فإنه من المبكر التحدث عن ظهور ما يعرف باسم القومية المصرية في ذلك الوقت، فالقاعدة الجماهيرية لأثناسيوس لم تكن تشمل مصر بأكملها بقدر ما كانت الإسكندرية هي مركز تلك الشعبية، تلك المدينة الأبية ذات التاريخ الطويل من الإنجازات الثقافية والتفكير المستقل والعدائية تجاه السلطات الإمبراطورية. ولكن بمرور الأيام تنامي لدى أهل مدينة الإسكندرية (مدينة كليوباترا في يوم من الأيام) حساسية شديدة لأي سياسة قمعية تمارس من قبل الأباطرة الأقوياء القابعين سواء في روما أو أنطاكية أو حتى القسطنطينية. وعلى الرغم من أنثاسيوس نفسه ربما كان حاكمًا حازمًا إلا أنه على الأقل لم يكن غريبًا عن أهل الإسكندرية بل كان واحدًا منهم.

من ناحية أخرى، فإن قسطنطيوس نفسه أدرك بوضوح الدور المحوري الهام الذي تستطيع مصر أن تلعبه في أي صراع محتمل بين الأباطرة المتنافسين. كان من السهل في ذلك الوقت تقسيم العالم الروماني إلى جزء شرقي وجزء غربي، ولكن مع بعض الاستثناءات

فإن السكندريين اعتبروا أنفسهم حالة فريدة في الإمبراطورية، فمن ناحية اللغة فإن اللغة اليونانية كانت اللغة الأولى في المدينة ومن الناحية السياسية فإن المدينة كانت تعتبر ضمن الجزء الشرقي من الإمبراطورية، ولكنها تتمتع في الوقت ذاته بخصائص فريدة من نوعها مثل امتلاكها مصادر اقتصادية هامة وحيوية، وارتباطها بعلاقات قديمة مع الغرب تعود جذورها إلى زمن يوليوس قيصر نفسه، ولا يستطيع المرء أن يعرف عن يقين إلى أي جهة يقع ولاء السكندريين، ولأن المدينة بمقدورها أن تلعب دور رمانة الميزان في أي صراع محتمل بين الشرق والغرب فإن كلا طرفي الصراع حاول التودد إلى أهالي المدينة، فسماح قسطنطيوس لأثناسيوس بالعودة إلى الإسكندرية ربما لم يكن فقط بسبب تهديد قنسطانز بالحرب، ولكن أيضًا لوضع بطل الإسكندرية تحت عينيه ومراقبته عن كثب بدلا من تركه يتآمر مع أخيه في الغرب الأوربي البعيد.

كان رجوع أثناسيوس إلى الإسكندرية عن طريق أورشليم، وكان الاستقبال الذي قوبل به يشبه استقبال الأباطرة العائدين من الحروب، بل كان أكثر فخامة من الاحتفالات التي يحظى بها الأباطرة المنتصرون، فلقد كان العرف أن تحيي الجماهير الملوك على بعد عشرة أميال من المدينة، ولكن بعض التقارير تذكر أن الجماهير استقبلت أثناسيوس على بعد مائة ميل منها^[1]. ومن مدخل المدينة فإن الجماهير المبتهجة كانت تنثر الورود عليه أثناء مروره في طريقة إلى الكاتدرائية. وأقامت جميع الكنائس قداس حمد وشكر لله على عودته، وابتهجت الإسكندرية لرجوعه، وحتى إن كان لأسقف

1- Frend, Rise of Christianity, 532.

العاصمة أعداء في أماكن معينة، فقد تواروا عن الأنظار!! على الأقل في تلك اللحظة المهيبة.

وعاد بولس إلى القسطنطينية في الوقت ذاته تقريبا، وتم السماح للمنفين الآخرين من أتباع المذهب النيقى بالعودة أيضًا إلى أبراشياتهم.... في لحظة النصر تلك التي أسكرت أساقفة النيقية، غاب عن ذهنهم على ما يبدو أن المعركة لم تنته بعد. فقسطنطيوس لن ينسى أبدًا أن هؤلاء الأساقفة ورجال الدين قد تحالفوا مع أخيه اللدود قنسطانز ضده، وأن عودتهم فرضت عليه عن طريق القوة. ولكن على خلاف الأساقفة فإن قسطنطيوس كان يدرك جيدا أنها مجرد جولة في معركة لم تحسم بعد، والأهم أنه كان يعلم أن بإمكان المرء أن يخسر جولة من جولات الشطرنج دون أن يخسر المباراة بأكملها.

الفصل التاسع

الإمبراطورية الآريوسية - The Arian Empire

لمدة ثلاث سنوات تعايش المذهبان: النيقى والآريوسى معاً، ولكن فى جو متوتر ومشحون، لم يحدث توافق جوهرى بين الجانبين، ولكن حالة الترقب لتغير موازين القوى جعلت كلا الفريقين يحجمان عن القيام بخطوات تصعيدية من أجل محاولة تحقيق نصر حاسم على الطرف الآخر فى انتظار ما سوف تسفر عنه تقلب الحوادث وتغير الظروف الحالية.

وباستجدائهم الدولة الرومانية من أجل الحصول على الدعم والمساعدة، فإن الأساقفة واللاهوتيين ربطوا مصائرهم بمصير الصراع بين إمبراطوري الشرق والغرب، وهو الصراع الذي كان لا بد أن ينتهي بمنصر واحد: إما قنسطانز إمبراطور الغرب المتمسك بشدة بالعقيدة النيقية أو قسطنطيوس إمبراطور الشرق المعتنق للمذهب الآريوسي. وعلى الرغم من عودة أثناسيوس وحلفائه إلى مدنهم ومناصبهم الكنسية إلا أن الأغلبية العظمى من أساقفة الشرق ظلت على عداوة شديدة مع أفكاره اللاهوتية، ونظر قسطنطيوس إليهم باعتبارهم خونة لنظامه. وعلى العكس، فإن الكنيسة الغربية كان مهيمنا عليها الشعور المعادي للآريوسية، ولكن قنسطانز لم يكن بمقدوره أن يحمل الشرق على إتباع العقيدة النيقية بقوة السيف، وأصبح الوضع الحالي يكتنفه الجمود (مع تمسك كل طرف بمواقفه دون أي

استعداد للتنازل قيد أملة) ولكن هذا الوضع لن يدوم طويلاً. أول العلامات بأن التغير وشيك الحدوث جاءت من الجبهة الفارسية. ففي عام 349، قرر الملك شابور Shapur رفع الحصار على مدينة نصيبين في العراق (ميزوبوتاميا)، وبالتالي تخفيف الضغط العسكري من على قسطنطيوس، وقد جاء هذا الانسحاب الفارسي نتيجة لعوامل خارجة عن إرادة الملك، حيث هاجمت جحافل من الحشرات جيوش الفرس وأجبرتهم على التراجع والتقهقر إلى الورا. كان مثل هذا الحادث في تلك الأزمنة له تفسيرات ومعان كبيرة حيث عزا المسيحيون مثل هذا الحدث على أنه تدخل مباشر من الله استجابة لصلوات أسقفهم المحبوب^[1]، وفي حقيقة الأمر فإن انسحاب شابور تمامًا مثل أغلب الانتصارات الرومانية في تلك الحقبة من الزمان كان أمرًا مؤقتًا فقط، فالإمبراطورية لم يكن بإمكانها عند هذه المرحلة من التاريخ أن تنعم بالأمان الدائم، أو أن تتخلص للأبد من التهديد المستمر الذي يستنزف موارد الإمبراطورية نتيجة لتوالى هجرات البرابرة على حدودها التي تمتد لأكثر من أربعة آلاف ميل. ولكن في لحظة النصر المؤقت تلك كان الشرق مبتهجًا وشاكرًا لله على أنعمه، محتفياً بقسطنطيوس باعتباره المدافع عن الدين ضد جحافل الكفرة.

تعززت سمعة الإمبراطور قسطنطيوس باعتباره نصيرًا للمسيحية من خلال العديد من الإرساليات التبشيرية التي أرسلت تحت رعايته ودعمه من أجل التبشير بالخلاص بين قبائل البرابرة وإقناعهم باعتماد المسيحية، وفي هذا الإطار تم استقبال أولفيل Ulfila بالترحاب الشديد في القصر الإمبراطوري. ... كان أولفيل الذي ينحدر من أصل قوطي من منطقة عبر

1- Ibid., 533.

إقليم الدانوب أسقفًا ذائع الصيت اعتنق المسيحية وتم ترسيمه أسقفًا على يد يوسابيوس النيقوميدي^[1] (في إشارة إلى اعتناقه المسيحية على أساس المذهب الآريوسي)، ويذكر التاريخ أن القوط الغربيين أسروا جده لأمه اليوناني الأصل، (ومن هنا جاءت ثقافته اليونانية القوطية) وعكف أولفيل على ترجمة الكتاب المقدس من اللغة اليونانية إلى القوطية، ومع الدعم الذي وعد قسطنطيوس بتقديمه فإنه شعر أنه بمقدوره إقناع كافة القبائل القوطية باعتناق المسيحية. وبالفعل قام الإمبراطور بتوفير كافة أنواع المساعدة، حيث استطاع أولفيل الوفاء بوعده وإقناع القبائل القوطية بالتحول إلى الديانة المسيحية، ولم تكن أهمية تلك الخطوة ترجع فقط إلى كسب الديانة المسيحية أتباعًا جديدًا كثيرًا، ولكن هؤلاء الأتباع اعتنقوا المسيحية على أساس المذهب الآريوسي، وأصبحت قبائل القوط الغربيين (الفيثيجوث) لمدة قرنين قادمين من الزمان هي معقل الآريوسية، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل استطاعوا إدخال قبائل القوط الشرقيين (الأوستروجوث) والبرجنديين والوندال في الديانة المسيحية على أساس المذهب الآريوسي أيضًا.

توجهت إرساليات تالية مدعومة أيضًا من القصر الإمبراطوري إلى أثيوبيا والمنطقة العربية وإلى الهند. ولكن لم تكن فقط الشئون الخارجية هي التي رفعت من شأن قسطنطيوس، وأظهرته في صورة المتحمس لرفعة شأن المسيحية والعمل على تقدمها إلى الأمام، فلقد واصل سياسية أبيه القديمة من أجل منح طبقة رجال الدين امتيازات خاصة، وفي الوقت ذاته حرمان الكهنة الوثنيين من تلك الامتيازات. وبعد وقت قليل فإنه سوف يصدر

1- On Ulfila, see Hagith Sivan, "Ulfila's Own Conversion," *Harvard Theological Review* 89:4 (October 1996): 14 et seq.

قرار بإغلاق المعابد الوثنية وتحريم ممارسة شعائر التضحية بالحيوان. كما قام أيضًا بإصدار تشريعات متعددة ضد اليهود ومن ضمنهما تحريم زواج الرجال اليهود بالنساء المسيحيات، وتحريم قيام اليهود بطقوس الختان لعبيدهم^[1]، لكن مثل هذه الإجراءات كانت تشير بوضوح إلى أن المنافسة كانت ما تزال مستمرة بين المسيحية واليهودية من أجل اكتساب أتباع جدد^[2]، وفي غضون ذلك فإن الإمبراطور قسطنطيوس أصدر قرارًا بإعفاء رجال الكهنوت المسيحيين وأولادهم من دفع الضرائب إلى المدن، وأصدر قرارًا بعدم إلزامهم بدفع أي من أنواع الرسوم المالية التي كانت تفرض عادة على الشعب من أجل دعم المجهود العسكري والجيش، وكانت تلك المعاملة التفضيلية المميزة التي عامل بها الإمبراطور رجال الكهنوت المسيحيين، هي التي جعلت من الصعب على هؤلاء الكهنة (على الرغم من اعتقادهم بأن إيمان الإمبراطور لم يكن أرثوذكسيا) أن يصوروه في صورة عدو الكنيسة عن وعى وإدراك وتعمد (كما كانت هي العادة في مثل تلك المواقف).

وسرعان ما تحسن موقف الإمبراطور قسطنطيوس وازداد قوة نتيجة للتطورات الحادثة في الغرب، فقسطنطازن المتعجرف غير المستقر لم يكن يحظى أبدا بالإعجاب أو التقدير من بين أتباعه الغاليين أو البريتون.

1- Heinrich Graetz, History of the Jews, vol. II (1893; reprint, Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1949), 567.

2- ربما يقصد المؤلف هنا أن المنافسة بين المسيحية واليهود هي على منع تحول المزيد من اليهود إلى الديانة المسيحية إذ أن الديانة اليهودية هي من الديانات التي لا تهدف إلى التبشير بها خارج الأمة اليهودية باعتبار أنها هي شعب الله المختار على عكس المسيحية التي لم تحدد فئة محددة للتبشير بها، حيث بدأ السيد المسيح دعوته في الأساس بين جماعة اليهود ثم توسعت في زمن بولس الرسول لشمّل غير اليهود أيضا - (المترجم).

وسرعان ما ازداد الوضع سوءا في المناطق التي يحكمها قنسطانز. وإذا ما صدقت التقارير التي كان قسطنطيوس يتلقاها من عملائه في الغرب حول الأوضاع هناك، فإن مكانة قنسطانز كحاكم للغرب أصبحت الآن في وضع حرج للغاية. فتمتع الحاكم بشعبية بين عامة الشعب هو أمر هام للحفاظ على سلطته، ولكن الأمر الأهم بكثير كان ضرورة تمتعه بولاء وإخلاص كبار المسؤولين وقادة الجيش وقائده، فمثل هذا الدعم كان هو العامل الحاسم في قدرته على الحفاظ على سلطته، وباعتباره ابنا لقسطنطين الكبير فإن هذا الأمر منح الحاكم الشاب في البداية متنفسا ينعم به قليلا، ولكن سرعان ما بدء قنسطانز يفقد الثقة بين أتباعه من كبار المسؤولين والقادة، وأصبح الآن عدد قليل للغاية هم الذين يدينون له بالولاء والإخلاص، ولم تستطع أغلبية تلك النخبة تحمل هذا الإمبراطور المتعجرف الذي يتسم سلوكه بالعنف والطيش وفي الوقت ذاته لم يكن يتمتع بكفاءة في الحكم أو الإدارة ولا يمكن الوثوق به أو الاعتماد عليه في تولي شئون الإمبراطورية، وفوق ذلك كله لم يكن من الممكن أبداً بالنسبة لإمبراطور مسيحي أن يكون فاسداً من الناحية الشخصية، فالالتهامات التي وجهت له كانت تتراوح من الشذوذ الجنسي إلى قبول الرشاوى أو طلبها، وكانت المشكلة الكبرى التي تواجهه الآن هي الثقة المفقودة بينه وبين قادة الجيش، ومع قيام المحاربين الفرنجة بتحدي الدفاعات الرومانية الحدودية على طول امتداد نهر الراين فإن الشاب المضطرب ظهر وكأنه عاجز عن اتخاذ أي قرارات أو أفعال حاسمة، وانتشرت الشائعات أن ضباط جيشه يتآمرون من أجل الإطاحة به.

هل قام قسطنطيوس بتشجيع تلك المؤامرات؟ لن يتعجب المرء إذا علم أنه قام بذلك، غير أنه لا توجد في الحقيقة أية أدلة لدعم مثل

هذا المزاعم، ولكن الأمر المؤكد أنه لم يتردد لحظة في استغلال حالة الوهن والضعف التي تعتري أخاه من أجل التخلص من أعدائه القدامى. فمستشاروه الدينيون ورجال الكهنوت المقربون منه أحاطوه علماً بأن كلا من أثناسيوس وبولس ما زالا يرفضان بعناد الدخول في شركة مع أولئك الذين يصفونهم بأنهم هراطقة وعملاء للشيطان، وأخطر من هذا أنه في تقديره الشخصي أن ترك مناصب الأسقفية في مدينة الإسكندرية (التي كانت تمثل مخزونه الذي لا ينضب من الحبوب) ومدينة القسطنطينية عاصمة إمبراطوريته في أيدي أمثال هؤلاء الأساقفة غير المخلصين له كان مخاطرة كبرى وعملاً أحمق قد يعادل سلوك أخيه الشاذ. لم يكن هناك أي سبب للتأخير في التحرك ضد الرجال المعادين للآريوسية بادئاً بالهدف الأضعف في تلك الحلقة وهو بولس أسقف القسطنطينية.

قائمة طويلة من الجرائم كان من الممكن توجيهها إلى بولس ومن ضمنها إثارة أعمال العنف التي قام بها عقب عودته الأولى إلى القسطنطينية، وقبل أن يخطو الإمبراطور مثل تلك الخطوة بعزل أسقف القسطنطينية فإن عملاءه بالعاصمة قاموا بتهيئة الرأي عام لمثل هذا القرار، والتأكد من أن عزل بولس وإزاحته عن عرش أسقفية القسطنطينية لن يعقبه أي أعمال عنف تذكر من قبل أتباع بولس في المدينة، وبالفعل لم يمضي وقت طويلاً بعد أن قام ملك الفرس شابور برفع حصاره عن أبواب مدينة نصيبين ومغادرته حتى عقد أساقفة آسيا الصغرى مجمع كنسي خارج مدينة القسطنطينية قرروا فيه عزل بولس عن منصب أسقف العاصمة وإرساله إلى الإمبراطور قسطنطيوس مقيداً في الأغلال، هذه المرة لن يقوم الإمبراطور بما كان معتاداً القيام به من نفي رجال الدين إلى الغرب لكي يتآمر مع قنسطانز ضده، فبدلاً من أن يضعه في سفينة متجهة إلى أراضى

الإمبراطورية الغربية فإنه قام بإرساله تحت حراسة مسلحة إلى قرية صغيرة منعزلة في القوقاز في جبال طوروس في شرق إقليم كبادوكيا، وهناك ظل تحت المراقبة الدقيقة^[1].

بعد هذا سرعان ما انعقد شمل مجمع كنسي آخر في مدينة أنطاكية وقرر إدانة أثناسيوس وعزله من منصبه، ومرة أخرى فإن المجتمعين سردوا قائمة طويلة من الاتهامات التي كانت قد وجهت لأثناسيوس في السابق، ولكن هذه المرة فانهم شددوا على ارتكابه أعمالا تتسم بالعنف والتآمر السياسي أكثر من التركيز على أفكاره أو معتقداته اللاهوتية.

قام المجتمعون في مجمع أنطاكية باتهام أثناسيوس بالتآمر لإيقاع الخلاف والشقاق بين الإمبراطورين الأخوة قسطنطيوس وقنسطانز، وأشاروا إلى أن عودته إلى الإسكندرية جاءت بناء على الضغوط السياسية مخالفا بذلك على الأقل قرارات أربع مجامع كنسية.

وكان اختيارهم للشخص الذي سوف يحل محل أثناسيوس في منصب أسقف الإسكندرية هو جورج الكبادوكي، الأسقف الآريوسي المخلص الذي قضى بعض الوقت في الدراسة بمدينة الإسكندرية، وأصدر قسطنطيوس أوامره لوالى المدينة لمرافقة جورج إلى الإسكندرية. تزامنت تلك الأحداث مع الأنباء المروعة القادمة من الغرب بأن قنسطانز الإمبراطور الشاب تم قتله بطريقة وحشية من قبل مغتصب للعرش غير معروف من قبل.

جاءت الأنباء لتوضح مجرى الأحداث التي جرت، حيث اتضح أن المغتصب لعرش الغرب هو قائد من الغال يدعى ماجينيتيوس

1- The deposition and imprisonment of Paul are discussed at some length in Barnes, Athanasius and Constantius, 214—217.

Magnentius، كان ينتمي إلى أسرة عادية ولكنه كان في الوقت ذاته يتمتع بموهبة عسكرية غير عادية. وفي مدينة أوتون Autun في وسط إقليم الغال في يناير من عام 350 أعلن نفسه إمبراطوراً عبر سلطة الجيش. كان مغتصب العرش مستعداً جيداً، فلم يواجه فعلياً أية مقاومة من قبل الأتباع القلائل الذين ظلوا مخلصين لقنسطانز حتى النهاية، وحاول قنسطانز الفرار إلى الجنوب باتجاه مدينة ناربون Narbonne على ساحل البحر الأبيض المتوسط أملاً في الهرب والنجاة عبر البحر، ولكن رجال ماجينتيوس استطاعوا إلقاء القبض عليه خارج المدينة وإعدامه على الفور في نفس المكان.

على الفور أرسل ماجينتيوس (الذي كان هو الآخر بدوره مسيحياً) خطاباً إلى قسطنطيوس يطلب منه الاعتراف به بصفته أغسطس للغرب. لكن لم تكن هناك أية فرصة لحدوث هذا، وأصبحت الحرب وشيكة بين الرجلين. وبينما أنهى قسطنطيوس حملته ضد الفرس، واستعد للزحف إلى الغرب، فإن ماجينتيوس استطاع السيطرة على أقاليم شمال إفريقيا وتحرك سريعاً من أجل السيطرة على إيطاليا، وهناك استطاع سحق تمرد قاده أحد أبناء أخوة الإمبراطور. وفي البلقان فإن كوستنتينا الأخت الغير شقيقة للإمبراطور قسطنطيوس رأت أن سيطرة قائد موال لأخيها الراحل على إيطاليا وإعلان نفسه إمبراطوراً ربما يكون حلاً جيداً من أجل إبعاد تلك الأراضي عن يد مغتصب العرش ماجينتيوس، ووجدت ضالتها في القائد فترينيوس الذي أعلن نفسه إمبراطوراً، ولكنه سرعان ما سوف يخضع لإرادة الإمبراطور قسطنطيوس ويدعن لأوامره وسلطته بمجرد عبور جيشه إلى الأراضي الأوروبية.

وصلت جيوش قسطنطيوس إلى إقليم البلقان في أوائل عام 351 م،

وقام بضم فيالق القائد فترينيو إلى جيشه، واتخذ من مدينة سيرميوم مقراً لقيادة جيشه العسكرية، في حين أن العاصمة الإمبراطورية كانت جنوب الدانوب، كما قام بإرسال جيش لمواجهة جنود ماجينيتيوس، ولكن النصر لم يكن سهلاً كما تصور البعض، فالحرب الضروس استمرت بين قسطنطيوس وماجينيتيوس لمدة ثلاثة أعوام كاملة، ومما أدى إلى إطالة فترة الحرب تلك ليس فقط المهارة العسكرية الكبيرة التي كان يتمتع بها ماجينيتيوس والقدرات القتالية العالية لأفراد جيشه ولكن أيضاً الانشقاق والهوة الكبيرة التي كانت تفصل بين المنتمين للقسم الشرقي اليوناني والغربي اللاتيني في جيش قسطنطيوس. فمع أن شرعية قسطنطيوس القانونية للمطالبة بالعرش كانت بالتأكيد أقوى بكثير من شرعية ماجينيتيوس الذي سعى بشكل محموم ويائس لإيجاد أية شرعية له للمطالبة بالعرش من خلال محاولته تأسيس علاقة ملكية من خلال الزواج من إحدى حفيدات قسطنطين الكبير، إلا أن زحف قسطنطيوس ناحية الغرب ظهر وكأنه أقرب إلى غزو لتلك الأراضي، وهو الأمر الذي عزز من الدعم المقدم من الرجال الغربيين المجندين للقائد الغالي ماجينيتيوس (باعتباره رجلاً ينتمي إليهم).

ربما كان بمقدور ماجينيتيوس أن يخوض حرباً طويلة ومرهقة مع جيش قسطنطيوس إذا اختار أن يخوض تلك الحرب في صورة حرب عصابات، ولكنه على ما يبدو رأي أن هذا الأسلوب لا يليق بجيش وقائد روماني وإنما هو عمل من أعمال البرابرة الغزاة، ولذلك فقد فضل خوض مواجهات مباشرة ضد جيش قسطنطيوس.

وفي سبتمبر من عام 351، وبعد نشوب عدة معارك صغيرة تبادل فيها الطرفان النصر والخسارة، خاض القائد المتمرّد ماجينيتيوس إحدى المعارك الفاصلة أمام جيش قسطنطيوس في مدينة موريا Mursa في شمال

البلقان. وكانت الإصابات الناجمة من تلك المعركة مروعة في كلا الطرفين، ولكن في النهاية مالت كفة النصر ناحية جيش قسطنطيوس. وفي العام التالي استطاع الإمبراطور قسطنطيوس إخضاع إيطاليا تحت سيطرته، وبحلول صيف عام 353 استطاع جيشه عبور جبال الألب متوغلاً في أراضي الغال وإلحاق الهزيمة بجنود ماجننتيوس بشكل قاطع. في العاشر من أغسطس قام ماجننتيوس المعتصب للعرش بالانتحار في مدينة ليون تاركاً قسطنطيوس باعتباره الحاكم الوحيد للإمبراطورية الرومانية.

لكنه لم يكن وحيداً تماماً. فعندما نشبت تلك الحرب الأهلية فإن قسطنطيوس أدرك أنه لن يكون بقدره أن يحكم تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف بمفرده، فعند زحفه إلى الغرب ووصوله إلى البلقان كان برفقته اثنان من أبناء أخوة قسطنطين الكبير بقيا على قيد الحياة في أثناء المذبحة المروعة التي جرت أحداثها أثناء النزاع على عرش الإمبراطورية في أعقاب موت قسطنطين الكبير وارتقاء أبنائه الثلاثة إلى عرش الإمبراطورية. كان أول أبناء العمومة هؤلاء هو جالوس Gallus الذي جعله قيصراً على الشرق، وقام بتزويجه من أخته. كان دور جالوس هو إدارة الإمبراطورية الشرقية ومراقبة الجبهة مع الفرس متخذاً من أنطاكية مقراً له خلال الفترة التي سوف يغيب فيها قسطنطيوس في الغرب. ولكن غطرسة وطيش جالوس أثبتت أنه ما هو إلا نسخة أقل تهذيباً من قنسطانز، فلقد كان حاكماً لا يتمتع بالكفاءة أو المسؤولية اللازمة لإدارة الجزء الشرقي من الإمبراطورية، وأدت قلة كفاءته وطيشه هذا إلى أول ثورة ضد حكمه في الشرق وهي ثورة اليهود في إقليم فلسطين، وتدرجياً امتدت الثورة لتشمل الإقليم بأكمله الذي أصبح يتميز غيظاً من طريقة إدارة جالوس. وبعد هزيمة ماجننتيوس طلب قسطنطيوس من جالوس القدوم إلى مقر

الإمبراطور في ميلانو، وهناك قام بتجريدته من سلطته وشارته الإمبراطورية باعتباره قيصرًا، وقام بمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى والحكم عليه بالإعدام، وهو القرار الذي نفذ على الفور في البلاط الإمبراطوري في نفس المكان الذي لاقى فيه ابن قسطنطين الكبير كريسبوس مصيرًا مشابهًا قبل نصف قرن من الزمان.

كان الأخ الأصغر غير الشقيق لجاللوس يدعى جوليان يبدو وكأنه صنع من معدن مختلف تمامًا عن أخيه جاللوس، فعندما كان قسطنطيوس منهمكًا في حربه مع ماجنيتيوس فإن جوليان كان منغمسًا في دراسة الفلسفة مع مجموعة من الفلاسفة المسيحيين والوثنيين زاهدًا في أية سلطة أو نفوذ دنيوي، وقام قسطنطيوس باستدعائه لحضور محاكمة أخيه جاللوس ومشاهدة إعدامه، وبعد فترة سمح له باستكمال دراسته في أثينا وهو راض ومقتنع بوفائه وإخلاصه له. وهناك تأثر جوليان بشدة بمدرسة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والأعمال العظيمة التي كان يقوم بها الكهنة الوثنيون، ومن الآن فصاعدًا فإنه سيرتبط ارتباطًا عاطفيًا قويًا بالأفكار الدينية القديمة الوثنية (وهو الارتباط الذي سيحافظ عليه بشكل غير معلن).

وفي عام 355، وبعد تزايد خطر القبائل الجرمانية، وقيام المحاربين الفرنجة بعبور نهر الراين، واجتيازه، ونهب كل من مدينة كولون وماينتر، محدثين بذلك ثغرة خطيرة في الدفاعات الرومانية، أصدر الإمبراطور قسطنطيوس (والذي غالبًا لم يكن يعلم أي شيء عن المعتقدات الدينية الوثنية لجوليان) قرارًا بتعيينه قيصرًا للغرب من أجل صد الهجمات التي تزايد خطرها مؤخرًا. وعلى الفور باشر جوليان الذي أتخذ من مدينة ترير الألمانية عاصمة له المهمة الثقيلة الملقاة على عاتقه لصد غزو القبائل الجرمانية.

على الأرجح فإن قرار قسطنطيوس بتعيين جوليان في مثل هذه الظروف الصعوبة جاء بناء على قناعة الإمبراطور أنه في جميع الأحوال سيكسب من وراء هذا القرار، فلو استطاع الفيلسوف الشاب جوليان أن ينتصر على قبائل البرابرة، ففي هذه الحالة فإن الفضل كله سيعود إلى قسطنطيوس، بينما إذا تمكن البرابرة الجرمان من قتل القيصر الجديد جوليان، وهو الأمر الأقرب إلى الواقع (حيث إن جوليان كان اهتمامه طوال حياته السابقة منصباً بشكل كبير على الفلسفة والعلم لا الشؤون العسكرية) وفي تلك الحالة سوف يتخلص الإمبراطور من قريب له غامض النوايا (فقسطنطيوس طالما نظر بعين الريبة تجاه نوايا جوليان).

ولمفاجأة الجميع ودهشتهم بما فيهم جوليان نفسه، فقد أثبت العالم والفيلسوف الشاب أنه قائد عسكري كفء واسع الحيلة والدهاء، واستطاع سريعاً أن يحظى بشعبية واسعة بين أشخاص الجيش الروماني، وتمكن عن طريق التعاون والتنسيق ببراعة عالية مع جيش روماني آخر يقوده قسطنطيوس نفسه من هزيمة الفرنجة وتأمين الحدود الإمبراطورية على طول نهر الراين للمرة الأولى منذ فترة ليست بالقصيرة.

ومع استقرار الغرب وتمتعه بالسلام، ولو على الأقل مؤقتاً، ترك قسطنطيوس جوليان في مدينة ترير وغادر متجهاً إلى سيرميوم، مطمئناً إلى أنه أخيراً تمكن من تعيين جندي وحاكم يتمتع بالكفاءة العالية لتمثيله في حكم أوروبا. وقد حكم جوليان الغرب باعتباره مسيحياً صالحاً وعلى الأرجح أبدى ميلاً طفيفاً إلى العقيدة النيقية التي كان يعتنقها أغلب أساقفة الغرب، ولكنه بشكل حذر تجنب الانحياز إلى أي من الجوانب والمذاهب المسيحية المتنافسة، وعلى الرغم من أن جوليان حظي بإعجاب قسطنطيوس بسبب نضجه وحكمته وقدرته على اتخاذ القرارات السليمة، إلا أنه سيأتي الوقت

الذي سوف يندم فيه الإمبراطور على قراره باختيار جوليان كقيصر للغرب، ولن تمضي فترة طويلة حتى يأتي ذلك الوقت.

ارتقى الآن قسطنطيوس إلى مكانة أبيه قسطنطين الكبير كحاكم وحيد لإمبراطورية رومانية غير مقسمة تمثل مجتمعا مسيحيا واحدا، وربما يظن المرء أن الأمر كان ببساطة مجرد احتواء الشرق اليوناني للغرب اللاتيني، ويمكن قول الشيء نفسه على الفكر الآريوسي الذي غطى وطغى على مثيله النيقى، وكان السؤال الذي يجول في عقول جميع الناس، كيف سيستخدم قسطنطيوس مثل هذه القوى الاستثنائية التي يتمتع بها الآن؟ فأثناسيوس الذي لم يكن أبدا بالإنسان الضعيف الجبان، والذي ظل مع كل هذه الضغوط متواجدا في الإسكندرية وكأنه مجرم مدان في انتظار النطق بحكم العقوبة الصادر بحقه. فلقد علم للتو بمصير بولس أسقف القسطنطينية وتساءل عما إذن كان مقدرا له أن يلقي نفس المصير؟

بولس المسكين، الذي أرسل الآن إلى منفاه البعيد في أقصى القوقاز، والذي اعتقد أن وضعه كأسقف سوف يحميه من أية جزاءات أخرى، ولكن ما لم يكن يضعه في حسابه هو تأثير الحرب الأهلية وكيف أن نتائجها سوف تغير الكثير من القوانين التي كانت تحكم الحوادث المشابهة في الماضي. فقسطنطيوس وقد أصبح الآن الحاكم الوحيد للإمبراطورية، كان بمقدوره أن يتصرف بالطريقة التي تحلو له إزاء تلك الخلافات الدينية التي طالما قضت مضاجعه خلال السنوات الماضية التي كان ينازعه فيها شخصيات أخرى مقاليد السلطة في الإمبراطورية. وبالعودة إلى بداية النزاع بين قسطنطيوس وماجنينتيوس، فإننا سوف نجد أن الأخير وقد تيقن أن قسطنطيوس لن يعترف به أبدا كأغسطس للغرب فقد بدأ في بذل محاولات جدية من أجل ضمان

الحصول على تأييد أعداء قسطنطيوس في الشرق، وقام بإرسال رجال دين مصحوبين بدبلوماسيين أو جنود كمبعوثين إلى الشرق يحملون رسائل منه يعرض فيها الصداقة على القادة الدينين للمعسكر المعادي للآريوسية، مع تقديم الوعود لنصرة العقيدة النيقية إذن ما انتصر في الحرب الدائرة بينه وبين قسطنطيوس.

أما أثناسيوس فقد رفض بحس سليم العرض الذي قدمه مبعوثو ماجيننتيوس، وحرص على الظهور في اليوم التالي محاطا بكبار رجال الدولة المدنيين من أجل الصلاة العلنية بصوت مرتفع ودعاء الرب من أجل نصرة الإمبراطور الوريث أغسطس قسطنطيوس^[1]، في حين أن بولس كان أقل حصافة وحكمة، ولذلك فإنه استقبل في منفاه مبعوثي ماجيننتيوس ورد على رسالته، وعلى الأرجح فإنه قام بإظهار بعض المواقف المشجعة لقضية ماجيننتيوس ولكن على نحو غير صريح، كانت حماقة بولس بقيامه بمثل هذا العمل كافية، ولذلك لم يجد عملاء قسطنطيوس أي صعوبة في العثور على العديد من الأدلة التي تدين بولس بارتكاب جريمة الخيانة العظمى. وتمرر الإمبراطور كلمة إلى فيلببوس الحاكم القضائي (المسؤول الرئيسي عن تنفيذ القانون) والذي بدوره قام بتمرير رسالة إلى الحراس الذين يراقبون بولس في القوقاز. وبناء على تلك الأوامر، تم انتهاك العرف السائد بالحصانة التي يتمتع بها الأساقفة من أي عقاب أو إيذاء جسدي، ومن ثم فإن الحراس ألقوا القبض عليه ووضعوه في زنزانة ضيقة وقاموا بتجويعه لمدة ستة أيام ثم تم خنقه بعد ذلك.

وفي حين تمكن أثناسيوس من تجنب نزول كارثة عليه مشابه لتلك

1- Ibid., 103.

التي حاقت ببولس ليس فقط لقيامه بالصلاة العلنية والدعاء من أجل نصره قسطنطيوس، ولكن هذا يرجع أيضًا إلى أن الإمبراطور لم يرد أبدًا الدخول في مواجهة صريحة مع رجل في مثل قوة أثناسيوس في الوقت الذي مازال فيه ماجينيتيوس حيا، فأثناسيوس كان بلا منازع هو أقوى رجل في مصر خلال أوائل الخمسينيات من القرن الرابع الميلادي "350-360"، وفي ضوء التهديد الذي كان يمثله ماجينيتيوس ومحاولته عزل مصر عن باقي الشرق، مثل تلك التهديدات جعلت قسطنطيوس يؤجل المواجهة مع أسقف الإسكندرية أثناسيوس ويؤخر تعيين جورج الكبادوكي في منسبة الكهنوتي. ثم قام بعد ذلك بإرسال رسالة إلى أثناسيوس يخبره فيها بضرورة "عدم تصديق الشائعات التي تدور حول دوره في مقتل أخيه الإمبراطور قنسطانز" مخاطبًا أثناسيوس بقوله "إن حكمتك سوف تمكنك بسهولة من الحكم على مقدار الحزن والأسى الذي شعرت به عند مقتل أخي في واحدة من أخط الخيانات وأحقرها". واختتمت الرسالة تلك الكلمات "وبسبب عزمنا وتصميمنا على ذلك، وهو ما يأتي متوافقًا مع رغباتكم وأمانيتكم فإنكم سوف تظلون أسقفًا مكانكم في جميع الأزمنة (ما دتم على قيد الحياة)^[1]. وحثت تلك الرسالة أثناسيوس على مواصلة القيام بواجباته الأسقفية. وعلى الرغم من هذا الخطاب، فإنه بعد نشوب الحرب فإن أثناسيوس الدؤوب لم يكن بمقدوره أن يتفادى الاتهامات بإجراء اتصالات تعد من قبيل الخيانة مع ماجينيتيوس. وقرر مجمع الأساقفة الذي انعقد في مدينة أنطاكية في عام 351 وكان قوامه الأكبر من الأساقفة الآريوسيين التحقيق في اتهامين موجهين إلى أثناسيوس: الأول أنه حاول إيقاع

1- Ibid., 104.

العداوة والبغضاء بين الأخوة الأباطرة قنسطانز وقسطنطيوس، الثاني أنه كان مناصراً نشطاً وفعالاً في جانب ماجينتيوس. ومن أجل دعم تلك المزاعم والاتهامات فإن الأساقفة المجتمعين في أنطاكية قاموا بتقديم خطاب موجه إلى المغتصب ماجينتيوس، وزعموا أن هذا الخطاب كتب بخط يد أثناسيوس إليه، يعلن فيه عن استعداده لمساعدته ضد خصمه غير المؤمن.

قام أثناسيوس بالدفاع عن نفسه ضد هذه الاتهامات بتقديمه وثيقة معنونة "الدفاع أمام قسطنطيوس" وفي المقام الأول أصر على أنه لم يقابل أبداً الإمبراطور قنسطانز بشكل فردي، فجميع مقابلاته مع إمبراطور الغرب كانت تتم في العلن وأمام كبار المسؤولين الذين كانوا موجودين وحاضرين تلك الاجتماعات، وباستطاعتهم أن يدلوا بشهادتهم بأنه لم يتحدث أبداً بسوء عن الإمبراطور قسطنطيوس أمام أخيه، وأوضح أنه لم يفكر أبداً في تبادل الخطابات مع الخائن ماجينتيوس متسائلاً ببلاغة عن أي سبب قد يدفعه للكتابة لمثل هذا الإنسان؟

فإذا كتبت إلى إنسان مثله فكيف يمكن لي أن استهل خطابي؟ هل باستطاعتي أن أقول له إنك أحسنت صنعاً بقتل الإنسان الذي أحسن إلى وعاملني بشرف واحترام، والذي لا يمكن أن أنسى أبداً إحسانه إلي؟ أو هل بمقدوري أن أوافقه على قيامه بقتل أصدقائي وأخوتي المسيحيين الأكثر إيماناً وإخلاصاً^[1].

وبالنسبة للخطاب المنسوب إليه والمزعم أنه قام بإرساله إلى مغتصب العرش ماجينتيوس: فإنه وعلى حد قوله لم يكن أكثر من تزوير محض متقن.

1- Schaff and Wace, Athanasius: Select Works and Letters, 240.

” حتى إذا كان بمقدور أعدائي إظهار خطاب مكتوب بخط يشبه خطي، فإن هذا الأمر لا يعد بمثابة دليل يقيني، فهناك الكثيرون من المزورين الذين باستطاعتهم كتابة خطوط مشابهة حتى للأباطرة، ولذلك فسوف أسال الذين يوجهون الاتهامات إلى مرة أخرى، من الذي زودك بمثل تلك النسخ؟، ومن أين حصلت عليها“^[1].

كان السؤال هل أثناسيوس هو ذلك الشخص شديد الحماسة الذي يمكن أن يرتكب خيانة عظمى عن طريق الكتابة بخط يده؟ هل كان حقيقيا أنه لم يجتمع بالإمبراطور قنسطانز على انفراد ولو حتى مرة واحدة؟ وبغض النظر عن حقيقة تلك المسائل فإن الأمر المؤكد هو أنه برغم إدراك قسطنطيوس أن جميع هذه الاتهامات الموجهة إلى أثناسيوس هي اتهامات سطحية ولا توجد أي قرينة عليها، إلا أنه مع ذلك ومع اقتراب انتهاء الحرب في صالحه فإنه أدرك بوضوح شديد حقيقتين مهمتين: الأولى أنه لا يمكن إصلاح أثناسيوس وتغيير طبعه باعتباره شخصاً مثيراً للمشاكل والمتاعب وقد أصبح بمثابة عدوه اللدود المزمّن وبالتالي ضرورة التخلص منه، الأمر الثاني الذي أدركه قسطنطيوس أن المواجهة المباشرة مع أثناسيوس ربما تكون تصرفاً غير حكيم، وبالنظر إلى الشعبية الكبيرة التي يتمتع بها الأسقف فإن تكلفة التخلص منه وقمعه ستكون عالية للغاية. وتوصل قسطنطيوس إلى استنتاج مؤداه أن المشكلة الحقيقية ربما لا تكمن في أثناسيوس أو الخلاف الآريوسي في حد ذاته، ولكنها تكمن في دور هذا الخلاف في تعميق الخلاف بين الشرق والغرب.

فالانقسام بين المسيحيين اللاتين واليونان أثبت أنه يمثل خطراً

1- Ibid., 242.

على قوة قسطنطيوس وسلطته بنفس القدر الذي يمثله على وحدة المسيحية. وعندما تنتهي الحرب الأهلية بمساعدة الرب فإنه سيصبح الحاكم الوحيد للإمبراطورية غير المقسمة قانونًا، ولكن ما هي أهمية الوحدة القانونية إذا كان شعب الإمبراطورية منقسمًا دينيًا على نفسه بهذا الشكل؟ وإذا لم تحل المشكلة فإن نفس القضايا الثقافية والدينية التي أوغرت صدر أخيه قنسطانز ضده سوف تجعل ظهور حركات تمرد أخرى أمر محتومًا، ومن شأنها من ثم أن تضعف من قدرة الإمبراطورية على صد غزوات البرابرة. وكانت إجابة قسطنطين على مثل هذه التهديدات هي: لا، فلن يتخلى أبدًا عن حلمه باستخدام المسيحية من أجل توحيد الشعب الروماني، وعند نهاية الحرب فإنه سيعمل على إبعاد المتطرفين من كلا المعسكرين الشرقي والغربي وعزلهم عن التيار عام، وسيعمل على دفع المعتدلين من كلا الفريقين على العمل معا في انسجام من أجل تحقيق الوحدة المنشودة.

وبالتأكيد، عندما يتحدث قسطنطيوس عن الاعتدال، فإن ما يعنيه هو الآريوسية المعتدلة، فالروايات تشير إلى محاولات الربط بين انتصاره في الحرب الأهلية وبين اعتناقه ودفاعه عن المذهب الآريوسي. ووفقا لرواية أحد مؤرخي القرن الرابع الميلادي، كان الإمبراطور ينتظر بقلق أنباء معركة مورسيا في كنيسة صغيرة بالقرب من أرض المعركة، مدركا تمامًا أن مسار الحرب الأهلية سوف يتحدد بناء على نتيجة هذه المعركة^[1]. ومن حسن حظ الآريوسية أن فالنز أسقف كنسية مورسيا كان معروفًا أنه من أتباع المذهب الآريوسي. ووفقا لرواية المعسكر المعادي للآريوسية فإن الأسقف الماكر واسع

1- The story as told by Sulpicius Severus is related by Hanson, Search, 317.

الحيلة قام بالاتفاق مع بعض الرجال لكي ينقلوا إليه أنباء المعركة على وجه السرعة قبل معرفة أي شخص آخر بتلك الأنباء⁽¹⁾. وبمجرد وصول أنباء الانتصار إليه أسرع إلى الإمبراطور ليخبره بأن ملاكاً ظهر له وبشره بأنباء النصر. وفي أعقاب تلك الواقعة جعل قسطنطينوس من فالنز من الآن فصاعداً واحداً من أقرب مستشاريه.

على أية حال فإننا لسنا في حاجة إلى مثل هذه القصة لتبرير ميل الإمبراطور لتيار الآريوسية الرئيسي، إلا أن وجود أسقف غربي آريوسي مثل فالنز أسقف مورسيا بجانب الإمبراطور لعب بالتأكيد دوراً مهماً في تعميم الآريوسية على كافة أنحاء الإمبراطورية، وكانت الآريوسية هي المذهب الديني المهيمن على تلك المنطقة مع فكرة الترتيب الإلهي من ناحية القوة بدءاً من الآب ثم الابن ثم الروح القدس والتي رتبت طبقاً لدرجتها النسبية من القوة. وقد تمتع هذا المذهب بدرجة عالية من الجاذبية في الشرق، وأهم من هذا هو أن الكثير من تلك الأفكار بدت جاذبة للعديد من أشخاص النخبة الإمبراطورية.

بالإضافة لذلك، فقد كان هناك عنصر عقلائي في العقيدة الآريوسية وهو الإصرار على الوضوح والمنطق، والقراءة المتأنية المتמاسكة التي قامت على مبادئ الفلسفة اليونانية. وعلى هذا الأساس فإن قسطنطينوس كان على الأرجح سيقدر مثل تلك الأفكار الآريوسية المعتدلة، والتي تبشر بقدرة البشر على إحراز تقدم أخلاقي والمساعدة في تحقيق الخلاص، وفي الوقت ذاته فإن تلك الآراء المعتدلة ستكون قادرة على قبول العديد من الآراء اللاهوتية المختلفة دون اتهام

1- This is one of the first known instances of the use of a tactic allegedly employed by Baron Rothschild to obtain early news of Napoleon's defeat at Waterloo, which permitted him to make a killing on the bond market.

أعدائها بأنهم عملاء للشيطان، وعدم ميلهم إلى ادعاء المعرفة الكاملة الدقيقة ببعض المسائل التي تتجاوز قدرة الإنسان على الفهم مثل طبيعة العلاقة الدقيقة بين الآب والابن.

وبشكل معكوس، فإن العقيدة النيقية وخاصة كما عبر عنها لاحقًا اللاتينيون المتعصبون من أمثال أمبروز من ميلانو، ولوسيفر الكرولسي (ذو العيون البرية) من سردينا بدت وكأنها عقيدة متغطرة في ادعائها معرفة العلاقة الإلهية بين الآب والابن، كما كانوا مغرمين أكثر من اللازم بالمتناقضات، غير متقبلين أو متسامحين مع الأفكار والعقائد اللاهوتية الأخرى، ويميلون للتمسك بالاحتياز بالأفكار المسبقة وحتى وإن بعدت الشقة بين تلك الأفكار وبين العقلانية والمنطق. وفوق ذلك فإن قسطنطيوس كان على الأغلب على علم بتذمر أساقفة الغرب المؤيدين للمذهب النيقى من التدخل الإمبراطوري في شئون الكنيسة، وعندما قام قسطنطين الكبير بنفي آريوس ورفاقه فإنهم هتفوا واصفين إياهم بالمنافقين الأفاقين، ومدحوا الإمبراطور لقيامه بنفي الآريوسيين خلف أعمدة هرقل. ولأن قسطنطيوس حاول التوفيق بين العالمين: اليوناني واللاتيني، وأدرك بوضوح أن الوقت حان لكي يتعامل بجدية مع خطر الانشقاق الذي أصبح يهدد الكنيسة نتيجة لتصلب آراء المعسكر النيقى التي لا تزيد الخلاف إلا اشتعالا. وكان يعلم أن كثيرا من رجال الكنيسة الغربيين ناصبوه العداء سواء أثناء خلافه مع أخيه الإمبراطور الراحل قنسطانز أو أثناء حربه مع مغتصب العرش ماجنيتيوس، ولذلك لم يكن ميالا إلى الانجذاب أو الانخداع بآرائهم، وفي الوقت ذاته لم يرد أن يلعب مجرد دور عقابي لهؤلاء الأساقفة، أو دور الإمبراطور المنتصر الذي يستطيع فرض آرائه على رجال الكهنوت الكارهين لتلك الآراء أو حتى على عامة الشعب،

كانت رغبته في حكم إمبراطورية رومانية موحدة قائمة على مجتمع مسيحي واحد ومتجانس هي نفسها الرغبة التي حلم بها قسطنطين الكبير يوماً ما، ولكنه كان ينوى ويخطط لأن يتجاوز ما حققه أباه، وأن يكرر ما فعله أبوه في مجمع نيقية، ولكن على نحو أفضل.

ففي النهاية، فإن أباه كان رجلاً غربياً غير متعلم لا يتمتع بالثقافة الإغريقية ولا يتحدث اللغة اليونانية، وبالتالي لم يكن بمقدوره أن يفهم تلك العواطف الدينية الجياشة في الشرق أو يتفهم الطبيعة الحقيقية للصراع اللاهوتي والسياسي. كما أنه اعتمد على مستشارين غير أكفاء لفهم الخلافات الدينية من أمثال الأسقف هوسيوس القرطبي (غير المتمكن من القضايا اللاهوتية والذي يتسم فكره بقدر من السطحية)، والأهم أن قسطنطين الكبير لم يول الخلاف الآريوسي الاهتمام الكافي أو يأخذه على محمل الجد، بل سعى إلى إيجاد حل سريع للخلاف، ولذلك فإنه قام خلال مجمع نيقية بفرض عقيدة معدة سلفاً على نحو غير مرض للجميع (خاصة الفريق الآريوسي)، ولم تحقق طموحات الأساقفة الشرقيين. وكانت تلك العقيدة النيقية مدعاة للانقسام أكثر من كونها عاملاً للوحدة، ثم بعد ذلك ولكي تصبح الأمور أسوأ فإنه فشل في دعم قراراته من خلال سياساته اللاحقة التي اتسمت بالتخبط، وغياب الإرادة والإصرار على تنفيذها. في المقابل كان قسطنطيوس مصمماً على تصحيح كافة الأخطاء التي ارتكبها والده في هذا الشأن. وكانت جهوده تمتد على نطاق الإمبراطورية بأسرها من خلال عقد سلسلة من المجمع الكنسية الصغيرة في أماكن متعددة تمهيدا لعقد مجمع مسكوني عالمي حقيقي يمكن من خلاله تحقيق الوحدة المنشودة في العالم المسيحي. كان الغرض من تلك العملية هو التأسيس لقاعدة مشتركة من

الأفكار الأساسية التي يمكن أن يبنى عليها توافقا عقائديا بين الفرق المسيحية المتنافسة، وبالتأكيد فإن العقيدة المسيحية كما صاغها مجمع نيقية لا يمكن أن تكون هي الأرضية المشتركة لهذا التوافق. فالتجربة السابقة أوضحت أن العقيدة النيقية كانت على العكس مصدرا مستمرا للنزاعات الدينية العنيفة، ولكن العثور على أساس أفضل لتحقيق التوافق بين تلك الأفكار اللاهوتية المختلفة لم يكن بالأمر الهين، ولتحقيق هذا الهدف كان لا بد من إبعاد العناصر المتطرفة والمتعصبة، أو تلك التي لا تدين بالولاء والإخلاص التام للإمبراطور من بين أولئك الذين يشغلون المراكز القيادية لكلا الفريقين، وعندما يتم التوصل إلى مثل هذا التوافق فإنه سوف يقوم بفرض هذا الإجماع مستخدما كل وسائل القوة الممكنة واللازمة.

ربما يعيد التاريخ نفسه، المرة الأولى في صورة تراجيديا بينما المرة الثانية في صورة مهزلة^[1]، فإيجاد إجماع (بين المذاهب اللاهوتية المسيحية المختلفة) هو ما تخيل قسطنطين الكبير أنه نجح في تحقيقه خلال مجمع نيقية، ولكن الوحدة الظاهرية التي بدت وكأنها تحققت هناك، سرعان ما أتضح أنها مجرد وهم، فالعقيدة المعروفة باسم النيقية وما تضمنته من الفكرة الهوموسية المثيرة للجدل، والتي كانت قد أعدت على عجل متوافقة مع أفكار ومعتقدات أغلب أساقفة الغرب، والقليل فقط من أساقفة الشرق المتركزين في مصر، لم تكن تتوافق مع أفكار العقل والمنطق لدى أغلب أساقفة الشرق ذوي الخلفية الثقافية اليونانية، ومثل هذا الواقع جعل قسطنطين

1- Karl Marx, "The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte," in David McLellan, ed., Karl Marx: Selected Writings (Oxford: Oxford University Press, 1977), 300.

يتخلى عن مسعاه من إيجاد مذهب توافقي يمكن من خلاله إرضاء كافة الأحزاب والفرق المتنافسة، وبدلاً من هذا لجأ إلى سياسية فرض الأمر الواقع بالقوة لما بدا له أنه يعبر عن رأى الأغلبية في نيقية.

ظن قسطنطيوس أن بإمكانه النجاح فيما فشل فيه والده، ولكن كيف يتأتى له هذا دون التوصل إلى أساس جوهري وحقيقي للتوافق بين المذاهب العقائدية المتصارعة؟ في الحقيقة فإن الابن قفز الآن دون قصد وبغير حكمة في نفس الشرك الذي أمسك بتلابيب أبيه من قبل. فقد اعتقد قسطنطيوس أن الإجماع المذهبي ما هو إلا آراءه اللاهوتية الخاصة والتي تتوافق مع آراء مجموعة من الأساقفة، ومثل تلك الآراء يجب أن تكون هي الأساس الذي يقوم عليه مثل هذا التوافق الكنسي، بالإضافة إلى ذلك فباعثه منتمياً إلى الثقافة اليونانية فقد تصور أن سمو تلك الثقافة وتفوقها على سواها من الثقافات (مال إلى إعطائها صورة الثقافة المفضلة للجنس البشرى بأسره) وخاصة سموها على ثقافة بعض المتعصبين اللاتين. وظن قسطنطيوس كذلك أن أباه الإمبراطور الراحل كان شديد الضعف في تعامله مع هؤلاء اللاهوتيين المهرة والساسة الكنسيين، ولذلك فإنه لن يتملق رجال الكهنوت المثيرين للمتاعب كما فعل أبوه الراحل من قبل، وفي المقابل فإنه سوف يتبع أسلوباً يمزج بين العقل والإجبار من أجل حث هؤلاء الأساقفة المختلفين على إنهاء صراعهم المدمر هذا من أجل مصلحة الإمبراطورية.

وفي مسعاه من أجل تجاوز وتخطي أباه، ارتكب الابن نفس أخطاء الأب الفادحة. فإثناء محاولته لدعم رؤيته وصونها قام بخيانة أفكاره ومبادئه. وإذا كانت الآلهة القديمة موجودة (وتراقبنا كما في الأساطير الإغريقية) فإنها لا بد كانت تسخر من محاولاته العبثية

التي برهنت على الغطرسة البشرية البغيضة والعمى عن القدر. والآن بدأت حملة غير مسبوقة داخل الكنيسة التي تتحكم فيها الآن الدولة من أجل الوصول إلى صيغة توافقية مقبولة للإيمان المسيحي على نطاق واسع، وكان قدر مناسب من القوة مطلوباً من أجل إقناع العازفين عن تلك الصيغة التوافقية. وفي مسعاه من أجل إنهاء الخلاف الآريوسي وتوحيد العالم المسيحي فإن قسطنطيوس دعا على الأقل تسعة مجامع كنسية إلى الانعقاد. أغلب تلك المجامع انعقدت في الغرب وبحضوره شخصياً، ففي البداية جاء اجتماع مجموعات من الأساقفة تحت إشرافه في مدينة سيرميوم في عام 351، ثم في أليس Alers في عام 353 ثم في بيزيه Beziers في عام 353 وميلانو في عام 355 و ثلاث مرات أخرى في مدينة سيرميوم في أعوام 357، 358، 359 م، ثم المجمع المشترك الكبير في ريميني - سيلويتشا Rimini-Seleucia في عام 359، وأخيراً في مدينة القسطنطينية في عام 360، بالإضافة إلى تلك المجامع فإن العديد من المجامع الأخرى انعقدت دون حضور الإمبراطور ولكنه منحها الإذن بالانعقاد، في حين أن المجامع التي لم يمنحها الإمبراطور الإذن بالانعقاد إما انصاعت لأوامره ولم تنعقد، أو انعقدت بشكل سري بعيداً عن أعين الإمبراطور.

ولقد اعتقد على نطاق واسع أن المجامع التي منحها الإمبراطور الإذن بالانعقاد كان يهيمن عليها الإمبراطور نفسه، وأن المذاهب الآريوسية التي دائماً ما تمخضت عنها كانت ما هي إلا استجابة رجال الكنيسة الخائفين من إرهاب الدولة، ولكن حقيقة الأمر كانت أكثر تعقيداً وإثارة، فالأمر لم يتوقف فقط على حدود الضغط، بل كان هناك إكراه بلا شك، حيث إن قسطنطيوس كان مستعداً أن يعزل الأساقفة غير الموافقين على تلك الآراء اللاهوتية أو يجمع أتباعهم بشدة. ولكن المشكلة طالما لا يوجد

أي منافس على عرش الإمبراطورية فلن يكن بالإمكان اتهام المنشقين عن تلك الآراء اللاهوتية بالخيانة، ولذلك تجنب الإمبراطور معاقبة المعارضين للآراء المذهبية باعتبارهم خونة، ونتيجة لهذا الأمر فإن القادة اللاهوتيين والمهيجين للغوغاء كانوا أحرار طوال الوقت لكي يفكروا ويثيروا الجدل والشغب على شرط استعدادهم لدفع ثمن محدد لموقفهم هذا، وعادة لم يتعد هذا الثمن التهديد بفقد مناصبهم الكنسية أو وضع بعض الصعوبات في حياتهم المحلية، ولكن الأمر لن يتجاوز هذا المستوى طالما لم توجه لهم تهمة الخيانة، وعلى الرغم من أن هذا الثمن الذي من الممكن أن يدفعوه في مقابل موقفهم لم يكن أمرًا محببًا إلى النفس أو يمكن تبريره، إلا أن قسطنطيوس كان بعيدًا جدًا عن كونه مستبدًا عنيفًا كما صورته أثناسيوس وبعض المنتقدين الآخرين له، فوفقًا لمقاييس ذلك العصر أو حتى بالمقارنة مع بعض الدكتاتوريين والمستبدين في العصر الحديث فإن قسطنطيوس كان بلا شك حاكم متساهلًا لين العريكة^[1].

وعلى الرغم من أن المجامع الكنسية التي انعقدت خلال خمسينيات القرن الرابع الميلادي لم تجر أعمالها ومباحثاتها بالطريقة التي أرادها وخطط لها قسطنطيوس، إلا أن النتيجة النهائية والمذهب الديني الذي انتهت إليه تلك المجامع كانت كما تخيله قسطنطيوس تمامًا، وهو عقيدة عريضة واسعة وبسيطة تستطيع استيعاب كافة الآراء المذهبية المختلفة سواء كانت آريوسية أو نيقية. وعلى الرغم من تلك النتيجة، إلا أن تلك المجامع تميزت بارتفاع حدة التوتر والعداء بين الفرق المتنافسة داخلها، ويمكن القول إن كل مجمع من سلسلة

1- Hanson, Search, 321, and see his general discussion at 315- 325. To similar effect, see Barnes, Athanasius and Constantius, 168175-.

المجامع تلك كان عادة أكثر اضطرابًا وصخبًا من المجمع السابق له مع حضور عدد أكبر من الأساقفة في كل مرة، وخاصة مع وجود الإمبراطور الذي أخذ يتدخل بشكل صارخ في النزاع عن طريق فرض آرائه على نحو متزايد. كان تبنى أي مذهب من المذاهب التي انتهت إليها أحد هذه المجامع لا يعنى إلا مزيدًا من الانشقاق والخلاف، ولم يكن مرجع هذا الاضطراب أن العالم المسيحي بأسره كان يؤمن بأن المسيح هو الله القدير، ولكن السبب يرجع إلى غياب الأفكار الأساسية التي كان من الممكن أن يبنى عليها مثل هذا الإيمان، فمثل هذه الأفكار لم تكن اكتشفت بعد.

كانت الأجواء في المجامع الكنسية الأولى أشبه بأجواء الحروب، والتي شهدت حضور عدد قليل نسبيًا من الأساقفة أغلبهم أساقفة من الشرق، والذين قدموا إلى أوروبا خصيصًا من أجل تلك المناسبة. ففي المجامع التي انعقدت بمدن سيرميوم أو أليس أو ميلانو فإن قسطنطيوس كان لديه غرضان: الأول دفع الأساقفة الغربيين إلى إدانة أثناسيوس، وبالتالي يصبح الأسقف معزولاً ومحاصراً بمدينة الإسكندرية، بينما الغرض الثاني كان خلق نسخة مختصرة من عقيدة مسيحية يمكن لكل من الأساقفة النقيين والآريوسيين التوقيع عليها بقلب مطمئن. كانت العقيدة الأولى التي أنتجها مجمع سيرميوم مطابقة لتلك العقيدة التي قدمها ممثلو أساقفة مجمع التدشين إلى قنسطانز قبل ذلك التاريخ بعشر سنوات، باستثناء أنها تضمن قرارات اللعنة الكنسية ضد الأساقفة الذين يتخذون مواقف آريوسية أو سابليانية متطرفة^[1]. كانت طريقة الحل الوسط التي

1- For the text, see Hanson, Search, 325329-; and see the discussion in Kelly,

حاولت تلك العقيدة اتباعها واضحًا للعيان. فدون استخدام اللغة المتبعة في العقيدة النيقية أو استخدام شعارات الآريوسية فإنها وصفت المسيح "بأنه مولود الآب قبل الدهور، إله من إله، نور من نور"^[1]. وباستثناء حذف المصطلح النيقى الهوموسية، فإن عقيدة الإيمان التي قدمها مجمع سيرميوم اعتبرت غير خلافية، وأعلن جميع الحضور بالمجمع قبولها، ووافقوا على إدانة أثناسيوس. وفي ذلك الوقت فإن الحرب الأهلية لم تكن انتهت بعد، وكان قلة فقط من أساقفة الغرب على استعداد للمخاطرة بمكانتهم الأسقفية من أجل سمعة أثناسيوس، ولم يجدوا غضاضة في التوقيع على وثيقة إيمان غامضة، حتى وإن كانت قابله للتأويل من منظور آريوسي. عدد قليل فقط من هؤلاء الأساقفة ممن كانوا مناصرين أقوياء لا تلين عريكتهم للعقيدة النيقية رفضوا التوقيع على وثيقة الإيمان التي تمخض عنها المجمع وعلى الفور أصدر الإمبراطور قسطنطينوس قرارًا بنفيهم. وكان أبرز هؤلاء الأساقفة الراضين للتعاون مع قرارات المجمع ثلاثة: أولهم هو يوليوس أسقف روما، الذي تم نفيه لمدة عامين ثم عاد إلى منصبه مرة أخرى عندما أبدى استعداداه للتعاون، وثانيهما الأسقف العجوز هوسيوس القرطبي الذي رضخ في النهاية، وقبل التعاون بعد الضغوط والتهديدات التي مورست عليه، وثالثهم كان الأسقف الغالي (نسبة إلى بلاد الغال) هيلاري من بواتيه.

ووفقا لإحدى القصص التي رويت عن هيلاري، فإن أحد الأساقفة المشاركين في مجمع ميلانو اقترح التوقيع على قرار إدانة أثناسيوس في

Early Christian Creeds, 281281-.

1- Kelly, 272, 272- 283.

مقابل توقيع جميع الحاضرين على وثيقة الإيمان الصادرة من مجمع نيقية، وعندما هم ديونسيوس من ميلانو بأخذ قلمه للتوقيع علي مثل هذه الوثيقة أمسك فالنر أسقف مورسيا بيده قبل التوقيع قائلاً أن مثل هذه النوعية من الأشياء ليست محلها هنا، في إثر هذا قرر قسطنطيوس نقل أعمال المجمع إلى القصر الإمبراطوري لتجرى أعماله تحت إشرافه ويستطيع التحكم في مجرى أعماله^[1]، وكان رد فعل هوسيوس العجوز عنيفاً على مثل هذا التدخل الصارخ في أعمال المجمع قائلاً "لا تقحم نفسك في شئون الكنيسة، ولا تعطنا النصيحة في مثل هذه المسائل" وقام بإلقاء درس على سيده قائلاً "وبدلاً من إعطائنا النصائح لا بد أن تتلقى أنت منا الإرشادات في مثل القضايا والمسائل".

"الله منحك الملك، ولكنه اختصنا نحن بالأشياء المتعلقة بالكنيسة. وكما أن الشخص الذي يحاول أن يسرق ملكك يكون مخالفاً لله الذي منحك تلك السلطة ووضعك في مثل هذا المكان، وبالمثل فإنني أخاف عليك أن تكون مذنّباً أمام الله عن طريق التدخل في شئون الكنيسة ووضعها تحت سيطرتك"^[2].

أما أثناسيوس فقد قام بتلخيص مثل الوضع بشكل أفضل قائلاً: "إذا كان هناك قرارات يجب أن تتخذ بواسطة الأساقفة، فما علاقة الإمبراطور بمثل هذا الأمر؟ وإذا كان الأمر مجرد قرارات يملئها الإمبراطور عن طريق التهديد فما الحاجة لدعوة الأساقفة إذن؟"^[3]. تلك الكلمات المثيرة للمشاعر يمكن أن تقرأ اليوم باعتبارها تدعو إلى الفصل التام بين الدولة والكنيسة، ولكن في حقيقة الأمر فإن

1- Hanson tells this story at 333.

2- In Barnes, Constantine and Eusebius, 174175-.

3- Ibid., 132.

المناصرين لمذهب نيقية لم يعنوا شيئاً من هذا القبيل على الإطلاق، فليس هناك أي شك بأنهم نظروا إلى بناء جدار فاصل بين الكنيسة والإمبراطورية بأنه شيء سخيـف وغير أخلاقي، واعتبر قسطنطيوس أن مثل هذه النقد الموجه إليه مجرد أمور بلاغيـة قام بتجاهلها، فمن منظوره الخاص فإن الأمور كانت تتحرك ناحية اليمين، وأصبح الآن هناك القليل من المقاومة لمثل هذا الاتجاه، ولم تكن هناك أية حاجة إلى اللجوء إلى القوة من أجل فرض تلك الآراء، وتدرجياً فإن أثناسيوس أصبح معزولاً في الشرق، واستطاع قسطنطيوس بشكل فعال حرمانه من حلفائه الغربيين. وبينما كان مجمع ميلانو ما يزال في حالة انعقاد فإن قسطنطيوس أعطى أوامره لبدء المحاولات الجديدة من أجل إزاحة أثناسيوس المثير للمشاكل من منصبة كأسقف للإسكندرية.

في خريف عام 355 وصل مفوض إمبراطوري إلى العاصمة المصرية (الإسكندرية)، حاملاً أوامر الإمبراطور من أجل إقناع أثناسيوس بمغادرة المدينة طواعية، وبعد أربعة أشهر من المفاوضات الشاقة لم يسفر الأمر عن أية نتيجة مرضيه، وعلى ما يبدو فإن أثناسيوس كان يراهن على عدم رغبة الإمبراطور في تكرار الوضع الكارثي في القسطنطينية عندما أزاح بولس من عرش الأسقفية هناك ضد رغبته. ولكن كان من الواضح أنه كان مخطئاً في اعتقاده هذا، ففي يوم السادس من يناير عام 356، وصلت مجموعة من المسؤولين المدنيين والضباط إلى المدينة علي رأس جيش صغير من أجل عزل أثناسيوس، وفي البداية تمسك أثناسيوس بموقفه ولوح بالخطاب الذي تلقاه من الإمبراطور من قبل وفيه يعده بأن يظل أسقفاً للإسكندرية ما دام على قيد الحياة، وطلب من المبعوثين التأكيد من الإمبراطور من مثل هذا الأمر، وعندما أرسل قسطنطيوس أوامره الجديدة

بعد عدة أسابيع، فإن تلك الأوامر لم تكن إلا تأكيد الإمبراطور على ضرورة القبض على أثناسيوس، وعلى الفور توجهت القوة العسكرية الرومانية إلى كنسية ثيونس حيث كان أثناسيوس يقيم هناك، ولكن نتيجة لشبكة أثناسيوس الواسعة من العملاء فإن أنباء عزم القوة العسكرية الرومانية التوجه إلى الكنيسة لإلقاء القبض عليه وصلته مبكراً، ومن ثم تمكن من الفرار إلى الصحراء قبل وصولها^[1].

الآن تبدد التظاهر بالتحضر بين قسطنطيوس وأثناسيوس وتلاشي تماماً. وخلال السنوات الخمس القادمة سيظل أثناسيوس متخفياً عن أعين الإمبراطور، وفي بعض الأحيان سيقوم ببعض الزيارات السرية الجريئة إلى مدينة الإسكندرية نفسها، وخلال أغلب تلك الفترة التي قضاها مختفياً عن الإمبراطور فإنه كان يلتمس الحماية من الرهبان في وادي النيل. كتب قسطنطيوس خطاباً مفتوحاً إلى أهل الإسكندرية يدين فيه أثناسيوس بأشد العبارات وأكثرها غطرسة مستخدم بعض المصطلحات القاسية مثل وصفه بأنه إنسان ينتمي لأدنى الطبقات

1- يذكر الدكتور رافت عبد الحميد في كتابه الدولة والكنيسة تفسيراً آخر حول تمكن أثناسيوس من الفرار من الجنود المحاصرين للكنيسة، حيث علل هذا بعدم معرفة أي من الجنود الرومان الذين كانوا يحاصرون الكنيسة لأسقف الإسكندرية الذي خرج هادئاً بين جموع المسيحيين دون أن يتمكن أحد من الجنود من التعرف عليه، وهذا التفسير يتماشى مع رباطة جأش أثناسيوس الذي تمكن من خلال السيطرة على خوفه من تجنب إلقاء الجنود الرمان القبض عليه، وحول هذا الثبات الانفعالي لأثناسيوس رويت العديد من القصص، منها في إحدى المرات اللاحقة وبينما كان الجنود الرومان يطاردون أثناسيوس الذي كان في مركب بالنيل وعندما أحس الأسقف بقرب الرومان منه فإنه أمر ربان السفينة بأن يعكس اتجاهها لمقابلة سفينة الجنود الرومان، الذين لم يستطيعوا التعرف عليه عندما اقتربوا منه، وسألوه عما إذا كان رأى مركب الأسقف الهارب ولأن أثناسيوس لم يكن بمقدوره الكذب كما تقول الرواية فإنه رد قائلاً إنه ليس ببعيد عنهم وفهم الجنود من ذلك أنهم قريبون منه وانطلقوا على إثره يهرعون غير مدركين أنهم كانوا يتحدثون مع أثناسيوس نفسه (المترجم).

الاجتماعية أو واحد من العامة أصبح يتمتع بالقوة والسلطة "وتمكن من خداع الناس، وإفساد الدولة وتلويث الكنيسة، وسوف ينال فقط العقاب الذي يستحقه" وأردف قائلاً في غضب هادر "لو كان فقط باستطاعة المرء، فإنه يستحق أن يقتل عشرات المرات"^[1] ولم يقتصر رد فعل أثناسيوس على صياغة أكبر عدد ممكن من الردود المكتوبة بعضها يتعلق بالأمور اللاهوتية^[2] والبعض الآخر تتضمن نقدًا لاذعًا للإمبراطور وصمه فيه بأنه المضطهد ويصفه فيه كذلك بأنه جالوت، أهاب، بيلاطيس، أو أنه مثل اليهود الذين صلبوا السيد المسيح^[3]، وأخيرًا ادعى أثناسيوس بأن قسطنطيوس ليس مسيحيًا من الأساس بل هو مجرد نذير بقدوم المسيح الدجال^[4].

وفي غضون ذلك، فإن الإسكندرية أصبحت أكثر مدن الإمبراطورية اضطرابًا وشغبًا. وبدا الأسقف الهارب وكأنه بطل خارج عن القانون يتحرك من مدينة إلى أخرى، واستطاعت عصابات من أتباعه السيطرة على بعض الكنائس، وعادة ما كان يتم إجبارهم على مغادرة تلك الكنائس إما بواسطة مليشيات مضادة أو من خلال الجنود الإمبراطوريين، ولكنهم سرعان ما يعاودون السيطرة على الكنائس مرة أخرى، وتطلب الأمر الكثير من الجنود والموظفين من أجل حماية جورج الكبادوكي الأسقف الآريوسي الذي عينه قسطنطيوس

1- Athanasius reproduces the letter in his "Defense Before Constantius." Schaff and Wace, Athanasius: Select Works and Letters, 249-250.

2- "Four Discourses Against the Arians," in Schaff and Wace, Athanasius: Select Works and Letters, 303- 447.

3- In "History of the Arians," ibid., 295.

4- Ibid., 298- 299.

كخليفة لأثناسيوس في منصب أسقف الإسكندرية، ولجأ بعض رجال الكهنوت المصريين إلى التخفي أو اللجوء إلى المنفى الاختياري من أجل تجنب خدمة الأسقف الآريوسي الجديد، ولكن الأغلبية منهم تعاونت معه، على الأقل في الوقت الراهن. وعلى الرغم من أن جورج امتلك سلطة توزيع الحبوب المجانية، إلا أنه فعليا لم يتمكن أبداً من فرض سيطرته على المدينة. ففي عام 358، وأثناء تواجده في كنيسة ديونسيوس فإن الغوغاء من أتباع أثناسيوس تمكنوا من إثارة أعمال شغب ومهاجمته والإمساك به، وكانوا على وشك سلبه حياته، إلا أنه تمكن من النجاة بالكاد. وبعدها غادر جورج الكبادوكي الإسكندرية من أجل حضور المجامع الكنسية ولم يعد إلا بعد مرور ثلاث أعوام في عام 361، وكانت تلك العودة مشؤومة له، ويمكن أن يتذكر القراء ما حدث له عقب عودته للإسكندرية. (الفصل الأول في الكتاب).

حاول الآريوسيون فرض تقدمهم على أرض الواقع. ففي عام 357 في المجمع الكنسي المنعقد مرة أخرى في مدينة سيرميوم تمكنوا من فرض عقيدة لاهوتية سيكون لها تأثير كبير على العالم المسيحي بأسره، فللمرة الأولى يتمكن الآريوسيون من إعداد وثيقة إيمان معتمدة على الأفكار الآريوسية بالكامل وتقديمها للمرة الأولى باعتبارها تعبر عن المسيحية الأرثوذكسية الحقيقية إلى العالم المسيحي بأكمله، وتبدأ وثيقة الإيمان تلك بالاعتراف ”برب قدير وآب واحد. وابنه الوحيد يسوع المسيح الرب، مخلصنا، وُلد وخلق قبل الدهور“. لا يوجد شيء مثير للجدل حتى الآن، ولكن وثيقة الإيمان تلك تجنبت استخدام كلمة الهوموسية (المطابقة في الجوهر)، أو الهومويوسية (التشابه في الجوهر) من أجل وصف العلاقة بين الآب والابن. السبب في هذا كما قال الأساقفة هو مفهوم كلمة الجوهر، فتلك الكلمة لم يأت

ذكرها من الأساس في الكتب المقدسة، وهي تفوق قدرة الإنسان على المعرفة و الفهم، وليس بمقدور أي شخص أن يشرح الطريقة التي ولد بها الابن لأنه من الواضح أن الآب فقط هو الذي يعلم كيف أنجب ابنه، والابن يعلم كيف أصبح مولوداً للآب "[1].

واستمرت الوثيقة في التأكيد: "لا يوجد شك في أن الآب أعظم: فإنه أمر لا يقبل الشك من أي شخص أن الآب أعظم في الشرف والكرامة، وفي المجد وفي العظمة وفي مجرد اسمه، لأن المسيح نفسه كان شاهداً على ذلك عندما قال (الذي أرسلني أعظم مني)" [2]. واختتمت وثيقة الإيمان تلك كلامها بالتأكيد على الفكرة الأساسية للآريوسية وهي أن الآب والابن وجودان منفصلان، وأن الآب أعظم من الابن، وأن المسيح أخذ طبيعة بشرية من مريم العذراء، ومن خلال تلك الطبيعية فإنه تألم، والروح القدس أصبحت في الابن، ولكنه لم يكن مساوياً لله [3].

كان صدى تلك العقيدة التي تمخض عنها مجمع سيرميوم الثاني مثل البوق الذي يمكن أن يسمع من الجانب الآخر للإمبراطورية [4]. وعلى الرغم من أن تلك العقيدة لم تكن تعبر عن الجانب المتطرف من الآريوسية حيث إنها لم تصر على أن المسيح هو مجرد مخلوق من مخلوقات الله خلق من العدم، أو تقول كما تنص الآريوسية الخالصة بأن المسيح كان قابلاً لارتكاب الخطيئة والإثم، إلا أنها بالتأكيد كنت

1- Hanson, 344345-. I have replaced Hanson's "declare" with the clearer term, "explain." Note that the issue of the Father's and Son's birth-relationship is "genetic" (from the Greek gennetos) but not in the materialistic sense.

2- Ibid., 345.

3- Ibid.

4- H. M. Gwatkin, Studies of Arianism, 2d ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1900), 162.

تميل إلى الآريوسية أكثر من وثائق الإيمان الصادرة عن المجامع السابقة والتي كانت تهدف إلى إيجاد صيغة توافقية للإيمان، وأدت محاولات وثيقة الإيمان تلك لحظر استعمال كلمة الجوهر من الأساس في العقيدة المسيحية إلى إشعال احتجاجات أنصار المذهب النيقى المعتمد كلية على فكرة المساواة في الجوهر بين الآب والابن، والذين شجبوا بشدة ما وصفوه بأنه "التجديف الخالص في سيرميوم" وحشدوا قواهم في نشاط غير متوقع من أجل الدفاع على مبدأ الهوموسية .

كان واضحًا أن الأساقفة اللاتين ساخطون بشدة من ميل أساقفة الشرق للتعامل معهم باعتبارهم أقل ثقافة وعلمًا منهم، أو على أساس أنهم متطرفون يتسم تفكيرهم بالسطحية والسذاجة. وبتأثير الضغط الذي يمارسه كل من قسطنطيوس والكنيسة الشرقية على الغرب، فإن شيئًا يمكن تسميته بالتمرد الإقليمي أو على الأقل موجات من تأكيد الذات أخذت في التزايد في الغرب. ومن المثير للسخرية أن رد الفعل العنيف الذي تولد عن محاولة قسطنطيوس الوصول إلى إجماع مذهبي، والذي أدى فعلاً إلى زيادة تماسك الغرب اللاتيني ضد هذا المذهب، وفي الوقت نفسه عمق من انشقاق وانقسام الإمبراطورية. والغريب فعلاً أن التطورات في جانب المعسكر الآريوسي كانت أكثر انفجاراً، فلقد أخذت الآريوسية وبشكل متزايد بعد صعودها إلى مركز القوة في الانقسام إلى فرق متنافسة خلال الشرق، تمامًا كما كان هو الحال مع المسيحية نفسها التي أخذت في الانقسام إلى فرق متناحرة بعد صعود قسطنطين إلى السلطة وكان السؤال الذي يطرحه هذا الوضع هو: أي من تلك الفرق الآريوسية سوف ينتصر ويسود؟ فمجموعة كبيرة من الآريوسيين المحافظين كانوا يعتقدون بأن المسيح كان هو الصورة التامة لله، ذو طبيعة إلهية مشابهة

لجوهر الله ولكنها ليست مطابقة له^[1]، بالنسبة لهؤلاء كما كان هو الحال بالنسبة لأنصار مذهب النيقية فإن وثيقة الإيمان التي أسفر عنها مجمع سيرميوم أو ما يعرف بالمذهب السيرميومي كان تجديدًا محضًا، إذ إنهم آمنوا أنه دون خلق جوهرى ontogenetic، أو تشابه بين الآب والابن فإن المسيح لن يكون أبدًا هو ذاك الابن الإلهي القادر على خلاص البشرية الذي يستحق العبادة. في الجانب المقابل كان هناك عدد أكبر متزايد من الآريوسيين المتطرفين تحت قيادة الفيلسوف أيتيوس Aetius الذين أصروا على أن المسيح لم يكن حتى مشابهًا لله في الجوهر، وبالتالي فإنه لم يكن على نفس المستوى (مع الله) على الإطلاق^[2]. ولأن المسيح كان أكبر من مجرد إنسان، فإن بعض المتطرفين (الآريوسيين) توصلوا إلى استنتاج مؤداه أنه لا بد أن يكون في مرتبة أقل من إله وأكثر من إنسان "الابن هو حالة وسطية بين الله والملائكة" أو كما قال أحد الآريوسيين المتعصبين: الابن "يمكن وصفه بأن ملاك الله الأعلى لأنه كان رب للمخلوقات الأدنى منه"^[3].

كان ينظر إلى تلك النوعية من التأملات من قبل مجموعة ثالثة من أنصار الآريوسية (التي تمثل معسكرًا وسطًا بين المحافظين والمتطرفين) باعتبارها وجهات نظر شديدة التطرف. كان المذهب الذي أنتجه مجمع سيرميوم الثاني يعبر عن وجهة نظر هؤلاء الذين شكلوا حلقة

1- See the extended discussion in Hanson, Search, 557- 597.

2- The most complete discussion of Aetius's career and doctrine is to be found in Hanson, 598611-. On those he calls "neo-Arians" in general, see 598- 636.

3- Ibid., 626. The quotations are from Gregory of Nyssa's critical work, Against Eunomius.

وسط بين المتطرفين والمعتدلين والذين يمكن وصفهم الميالون للمتطرف
Moderate Radicals، الذين اعتقدوا أن الأمر الأكثر منطقية هو القول
بأن العلاقة بين الآب والابن هي عبارة عن تشابههما في الجوهر، إلا
أنهم أوضحوا أنه بسبب عدم ورود كلمة الجوهر في الكتاب المقدس،
ولأنه لا يمكن أبدا إيجاد دليل قاطع علي معناها الحقيقي فإنه من
الأفضل استبعاد تلك الكلمة عند الحديث عن العلاقة بين الآب والابن،
وأوضحوا كذلك أن العلاقة بين الآب والابن لا يمكن حسمها على نحو
قاطع ولذلك فإنه من المقبول أن تختلف الآراء حولها، ويصبح من حق
المسيحيين أن يختلفوا مع بعضهم البعض في هذا الشأن.

ولكن ليس الجميع كان يعتقد مثل هذا الرأي. فالمحافظون كانوا
يخشون، أنه إذا كان من حق المسيحي أن ينظر إلى المسيح على أنه في
مكانة ادني من إلهه وينزله إلى مكانة ملاك أعلى، فإنه لا حقا سيكون من
المقبول بالنسبة للآخرين أن يعتبروه بأنه مجرد بشر رسول،^[1] ولماذا
علينا أن نعبد ملاكا أعلى على أية حال؟ وقد قام باسيليوس الأنقري قائد
المعسكر المحافظ بعقد مجمع كنسي على مسؤوليته وبسلطته للرد
بحماسة شديدة على تلك الأفكار، وأدان ما اسماه الانقلاب الذي جرى
في مجمع سيرميوم، بينما رد المتطرفون بالتوبيخ والتفريع لمنتقديهم.

في ظل تلك الأوضاع كان على قسطنطيوس أن يتحرك سريعا من
أجل استعادة النظام في معسكر الشرق. ولذلك فإنه قام بتشكيل لجنة
تضم كلا من (الآريوسيين) المحافظين والمعتدلين من أجل التوصل إلى

1- وما المانع في هذا إذا كانت تلك هي النتيجة الحتمية للمنطق والعقل، فلماذا يحدد المرء
منذ البداية نتيجة محددة سلفاً يريد أن يثبتها ويبرهن عليها بمختلف الطرق، بينما إنه من
المفترض أن لا يضع المرء نتائج مسبقة بل عليه أن يترك العقل والمنطق يقوده إلى النتائج
الحتمية مثل تلك النتيجة التي سيقود إليها المنطق بان المسيح ما هو بشرا رسولا - (المترجم).

مذهب توافقي جديد، وإعداد وثيقة إيمان موحدة، وأعلن أن وثيقة الإيمان تلك ستعلن أمام أكبر مجمع كنسي شهدته الإمبراطورية طوال تاريخها الكنسي. أو بالأحرى أول مجمع كنسي كبير بالدرجة الكافية لكي يستحق حقاً لقب المجمع المسكوني أو العالمي.

اجتمعت اللجنة وقدمت تقريرها النهائي إلى قسطنطينوس، وكان الإمبراطور سعيداً ومسروراً من عملها، وعلى إثر هذا التقرير قام الإمبراطور بإرسال أكثر من ستمائة دعوة إلى الأساقفة في كافة أنحاء الإمبراطورية من أجل حضور هذا المجمع الكنسي العظيم المزمع انعقاده.

وفي صيف عام 359، حضر إلى مدينة سلوقية Seleucia في آسيا الصغرى أكثر من 140 من أساقفة الشرق، وأكثر من 400 من أساقفة الغرب، وأغلب هؤلاء الغربيين تم جمعهم بمساعدة مسؤولي الإمبراطورية، ثم اجتمعوا بعد ذلك في مدينة ريميني Rimini على ساحل البحر الأدرياتيكي في إيطاليا، وتم تسليم كل مشارك في المجمعين وثيقة الإيمان المختصرة التي توصلت إليها اللجنة المشتركة سابقة الذكر (من المحافظين والمعتدلين)، أطلق عليها اسم المذهب العتيق وتضمنت بعض النصوص الرئيسية:

”وبما أن مصطلح الجوهر ousia قد تبناه الآباء في مجمع نيقية بقدر من السذاجة ودون تدبر كامل للعواقب، وهو الأمر الذي لم يكن معلوماً لكافة الناس، فإن هذا المصطلح تعرض للعديد من الهجوم والإساءات لأن تلك الكلمة لا توجد في الكتاب المقدس، وإذا كان هناك حل لتلك المشكلة فإن هذه الكلمة يجب أن تزال، وفي المستقبل لا يجب أن لا ينوه عن كلمة الجوهر عند الإشارة إلى الله طالما أن الكتاب المقدس لا يشير إلى هذا المصطلح في أي مكان عند الحديث عن العلاقة بين الآب والابن، ولكننا نعلن أن الابن مثل الآب

في كل شيء كما يخبرنا ويعلمنا الكتاب المقدس“^[1].

”مثل الآب من جميع النواحي“، تخيل الإمبراطور أن أساقفة الشرق سيقبلون تلك العبارة باعتبارها تسوية مقبولة ومنطقية، وسيقبلها أساقفة الغرب لأنهم سيجدونها غامضة بما يكفي لعدم الاعتراض عليها أو خوفاً من عواقب رفضها، وسوف تثبت مجرى الأحداث أنه كان مخطئاً في الحالتين، فكلاً مجمعي سلوقية - ريميني كان عاصفاً ومليئاً بالاضطراب، وتطلب الأمر من قسطنطيوس ستة أشهر لكي يؤمن إصدار نسخة من عقيدة الإيمان أقل طولاً وأكثر إثارة للجدل. في ريميني أبدى أغلبية أساقفة الغرب اعتراضهم بشكل مباشر وصريح على هذا النص، وبالنسبة لهم فإن عبارة: ”الابن يتشابه مع الآب في جميع النواحي“ لم تكن غامضة على الإطلاق، ولكنها في الحقيقة هي نص آريوسي خالص، طالما أن التشابه لا يعنى التماثل، والنهاية المفتوحة لهذا المذهب تجعلها أكثر ملائمة للجانب الآريوسي المتطرف. وقد أكد الأساقفة اللاتينيون مرة أخرى تمسكهم القاطع بالمذهب النيقى محدثين ضرراً بالغاً لمحاولات قسطنطيوس لتوحيد الكنيسة، وكما كان متوقفاً أصدر المجمع قرارات الحرمان الكنسية ضد قادة الفريق اللاتيني ومن ضمنهم فالنز أسقف مورسيا. وحتى عندما طلبوا الإذن بعد ذلك لمغادرة ريميني لم يتم منحهم لهم.

قام أساقفة الغرب بإرسال وفد إلى القسطنطينية لكي يدافعوا عن قضيتهم أمام الإمبراطور، ولكنهم وجدوه يستعد للقيام بحملة

1- Emphasis supplied. The “Dated Creed” is so called because the committee of bishops took the unusual step of dating it: May 22, 359. The translation is Barnes’s in Athanasius and Constantius, 144. “Naively” is Hanson’s version of Barnes’s “without proper reflection.” Search, 364.

عسكرية أخرى، فالفرس استطاعوا تحقيق العديد من الانتصارات في إقليم الميزوبوتاميا وأصبحوا الآن يهددون أرمينيا، وبينما انشغل قسطنطيوس في الاستعداد للحرب الوشيكة، فإن وفد الأساقفة أصبح محتجزا في العاصمة ولم يتم منحهم الإذن بمغادرتها. ولمدة أسابيع عديدة كان وفد أساقفة الغرب عرضة لوابل من التملق والمداهنة والضغط والتهديد بالنفي من قبل رجال الكنيسة الآريوسيين والمسؤولين الإمبراطوريين، وأخيرا وبعد مرور أكثر من ثلاثة أشهر استسلموا للضغوط التي تمارس عليهم، وقاموا بالتوقيع على وثيقة إيمان تدعو إلى حظر استخدام كلمة الجوهر ousia أو كلمة نفس الوجود Hypostasis، وفي المقابل فإنهم أسقطوا عبارة: "من كافة النواحي" في نص وثيقة ريميني واكتفوا بعبارة "الابن مثل الآب".

بعد توقيع وفد الأساقفة اللاتين في القسطنطينية على الوثيقة الجديدة، أصر قسطنطيوس على ضرورة توقيع جميع الأساقفة المحجوزين في مدينة ريميني على الوثيقة الجديدة، ومع اقتراب قدوم الشتاء وحاجة الأساقفة إلى العودة إلى أوطانهم ومع إدراكهم أن عدم توقيعهم على وثيقة الإيمان الجديدة لن يكون لهم على الأرجح أوطان يعودون إليها، وفي النهاية رضخوا ولم يجدوا مفرًا من التوقيع عليها هم أيضًا.

وإذا كان استمرار المقاومة الغربية للمذهب الجديد أمرا متوقعا، فإن الأمر الذي لم يتوقعه قسطنطيوس هو الخلاف الشديد بين أساقفة الشرق أنفسهم الذين اجتمعوا بمفردهم في مدينة سلوقية (بينما الأساقفة اللاتين في ريميني)، فالجناح الآريوسي المتسم بالراديكالية المعتدلة Moderate Radicals أراد بوضوح أن يكون المذهب الذي تم التوقيع عليه في ريميني ينص ببساطة ووضوح على أن الابن يتشابه مع الآب، في حين أن الجناح المحافظ أراد أن يتم النص على أن هذا

التشابه هو في الجوهر، أو على أقل تقدير النص على أن "الابن يتشابه مع الآب من جميع النواحي" وانفجرت الأعصاب واشتد التوتر في هذا الاجتماع العاصف، وفي النهاية فإن الأنباء القادمة من ريميني عن توقيع الأساقفة اللاتين على هذه الوثيقة جعلت قسطنطيوس يصر على ضرورة قيام أساقفة الشرق بفعل الأمر نفسه، والتأكيد على أن الابن مثل الآب، ومرة أخرى فإن الإمبراطور مزج جرعات قوية من الوعيد مع جرعات من التهديد، وبعد ليلة طويلة من المناقشات والمجادلات في آخر ليلة من عام 359 وقع الجميع أخيراً على وثيقة الإيمان، وأصبح مذهب سلوقية - ريميني جاهزاً للتعميم على كافة المسيحيين. ومن أجل التغلب على المشاكل الإجرائية التي صاحبت صدور مثل هذا المذهب الجديد، فإن الإمبراطور بعد عدة أشهر من هذا التاريخ دعا مجموعة صغيرة ممثلة لكل من أساقفة الشرق اليونان وأساقفة الغرب اللاتين للاجتماع في القسطنطينية من أجل التصديق على هذا المذهب. أخيراً، تمكن قسطنطيوس من الحصول على النتيجة المرجوة منذ أكثر من عشرين عاماً، فالكنيسة استطاعت استبدال العقيدة النيقية التي تسببت في الكثير من الضغائن وإحلال محلها عقيدة بسيطة وسهلة وعريضة يمكن لأي آريوسي التوقيع عليها باطمئنان. وبهذا أصبح الشرق والغرب موحدين عقائدياً ومذهبياً على الأقل على الورق (نظرياً). وفي روما كتب القديس جيروم بأسلوب واضح التحيز مفعم بالتصوير الدرامي واصفاً الوضع بقوله: " كان الأمر يبدو كما لو كان العالم الروماني وبعد حفلة صاخبة أذهب الخمر فيها وعيه، استيقظ في اليوم التالي ليجد نفسه وقد اتشح بعباءة الآريوسية"^[1].

1- Frend, The Rise of Christianity, 541.

الفصل العاشر

الآلهة القديمة والآلهة الجديدة

بينما خرج الآريوسيون منتصرين من مجمع سلوقية، فإن الفرس تحت قيادة الملك شابور كانوا يحرزون النصر تلو النصر في إقليم ميزوبوتاميا في ديسمبر من عام 359، وسقطت المدينة الحدودية المنيعة أميدا Amida التي تمثل بوابة الطريق إلى أرمينيا في أيدي جنود شابور، وأصبح الإمبراطور قسطنطيوس مضطراً إلى أن يطلب من ابن أخيه القيصر جوليان أن يقوم بإرسال التعزيزات العسكرية من الغرب. جوليان هذا الرجل المثير للاهتمام الذي عامل الجنود الغاليين والجنود المنتمين لقبائل البرابرة في الماضي باعتبارهم جنوداً رومانيين حقيقيين، والذي استطاع تحقيق العديد من الانتصارات العسكرية المبهرة على القبائل الجرمانية، والذي اعتبره كلا من الشعب والجيش بطلاً حقيقياً، ولكن عندما أخبرهم بالأوامر القادمة إليه من عمه قسطنطيوس بإرسالهم إلى القتال في تلك المناطق البعيدة في الميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين) تحت إمرة الإمبراطور فإنهم تمردوا وأعلنوا العصيان. ولا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من الشك بأن جوليان ربما قام بإخبار الجنود بطريقة تجعل من عصيانهم أمراً محتوماً، وفي باريس في فبراير من عام 360، فإن جنوده قاموا برفعه على أكتافهم معلنين بأنهم لن يتلقوا الأوامر بعد

الآن من قسطنطيوس، وان قائدهم وزعيمهم من الآن فصاعدا هو جوليان الذي قاموا بتنصيبه كأغسطس للغرب.

لم يكن بمقدور الإمبراطور الشرقي فعل أي شيء إزاء هذا الانقلاب، وفي الربيع قاد جنوده مرة أخرى إلى الميزوبوتاميا، حيث خاضوا سلسلة من المعارك غير الحاسمة ضد الفرس. وفي غضون ذلك، بدأ جوليان في تحركه من أجل منافسة عمه قسطنطيوس على زعامة العالم الروماني، وكانت البداية من خلال محاولته الحصول على تأييد ديني (فكما اتضح خلال أحداث الأعوام الماضية، توجد الآن صلة وثيقة بين السياسات الإمبراطورية وبين القضايا الدينية) خاصة من بين أساقفة الغرب من خلال سماحه للأسقف هيلاري من بواتيه ومجموعة من الأساقفة المناصرين للعقيدة النيقية من عقد مجمع كنسي في باريس تحت الحماية العسكرية. أهدر الأساقفة هذه المرة القليل من الوقت في المجادلات وأدانوا مباشرة عقيدة القسطنطينية (العقيدة الرسمية التي تمخض عنها مجمع ريميني-سلوقية)، وأصدروا قرار الحرمان الكنسي بحق القادة الآريوسيين، وأعلن الأساقفة المجتمعون بباريس تمسكهم بمذهب النيقية كله بما فيه مصطلح الهوموسية. وفي الصيف بدأ جوليان في الزحف بجيشه إلى شمال إيطاليا والبلقان وهناك تلقى يمين الولاء من المسؤولين المفترض أن يدينوا بالولاء إلى قسطنطيوس، ولم يكن يوجد أي قائد يستطيع منع الفرق العسكرية البلقانية من الانضمام إلى جوليان الذي وصل أخيرا إلى سيرميوم، وعندها فإنه أعلن بشكل علني تشككه في قدرة عمه وكفاءته في حكم الإمبراطورية، وأعلن دعمه لجميع الذين تم اضطهادهم من قبل الإمبراطور.

ومرة أخرى يظهر قائد من الغرب كمحرر على أبواب الشرق، وظهر الأمر كما لو كان جوليان يكرر حياة قسطنطين الكبير مرة أخرى، أو يحقق حلم فتح الشرق الذي طالما راود قنسطانز، ولكن أحلامه الخاصة لم تكن بالسهولة التي ربما تصورها البعض، فقسطنطيوس كان ما يزال يحظى بشعبية كبيرة في أقاليم الشرق، وعاد من الجبهة الفارسية على أتم استعداد أن يخوض حرباً أهلية من أجل استعادة عرشه، ولكن على ما يبدو فإن القدر كان لديه خطط أخرى للإمبراطور الآريوسي، ففي مدينة سلسيا ودون إنذار أصبح قسطنطيوس مريضاً للغاية (يعتقد بعض المؤرخين أن سبب مرضه ربما يكون راجعاً للإصابة بالملاريا)^{[1] [2]}، ولم تطل معاناته في المرض، حيث مات وهو لم يبلغ الرابعة والأربعين من العمر، وقبل أن يودع الحياة أعلن جوليان كخليفة له على العرش، وذلك من أجل وحدة الإمبراطورية وتجنب

1- الملاريا تتسبب عن بعض الطفيليات التي يطلق عليها اسم البلازموديوم و التي تنتقل عن طريق البعوض، وكانت الملاريا تعتبر من الأمراض المتوطنة في إيطاليا والبلقان وكانت تحصد أرواح الآلاف من الأشخاص سنويا حتى منتصف القرن العشرين، عندما استطاعت إيطاليا وبعض الدول الغربية في خمسينيات القرن العشرين من استئصال الملاريا من أراضيهم عن طريق حملة رش مكثفة بمبيد ال DDT للقضاء على البعوض الناقل للمسبب المرضي وخاصة من النوع انوفيليس إيجبتي وهي الحملة التي كللت بنجاح باهر ولسوء الحظ عندما بدأت بعض الدول الأفريقية في حملة مماثلة للقضاء على الملاريا عن طريق الرش بمبيد ال DDT للقضاء على البعوض، فانه للأسف كان الوقت متأخرا حيث أكتسب البعوض مناعة ضد المبيد الحشري و لذلك مازالت الملاريا تعتبر من المشاكل المرضية الكبيرة التي تتسبب في موت الآلاف في أفريقيا حتى يومنا الحالي ومما زاد من تفاقم مشكلة الملاريا في أفريقيا هو عدم اهتمام شركات الأدوية الغربية بتطوير عقارات جديدة للمرض وذلك لخلو العالم الغربي من تلك الإصابات فلماذا إذا يهتمون بتطوير وإنفاق واستثمار الأموال في تطوير دواء لن يعود بالنفع على العالم الغربي (المترجم).

2-For example, Frend, Rise of Christianity, 600.

ويلات الحرب الأهلية مرة أخرى^[1]. كان السؤال هل كان من الممكن أن يقدم قسطنطيوس على نفس الشيء (تسمية ابن عمه جوليان كوريث للعرش) إذا علم بحقيقة إيمانه؟ فاعتناق جوليان للمسيحية، كان أمراً مشكوكاً فيه على أقل تقدير.

مثله مثل قسطنطيوس وقسطنطين، حلم جوليان بتوحيد الإمبراطورية الرومانية واستعادة مجدها المفقود، ولكن الفرق بين جوليان وسلفيه أن الديانة التي أراد جوليان تحقيق من خلالها حلم النهضة والوحدة لم تكن المسيحية بل الوثنية. ملقياً قناع التقوى المسيحية الذي قام بارتدائه خلال العقد الماضي جانبا، وبمجرد اعتلائه عرش الإمبراطورية أظهر نفسه بشكل علني بأنه مؤمن مخلص بالصوفية الإغريقية ويعبد الآلهة القديمة، مع عاطفة أخاذة إلى الإله هولوريوس إله الشمس، والمثير أن قسطنطيوس نفسه قبل تحوله إلى المسيحية كان من المخلصين لعبادة الإله هولوريوس إله الشمس، ولكن الأمثل الأعلى الذي كان جوليان يسعى للوصول إليه لم يكن قسطنطيوس، ولكن كان

1- إقدام قسطنطيوس على مثل هذا الخطوة بتسمية غريمه جوليان كخليفة له على عرش الإمبراطورية الرومانية وهو على فراش الموت على الرغم من أنه سقط صريع المرض وهو في طريقه لخوض غمار الحرب معه لها دلالتان: إما أنها تدل على أن قسطنطيوس في مسلكه وتدخله في النزاعات اللاهوتية كان صادقا في رغبته في الحفاظ على وحدة الإمبراطورية الرومانية وأنه كان يحاول بإخلاص التوصل إلى عقيدة مسيحية واحدة للحفاظ على وحدة الإمبراطورية ولذلك فإنه لم يتردد في تسمية غريمه جوليان كخليفة له لأنه رأى أنه أقدر شخص يمكن أن يحافظ على وحدة الإمبراطورية الرومانية، الاحتمال الثاني أنه اختار جوليان كخليفة له على العرش لأنه من أسرة قسطنطين الكبير، وفي رأى أن الاحتمال الأول هو الأرجح فإن قسطنطيوس على ما يبدو كانت تحركه رغبة حقيقية في الحفاظ على وحدة الإمبراطورية ومحاولة الحفاظ على تلك الوحدة عن طريق فرض عقيدة مسيحية موحدة بغض النظر عما إذا كان محقا في مسلكه وفي المذهب المسيحي الذي تبناه أم لا وهو ما جعله يزي غريمه وعدوه جوليان لخلافته على عرش الإمبراطورية. (المترجم).

الإسكندر العظيم: الوثني الممتاز، تلميذ أرسطو وقاهر الفرس، وليس من المعروف ما إذن كان جوليان يؤمن بتناسخ الأرواح أم لا، لكنه بعد وفاة زوجته وابنه الصغير وتركه بلا عائلة، بدأ يشعر وكأن روح الإسكندر العظيم تجرى في عروقه. الآن شعر بأنه لا توجد أية حاجة لمزيد من التظاهر وادعاء اعتناقه للمسيحية، وعلى أساس كونه هو الإسكندر الجديد، فإنه أعلن بوضوح أنه لم يأت فقط لكي يحرر الشرق من الآريوسية ولكن لكي يحرر الإمبراطورية الرومانية بأسرها من نير عبادة الرجل الجليلي^[1] وبشكل ماهر فإنه مزج رسالته الدينية تلك مع إصدار المراسيم التي تخفف الضرائب، وتلغى الديون وتعمل على إعادة بعض أراضى الكنيسة إلى المدن. وأكدت أعمال الشغب والعنف الموجهة ضد المسيحية إلى أن العاطفة الوثنية مازالت كامنة في بعض المدن أو كانت أعمال الشغب تلك تعبيرا عن الامتنان لخفض الضرائب أو للاثنين معا^[2]. بلا شك فإن الحماس الذي أظهره بعض عامة الشعب للآراء التي اتخذها جوليان كانت تعكس حالة السخط المتزايد نتيجة لانقسام الكنيسة وصراعاتها الداخلية. فكما كان واضحا فإن المسيحية فشلت في أن تجمع شمل الإمبراطورية أو أن تحميها من الهجوم. وكما قال المؤرخ المعاصر لتلك الأزمنة أميانوس Ammianus "أشد الوحوش البرية ضراوة لم تكن عداء للجنس البشرى بالقدر الذي كان يكتنه أغلب المسيحيين في كراهيتهم لبعضهم البعض"^[3]

وفي حين أن الديانة القديمة كانت أكثر انسجامًا مع روح الإمبراطورية الروماني - اليوناني، فإن السؤال كان هل تستطيع تلك الديانة النجاح

1- نسبة إلى السيد المسيح الذي ولد بالجليل (المترجم).

2- Ibid., 602.

3- Ibid., 601.

فيما فشلت فيه المسيحية؟ اعتقد جوليان أن هذا الأمر ممكن إذا استطاع استعارة الأنظمة الإدارية والمؤسسية لدين الجليلي، وتطبيقها في الديانة الوثنية، بمعنى تبني نمط المؤسسات المسيحية ونظمها وتطبيقها من أجل إصلاح الوثنية، والأهم محاولة محاكاة الشبكة الواسعة القوية من الأعمال الخيرية الاجتماعية للمسيحية.

في البداية، كان لا بد أولاً من إضعاف مؤسسة المسيحية، وهنا استطاع جوليان أن يثبت أنه يتمتع بالموكر والدهاء الكافي، فلقد قامت خطته لإضعاف المسيحية على إطلاق العنان للفرق المسيحية المتنافسة لأن تتقاتل مع بعضها البعض دون قيود (وفي النهاية فإن هذا الصراع يمكن أن يحقق هدف جوليان المنشود بإضعاف المسيحية نفسها)، وعلى الرغم من أن عدد المسيحيين في ذلك الوقت كان كبيراً للغاية لأن يكونوا عرضة للاضطهاد من قبل الإمبراطور الشاب إلا أنهم على ما يبدو كانوا على استعداد للاقتتال وسحق بعضهم البعض حتى لو وصل الأمر بهم إلى خطر الانقراض أو الاختفاء من الوجود. فالسؤال الذي طامأ سألته أتباع المذهب النيقوي إلى الآريوسيين هل بإمكانهم البقاء دون دعم من الدولة؟ أصبح الآن موجهاً إلى الدين المسيحي بأكمله. كانت الدلائل تشير إلى أن الإجابة على هذا السؤال تعتمد على تصرفات المسيحيين أنفسهم. فالآن كان يوجد ما يقارب من نصف دستة من الفرق والمذاهب المسيحية المتصارعة مع بعضها البعض. وفي غضون ذلك تم حرمان رجال الكهنوت المسيحيين من الامتيازات الخاصة التي كانت ممنوحة لهم من أسلاف الإمبراطور جوليان الذي قام في الوقت باتخاذ بعض الخطوات من أجل العمل على زيادة إشعال الخلاف الآريوسي، فأصدر أوامره بالسماح لأنثاسيوس والأساقفة المناصرين للمذهب النيقوي والمنشقين عن

الآريوسية بالعودة من المنفى. وبعد جولة قصيرة في الشرق، قام فيها الإمبراطور بإعادة تدشين العديد من المعابد الوثنية، فإنه ظن أن الوقت قد حان ليجلس ساكنا في الخلف لكي يشاهد تفسخ دين الرجل الجليلي.

وعلى الفور اندلع العنف بين الفرق المسيحية المتنافسة. وكانت الضحية الأولى للترتيب الجديد الذي وضعه جوليان هي أسقف الإسكندرية جورج الكبادوكي، الذي ألقى القبض عليه بمجرد وصول الأنباء بموت الإمبراطور قسطنطيوس، وبعد أن تم قتل الأسقف على يد مجموعة مختلطة من المسيحيين والوثنيين تم التعرف على جثته ثم تم الطواف بها على ظهر جمل وأخيرا تم إحراقها^[1].

لم يبد على جوليان الاستياء الشديد عندما اندلعت أعمال عنف مشابهة في بعض المدن الكبرى مثل القسطنطينية وأنطاكية، فما كانت أعمال العنف تلك إلا بشرى بقرب تحقيق مخططه بأن تدمر الكنيسة نفسها بنفسها.

ولكن حسابات الإمبراطور الشاب كانت خاطئة، فقد ارتكب في الحقيقة خطأين فادحين، الأول استراتيجي والثاني تكتيكي، أما الخطأ الاستراتيجي فهو أن جوليان لم يستطع فهم أن هزيمة المسيحية تتطلب ما هو أكثر من مجرد تقليد المذاهب الوثنية لشكل الخارجي لمؤسسة المسيحية، فالعقيدة الدينية كانت تتغير باستمرار في التاريخ استجابة إلى الضغوط من النفس البشرية.

ومن أجل هزيمة المسيحية، فإن الوثنية كانت لا بد أن تتحول إلى عقيدة روحية داخلية، فالعقيدة التي يمكن أن تمنح الإنسان

1- Description quoted in Hanson, Search, 386.

الملاذ الآمن الذي يمكن أن يلجأ إليه هرباً من دوامة الرغبات الدونية، عقيدة لها رؤيتها عن كيفية خلاص الإنسان، وتلك الرؤية سوف تكون بمثابة القوة والوقود اللازم لإرضاء وإشباع التطلعات والحاجات الروحية للإنسان، بالإضافة إلى تقديمها تصوراً حول مدينة الله يستطيع أن يحل محل مدينة الإنسان المتهالكة، باختصار إذا ما أراد جوليان تجنب عبادة الرجل الذي سماه جوليان بالجليلي كان لا بد من الوثنية أن تتحول لتصبح نسخة أخرى من المسيحية، وأن تتحول المسيحية لتصبح نسخة أخرى من اليهودية.

كانت طريقة تعامل جوليان مع تلك المعضلة منطقية، ولكن بشكل غير واضح تاريخياً فإن رؤيته لنفسه باعتباره الإسكندر الأكبر كانت أمراً شديد الجوهريّة في محاولته إعادة إحياء مدينة الإنسان في مشروعه لاستعادة الإمبراطورية للوثنية (تعظيم دور الإنسان في مقابل دور الرب). وبمجرد أن استطاع هزيمة القبائل الجرمانية (السلام الذي حققه على حدود الراين دام لأكثر من نصف قرن من الزمان)، وكان عليه الآن من أجل جعل حلمه بإعادة إحياء الوثنية حقيقة واقعة هو التخلص من الخطر الفارسي وأعداء الإمبراطورية الآخرين. وفي حاله نجاحه فإن الخوف سوف يزول وتنخفض الضرائب، ويزداد الازدهار والرخاء وتنتعش الآمال في العالم الروماني. فإذا استطاعت الإمبراطورية أن تثبت مرة أخرى أنها قابلة للنمو والحياة فعندها ستتضاءل ذريعة المسيحيين بضرورة إيجاد بدائل ألوهية أخرى (للإمبراطورية الرومانية)، ولن تجد عقيدتهم حول إنكار الذات سوقاً رائجة، وحتى إذا ما فشلت سياسته الجديدة تلك فإن هذا سيعنى نهاية عبادة الإلهة القديمة نهاية مشرفة. وعلى الفور بدأ تنفيذ جوليان أول مراحل مخططة بالإعداد لحرب حاسمة ضد الفرس.

في غضون ذلك فإنه حاول إضاءة شعلة النهضة الثقافية للعالم القديم، فقام بالاستعانة بفلاسفة المدرسة الأفلاطونية الحديثة من أجل إصلاح النظام الكهنوتي في الديانة الوثنية، وقام حتى باستشارة الفيلسوف الآريوسي المتطرف أيتيوس Aetius وإحضاره إلى القسطنطينية من أجل التباحث معه، وتقديم الوعد إلى اليهود بإعادة بناء معبدهم بأورشليم، وافترض جوليان أن استمرار تخلي الدولة عن تدخلها في الشئون الدينية من شأنه أن يسرع من عملية التعددية داخل المسيحية، وستكون النتيجة هي المزيد من الانقسامات، وتحول المسيحية في النهاية إلى أشلاء متناثرة. وهنا فإنه ارتكب خطاه الثاني وهو على الأرجح الخطأ التكتيكي الأكبر الذي ارتكبه الإمبراطور الشاب، فجوليان كان متشبعا بفكرته النمطية حول المسيحية وسيطرة المتعصبين عليها وعدم قدرتها على التغيير، واعتقد جوليان أن تغيير المسيحية هو أمر مستحيل وسيكون بمثابة تعليم كلب مسن حيلة جديدة، وبالتالي لن تكون المسيحية قادرة على التأقلم من أجل مجابهة التحديات الجديدة، ولكن جوليان كان مخطئا بشدة في هذا الشأن، وقلل من قدرة المسيحية على تطوير نفسها لمواجهة المخاطر التي تواجهها، فما لم يخطر ببال جوليان هو ما حدث فعلا. حيث لجأ القادة العقائديون المسيحيون (قادة الأيديولوجية المسيحية) إلى تطوير مواقفهم وأفكارهم وتنحية خلافاتهم جانبا لعقد تحالفات مع أعدائهم القدامى لمواجهة الخطر الذي يتهدد المسيحية.

كان هذا الخطأ التكتيكي الذي وقع فيه أمرا مفهوما، فلقد كان من الطبيعي أن يفترض جوليان أن أثناسيوس ذلك الأسقف المشاكس كما عهده دائما سوف يستمر في الهجوم على هؤلاء الذين أطلق عليهم

اسم الآريومانيك Ariomaniacs أو المرضى العقليون بالآريوسية في واحدة من مصطلحات كثيرة صكها أثناسيوس من أجل ذم الآريوسيين. فلقد كان بديها أن أثناسيوس هذا الإنسان الديماجوجي المتملق للمشاعر الجماهيرية سيرفض التعاون مع أي شخص لا يلتزم ويقر بمذهبه اللاهوتي من الألف إلى الياء. ولكن أثناسيوس عقب عودته إلى منصبه في أسقفية الإسكندرية فاجأ الجميع بإعلانه في انقلاب صارخ لسياسته السابقة التي طالما أقلقّت مضاجع الإمبراطورية الرومانية بأن هؤلاء الذين يؤمنون بالوهية المسيح ولكن في الوقت نفسه لديهم بعض الشكوك حول مصطلح الهوموسية "يجب أن لا يعاملوا وكأنهم أعداء".

"ولا أن نهاجمهم باعتبارهم مرضى عقليون بالآريوسية (آريومانيك)، ولا خصوم للآب، ولكننا سوف نتباحث ونتناقش معهم كما يفعل الأخ مع الأخ الذي يقصد ما يقصده أخاه، ولكنهما يختلفان فقط حول الكلمات التي يعبران بها عن هذا المعنى"¹.

فقط حول الكلمة، أثناسيوس يتحدث هنا بطريقة مختلفة تمامًا عن هؤلاء الذين وصفهم في السابق بأنهم هراطقة من أسوأ الأنواع: فالأغلبية العظمى من الآريوسيين كانوا من الذين آمنوا بأن المسيح والله متشابهان، ولكنهم فقط كانوا يرفضون فكرة أنهما متساويان في الجوهر أي يؤمنون بالهومويوسية وليس الهوموسية، في وقت ما فإن هذا الأمر كان شديد الأهمية إلى الدرجة التي دفعت المؤرخ الكبير ادوارد جيبون أن يقول بشكل ساخر أن مستقبل الإمبراطورية

1- Athanasius, "On the Councils of Ariminium and Seleucia," in Schaff and Wace, Athanasius: Select Works and Letters, 472.

الرومانية بأسره كان معلقا على حرف واحد (حرف i كان الاختلاف الوحيد بين كلمتي مساو في الجوهر ومتشابه في الجوهر)^[1]. كان ذلك بالفعل أمراً مهماً، أليس كذلك؟ فكيف إذن لإنسان مثل أثناسيوس المناصر الأقوى للمذهب النيقى أو عقيدة المساواة في الجوهر (الهوموسية) أن يأتي الآن ويتنازل بسهولة عن هذا المعتقد، ويقبل التسوية مع رجال يصرون على أن المسيح ليس هو الله القدير بل هو وجود منفصل أدنى مكانة من وجود الله؟

الإجابة على هذا السؤال لن تكون كما قد يظن البعض أن أثناسيوس قاىض نقاء العقيدة والمذهب الدينى من أجل كسب بعض الامتيازات السياسية لإغلاق الطريق أمام محاولات الإمبراطور لإعادة إحياء الوثنية، فعلى الرغم من أن توحيد الطوائف والفرق المسيحية للوقوف أمام مخطط جوليان كان أحد بواعثه لمثل هذا العمل، ولكن التسوية من وجهة نظره لم تكن ضرورية أو حتى لها علاقة بالأمر، ولكن السبب الآخر الذي يفسر تلك الطريقة الرقيقة التي تكلم بها أثناسيوس لأول مرة عن المؤمنين بمذهب التشابه في الجوهر لا التساوي في الجوهر، ربما ترجع إلى أنه وصل إلى الاقتناع التام بأن الأغلبية العظمى من الآريوسيين المعتدلين الآن والذين يمثلون أغلبية عظمى من مسيحيي الشرق يمكن بسهولة كسب تأييدهم ونيل ولائهم وثقتهم عن طريق الإقناع الودى بالمذهب النيقى .

كان الأساس لمثل هذا التفاؤل إدراك أثناسيوس ذى البصيرة بأن المجتمع المسيحي شهد تغيرات جوهرية في مواقف بعض القوى. فالخط الذي يفصل الآريوسية عن النيقية قد تغير الآن، وأصبح

1- Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, 670.

الخط الفاصل يفصل الآن فقط بين الذين ينكرون أي قرابة للمسيح مع الله بشكل مطلق، وهؤلاء هم الآريوسيون المتطرفون أو شديدو التطرف (الألثرا-راديكاليون)، الذين يجب عزلهم عن باقي المسيحيين المناصرين لمذهب نيقية أو حتى أغلبية الآريوسيين المعتدلين.

كان المصير الذي توقعه جوليان للمسيحية ككل (بأنها سوف تدمر نفسها) يمكن أن يكون صحيحا لو تمسك قادة المسيحية جميعهم بمواقفهم المتعصبة السابقة، ولم يدركوا حجم المخاطر التي تحدق بالمسيحية، فهؤلاء المتطرفون حكم علي حركتهم بالتمزق و التشرذم. ولكن أثناسيوس كان إنسانا ذا بصيرة كافية لإدراك تحديات الواقع، ولذلك رأى أن المتطرفين الآريوسيين كان بإمكانهم فقط الاتفاق فقط على بعض المبادئ والأفكار السلبية، فهؤلاء المتطرفون من وجهة نظره يؤكدون على أن المسيح لم يكن هو الله، إلا أنهم في الوقت ذاته لم تكن لديهم فكرة واضحة عن ماهية المسيح. ولكن المعتدلين الآريوسيين من الناحية الأخرى كان لديهم الاعتقاد بأن المسيح هو جزء من الألوهية، ولذلك فإنهم أصرروا على أن الآب والابن متشابهان في الجوهر، وهو ما جعل التحالف معهم أمرا مبررا بقدر ما هو مفيد.

ما الذي يعنيه على أية حال، أن الكيانين متشابهان في الوجود؟ فالقول مجرد القول بأن شيئا يشبه شيئا آخر يؤسس نوعا من التشابه الجوهرى بين هذين الكيانين، ولكن القول بأن هذين الكيانين يتشابهان في الجوهر فهذا يعنى أنهما يتشاركان في طبيعة مشتركة، قد يقول روماني متحيز بأن القوطي ربما يتشابه مع الروماني، إلا أن هذا لا يعنى أنهم ينتميان إلى نفس السلالة، ولكن كل ما يعنيه أن القوط متشابهون مع الرومان لأنهما كلاهما ببساطة ينتميان إلى الجنس البشرى. مثل هذه المجادلة تكررت عن طريق القول

إذا كان بالإمكان لكيان أن يشتق من كيان آخر بالتالي فإنهما في هذه الحالة لا بد وأن يكون لدهما طبيعية مشتركة واحدة. (أو كما نستطيع القول بأن لهما الأصل البيولوجي الجيني نفسه)، وهكذا فإن "القصدير يشبه الفضة، والذئب يشبه الكلب، والنحاس المطلي بالذهب هو معدن حقيقي وكتب أثناسيوس "لكن القصدير ليس مشتقاً من الفضة، ولا يمكن اعتبار الذئب أبداً هو نسل الكلب"^[1]. عندما يقول الآريوسيون المعتدلون بأن المسيح يشبه الله في الجوهر، فهذا يوحي ضمناً أن لهما طبيعة مشتركة، وإذا كان المسيح يوجد بشكل أبدي مع الآب ومن نفس وجوده، فإنه في هذه الحالة ليس أقل ألوهية من الله، وبالتالي ما الذي يعنيه حقا القول بأنه خاضع لله؟ في رأى أثناسيوس ليس بالشيء الكثير.

الاعتراف والإقرار بأن الابن من جوهر الآب وليس من أي جوهر آخر، وأنه ليس مخلوقاً من الله ولكنه هو ذريته الحقيقة والطبيعية، وأنه خالد مع الآب حيث أصبح كلمته وحكمته. في ضوء هذا المنطق فإن المعتدلين المحافظين ليسوا حتى بعيدين عن قبول فكرة المساواة في الجوهر (الهوموسية)^[2]

بالتأكيد، لا يوجد أي مسيحي من أتباع المذهب النيقوي يمكن أن يقبل أبداً فكرة أن المسيح أدنى من الله. فأساس الإيمان كما أعلنه أثناسيوس في مجمع الإسكندرية المنعقد في عام 362 هو "الثالوث من جوهر واحد (الهوموسية)، إله حقيقي أصبح إنساناً من خلال مريم، ولتنزل اللعنة على جميع من يعارض ذلك"^[3].

1- Athanasius, "On the Councils of Ariminium and Seleucia," 472.

2- Ibid

3- Translated in Barnes, Alhanasius and Constantius, 156. I have omitted

على الرغم من أن الرجل العجوز المثير للجدل قد تبنى موقفا أكثر مرونة وتفهما تجاه أخطاء أتباع المدرسة الخضوعية (دونية المسيح عن الله)، ولكن للمرة الأولى يستطيع أثناسيوس إدراك أن عزوف الكثير من الآريوسيين على مساواة المسيح بالإله لا تنبع من أي رغبة لوضع المسيح في مكانة أقل، ولكن من خوفهم من أن مذهب الهوموسية سوف يلغى وجوده كفرد إنساني، ويلغي الجوانب البشرية تماما من شخصيته، ولهذا فإن أثناسيوس بعد وقت قصير من عودته إلى الإسكندرية شرح كيف أن الموجودات التي تتشارك في جوهر واحد يمكن مع ذلك أن تحتفظ بفرديتها، وفي هذا الإطار فإن المسيح قد امتلك نفسا بشرية وليس فقط مجرد عقل إله في جسد بشري^[1].

استطاعت تلك الحجج والمجادلات اللاهوتية البارعة أن تمثل جاذبية كبيرة لعواطف عامة الناس، فالمتطرفون الآريوسيون كان مناظرين ومجادلين بارعين تماما كما كان النيقيون. وكان كل من أيتوس ويونموس من كيزكيوس^[2] هم المفكرين الرئيسيين لهذا المعسكر الآريوسي المتطرف، الذين حاجوا بشكل قوى ومتناغم بأن الله غير المخلوق وغير المولود لا يمكن أن يشارك طبيعته مع أي من المخلوقات، وبالتالي لا يمكن أبدا أن يكون المسيح إلها كاملا إلا إذا كان هناك إلهان لا إله واحد^[3]. ولكن تلك الحجة لم يكن لها

two elliptical additions of "is" that seem unnecessary.

1- Athanasius, "Letter from the Council of Alexandria" (Tomus ad Antiochenos), discussed in Hanson, Search, 639- 645.

2- كيزكيوس بلدة قديمة في آسيا الصغرى، كانت في الأصل جزيرة في بحر مرمرة قبل أن ترتبط صناعيا بالأرضي الرئيسية في العصور القديمة - المترجم

3- Ibid., 607. To the same effect, Eunomius, discussed at 622- 626.

أي صدى، فإذا كان المسيح ليس على نفس المستوى مع الله فلاي طائفة ينتمي إذن؟ أصر المسيحيون على الحصول على إجابة على مثل هذا التساؤل، فتصويره باعتباره ملاكا أعلى، أو ذا طبيعة إلهية ولكن في مكانة أدنى خاضعة لله لم تكن فكرة مستبعدة بالنسبة لهؤلاء الذين عاشوا في عصر تسيطر عليه الخرافات والإيمان بوجود الأرواح والملائكة والمخلوقات الوسطية بين الله والبشر، ومع هذا فإن أغلب المسيحيين ومن بينهم الآريوسيون المحافظون اعتقدوا أن وضع المسيح في مكانة قريبة من مرتبة البشر هو بمثابة إهانة لا تغتفر ولا يمكن التسامح معها على الإطلاق.

هل أراد المسيحيون حقاً أن يحطوا من قدر السيد المسيح إلى مكانة أقل من مستوى إله خالد؟ أثناسيوس وأتباعه بالتأكيد لم يريدوا ذلك، فوصف المسيح بأنه شيئاً أقل من الآب يساوي بالنسبة لهم إخراجهم من العائلة الإلهية، وبشكل أساسي فإن الآريوسيين المحافظين كانوا في هذا الاتجاه يتشابهون مع النيقيين في رغبتهم في إله قوى يعتمدون عليه لا صديق شبه إلهي يحبونه أو مجرد محاكاة للحاكم الفعلي.

وبعد فترة قصيرة، توصل أثناسيوس إلى اقتناع بأن مذهب الدونية في طريقة للانزواء. وفي غضون ذلك سوف يكون هناك العديد من المزايا التي سوف تعود من وراء التحالف بين النيقيين والمعتدلين الآريوسيين، فتلكما المجموعتان على الأرجح كانتا تشكلان الأغلبية العظمى من المسيحيين في ذاك الوقت، ولأن المعتدلين الآريوسيين يمثلون قوة كبرى في الشرق فإن التحالف معهم سوف يحقق الإجماع الكنسي المنشود منذ فترة طويلة منذ بداية الجدل الآريوسي، ويسمو على الانشقاق بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية. وأهم من ذلك أن مثل هذا التحالف بين النيقيين والمحافظين الآريوسيين سوف

يربك الإمبراطور الشاب المتحمس بشدة لمخططاته وأحلامه من أجل إعادة أحياء الوثنية.

لم يتطلب الأمر إلا ثمانية أشهر من جوليان لكي يصل إلى نفس النتيجة. ففي الرابع من أكتوبر من عام 362 كان منزعجا للغاية من التقارير الواردة إليه حول التنامي المتزايد للتضامن والتقارب بين الجماعات المسيحية المتنافسة تقليديا، وفي محاولة منه لإيقاف هذا التقارب وإشعال الخلاف من جديد بين المسيحيين، فإنه أصدر مرسوماً ينص فيه على أن قراره السابق بالسماح بعودة الأساقفة المنفيين إلى أوطانهم لا يعنى أن يعودوا إلى مناصبهم الأسقفية السابقة، وأصدر أوامره بضرورة مغادرة أثناسيوس لمنصبه كأسقف للإسكندرية، وعندما رفض رجال الكنيسة المصريون الانصياع لهذه الأوامر متذرعين بأسباب فنية تحول بين مغادرة أثناسيوس لمنصبه، رد الإمبراطور الغاضب على هذا العصيان بقرار نفى أثناسيوس مع ضرورة مغادرته لمصر بأكملها وليس الإسكندرية فحسب. ناعثاً إياه (بذلك الشخص السيئ السمعة والذي قام بتعميد امرأة يونانية متزوجة من شخصية بارزة خلال عهده يجب أن يطرد من منصبه)^[1]، في غضون ذلك فإن أثناسيوس تعامل مع موقف الإمبراطور المتشدد الجديد وانقلابه عليه برحابة وحكمة (فأثناسيوس الآن لا بد أن يكون قد اكتسب خبرات هائلة من انقلابات الأباطرة الذين تعامل معهم عليه وتغير مواقفهم منه)، ومن ثم وصف تهديدات جوليان بأنها "سحابة صغيرة وسوف تهر سريعا"^[2]، ومرة أخرى، تمكن من

1- Barnes, Athanasius and Constantius, 159.

2- Ibid.

خداع الجنود الذين تم إرسالهم للقبض عليه، وتوجه جنوباً للاختفاء في صحراء طيبة.

بعد عدة شهور لاحقة سعى جوليان لمواصلة حلمه من أجل غزو بلاد الفرس، وصل الإمبراطور إلى أنطاكية مع جيش ضخم من جنوده وجيش أصغر من الكهنة والعرافين، وبعد القيام بطقوس التضحية للآلهة في معبد أبوللو (وتجاهل نذر الشؤم التي أسفرت عنها تلك الطقوس) قاد الإمبراطور جيشه زاحفاً نحو منطقة الميزوبوتاميا (بلاد الرافدين). وفي البداية ربما كان من الممكن التجاوز عن مقارنة جوليان لنفسه بالإسكندر العظيم، إذ استطاعت جيوشه تحقيق انتصارات ساحقة على الفرس في بداية حملته على امتداد نهر دجلة، حيث ذكرت تلك الانتصارات بطولات الإسكندر^[1]. وسقطت المدينة تلو المدينة نتيجة لهجومه الجريء. ورحب سكان تلك المدن من المجتمعات المسيحية واليهودية الكبيرة في بلاد ما بين النهرين (الميزوبوتاميا) وأيضاً المنشقين والساخطين الفرس بجوليان باعتباره المحرر المنتظر، ولكنه ربما وصل في المقارنة بينه وبين الفاتح المقدوني العظيم إلى أبعد من اللازم. ففي يونيو 363، وبعد أن قام بحرق سفن المؤن الخاصة بجيشه (كما فعل الإسكندر من قبل)، واجه جوليان هجوماً فارسياً مضاداً كاسحاً بالقرب من مدينة كاتسيفون (المدائن) عاصمة الإقليم. وأخذت المعركة منحني سيئاً بالنسبة للرومان، وخاض جوليان بنفسه في معمرة القتال، وفي 26 من يونيو لقي حتفه بينما كان يحاول أن يحشد رجاله نتيجة لطعنة رمح فارسي.

1- See Gore Vidal's brilliant fictionalization, *Julian* (New York: Ballantine Books, 1964).

وموت جوليان، مات معه في أرض معركة المدائن حلمه بإعادة إحياء الوثنية. وعقب موته انتشرت شائعة مؤداها أن الطعنة التي تلقاها جوليان وأودت بحياته لم تكن إلا طعنة من جندي روماني مسيحي موتور ساخط على سياسية الإمبراطور في إحياء الوثنية، وعلى الرغم من عدم وجود أي دليل عليها إلا أنها انتشرت على نطاق كبير، وقد أنكر المجتمع المسيحي بشدة مثل هذا الافتراء، معتبراً أن الرمح الذي قتل جوليان ما هو إلا أداة أودعها الله في يد أجنبية. ووفقاً لرواية شعبية فلكورية انتشرت على الفور في أعقاب وفاة الإمبراطور مفادها أن جوليان عند شعوره بدنو أجله، وبأن إصابته قاتلة، وأنه ميت لا محالة، فتح ذراعيه للسماء وقال بصوت عال " أيها الجليلي لقد هزمتني ".

على الأرجح، فإن تلك القصة غير صحيحة، ولكنها مع ذلك كانت تعبر عن الحقيقة، فعلى النقيض من تصورات جوليان، لم تكن المسيحية في حاجة إلى دعم الدولة والسلطة من أجل البقاء، بل إن العلاقة بين الدولة والأساقفة التي قامت في السابق على محاولة بعضهم استخدام سيف الإمبراطور ضد البعض الآخر قد تغيرت الآن وأصبح في مقدورهم أن يحلوا خلافاتهم الداخلية بوسائل سلمية، والآن بعد أن عاد الاضطراب وأصبح عدم الاستقرار السياسي هو سمة الإمبراطورية مرة أخرى، فإن كلا من القادة الكنسيين وحكام الإمبراطورية وجدوا أنفسهم مجبرين على أن يعيشوا دون توتر، بعد أن كان التدخل المستمر في شئون بعضهم البعض قد ميز العلاقة بين الكنسية والدولة في السابق، وعلى الرغم من عدم وجود أي فرصة في حدوث الانفصال التام بين الكنيسة و الدولة إلا أن كلا الجانبين تفاجأ عندما اكتشفا كم هو مفيد أن يضع بعض الخطوط الفاصلة

بين الدولة والكنيسة، وأن يحتفظ كل مهما بقدر من الخصوصية .
وعقب موت جوليان على أرض المعركة، كانت القضية الأهم هي
اختيار خليفة في ذلك الوقت العصيب، حيث أدت الهزيمة لإضعاف
ثقة الجنود في الآلهة التي آمن بها جوليان واعتمد عليها من أمثال
أخيل وهرقل، ولذلك فإن قادة الجيش قاموا باختيار قائد مسيحي
عقب وفاته كقائد أعلى للجيش الرومان، والانسحاب كلياً من بلاد
الرافدين تاركاً فعلياً للفرس كافة الأقاليم والأراضي التي استولى
عليها الأباطرة الرومان دقلديانوس وجالينيوس ومتنازلاً عن أرمينيا
المسيحية للفرس.

وكان من أول القرارات التي اتخذها بصفته إمبراطوراً رسمياً
هو إعادة المسيحية ديانة رئيسية للإمبراطورية، وإعادة الإعفاءات
الضريبية والامتيازات السابقة لرجال الدين المسيحي ولكن بمستوى
أقل من الذي كان سائداً خلال عصر قسطنطيوس.

كانت تلك الفترة فترة عصيبة تمر بها الإمبراطورية الرومانية حيث
أخذت أراضيها في الانكماش مرة أخرى، وكان لا بد من رفع الضرائب
المفروضة على الشعب، وحتى رجال الكنيسة كان عليهم المشاركة في
كثير من الأعباء التي يحملها إخوانهم المواطنين.

التقى أثناسيوس بجوفيان في بلاد الرافدين قبل الانسحاب منها
برفقة بعض رجال الكنيسة الآخرين الذين كانوا يمثلون بعض
الطوائف المسيحية والذين كانوا يسعون لنيل رضا الإمبراطور
الجديد، وهناك علم أثناسيوس بأن الإمبراطور الجديد هو مسيحي
من أنصار المذهب النيقى، طالما نظر بإعجاب إلى صلابة أثناسيوس
وشجاعته، وعندما دخل الإمبراطور الجديد أنطاكية منتصراً، طاف في
المدنية وعلى جانبه الأسقف العجوز، ومباشرة بعد ذلك أصدر قراراً

بإنهاء نفى أثناسيوس القصير، ومرة أخرى عاد أثناسيوس منتصرًا إلى كنيسة القديس ثاونس حاملاً رسالة من الإمبراطور يزكيه فيها ويعدد مناقبه. ربما ظن أثناسيوس في تلك اللحظة أن المذهب النيقى، والذي خاض صراعًا مريعًا وضارياً قد حان الآن وقته لكي يصبح المذهب المسيحى الأرثوذكسى الوحيد والمُعترف به من السلطة الرومانية، ولكنه سيتعرض للإحباط قليلاً عندما يكتشف أن الإمبراطور الجديد، على الرغم من إيمانه بالمذهب النيقى إلا أنه على العكس من أسلافه لم يكن ميالاً للدخول في تلك المتاهات العقائدية أو عقد المجمع الكنسية وما يتبعه من إصدار قرارات العزل والنفى والحرمان الكنسى. وكما هي الحال في جميع الحوادث المشابهة في التاريخ التي يحوم حولها ظلال من الشكوك، فإنه وبعد أشهر قليلة من تولى جوفيان السلطة، أصبح الإمبراطور واحداً من الأباطرة القلائل الذين لقوا حتفهم نتيجة لحادثة طبيعية، فبينما كان الإمبراطور نائماً في خيمته التي ترك فيها موقد فحم مشتعلًا، أدى الدخان المتصاعد من احتراق الفحم إلى اختناق الإمبراطور وموته^[1].

كان خليفته قائداً عملياً من بانونيا يدعى فالنتينيان Valentinian. كان محارباً وإدارياً موهوباً، وقد سارع بالتحرك إلى الغرب من أجل كبح غزو قبائل الفرنجة، وبعد نجاحه في تلك المهمة قام بتعيين فالنز Valens أخيه الأصغر كأغسطس للشرق. وبينما كان الإمبراطور فالنتينيان مسيحياً على المذهب النيقى إلا أن أخاه فالنز كان آريوسياً مخلصاً من الجناح المائل للتطرف. ولكن في تلك الأزمنة، حيث كانت الظروف الحالكة هي المناخ السائد في أواخر القرن الرابع الميلادى، فإن

1- Frend, Rise of Christianity, 617.

مثل تلك الحقائق مثل انتماء فالنتينان إلى المذهب النيقى وانتماء أخيه فالنز للمذهب الآريوسى لم يعد لها نفس التأثير الضخم والواسع كما كان فى السابق. فالنتينان لم يكن ينظر لنفسه إلا فى صورة المدافع عن الإمبراطورية ضد البرابرة وليس كقائد للكنيسة، والأهم من ذلك فإنه لم يضع أخاه فالنز فى منصبه كأغسطس للشرق بغرض التنافس معه ولكن لمعاونته فى حكم الإمبراطورية ولذلك فإنه على الرغم من منحه الحرية الكاملة لأساقفة الغرب بأن يؤمنوا بما يروه صحيحاً ويثيرون ما شاءوا من قضايا لاهوتية سواء كانت مؤيدة لمذهب النيقية أو ضدها إلا أنه فى الوقت ذاته رفض التدخل فى سياسات أخيه فالنز، أو إقرار أية سياسات من شأنها أن تقوض من سلطة أخيه الكاملة فى الشرق وخاصة فيما يتعلق بالمسائل الدينية فى الشرق.

ومن ناحية فالنز، فإنه كان بطريقة ما أكثر ميلاً من أخيه للتدخل فى شئون الكنيسة، ولكن بالمقارنة بالأباطرة السابقين فإنه كان غير متشدد فى سياسته، وكانت مساعيه من أجل محاباة الفريق المذهبى الذى ينتمى إليه غير فعالة. وبما أنه كان معروفاً بمناصرته للمذهب الآريوسى فإن النيقيين على الفور اتهموه باستخدام القسوة الشديدة من أجل اضطهاد النيقية وقمعها. وعلى العكس من هذا، فإنه باستثناء الفترة الأخيرة من حكمه والتي قام فيها فعلاً باضطهاد رجال الدين المصريين بشدة، إلا أن سياسية فالنز الأصلية والمنهجية كانت مبنية على أساس التسامح والحرية مع كافة المذاهب الدينية، وخلال فترة حكمه كانت الكنائس والمدارس اللاهوتية المختلفة لها الحرية الكاملة من أجل تبنى ما تراه من أفكار ومذاهب عقائدية بشرط عدم إنكار العقيدة التي تبناها كنيسة القسطنطينية بشكل علني أو رسمي أو محاولة طرد الأساقفة من مناصبهم الأسقفية، وخلال

عصره ازدهرت المناظرات اللاهوتية والمناقشات حول السياسات الإكليريكية، إلا أنه في الوقت ذاته فإن أعمال العنف والشغب من قبل الغوغاء أو قرارات العزل والحرمان الكنسي المتبادلة بين الأساقفة لم تكن أبدا من الأمور التي يتسامح فيها الإمبراطور.

فماذا لو رغب الآريوسيون المحافظون في عقد مجمع كنسي، هل كان من الممكن أن يوافق الإمبراطور على ذلك؟ وما هو الحال إذا كانت تلك هي رغبة الأساقفة النيقيين في الاجتماع معا. عل الأرجح فإن الإمبراطور لن يجد أي سبب من أجل رفض طلبهم، ولا يبدو أنه حتى في حال رفضه بالسماح للأساقفة بالاجتماع معا فإن قراره هذا سيكون فعالا. ففي ذلك الوقت كان عدد الآريوسيين المحافظين كبيرا للغاية إلى درجة أنه لم يكن ممكنا حظر آرائهم دون شن حملة قمع واضطهاد واسعة وكبيرة (كان فالنز ينتمي إلى الجناح الآريوسي المتشدد)، ومن ناحية أخرى فإن أنصار المذهب النيقى كانوا يتزايدون بشكل مضطرد وسري للغاية وترجع هذا الشعبية المتزايدة للمذهب النيقى بشكل كبير إلى الجهود الديناميكية لمجموعة من الأساقفة الإصلاحيين من إقليم كبادوكيا. ولذلك فإن فالنز حاول إتباع سياسة تحافظ على الأقل على الوضع الراهن، فإذا قامت جماعة مثلا من الآريوسيين المحافظين بانتقاد عقيدة كنيسة القسطنطينية (الآريوسية المائلة للتشدد) أو المطالبة بعزلهم ونفيهم، فإن رد فعل الإمبراطور سيكون هو عزل ونفى تلك المجموعة التي تطالب بعزل ونفى أساقفة القسطنطينية. وعندما اقترحت مجموعة من الأساقفة المناصرين للنيقية عقد مجمع مسكوني في مدينة طوروس من أجل إعادة تأكيد مبادئ المذهب النيقى، وإصدار قرارات الحرمان الكنسية ضد معارضيه، فإن الإمبراطور قام أيضًا بحظر انعقاد مثل

هذا المجمع، ووجدتها فرصة ملائمة من أجل التدخل بفعالية لمصلحة مرشح آريوسي في انتخابات الأسقفية.

ودون أن يشعر قدم الإمبراطور الآريوسي خدمة كبيرة للمعسكر المعادي للآريوسية، فمن خلال حده من نفوذ وسلطات المجمع الكنسية وفرضه حدا أدنى من قواعد التمدين، استطاع خلق مساحة وأرضية مشتركة يستطيع من خلالها المسيحيون النيقيون والآريوسيون المعتدلون التفاهم والتواصل مع بعضهم البعض. وتحت هذا النظام غير الاستبدادي والمتسامح نسبيا، فإن اتجاهها لاهوتيا جديدا قائما على توحيد تلك الفرق المتنافسة والتوفيق بينها بدأ في الازدهار في آسيا الوسطى، وكان أكبر مناصري هذا الاتجاه الجديد ثلاثة آباء من إقليم كبادوكيا: الأول هو باسيليوس القيساري (باسيليوس الكبير)، وأخوه الأصغر جريجوري النيساوي ثم صديقة المقرب جريجوري النزيانزي.

فقبل عدة سنوات من هذا التاريخ، حينما كان هؤلاء الآباء الثلاثة شبانا صغارا ارتحلوا معا إلى أثينا من أجل دراسة الفلسفة والدين وهناك عقدوا أواصر الصداقة مع تلميذ غريب الأطوار قادم من بلاط قسطنطينوس، لم يكن هذا التلميذ إلا الإمبراطور المستقبلي جوليان الذي كان في ذلك الوقت ابن أخ الإمبراطور قسطنطينوس. وبالتأكيد لم يكن بمقدور الآباء الكبادوكيين الثلاثة معرفة قدر جوليان الحقيقي، وأنه سيكون مثل مذب يلمع في السماء سريعا، ولكنه سرعان ما يحترق دون أن يترك وراءه إلا بعض الظلام، وفي المقابل لم يكن بالتأكيد بمقدور جوليان أن يعرف أنه بعد ألفي عام تقريبا فإن المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك الرومان في جميع أنحاء العالم سينظرون إلى الآباء الكبادوكيين الثلاثة باعتبارهم من ضمن أعظم

المساهمين في وضع تصور للعقيدة ومن أقوى المدافعين عن الإيمان المسيحي.

استحق باسيليوس القيساري لقب باسيليوس الكبير أكثر من أي شخص آخر في عصره، فكونه ابناً لرجل مسيحي من كبار الملوك جعل منه مزيجاً مميّزاً من اللاهوتي المبدع والإنسان القادر على ابتكار الحلول العملية، وفي الوقت نفسه كان سياسياً كنسياً من الطراز الأول: ومع أن شخصيته في بعض الأحيان قد تبدو عنيدة ومتعجرفة، لكنه كان قوة محرّكة كبيرة لأيّ تغيير في القرن الرابع الميلادي، فقيامه بتطوير أديرة الرهبنة التي اتخذت شكل مدن صغيرة مكتفية ذاتياً مازال مصدر إلهام حتى يومنا الحالي للكثير من المسيحيين حول العالم وتتضمن الرسائل التي كتبها العديد من القواعد التي اعتبرت بمثابة القوانين الجوهرية للكنيسة الأرثوذكسية^[1]. وفي البداية كانت أفكار باسيليوس الكبير أقرب إلى الآريوسية المعتدلة (المحافظة)، ثم تحول بعد ذلك ليكون نصيراً قوياً للمذهب النيقوي. وقد استغل باسيليوس كلا من نفوذه وسلبيه فالنز النسبية من أجل ضمان تعين أساقفة وقساوسة مناصرين للنيقية في جميع أنحاء آسيا الوسطى، بل إنه ذهب إلى إنشاء أبرشيات جديدة في مدن صغيرة من أجل تمكين الأساقفة المشاركين له في الفكر (المناصر للنيقية) من اعتلاء كراسي الأسقفية في تلك الأبرشيات الجديدة.^[2]

من ناحية أخرى فإن جريجوري النزيانزي، أخلص وأقدم أصدقاء

1- Hanson, Search, 685.

2- (219) See Hanson, Search, 676737-. Basil made his brother bishop of Nyssa. Gregory of Nazianzus was made bishop of the village of Sasima (680- 682).

باسيليوس كان أكثر الآباء الثلاثة تمكنا من المهارات البلاغية الخطابية، وتمكنا من القضايا اللاهوتية بالإضافة إلى كونه سياسيًا موهوبًا (ساعد في ضمان إعادة انتخاب باسيليوس كأسقف لقيسارية)، ولكن لأن أباه كان أسقفًا، لذلك فإنه كان طامحًا ومستعدًا لتقلد المناصب الكنسية. وهو ما شجع باسيليوس من أن يسعى لتعيينه في منصب أسقف لمدينة ساسيما الصغيرة، وبعدها بفترة قصيرة أصبح أسقفًا لمدينة القسطنطينية المتروبوليتانية، ولكنه لم يكن أبدًا سعيدًا أو مرتاحًا مع مسؤوليات المنصب الأسقفي ومتاعبه، وسوف يتقاعد لاحقًا من أجل أن يتفرغ للتأمل في الريف. بينما جريجوري النيساوي الأخ الأصغر لباسيليوس، والوحيد من الآباء الكبادوكيين الثلاثة الذي سوف يتزوج، فقد أظهر اهتمامًا أقل بالسياسة الكنسية على الرغم من قبوله التعيين في منصب أسقف نيسا فقط من أجل مصلحة القضية النيقية ودفعها إلى الأمام. كان (وفقًا لكلام أخيه) حاملًا إلى درجة اللامبالاة، لكنه مع ذلك كان اللاهوتي الأول في المجموعة، وفيلسوفًا على مستوى عالمي ما زالت آراؤه تبدو صالحة حتى يومنا الحالي، وما زالت مثيرة للجدل والاختلاف حتى بعد مرور ستة عشر قرنًا من الزمان على صياغتها.

وقد استطاع هؤلاء الآباء الثلاثة معًا، وضع الأساس اللاهوتي الذي يستطيع من خلاله المعتدلون الآريوسيون والنيقيون الانصهار معا في فكر لاهوتي واحد. والمفارقة الغريبة أن الحافز الذي أدى لمثل تلك الفورة من الإبداع الديني في المدارس اللاهوتية من أجل ابتكار مذهب توافقي يوحد الكنيسة كان ظهور الخطر الذي يهدد بمزيد من الانقسامات وبجعل الخلاف داخل الكنيسة أكثر تعقيدًا وعنفاً،

وكان هذا الخطر الجديد هو الاختلاف حول طبيعية الروح القدس^[1]. وكما أشار باسيليوس حول الخلاف المتزايد حول مفهوم الروح القدس (فإن أغلب المسيحيين أدركوا الروح القدس باعتبارها شخصا)، وكانوا بذلك يكررون نفس مسار الخلاف حول طبيعة الابن. وأما بالنسبة للمتطرفين الآريوسيين فقد كان لديهم موقف ثابت في تلك النقطة، فكما أن الابن أدنى من الآب، فإن الروح القدس كذلك أدنى من الابن، وبالنسبة لقادة النيقية كما أقر باسيليوس نفسه فإن الأمر كان محيراً، انقسم النيقيون في تصورهم للروح القدس، وعلى حد قوله:

”فبعض الحكماء من أنفسنا تصوروه باعتباره فاعلية نشطة، وبعضهم صوروه على أنه مخلوق، والبعض تصوروه على أنه الله نفسه، والبعض الآخر كان غير واثق أي وصف يمكن أن يطلقه على الروح القدس وكنتيجة لهذا الأمر فإنهم وإن لم يعبدوه إلا أنهم لم يعاملوه بعدم التبجيل، بل اتخذوا موقفاً محايداً^[2].”

كان الأمر يتطلب من أجل حل هذا التداخل والغموض تفسيراً لا يستطيع المذهب النيقى أن يقدمه: عقيدة تستطيع أن تشرح بوضوح وبساطة كيف يمكن أن يكون الله واحداً وفي الوقت ذاته يتكون من كيانات أو ثلاثة كيانات منفصلة. وكما أدرك باسيليوس الكبير فإنه لتقديم مثل هذا المذهب لا بد من تطوير لغة جديدة. كان من الضروري خلق

1- The controversy over the Holy Spirit is-discussed, inter alia, in Jaroslav Pelikan, The Christian Tradition: A History of the Development of Doctrine, vol. I, The Emergence of the Catholic Tradition (100600-) (Chicago: University of Chicago Press, 1971), 211225-. See also Hanson, 738- 790.

2- Pelikan, Emergence, 213.

وإيجاد مصطلحات لاهوتية جديدة قادرة على الذهاب أبعد من النص المجرد على أن الابن كان من نفس جوهر الآب (الهوموسية)، فهذا المصطلح الذي استخدم أساساً من أجل أن يعبر عن وحدانية الله، كيف يمكن له الآن أن يعبر عن تعدده؟

كانت الإجابة على هذا السؤال تتمثل في توضيح معاني الكلمات الرئيسية المستخدمة في الجدل اللاهوتي، أو إعادة تعريفها، فحتى بالنسبة لللاهوتيين الكبار من أمثال أثناسيوس نجد أنهم قد استخدموا كلمات الجوهر والوجود كمترادفات، وفي بعض الأحيان يستعملون بدلاً من تلك المترادفات مصطلحاً آخر هو: "الشخص" أو "المتشخص"، فالمذهب النيقى لم يدن فقط أولئك الذين ينكرون أن الآب والابن كانا واحداً في الجوهر، ولكنه يدين أيضاً الذين ينكرون أنهما كانا وجوداً واحداً. وهذا خطأ وفقاً لما قال به الآباء الكبادوكيون، فالأصح والأدق هو أن نميز بوضوح بين كلمتي: الجوهر والوجود، فالآب والابن والروح القدس هي ثلاثة موجودات منفصلة كلا منها له طبائعه وخصائصه المميزة له وبالتالي فإنهم ثلاثة موجودات مختلفة، ولكنهم في الوقت ذاته لهم جوهر واحد (الهوموسية)، وهم في ذلك يتبنون أحد أفكار أوريجن التي نالت إعجاب وتأيد الشرقيين، ووصف باسيليوس السيد المسيح بأنه يشارك الله نفس الجوهر، وهو لم يخلق كما هي الحال مع باقي المخلوقات، ولكنه إشعاع وامتداد لوجود الله وجوهره. وبالنسبة للروح القدس التي اعتبر كل من الآريوسيين والنيقيين أنها سواء كانت في صورة فكرة ومبدأ أو في صورة شخص أدنى مكانة من الآب والابن، فهي بالنسبة للآباء الكبادوكيون تشارك في الجوهر الإلهي، وبالتالي فإن الروح القدس هي الوجود الثالث أو الشخص الثالث من نفس المادة

والجوهر^[1]، وقد قام جريجوري النيساوي بتلخيص هذا المذهب موضحاً جوانب قوته وخصائصه. فالله هو ثلاثة أفراد يتشاركون في جوهر واحد. وهم حقيقيون سواء في وحدتهم أو في تمثيلهم أجزاء الألوهية الثلاثة. وإذا كان هذا يبدو متناقضاً، فليكن كذلك.

فالاختلاف بين الموجودات الثلاثة لا يخل أبداً بتلك الوحدة أو من ذلك الاتصال في وجودهم، ولا تؤدي العمومية في طبيعيتهم وجودهم إلى محو الخصائص المميزة لكل منهم، ولا تتعجب لو قلنا إن الشيء نفسه متحد وفي الوقت ذاته مميز، ويمكن إدراكه من حيث المعنى في وحدة جديدة تنطوي على مفارقة في تميزها وفي ووحدها^[2].

كان جمال هذا المذهب يتمثل في أنه أخيراً خلص العقيدة المسيحية النيقية نهائياً من غلبة النزعة السابليانية. فالمسيح يمكن أن يكون الله دون أن يكون مدعيّاً أو متظاهراً أو مجرد غطاء بشري لله. جعل هذا المذهب الجديد من الممكن ومن السهل على الآريوسيين الذين يؤمنون بمبدأ التشابه في الوجود بأن ينتقلوا إلى الإيمان بالتساوي في الوجود دون أن يشعروا بأنهم ينالون من مكانة السيد المسيح ليصبح مجرد نشاط أو فاعلية أو اسماً لله، أو حتى مجرد ظهور وتجلّ مؤقت للخالق. بعبارة أخرى فإن الآباء الكبادوكيين حاجبوا بأن الآريوسيين المعتدلين (وهي المجموعة التي كان باسيليوس الكبير ينتمي إليهم ذات يوم) عليهم أن يتوقفوا عن القلق من اختفاء

1- Hanson, Search, 687- 688.

2- Ibid., 723- 724. See also Gregory of Nyssa, "On the Holy Trinity" and "On 'Not Three Gods'" in Schaff and Wace, eds., Nicene and Post-Nicene Fathers, second series, vol. 5, Gregory of Nyssa, Dogmatic Treatises, Etc. (Peabody, Mass.: Hendrickson Publishers, 1994), 326- 336.

المسيح وانصهاره بالكامل في الله. فحقيقة أن المسيح كان تجسدًا لله لا تعنى التقليل من الانفصال والتميز بين طبيعته الإلهية (لاهوت المسيح) وطبيعته البشرية (ناسوت المسيح).

على الرغم من تفصيل هذا المذهب وقوته، إلا أنه لم يلق القبول والإجماع على الفور، فلم يكن متوقعًا بالتأكيد أن يلقى التأييد والرضا من الآريوسيين المتطرفين الذين كانوا يؤمنون بأن المسيح لم يكن هو الله، ولكن حتى الآريوسيون المحافظون الذين كان يخشون من أن تطبيق هذا المذهب وما يتضمنه من ثلاثة موجودات تتشارك في جوهر واحد ربما يؤدي إلى تلاشي الخصائص الفردية التي ستصبح عديمة القيمة. فإذا كان المسيح إلهًا فعلاً، فما هي قيمة امتلاكه بعض الخصائص الفردية كذلك؟ ربما يصر الأب جريجوري النيساوي على أن العناصر الفردية في الثالوث المقدس كانت حقيقة واقعية بنفس قدر وحدة هذه العناصر معاً، ولكنه في الوقت ذاته أوضح أن الطبيعية البشرية للسيد المسيح بالنسبة إلى طبيعته الإلهية كانت مثل نقطة من الخل في بحر من الماء، ولكن لم تنجح تلك النصوص في طمأنة المعتدلين والمتطرفين الآريوسيين كليهما على أن فردية المسيح تمثل شيئاً مهماً.

لكن الآريوسيين المحافظين شعروا بالراحة قليلاً من عبارة جريجوري النازيانزي بأن الآب أعظم من الابن من ناحية أن الابن استمد مساواته لله ووجوده من الآب^[1]. ولكن مثل هذا النوعية من الكلام أغضبت الأساقفة النيقيين الذين طالما ناصروا النيقية بشدة وخاصة أساقفة الغرب الذين بدأوا يعتقدون أن الآباء الكبادوكيين الثلاثة ربما بدأ يميلون في اتجاه المدرسة الخضوعية.

1- Pelikan, *Emergence*, 222- 223.

كانت هناك بعض الاعتراضات الأخرى، ذلك أن المذهب الجديد كان جديدًا بالكامل ومليئًا بالمتناقضات وغامضًا أكثر من اللازم، وكان ماهرًا ومفصلًا بدرجة تدعو للحيرة والارتباك، غير أنه بالنسبة للكثيرين من المشككين كانت أكثر السمات إثارة للمتاعب في ذلك المذهب اللاهوتي الجديد أنه بينما كان يحاول إعادة تعريف العلاقة بين الآب والابن قام بتبديل المفهوم المسيحي حول الله، فعندما بدأت الهرطقة الآريوسية كان بإمكان المرء أن يفترض أن جميع الأطراف المتصارعة كان لديها مفهوم وشعور واحد حول الله، وأن اختلافهم كان منصبا فقط حول الابن وطبيعة جوهره ووجوده وعلاقته مع الآب، ويمكن للمرء قول الشيء نفسه حول المسيحيين واليهود فكلاهما كان له مفهوم واحد حول الله ولكن اختلافهما كان حول اعتبار المسيح بأنه المسايا (المخلص) وحول ألوهيته وامتداد تلك الإلوهية، بل يمكن حتى القول بأن آراء المسيحيين حول الإلوهية تتماثل في بعض جوانبها مع أفكار بعض الوثنيين المستنيرين، الذين اعتقدوا بوجود عظيم أسمى من أي وجود آخر لا يمكن بسهولة تمييزه عن يهوه^[1]. Jehovah، ولكن ما أن تطور الفكر اللاهوتي فإن كل ذلك تغير. وبدأ المفهوم الجديد للمسيحيين حول الله في التكون. بقي شيء واحد لكي يقال، كما فعل أثناسيوس والمناصريون الأوائل للمذهب النيقى، الذين قالوا بأن الله والمسيح تشاركا في جوهر واحد، ولذلك فإن الابن كان إلهيًا تمامًا كالآب، وبطريقة غامضة فإنه كان متحدًا معه بالتساوي أو التماثل في الهوية دون أي شيء إضافي.

1- Both Constantine, before his conversion, and Julian worshiped an all-powerful God that they identified in a purely symbolic way with the sun.

وبالتالي فإن الله كان آب حقيقياً استطاع بطريقة فوق الوصف أن ينجب ابناً مساوياً له في الإلوهية، وما فعلته الفلسفة اللاهوتية الكبادوكية هو توضيح أنه إذا كان المسيح إلهياً بشكل كامل، ففي هذه الحالة فإن الله لن يصبح فقط هو الآب، ولكنه أيضاً وبشكل مساو هو الابن والروح القدس، وكما صاغ جريجوري النيساوي هذا الأمر قائلاً "الله هو الله ليس لأنه الآب أو لأنه الابن، ولكن لأنه الاثنين معاً، فالاثنتان معاً كانا يمثلان الألوهية"^[1].

كان من الواضح أن هناك بعض التوتر حول فكرة الله موزعاً على ثلاث أشخاص متساوين، والفكرة التي نوه عنها سابقاً بأن الله كآب هو أعظم من الله كابن أو كروح قدس، وقد ظل هذا التوتر الناشئ عن الفكرة التي تقول بأن الله موزع بين ثلاثة أشخاص متساوية، ظل هذا التوتر دون حل أبداً وفقاً لبعض المعلقين:

هل تتم مخاطبة الرب في الصلوات كآب فقط، أم أن تلك الصلوات يخاطب بها الوجود الإلهي بأكمله، أجاب باسيليوس على مثل هذا التساؤل بأن المشترك بين الثلاثة كان هو الأعم والأغلب، بينما المميز بينهم كان يقع خلف القدرة على التعبير والكلام أو حتى الإدراك ولذلك فإنه يتخطى حدود التحليل أو التفكير^[2].

ربما ساعد غموض هذا المذهب على اقتناع الآريوسيين المعتدلين به وتحولهم إلى مناصرته طالما كان بمقدورهم الاستمرار في القول بأن الله الآب كان أكثر قوة وإرادة من الله الابن. وحتى إلي يومنا الحالي فإن الكثيرين من المسيحيين الذين يصفون أنفسهم بأنهم

1- These quotations from Gregory of Nyssa are cited and discussed in Hanson, Search, 724- 726.

2- See Pelikan, Emergence, 223.

أرثوذكس ينظرون إلى الله بشكل رئيسي باعتباره الله الآب. لكن التغير الضخم الذي صنعه الآباء الكبادوكيون هو تميز فكرة الله في الدين المسيحي التي تتألف من الآب والابن والروح القدس عن مفهوم الله الواحد لدى الآريوسيين المتشددين أو اليهود ولاحقًا لدى المسلمين الموحدين والبهائيين وآخرين. وما فعله الكبادوكيون إذن ليس فقط إعادة تعريف العلاقة بين الآب والابن كما كان هو محور الخلاف في العقود السابقة، ولكن أعادوا مفهوم تصورهم للابن وللآب أيضًا. وكنتيجة لذلك فإن المسيحيين الذين قبلوا مثل هذا الإله المكون من ثلاثة أشخاص، لم يعودوا بعد تلك اللحظة يتشاركون مع اليهود في الله الذين يعدونه يهو أو حتى القوة العظمى لجيرانهم الوثنيين، ولم يكن بعد ذلك الحين بمقدور اليهود ولا الوثنيين القول بأنهم يعدون نفس الإله الذي يعبدده المسيحيون.

مذهبيا فإن تلك اللحظة كانت تعنى تاريخيا الانفصال بين الديانة المسيحية وبين الديانة الأم التي اشتقت منها (اليهودية) والأشكال الأخرى من الديانات التوحيدية، طالما ظلوا يستخدمون مثل تلك المجازات العائلية معتبرين أن الله الآب والأشخاص المخلوقين على صورته وهيئته هم أبنائوه وبناته.

بالنسبة للمسيحيين النيقيين فإن إدخال المسيح وإدماجه في النظام الإلهي كانت الوسيلة الوحيدة من أجل الحفاظ على عبادة المسيح وتوسيعها دون التضحية بمبدأ التوحيد. وأما بالنسبة للآخرين فإن وصف السيد المسيح بأنه تجسيد الله كان يضحى بمبدأ التوحيد. ولن تصبح المسألة فقط هي النظر إلى أن المسيح أصبح الله، ولكن أيضًا الله أصبح المسيح.

في سبعينيات القرن الرابع الميلادي عندما أنجز الآباء الكبادوكيون

عملهم الكبير هذا، لم يكن من الواضح إذن كان هذا المذهب سيحقق الانتصار أم لا. وكان صراع عنيف يلوح في الأفق بين الآريوسيين المتشددين والنيقيين، خاصة أن القابع على كرسي عرش الإمبراطورية الشرقية الذي جلس عليه قسطنطين ذات يوم يدين بالآريوسية. ومن أجل ضمان تحقيق النصر للمعسكر النيقى، ومن أجل إقناع عامة المسيحيين، وبالقدر نفسه المفكرين والمتعلمين باتباع المذهب النيقى (بعد التعديلات التي أحدثها فيه الآباء الكبادوكيون)، ومن أجل قبول أن المسيح هو تجسيد الله فإن الأمر كان يتطلب المزيد من المجادلات والمناقشات اللاهوتية. وبطريقة ما، فإن الله كان عليه أن يجعل مشيئته معروفة في التاريخ.

الفصل الحادي عشر

عندما أصبح المسيح إلها

في عام 373، مات أثناسيوس أسقف الإسكندرية بعد عمر مديد وهو في مجد كبير، وعلى الرغم من أنه في الأيام الأخيرة من عمره لم يعد كما في السابق زعيم المعسكر النيقى، (فالدور الكبير الذي كان أثناسيوس يقوم به ذات يوم بمفرده، أصبح يقوم به الآن اثنان من كبار قادة الكنيسة وهم دامسيوس أسقف روما في الغرب وباسيليوس الكبير في الشرق)، ... أعلن الحداد على أثناسيوس بصفته لاهوتياً عظيماً ومقاتلاً محارباً، ورجل دولة، وبصفته التجسيد الجديد للقضية النيقية الذي تعرض لمعاناة النفي خمس مرات وعاد إلى مدينته المحبوبة الإسكندرية خمس مرات. وكان أخلص أتباعه هم رهبان الصحراء الذين استطاع جذبهم إلى العقيدة النيقية بعيداً عن المذهب الآريوسي، وكان دائماً مدعاة لفخر أثناسيوس العظيم القول بأن الراهب المصري أنطونيوس مؤسس الرهبنة في العالم المسيحي قد أوصى بمتعلقاته القليلة قبل وفاته بوقت قصير إلى أثناسيوس. ولو أن شخصية الأسقف كانت أكثر قداسة⁽¹⁾. (وهو المصطلح الذي عادة ما يستخدم) ربما لم يكن تعرض للنفي المتكرر مثلما تعرض له، ولكن شخصية أكثر قداسة لا بد وأن يعوزها الطاقة والتصميم الضروريان

1- المؤلف ربما يعنى بكلمة لو كانت شخصيته أكثر قداسة هو عدم اشتغاله بالسياسة (المترجم).

من أجل الصمود وإعادة التخطيط والتأثر ثم الفوز في النهاية.
لم يأسف الإمبراطور الآريوسي فالنز على رحيل أثناسيوس^[1]، وعلى الرغم من أنه ظل يحترم تعهده الذي أعطاه له بعدم التدخل في شئون الكنيسة، لكنه لم يكن ميالاً إلى اختيار الشخص الذي رشحه أثناسيوس لخلافته في منصب الأسقفية، فبعد أن تم تعيين بطرس كأسقف للمدينة عقب وفاة أثناسيوس كما خطط الأسقف العجوز قبل رحيله. والذي قيل عن طباعه بأنها أكثر شراسة وأقل قدرة على التعاون حتى من سلفه أثناسيوس إذا كان فقط من الممكن تخيل هذا. وفي الوقت الذي كانت أسقفيات كل من القسطنطينية وأنطاكية يشغلها أساقفة آريوسيون، فإن الإمبراطور فالنز لم يرد أن يترك أسقفية أكبر مدينة في الإقليم في أيدي أعدائه من المعسكر النقي، وبالتالي كان اختياره لمنصب أسقف الإسكندرية هو لوقيانوس، الذي تم انتخابه من قبل أساقفة الإسكندرية الآريوسيين كأسقف للمدينة في أعقاب شنق جريجوري الكبادوكي في عام 361،

1- شابت العلاقة في البداية بين فالنز و أثناسيوس التوتر، حيث قام فالنز بنفي أثناسيوس، غير أن الأخير كان قد اكتسب بالتأكيد حكمة جعلته أكثر قدرة على التعامل مع الأباطرة، والدليل على هذا انه قال عندما صدر قرار نفيه: إنها سحابة وسوف تمر سريعاً لابد، وهذا ما حدث بالفعل، فعندما حدثت بعض التمردات العسكرية ضد فالنز الذي خشي أن يلقي مصيراً مشابهاً لمصير الإمبراطور قنسطانز اصدر أوامره بعودة أثناسيوس لكرسي أسقفية الإسكندرية في عام 368 م حتى يضمن استقرار الجبهة الداخلية و بالفعل عاد أثناسيوس واستمر في منصبه حتى تاريخ وفاته في عام 373 م وأعتبر تلك السنوات الخمس من حياة أثناسيوس عقب عودته من نفيه للمرة الأخيرة من أكثر السنوات هدوءاً في حياته طوال المدة التي شغل فيها وظيفة أسقف الإسكندرية، فعلى الرغم من ان الجالس على العرش كان إمبراطوراً آريوسياً إلا أنه لم يكن يميل إلى قمع خصومه بالإضافة إلى أن أثناسيوس بطبيعية الحال كان أكثر حكمة في تعامله مع الأباطرة الآن (المترجم).

ولكن عندما عاد أثناسيوس إلى المدينة في عام التالي 362 فإنه قام على الفور بطرد لوقيانوس والأساقفة الآريوسيين الآخرين. وقد التمس الأساقفة المنفيون ملجأً آمناً في مدينة أنطاكية لدى أسقفها الذي لم يكن إلا يوزيوس رفيق آريوس القديم في المنفى. كان فالنر مصمماً على أن لوقيانوس الآريوسي وليس بطرس النيقى هو من يجب أن يكون الأسقف الجديد للإسكندرية.

كانت خطوة الإمبراطور الأولى في هذا المسعى هو إصدار أوامره إلى وإلى مصر للقبض على بطرس، وبالفعل أحاط الجنود بالكنيسة الموجود فيها بطرس وتمكنوا من إلقاء القبض عليه ووضعوه تحت سيطرتهم، إلا أنه بطريقة ما استطاع الفرار والصعود إلى سفينة والتوجه إلى روما، وهناك تم الترحيب به من قبل الأسقف ديمسيوس الذي كان من أنصار المذهب النيقى والذي يحظى بدعم مليشيات مسلحة، والذي تم انتخابه كحبر للمدينة قبل ذلك التاريخ بعدة أعوام بعد انتخابات كنسية شهدت أعمال عنف غير معتادة حتى بمقاييس القرن الرابع الميلادي، (ففي كنيسة واحدة فقط تم اكتشاف أكثر من 160 جثة لرجال وسيدات بعد اندلاع القتال بين المؤيدين لديمسيوس وبين منافسيه الآريوسيين)^[1].

بينما كان بطرس يحاول دون نجاح جذب اهتمام الإمبراطور الغربي إلى قضيته ومحنته، فإن لوقيانوس وصل إلى مدينة الإسكندرية محاطاً بالجنود الإمبراطوريين مع قائدهم الكونت ماجنوس الذي قام بالقبض على عشرين من القساوسة الذين عارضوا اختيار لوقيانوس أسقفاً للمدينة وقام بنفيهم، في حين تعرض رجال الدين الآخرون

1- Barnes, Athanasius and Constantius, 118, n° 62, 276.

الذين عبروا عن تعاطفهم مع هؤلاء المنفيين لعقوبة السجن مع العمل الشاق في المناجم، وكان جزاء أي من يعارض سلطة لوقيانوس كأسقف للإسكندرية هو النفي إلى أراض أجنبية معادية.

وعلى الرغم من أن كل الأنباء والتقارير حول تعرض رجال الدين المصريين للاضطهاد جاءت من رجال الدين النيقيين، وحتى إذا وضعنا في الاعتبار حقيقة أن تلك الأنباء كان يغلب عليها التحامل والمبالغة، فإنه يبدو أن الإمبراطور فالنز بدأ في معاملة رجال الدين المصريين بدرجة من الشدة غير معتادة منه^[1].

كان هناك بعض الأسباب التاريخية والعقائدية لمثل تلك الخشونة في المعاملة، فمصر تحت سيطرة أثناسيوس الذي كان معروفاً منذ زمن طويل بأنه المضطهد الفظ للآريوسين، وربما يكون الإمبراطور الآريوسي فالنز قد قرر عندما وافته الفرصة أن ينتقم لمثل هذا الاضطهاد الذي عانى منه الآريوسيون في مصر. لكن أيضاً كان هناك عامل يقف على قدم المساواة مع هذا السبب، فلقد كان هناك عدد متزايد من التقارير المزعجة التي تصل إلى العاصمة من الأقاليم الواقعة شمال نهر الدانوب، وإذا صحت تلك التقارير فإن الإمبراطورية الشرقية كانت تواجه غزواً جديداً، ولكن هذه المرة ليس من الجبهة الفارسية ولكن من جانب الهون (القبائل البرابرة التي تهدد جبهة شمال الدانوب)، في مثل هذه الظروف الحرجة

1- Somewhat earlier, Valens was said to have received a delegation of pro-Nicene clergy from Constantinople at Nicomedia, rebuffed them, and put them on a ship to transport them back across the Bosphorus. The ship caught fire and the priests died. Valens was accused of ordering the blaze, but it was very likely accidental. See, e.g., Hanson, 791.

التي تواجه الإمبراطورية كان من الصعب على الإمبراطور أن يترك مصر التي كانت تمثل المصدر الرئيسي للإمبراطورية الشرقية ليس فقط في الحبوب ولكن أيضًا للضرائب تحت سيطرة رجال ليسوا على علاقة طيبة وودية معه.

كانت التقارير التي يتلقاها فالنز حول قبائل متوحشة جديدة من المهاجرين الذين يتحركون بثبات قادمين من ناحية الغرب وسهول الإستبس الروسية، مسببين الرعب والفرع للقبائل الجرمانية أينما حلوا في طريقهم. كان المقاتلون الهون كما كانوا يطلقون على أنفسهم في لغتهم البدائية الأسوية مقاتلين لا يضاهيهم أحد في عدم خوفهم من الموت وحبهم للقتال إلى الدرجة التي جعلت المقاتلين القوط على الرغم من شهرتهم الكبيرة بشغفهم للقتال ومهارتهم الحربية العالية يرتجفون خوفاً أمامهم. وفي بداية عقد السبعينيات من القرن الرابع الميلادي، سحق المحاربون الهون المملكة الأوكرانية التي أسسها في السابق القوط القرشيون (الجروثينجي)، وعلى إثر تلك الهزيمة الساحقة، قام ملكهم بالانتحار. بعد ذلك توجهوا ناحية الجنوب مندفعين بقوة في الأراضي التابعة للقوط الغربيين. لم تتسبب أبداً أي من هجرات قبائل البرابرة (على الرغم من كثرتها) في إحداث مثل هذا القدر من الرعب والفرع الذي أحدثته هجرات قبائل الهون، وخاصة بعد قهرهم للقوط الغربيين الذين كان ينظر إليهم في السابق باعتبارهم منيعين وغير قابلين للهزيمة. وقام حوالي مئتي ألف من رجال قبائل القوط، (العديد منهم تحول إلى المسيحية نتيجة لجهود الأسقف أولفيل) قاموا بالفرار في جماعات وحشود ضخمة باتجاه الدانوب، محصورين بين الهون المتقدمين من الخلف وبين القوات الرومانية على الحدود والحصون الدفاعية، قام القوط الغربيون يائسين بطلب الإذن من

السلطات الرومانية بعبور الدانوب^[1]* للاستقرار في الأقاليم الرومانية جنوب النهر. وعلى الرغم من أن الطلب لم يكن مسبوقاً، إلا أن الوضع والظروف الراهنة كما أدرك فالنز لم تكن أيضاً عادية. ولكن لسبب واحد وافق على استقرار قبائل القوط الغربيين في جنوب الدانوب لكي تشكل خطاً دفاعياً للإمبراطورية ضد الهون الذين لو استطاعوا القضاء على القوط الغربيين، فإنه لن يحول بينهم وبين روما أي مانع، وسوف تواجه روما عدواً غير مسبوق في ضراوته ووحشيته على طول امتداد نهر الدانوب، بالإضافة إلى هذا فإنه كانت هناك الكثير من الأراضي والأقاليم الفارغة في تراقيا، التي يمكن أن يستقر هؤلاء المهاجرون الجدد بها. كان القوط الغربيون بطبعهم مقاتلين أكفاء مهرة، وكان عرضهم الانضمام إلى الجيش الروماني بمثابة المعين الذي لا ينضب من المتطوعين الجدد الذين يمكن من خلالهم أن يحل فالنز من مشكلته الكبرى في إيجاد مجندين أكفاء جدد للخدمة في الجيش الروماني. وبضربة واحدة ظن الإمبراطور أنه بتحويلهم إلى جنود ومزارعين ودافعي ضرائب فإن القوط الغربيين سيتحولون إلى دعم الإمبراطورية وزيادة خزائنها بدلاً من كونهم عبئاً عليها يستنزف مواردها. ومما حسن من جاذبية تلك الخطة في أعين الإمبراطور كونهم مسيحيين على المذهب الآريوسي.

قام فالنز لهذه الأسباب بمنح اثنين من ملوك القوط الغربيين هما:

1- كانت الإستراتيجية الدفاعية للإمبراطورية الرومانية منذ زمن الإمبراطور دقلديانوس قائمة على اعتبار أن نهري الدانوب والراين يمثلان خطي دفاع الإمبراطورية ضد غزوات البرابرة، وهنا يجب أن نذكر بأن مصطلح البرابرة في الإمبراطورية الرومانية كان يستخدم للدلالة على كلمة الأجانب، و لذلك لم يكن العبور الجماعي لقبائل القوط الغربيين ومن بعدهم القوط الشرقيين لاحقاً لنهر الدانوب للاستقرار في أقاليم البلقان ليتم دون موافقة الإمبراطورية على مثل هذا النزوح الجماعي ومن هنا جاءت المفاوضات السلمية لقبائل القوط الغربيين للحصول على موافقة الإمبراطورية على عبورها لنهر الدانوب (المترجم).

الفيفيوس وفريتجيرن الإذن بقيادة شعوبهم من أجل الاستقرار في الأراضي الرومانية. وفي شهر نوفمبر وأوائل ديسمبر من عام 376، عبر الجزء الأكبر من تلك القبائل الجرمانية على ظهر عبارات خشبية نهر الدانوب إلى المنطقة التي تعرف الآن ببلغاريا. وكما كان متوقعا، فإن غياب الاستعدادات الإدارية الرومانية لاستقبال مثل هذا العدد المهول من المهاجرين بالإضافة إلى الفكرة السلبية السيئة لدى المسؤولين والضباط الرومان حول القبائل الجرمانية وما اتبعته من سوء معاملة ضد هؤلاء المهاجرين أدى إلى كارثة إدارية وإنسانية حقيقية بين النازحين من القوط الغربيين^[1]. فبعض هؤلاء القوط تم تجنيدهم على الفور للخدمة في الجيش الروماني حيث أرسلوا للانضمام إلى وحدات عسكرية صغيرة تم تشكيلها من القوط الغربيين للقتال على الجبهة الفارسية، وآخرون تم إرسالهم لقضاء الشتاء في مدينة هدرایانوبولس على الحدود التراقية، ولكن الأغلبية ظلت في الشمال تعاني من النقص الحاد في الغذاء وهي المشكلة التي أخذت في التفاقم مع قدوم الشتاء القارس لسوء الحظ، واتسمت طريقة تعامل الموظفين الرومان وملاك الأراضي مع قبائل البرابرة بالجشع والعنصرية، حتى ولو كان هؤلاء البرابرة معتنقين للمسيحية^[2]. حيث تم استغلال المهاجرين المعدمين من قبائل القوط الغربيين التي عبرت الدانوب بوحشية وقسوة شديدة،

1- See A. H. M. Jones, *The Later Roman Empire*, 284—602: A Social and Administrative Survey, vol. I (Norman, Oklahoma: University of Oklahoma Press, 1964), 152153-.

2- The Battle of Hadrianopolis (Adrianople) and its causes are discussed in Michael Grant, *The Fall of the Roman Empire*, 7 et passim.

وتعرضوا للإذلال والمهانة الشديدة من الأشخاص المفترض أن يكونوا عونا وحماة لهم من الهون، وعندما بدأوا في التضور جوعاً فإن كبار المسؤولين الرومان عرضوا عليهم لحوم الكلاب في مقابل بيع أبنائهم، الذين قام المسؤولون أنفسهم بإعادة بيعهم مرة أخرى كعبيد مع تحقيق مكاسب مالية ضخمة لأنفسهم¹¹. وفي الوقت ذاته فإن أبناء مدينة هديرانوبولس رفضوا أن يشاركوا القادمين الجدد من القوط في غذائهم ومخزونهم، وسرعان ما وجد رجال القبائل الذين تم إرسالهم إلى المدينة أنفسهم ضحايا مذبحة منظمة. ولكي تزداد الأمور سوءاً فإن القوط الشرقيين الناجين بعد الهزيمة أمام قبائل الهون طلبوا الإذن من السلطات الرومانية أسوة بالقوط الغربيين لعبور نهر الدانوب هرباً من الهون، وعلى الرغم من رفض الإمبراطور فالنز إعطائهم الإذن بالعبور، إلا أنهم لم يكن أمامهم خيار إلا عبور النهر على مسؤوليتهم الخاصة (هرباً من الهون من خلفهم)، وبالتالي فإن الأعداد المتزايدة من القوط الشرقيين على جنوب الدانوب زادت من الضغط الشديد الموجود فعلياً على المواد المستنزفة للإقليم.

مبكراً في عام 337 طلب الملكان القوطيان لقاء عاجلاً مع الكونت ليبسنيوس ممثل الإمبراطور والمسؤول العسكري الأعلى في منطقة تراقيا والدوق ماكسيموس الرئيس المحلي للسلطة المدنية الرومانية، كان كلا الاثنين من المتورطين الرئيسيين في بيع لحوم الكلاب إلى القوط مقابل أبنائهم وفي تجارة العبيد بين صفوف المهاجرين. ووافق الكونت على لقائهم في مقره الرئيسي في مارسيانبولس، ولكنه أعطي أوامره إلى حرسه بالتواجد عن قرب وإحاطة مرافقي الملكين القوطيين الحاضرين اللقاء ومراقبتهم

1- Ibid., 131.

جيدا. فالمرء على حد قوله يجب أن يكون حذرا مع هؤلاء المتوحشين. وبمجرد جلوسهم في قاعة الطعام مع ليبسنيوس، أخذ الملك فريتجيرن في سرد وابل من القصص المؤسفة والمأساوية عن المعاناة الإنسانية لقومه. وأوضح أن الأوضاع بين القوط أصبحت غير محتملة. وشرح كيف أن بعض الضباط الصغار من القوط قاموا بتشكيل فرق عسكرية تحت إمرتهم المباشرة من أجل الدفاع عن أنفسهم ضد المهاجمين ومن أجل الاستيلاء على إمدادات الغذاء من الولايات الكبرى المجاورة. ففي النهاية وعلى الرغم من كل شيء فإن القوط الغربيين هم محاربون في الأساس، ولم يعد بإمكانهم الجلوس ببساطة ومشاهدة أبنائهم وهم يتضورون جوعاً. وإن كان ملوك القوط فريتجيرن والفيفيوس ما زالوا يسيطران على رعاياهما وإن يكن بالكاد. ومن الواضح أنه لا بد من عمل أي شيء من أجل تجنب الكارثة المنتظرة. شيء يجب فعله على وجه السرعة من أجل إنقاذ الشعب القوطي الغربي، وإذا لم يتم هذا فإن الملك فريتجيرن لن يستطيع ضمان السلام.

وما حدث بعض ذلك وتسبب في إثارة الفوضى في العشاء بين ليبسنيوس والملكين القوطيين غير واضح^[1]. فرما يكون الكونت ليبسنيوس فهم كلام الملك فريتجيرن على أنه تهديد مباشر (وقد كان من جانب ما فعلا كذلك)، واعتبر أن مثل هذا الكلام يمثل إهانة له، ويمكن للمرء بسهولة أن يتخيل هذا الروماني المتعجرف، وهو مذهول من وقاحة ذاك البربري القوطي، وقد وقف على قدميه غاضباً بشدة، وما اتبعه من وقوف الضيوف الملكيين على إثره وحراسهم يحيطون

1- See the brief account in Jones, *Later Roman Empire*, 153, citing the contemporary historian Ammianus.

بهم من أجل حمايتهم، ونعلم أن نتيجة هذه التوتر هو اشتباك حراس كلا الطرفين في القتال، وانطلاق الملكين بسرعة عبر أبواب المدينة محاولين الفرار تسيطر عليهم الرغبة في تحقيق العدالة والانتقام، وقد اختفى الملك فريتجيرن القائد العسكري الأعلى للقوت في الريف، ومن ثم بدأ في شن غارات وهجمات صغيرة على الحاميات العسكرية المحلية ومخازن الغذاء، وتصاعدت الأدخنة من القرى المنهوبة، وبدأ العبيد في الفرار من أجل الانضمام إلى جيش فريتجيرن، وتعالى صرخات الأرامل والأيتام.

تصاعدت الثورة القوطية وامتدت لتشمل تراقيا كلها، وبدأت عوامل الحرب الطبقيّة في الظهور عندما أخذ العبيد غير القوطيين والمساكين في مناجم الذهب والإقطاعيات الضخمة في الفرار من أجل الانضمام إلى القوات القوطية أو من أجل إمدادهم بالمعلومات، وتم إرسال المزيد من القوات الرومانية من أجل دعم القوات المتواجدة في المنطقة، ولكنها تعرضت للعزلة والمحاصرة من كل الجوانب والهزيمة الساحقة....

في المعارك التي تعتمد على الميادين الواسعة المفتوحة (حيث يمكن القتال من على ظهور الخيل) فإن الرومان كانوا لا يتمتعون بالكفاءة والمهارة القتالية للفرسان القوطيين المهرة والقساة تحت إمرة فريتجيرن، وسرعان ما وصل الفزع والرعب المنتشر بين الرومان إلى القسطنطينية نفسها، التي لم تكن تبعد أكثر من خمسمائة ميل إلى الشرق، ومن ثم وصل إلى أنطاكية حيث كان الإمبراطور فالنز يقضى الشتاء وسط جنوده. كانت الانتفاضة القوطية المسلحة تمثل أكبر خطر يهدد روما منذ الأيام السوداء الكالحة في القرن الثالث الميلادي فأقليم تراقيا بأكمله أصبح الآن ميدانا لهجمات القوط

الغربيين، وكان بمقدور ملكهم فريتجيرن أن يتقدم بجيشه إما تجاه القسطنطينية أو تجاه أثينا.

قام الإمبراطور فالنز بإعداد جيشه من أجل التوجه إلى أوروبا لمواجهة خطر القوط المتصاعد، وبما أن المسافة التي كان على جيشه أن يقطعها كانت حوالي ألف ميل فإنه كان من المتوقع أن يتطلب الأمر بعض الأمر لوصول الجيش الروماني إلى ساحة المعركة، وكإجراء مؤقت فإن الإمبراطور قام بطلب قوات إضافية من الغرب، ولكنه في الوقت ذاته أرد أن ينال شرف الخلاص من خطر القوط بنفسه. ولو كان الإمبراطور فالنتينيان أخو الإمبراطور فالنز مازال جالسا على عرش الإمبراطورية الغربية، فإنه على الأرجح كان سيقدم لأخيه الدعم المطلوب لمواجهة الخطر القوطي، ولكن للأسف كان الإمبراطور فالنتينيان قد مات في ظروف غامضة قبل عامين من هذا التاريخ أثناء استقباله وفد من قبائل الكوادي Quadi people ، (كانت قبائل الكوادي قد استطاعت مؤخرا السيطرة على إقليم إيليريا، وتزعم الرواية المشهورة أن وفد الكوادي الذي جاء لمقابلة الإمبراطور فالنتينيان قاموا بمخاطبته بطريقة وقحة وفضة للغاية إلى الدرجة التي جعلت الإمبراطور يلقي حتفه وسط الاجتماع إثر أصابته بأزمة قلبية)^[1]، كان خليفة فالنتينيان هو ابنه المراهق جراتيان، الذي أمر بدوره فرقتين ضخمتين من الجنود بالتوجه إلى الشرق لمساعدة فالنز في حربه ضد القوط، إلا أن أغلب قوام هاتين الفرقتين لم يصل في الوقت المناسب، إما بسبب عدم كفاءة الضباط المسؤولين عنهما أو بسبب انشغالهم في تلبية طلب حاكم إيليريا في الدفاع عن إقليمه.

1- Jones, Later Roman Empire, 140.

في شهر أغسطس من عام 378، فإن الجزء المتبقي من الفرق العسكرية الذي تم إرساله من أجل دعم قوات فالنز كان في طريقه إلى أرض المعركة بالقرب من مدينة أدرنة، وباقترابهم علموا بأن معركة كبرى قد جرت بين قوات القوط الغربيين وبين الإمبراطور فالنز، وعند وصولهم إلى أرض المعركة فإن ما رأوه سيظل حيا للأبد في ذاكرتهم ولن يستطيعوا أبدا نسيانه، فعند وصولهم كانت المعركة قد انتهت منذ أيام، وكانت الآلاف من الجثث المتعفنة متناثرة مثل سجادة على الأراضي الخصبة، وعلى الرغم من أن تلك الجثث كانت عارية منزوعة الملابس إلا أنه كان من الواضح أنها جثث لجنود رومان، لم يكن هناك أي أثر للمصابين أو جثث للجنود القوطيين، ولم يكن هناك أي وجود للإمبراطور الروماني فالنز في أي مكان، بل لم يكن هناك أي أثر على وجود روماني أو لاتيني على قيد الحياة. وبدا الأمر كما لو أن الإمبراطورية توقفت فجأة عن الوجود.

سرعان ما أصبحت القصة معروفة للجميع، فالإمبراطور فالنز كان قائداً عسكرياً قديراً يقود جيشاً له خبرة قتالية عالية بعد سنوات طويلة من القتال ضد الفرس، ولكن القوط لم يكونوا مثل الفرس، فالقوط عسكريون مهرة يقاتلون على الأسلوب الروماني، و كانوا في حالة تأهب بعد أن طردوا من أراضيهم على يد الهون، وعانوا من المجاعة والاستعباد والإذلال من قبل الرومان ولم يكن لديهم أي شيء ليخسروه، وكان حبهم الأسطوري للحرب وسعادتهم بالقتال وخوض المعارك لا يضاهيه أي شيء آخر: فلقد ذكر عنهم أنهم كانوا يشربون من دماء أعدائهم في جماجمهم. كانت تكتيكاتهم العسكرية غير متوقعة على الإطلاق، وباستثناء الهون لم يكن يوجد في الغرب بأكمله

من يضاهيهم باعتبارهم محاربين فرسان^[1]، وعلى الرغم من قيام كبار مستشاري الإمبراطور فالنز من تحذيره من القيام بأي عمل متهور، إلا أنه تجاهل تحذيرات مستشاريه، وقام بقيادة الجزء الأكبر من جيشه إلى الشمال باتجاه إقليم تراقيا والإسراع لملاقاة المتمردين القوط خارج مدينة أدرنة، وذكرت بعض التقارير أن العبيد العاملين في جيش فالنز قاموا بالانقلاب عليه وخيانة الجيش الروماني، وإعطاء معلومات دقيقة حول تسليح وتمركز تشكيلات الجيش الروماني إلى القوط. وعلى الأرجح فإن القوط الغربيين لم يكونوا في حاجة إلى مثل تلك المعلومات. حيث استطاع الفرسان القوط الراكبون تدمير الخيالة الرومان من الضربة الأولى، وتشتيتهم تاركين الجزء الأكبر من جنود المشاة الرومان دون حماية، واندفع الخيالة القوط في صفوف الرومان مثل منجل دموي يحصد الآلاف من أرواح المشاة الرومان، وبينما كان الجنود الرومان يحاولون الانسحاب حوصروا من قبل مشاة القوط. ولم يكن القوط يملكون موارد غذاء من أجل إطعام الأسرى الرومان، لكنهم استطاعوا التغلب على تلك المشكلة، ببساطة لم يكن يوجد من يطعمونه بعد إبادة الجيش الروماني بالكامل^[2].

1- تميز القوط بالقدرة على القتال على ظهور الخيل أثناء عدوها و هو الأمر الذي لم يعتده الجيش الروماني الذي كان في غالبته يعتمد بشكل رئيس على تشكيلات المشاة كما جاء في كتاب جوزيف داهموس "سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى" ترجمة: محمد فتحي الشاعر - (المترجم).

2- تأرجحت روايات المؤرخين حول خسائر الرومان في معركة أدرنة من إبادة للجيش بأكمله إلى قتل ثلثي الجيش الروماني، إلا أن الأمر المؤكد أن الجيش الروماني تعرض لهزيمة ساحقة، وأن الإمبراطور فالنز نفسه تعرض للقتل - للمزيد من المعلومات حول معركة أدرنة يمكن الرجوع إلى كتاب "سبعة معارك فاصلة في العصور الوسطى" لجوزيف داهموس (المترجم).

تم تفسير مقتل الإمبراطور الآريوسي، وتدمير جيشه بشكل مغاير من قبل أنصار المذهب النيقى. ففي ميلانو ألقى الأسقف أمبروز موعظة أكد فيها على أن تلك المذبحة الرهيبة التي حاقت بجيش فالنز ما هي إلا جزاء الله العادل لهؤلاء الهرطقة الآريوسيين، وأن سلامة أراضي الإمبراطورية الرومانية كانت مكافأة الله للإمبراطور الأرثوذكسي (جراتيان)^[1]. فالله على ما يبدو وكأنه قرر أخيراً الانحياز إلى طرف ما في هذا الصراع.

والآن بعد ذبح الإمبراطور الآريوسي وتدمير جيش الإمبراطورية، فإن تأثير تلك الأحداث على معنويات المعسكر الآريوسي بالتأكيد كان هائلاً، ولكن التأثير الأكثر ضرراً جاء من خلال نظرة عامة لتلك الكارثة، فالفكرة الرئيسية التي قام عليها المذهب الآريوسي كانت إمكانية التحسن الجذري في السلوك الإنساني دون انتظار حدوث المعجزات ودون أن يكون السلوك الأخلاقي مقصوراً فقط على طائفة صغيرة من رجال الدين المتخصصين. ومع تمتع الآريوسيين بشعبية في أوساط العمال، والحرفيين، والبحارة، والتجار، والرهبان، والراهبات، وصغار السن، فقد كان له تأثير قوى في المسيحية من أجل ظهور الاتجاه الذي يهدف إلى صهر الوجود الدنيوي مع روح المسيح، ومن ثم إعادة تجديد المجتمع الإنساني (ومحاولة السمو بأخلاقه لترقى إلى أخلاق المسيح)، ولكن معركة أدرنة صدمت المتفائلين وقوضت من زخم حركتهم وجاذبيتها، عبر إظهار أن مدينة الإنسان كما سيصفها القديس أوغسطين بعد ذلك بوقت قليل ليست آمنة، فقط هي

1- Frend, Rise of Christianity, 620.. See also Daniel H. Williams, Ambrose of Milan and the End of the Nicene-Arian Conflicts (Oxford: Clarendon Press, 1995).

مدينة الله كما تنظمها مؤسسة الكنيسة هي التي تستطيع توفير الأمان وتعوض الإنسان الهش عن خسارته لآماله الدنيوية^[1].

بوضوح كانت الأزمة التي تعاني منها الإمبراطورية واسعة الانتشار بطريقة يمكن وصفها بأنها متأصلة، فمحاولة إحياء القوة والمجد والثقافة الرومانية والذي بدأ مع عصر الإمبراطور دقلديانوس واستمر بواسطة قسطنطين الكبير كان قد وصل إلى نهايته الآن، أو ربما كانت محاولة إعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية من البداية بمثابة ضرب من الخيال، أو ربما حتى كان الخطأ الجوهرى محاولة تحقيق الإصلاح بدءاً من تلك المنطقة (غرب الإمبراطورية)، فالغرب كانت حاله أكثر سوءاً بكثير من شرق الإمبراطورية، ولم تكن هناك أية منطقة حدودية فيه بمأمن من الهجمات التي تشن عليها.

كان خليفة فالنز هو الإمبراطور ثيودوسيوس الأول، الذي أدرك أنه من أجل الحفاظ على الجيش الروماني، والسيطرة على مجتمع تمزقه الإضرابات والفوضى التي هي في وتيرة متزايدة، ولإيقاف التدهور في الإنتاج الزراعي، وضمان الاستمرار في تدفق العوائد الضريبية، فإنه لتحقيق تلك الأهداف يجب ربط الفلاحين بأراضيهم والعمال بمهنهم وصناعاتهم^[2]. رويداً أخذ أفق العالم الروماني الجديد في الانكماش ليسفر عن عالم أقل في التنوع والآمال، وبدأ أن إحراز أي تقدم في هذا العالم الجديد، سواء كان على المستوى المادي أو على المستوى الأخلاقي أمر بعيد المنال إن لم يكن مستحيلاً. وفي مثل تلك

1- St. Augustine of Hippo, The City of God, trans. Marcus Dods (New York: Modern Library, 1950).

2- The institution of serfdom may therefore be said to begin in the fourth century.

الظروف فإن البقاء والنجاة وخاصة بقاء روح المرء الأبدية كان هو الهدف الأسمى.

ربما أكثر من أي عامل آخر، فإن هذا التغير في المواقف أو ما يمكن أن يطلق عليه الواقع الجديدة جعل المسيحية أكثر ميلاً لقبول الأفكار اللاهوتية الجديدة حول الثالوث المقدس، لم يكن هذا يعنى بالضرورة أن المذهب الذي وضعه الآباء الكبادوكيون كان مذهباً زائفاً، ولكنه كان فقط استجابة للمخاوف العملية والحاجة إلى الإحساس بالأمان الروحي والمادي. تماماً كما أدى الإحساس في السابق بالضعف وقلة الحيلة إلى جعل الرومان ميالين أكثر لالتماس العون والحماية من أنصار أقوىاء والسعي للحصول على شفاعاة القديسين (كما لو كانت ممارسة عقائدية جديدة)، التي قادتهم في النهاية إلى عبادة المسيح بصفته إلهاً لا يقل قوة وقدرة عن الله. فبعض المؤمنين سعوا من أجل انتهاج نفس منهج الرهبان والتخلي تماماً عن الحياة الدنيوية، ولكن الأمر كان يتطلب قوة غير محدودة من أجل التغلب على شرور وآثام أنفسهم. والبعض الآخر كانت تراودهم الآمال بأن يمنح المسيح الذي بدئ الآن ينظر إليه باعتباره يملك القوة المطلقة الانتصارات إلى القادة المسيحيين الأتقياء، والتي حرم منها جوليان الوثني المرتد عن المسيحية وفالنز الإمبراطور الآريوسي والقادة المهرطقين الآخرون. على أية حال، وباختصار فإن الرؤية التي كانت الآريوسية تقدمها حول المسيح لم تعد جاذبة بعد الآن، فمثل هذا النموذج من التطور الأخلاقي لم يكن الآن مناسباً لإنقاذ هؤلاء الأشخاص البائسين الذين يتطلعون إلى الأمان، بقدر ما كان في السابق يناسب هؤلاء الذين كانوا يتطلعون إليه باعتباره نموذجاً يسعى من خلاله البشر لتطوير كمالهم الأخلاقي ليصبحوا هم الآخرون مؤهلين للحياة الأبدية والألوهية.

كان الرجل الذي عينه جراتيان من أن أجل أن يحل محل الإمبراطور الميت فالنز هو التجسيد الحي للمبادئ والقيم الواقعية الجديدة التي أصبحت الآن تحكم الإمبراطورية. كان هذا الرجل هو القائد ثيودسيوس القائد العسكري الإسباني الذي تم تعيينه في يناير من عام 379 في منصب أغسطس الشرق، والذي كان يتمتع بعقل عملي وشخصية حاسمة مع لمحة من العنف وكان عانى من قبل من تقلبات السياسات العليا، فقبل ثلاثة أعوام تعرض أبوه الذي كان هو الآخر قائداً للإعدام بتهمة الخيانة التي كانت تهمة ملفقة على الأرجح، ولكن ابنه تعلم الدرس وعلم أن السياسة لها منافعها وأضرارها، وبقدر ما يمكن أن تعطى بقدر ما يمكن أن تأخذ حتى حياة الفرد نفسه، وأثبتت الحملة العسكرية الأولى التي قام بها ثيودسيوس من مقر قيادته العسكرية في تسالونيكيا تفوقه ومهارته القيادية، وبرهنت على أن قدراته القيادية والعسكرية تفوق قدرات سلفه تعيس الحظ فالنز، فبعد استطاعته هزيمة جيش قوطي في البلقان، فإنه أعطى بعض القبائل والشعوب الآرية الحق في الاستقرار في المناطق التي تحددها سلطات الإمبراطورية لهم مع رؤساء تلك الشعوب. لكن في هذه المرة فإن المهاجرين الجدد تم استقبالهم بشكل حسن ومنظم، حيث كانت موارد الغذاء أكثر وفرة ولم يكن لهؤلاء القبائل والشعوب أي سبب يدعوهم إلى التمرد.

في يناير من عام 380، ومع الهدوء الذي يسود إقليم البلقان بعد استقرار أوضاع القبائل المهاجرة هناك، عاد ثيودسيوس إلى القصر الإمبراطوري بمدينة ميلانو. كان الإمبراطور الجديد على معرفة قديمة مع الأسقف أمبروز المعروف بمعاداته الشديدة للمذهب الآريوسي، وسأل ثيودسيوس الأسقف النيقى أن يعلمه مبادئ الدين المسيحي

الكاثوليكي. وفي الشهر التالي قام بإصدار مرسوم ينحاز فيه بشدة للمذهب النيقى كمذهب رسمي للإمبراطورية. وللمرة الأولى منذ بداية الخلاف العقائدي الآريوسي أو حتى منذ تبنى الإمبراطورية الدين المسيحي كدين رسمي، تقوم الدولة بتبني مذهب عقائدي محدد وتقوم بنشرة باعتباره أحد القوانين الواجبة التنفيذ.

أعلن الإمبراطور ثيودسيوس في هذا المرسوم: أن المسيحي الحق هو "الذي يؤمن بألوهية واحدة للآب والابن والروح القدس، الذين هم متساوون في العظمة والمجد، وبالثالوث المقدس باعتباره أساس العقيدة المسيحية القويمية" وفي هذا المرسوم وصف بطرس أسقف الإسكندرية وديمسيوس أسقف روما باعتبارهم المسيحيين الأرثوذكس، بينما وصف الأساقفة الآريوسيين باعتبارهم هرطقة مجانين ومنشقين يستحقون العقاب^[1].

لاحقاً في ذلك عام سقط ثيودسيوس فريسة للمرض، وتدهورت صحته بسرعة، وسارع بالعماد على يد أسقف سالونيكيا. ولكنه تعافى من مرضه وبعد تماثله للشفاء كان جاهزاً لأن يلعب الدور الذي اعتقد أن الله اختاره لكي يقوم به: المدافع عن الأرثوذكسية (المسيحية القويمية)، عدواً لغير المؤمنين، وبلاء على الآريوسيين.

لم يكن تصميم الإمبراطور على تجريم الآريوسية واعتبارها فرقة خارجة عن القانون بالأمر الهين في حل الخلاف الآريوسي. ولم يكن ليتم دون إلى اللجوء إلى قوة الدولة حتى ولو تم تضخيم استخدامه لمثل تلك القوة. فالأباطرة السابقون لعبوا أيضاً دوراً مهماً في هذا الخلاف، وألقوا بكامل ثقلهم ومكانتهم في النزاع بل قاموا في بعض

1- Hanson, 804; see also Barnes, Athanasius and Constantius, 182.

الأحيان بإلقاء جنودهم أيضًا في المعركة من أجل محاولة حسم الصراع الدائر من خلال دعم الطرف الآريوسي أو الفريق النيقى، وفى كل مرة من المرات السابقة فقد بدا كما لو كان التدخل يزيد من حدة الصراع والخلاف بدلاً من إصلاحه، هذه المرة وعلى الرغم من استخدام القوة أيضًا، فإن تسوية الخلاف كان يتضمن عوامل أخرى إلى جانب إكراه الدولة وفرضها لعقيدة ومذهب محدد بالقوة، فالآباء الكبادوكيون استطاعوا تقديم فكر لاهوتى جديد قادر على الأرجح على توحيد جميع أنصار المذهب النيقى وإقناعهم، بالإضافة إلى فرقة كبيرة من المسيحيين الآريوسيين، خاصة المعتدلين منهم. وقد أدت الهزيمة النكراء التي حاقت بالإمبراطور فالنز والأزمة العميقة التي تعاني منها الإمبراطورية إلى صرف أذهان الناس عن المثاليات الآريوسية. وحتى قبل أن يجعل الإمبراطور ثيودسيوس أفكاره معروفة للجميع فإن الأرض كانت تتهاوى من تحت أقدام المعسكر الآريوسي، وكانت حركتهم في خطر وأزمة حقيقية وكان أسقف مدينة الإسكندرية بطرس المنفى بقرار من فالنز، قد عاد إلى مدينة الإسكندرية بمجرد قيام فالنز بقيادة جيشه والزحف إلى البلقان لمواجهة القوط الغربيين في انتظار لمعرفة ما سوف يسفر عنه القتال، وعندما جاءت الأنباء بالهزيمة المروعة التي حاقت بالجيش الروماني والإمبراطور فالنز على أرض معركة أدرنة، فإن أتباع بطرس المدربين جيدا والمنظمين بشكل حسن سارعوا بالزحف نحو كنائس الإسكندرية من أجل السيطرة عليها، وفي المقابل فإن أنصار الأسقف الآريوسي لوقيانوس (المعين أسقفا للمدينة من قبل فالنز) قاموا بتحريك أتباعهم المقاتلين أيضًا في الشوارع. ولولا تدخل القوات المحلية من أجل إخماد النزاع الوشيك والمرقب بين الجانبين لحدث

ما لم تحمد عقباه ومع أن تجنب حدوث تلك المعركة الوشيكة بين أتباع كل من بطرس ولوقيانوس أسفر عن بقاء الأخير في منصبه، إلا أن هذا الوضع لن يستمر لفترة طويلة.

مشاهد مماثلة جرت أحداثها في أنطاكية، حيث رجع ميلتيوس Meletius الأسقف المناصر للنيقية من منفاه من أجل تحدى يوزيوس الأسقف الآريوسي المتشدد (رفيق آريوس خلال فترة نفيه)، وفي القسطنطينية التي كان يجلس على عرش أسقفيتها لمدة تربو على العقد من الزمان الأسقف الآريوسي ديموفيلس كان عليه الآن أن يواجه منافسا نيقيا، ونفس الأمر تكرر في أنقرة وقيسارية وصور وغزة وأماكن أخرى عديدة. وبينما كان ثيودوسيوس مازال في أوروبا يتفاوض مع القوط، قام ميلتيوس الأنطاكي بعقد مجمع كنسي تحت مسؤوليته، حيث برهن هذا المجمع على التزايد المذهل في عدد الأساقفة المؤيدين للنيقية من بين الأساقفة المتحدثين باللغة اليونانية (وهي الفئة التي تقليديا كانت تميل إلى المذهب الآريوسي). ولاحقاً في الغرب فإن أمبروز أسقف ميلانو سوف يقوم بالتدخل في النزاع الدائر حول انتخاب أسقف سيرميوم وهي الأسقفية التي تعتبر تقليدياً قلب إقليم البلقان الذي يهيمن عليه في العادة المذهب الآريوسي، ولكن في دلالة كبيرة على تغير الأحوال وتبدل مجرى الأمور فإن أمبروز نجح في تأمين انتخاب أسقف مناصر للمذهب النيقى على كرسي أسقفية سيرميوم. وكانت تلك مؤشرات واضحة على ما كان ثيودوسيوس ينتوي تحقيقه بصفته إمبراطوراً للشرق.

في نوفمبر من عام 380 جاء أغسطس الشرق الجديد إلى مدينة القسطنطينية، وهناك على الفور جعل مذهبه الديني معروفا ومعلنا للجميع، حيث عرض على أسقف المدينة ديموفيلس المعروف

بانتمائيه للمذهب الآريوسي الخيار بين أن يعتنق المذهب النيقى أو أن يتخلى عن منصب الأسقفية ويذهب إلى المنفى، واختار الأسقف المتمسك بمبادئه الخيار الأخير وتنازل عن منصب الأسقفية وغادر المدينة، وفي مصر قام ثيودسيوس بإصدار أوامره لحاكمها بعزل الأسقف الآريوسي لوقيانوس وطرده، وتثبيت تعيين بطرس النيقى أسقفًا لمدينة الإسكندرية، كذلك تمت إجراءات مشابهة في أنطاكية من طرد للأساقفة الآريوسيين وإحلال المؤيدين للمذهب النيقى محلهم. وقد أكمل الإمبراطور حملة التطهير تلك بإصدار مرسوم تحت عنوان: "لا للهراطقة" نص فيه على أنه: "فقط أولئك الذين يقرون المذهب النيقى هم المؤمنون الحقيقيون وفقا لمبادئ الدين المسيحى الكاثوليكي" ووفقا لهذا المرسوم فإن الآريوسيين كان محظورًا عليهم أن يتبوأوا أية مناصب كنسية أو حتى أن يجتمعوا معا من أجل العبادة داخل أسوار أي مدينة من مدن الشرق، ولأول مرة منذ بداية الخلاف يتم حرمان جزء كبير وجوهري من المجتمع المسيحى باعتبارهم منشقين، من حقهم في الاجتماع والارتباط مع بعضهم البعض^[1].

كانت تلك المراسيم الإمبراطورية بمثابة قوانين، ولكن دون موافقة الأساقفة على تلك القرارات فإنها لن يكون لها مثل التأثير الذي أراده ثيودسيوس. وفي عام 381 قام باختيار 150 أسقفًا من الكنائس الشرقية ودعاهم للحضور إلى العاصمة القسطنطينية للمشاركة في مجمع كنسي يعقد في المدينة، ولعب مجمع القسطنطينية هذا دورًا حاسمًا ولكنه غريب بعض الشيء في تاريخ الصراع الآريوسي، بالإضافة

1- Hanson quotes the decree at 805.

إلى على الرغم من أن العقيدة التي تبناها كانت العقيدة النيقية مع بعض التعديلات والإضافات الطفيفة^[1]، فإنه دائماً ما كان ينظر إليه باعتباره المجمع الذي أنهى الخلاف الآريوسي للأبد، فالحضور كانوا بعيدين كل البعد عن الإجماع عام، وكانت الخلافات الداخلية المريرة تمزقهم شرق ممزق، و تقدير الأهمية الإجمالية للمجمع لن يتحقق مباشرة بعد انتهاء أعمال المؤتمر. ومع تبنيه اللغة النيقية فإن مجمع القسطنطينية أكد على أن عيسى المسيح هو:

”ابن الله، المولود من الآب قبل بداية كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، متساو في الجوهر مع الآب، ومن خلاله جاءت جميع الأشياء والمخلوقات إلى الوجود“^[2].

وعلى العكس من العقيدة النيقية، التي أشارت بشكل مختصر للغاية إلى الروح القدس، فإن وثيقة القسطنطينية ذهبت إلى أن تعلن: ”الإيمان بالروح القدس، الرب واهب الحياة، المنبثق من الآب، والذي مع الآب والابن، يجب أن يعبدوا ويمجدوا معاً“، وأكدت على إيمان المسيحيين في كنيسة رسولييه وكاثوليكية واحدة كذلك واختتمت بالقول:

نقر بمعمودية واحدة من أجل تخليصنا من خطايانا، ونتطلع للبعث من بعد الموت، وحياة الدهر الآتي، آمين^[3].

1- There has been a great deal of discussion of the meaning of these variations, whether they are minor, etc. See Hanson, *Search*, 812—820, and the definitive study of Kelly in *Early Christian Creeds*, 296—367. Kelly concludes that the council's “sincere intention, perfectly understood by contemporary churchmen, was simply to confirm the Nicene faith” (325)

2- Kelly, *Early Christian Creeds*, 297. Kelly translates *homoousios* as “of one substance.”

3- *Ibid.*, 298.

ألغت وثيقة الإيمان الجديدة، قائمة اللعنات التي أوردتها قانون الإيمان النيقى، والتي تضمنتها بعض النصوص المربكة مثل: "في ضوء اللاهوت الجديد يحظر الإيمان بطبيعية أخرى منفصلة".

ولكن القانون الكنسي الذي أصدره المجمع وتبناه أذان نوعي الآريوسية^[1] ضمن ما أدانه من الهرطقات الأخرى العديدة، ولم يدع ثيودوسيوس أي مجال للشك في أنه كان عازماً بقوة على وضع تلك الإدانة موضع التنفيذ، إذ لم يكن قد مضى وقت طويل بعد انتهاء المجمع حين أصدر الإمبراطور قراراته وأوامره كالرعد:

"نصدر نحن الآن أوامرنا بتسليم الكنائس إلى الأساقفة الذين يقرون بالإيمان بأن الآب والابن والروح القدس لهم نفس درجة العظمة والمجد، ونفس الروعة، (والأساقفة) الذين لا يندسون الكنائس عن طريق الفصل الأثيم بين الآب والابن، ولكن من خلال التأكيد على الثالوث المقدس وإدراك أشخاصه ووحدانية ألوهيته"^[2].

ولن يمضي وقت طويل حتى يصبح الدفاع عن وجه النظر الآريوسية (أو على الأقل الصورة المتشددة منها) أو حتى اقتناء أي كتابات أو كتب تتبني المذهب الآريوسي جريمة يعاقب عليها القانون الروماني بالموت.

كان مجمع القسطنطينية شأناً شرقياً، ولكن الغرب لم يتخلف عن الركب، فعقد أساقفته مجمعا كنسياً في مدينة أكيلا في عام 381 تحت رئاسة الأسقف أمبروز الذي قام فيه بمحاكمة الآريوسية وإصدار

1- Arianism of the extreme radical (Eunomian) and moderate radical (Eudoxian) types was denounced. Basil of Ancyra's conservative Arianism was not named, suggesting that conservative Arians who could accept the language of the creed were not to be harassed or persecuted.

2- Hanson, Search, 821. This is the edict of Theodosius I called Episcopistradi.

قرارات الحرمان الكنسية على اثنين من أكبر قادتها في البلقان مع عزلهما من مناصبهم، وبالنسبة لباقي رجال الكهنوت الآريوسيين الغربيين فقد اكتفى مجمع أكيلاف فقط بعزلهم وطردهم من مناصبهم الكهنوتية. وبدا الأمر كما لو كان الغرب قد تخلص من الآريوسية نهائيا وللأبد، ولكن في الحقيقة ستظل الآريوسية موجودة بعض الوقت في شمال أوروبا متمثلة في القبائل القوطية التي ذكرنا سابقا أنها اعتنقت المسيحية على المذهب الآريوسي، ومنه انتقل المذهب إلى قبائل الوندال والبرجنديين (في بلاد الغال) وبين أشخاص تلك القبائل سيظل المذهب الآريوسي موجودا في الأراضي التي استطاعت تلك القبائل غزوها والسيطرة عليها إلى حين. ولكن بين الرومان أنفسهم فإن الآريوسية أخذت في الخفوت بسرعة ملحوظة. وفي عام 383 عندما قتل الإمبراطور جراتيان بواسطة أحد الساعين لاغتصاب العرش، جاءت الإمبراطورة جستينا والتي كانت تحكم البلقان بالإناثة عن ابنها القاصر فالنتينيان الثاني II إلى ميلانو من أجل التماس العون من الأسقف أمبروز. ووافق أمبروز على تقديم المساعدة والدعم لها، ولكن عندما طلبت جستينا المعروف عنها أخلاصها للمذهب الآريوسي السماح لها ومرافقيها بالصلاة بكنيسة خارج أسوار المدينة، رفض الأسقف السماح لها بذلك، وتذكر بعض التقارير أنه رد عليها قائلا "بأن الأسقف لا يمكنه أبدا أن يتخلى عن بيت لله".^[1]

وعلى الرغم من انصياع جستينا لأوامر الأسقف، إلا أن السنوات التالية شهدت بعض المحاولات من الآريوسيين الأقل مكانة من جستينا لتحدي الأوامر والاجتماع معا في مخاطرة على مسؤوليتهم، وطبقا لقانون

1- (245) Quoted in Frend, Rise of Christianity, 622.

ثيودسيوس لعام 389 فقد كان ذلك القانون يصفهم بأنهم مجموعة من الخصيان ويهددهم بأقصى العقوبات وأفطعها من أجل قيامهم بالدفاع عن عقيدتهم. بينما نص مرسوم آخر على تعيين محققين كنسيين ^[1] inquisitor من أجل تحرى مدى صدق وأرثوذكسية إيمان بعض المجموعات المختلفة، ومراسيم أخرى تجعل ملاك الأراضي، وأموري، ومساعدى التنفيذ الإمبراطوري والمستأجرين مسؤولين عن أي أفعال هرطقة تجرى في أراضيهم أو دائرة مسؤوليتهم ^[2]. كان ثيودسيوس متحمساً في اضطهاده وقمعه للمذاهب الدينية المخالفة لعقيدته، فخلال فترة حكمه ولأول مرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية تم حظر الديانة الوثنية وتجريم القيام بطقوس التضحية للآلهة الوثنيين أو المشاركة في أية طقوس أو شعائر وثنية أخرى، بينما تمت مطاردة أتباع العقيدة المانوية وقتلهم كالفرائس التي يتم اصطيادها عند الإمساك بهم، كان الإمبراطور يتميز بطابعه الدموي، ففي حادثة مشهورة قام بدعوة سبعة آلاف من مواطني مدينة سالونيكيا لمشاهدة أحد العروض الرياضية في حلبة

1- وهذا الأمر يدل على أن فكرة محاكم التفتيش لا ترجع إلى العصور الوسطى المتأخرة في القرن الثالث والرابع عشر، ولكن يمكن اقتفاء ظهورها إلى القرن الرابع الميلادي عن طريق المحققين الكنسيين الذى نص عليهم مرسوم ثيودسيوس للتحقق من الإيمان الأرثوذكسي، وتعتبر فكرة محاكم التفتيش والتي كانت تعني بالتنقيب في صدور الناس لتعرف حقيقة إيمانهم هي من أكثر التصرفات التي قام بها الإنسان خزيا وعارا، فمأساة تلك المحاكم ليس فقط في التفتيش في صدور الإنسان على الرغم من بشاعة هذا الغرض بمفرده و لكن المشكلة الأكبر هي الحكم على إيمان الأشخاص من منظور القائم على محكمة التفتيش للإيمان، فما يعتقدون به سيكون هو الإيمان وما عداه هو الهرطقة، ولكن كيف يتأتى لشخص أيا ما كان أن يحكم على إيمان شخص آخر بالصدق أو بالهرطقة إلا إذا كان معه سلطة مباشرة من الله، والمأساة تتجلى عندما يدعى طرف ما أنه يتحدث بصفته نائبا عن الله في الأرض (المترجم).

2- Ibid., 639- 640.

السابق وبمجرد اجتماع هذا الحشد قام جنوده بارتكاب مذبحة قتل فيها هذا العدد الضخم فقط كعقاب للمدينة على ارتكابها في السابق بعض أعمال الشعب وقتل أحد مسؤولي ثيودوسيوس الإمبراطورين^{[1][2]}. ولكن في المجمل لم تكن هناك حاجة للإفراط في استخدام القوة من أجل قمع الآريوسية، فقد كتب المؤرخ ثيودوريت في أواخر عقد الأربعينات من القرن الخامس الميلادي 440 معيدًا إلى الذاكرة أن القضاء على الآريوسية قد تم دون أعمال عنف أو شغب أو إراقة الدماء في جميع أقاليم الشرق. ربما كان ثيودوريت مبالغًا في تلك النقطة،^[3] ولكن تلك المبالغة تكشف عن حقيقة مؤداها أن قوة الدولة كانت فعالة بشدة ضد الآريوسية، دون التسبب في أي هجمات مضادة أو استشهاد شهداء في مواجهتها، ولعل السبب في هذا هو أن وجهة النظر الآريوسية للعالم أصبحت الآن في طريقها للزوال وللنسيان والانضواء. وفي المقابل، فإن المسيحية النيقية

1- The massacre at Thessalonica produced a famous confrontation with Ambrose of Milan, who refused to communicate with Theodosius until he had repented. See Frend, *Rise of Christianity*, 624—625; Williams, *Ambrose of Milan*.

2- يقول إدوارد جيبون أن سبب هذه الحادثة هو تورط أحد سائقي العربات الذي كان يتمتع بشعبية جارفة بعلاقة آثمة مع أحد الغلمان العاملين لدى حاكم المدينة، الذي عند معرفته بأخبار تلك العلاقة الآثمة قام بإعدام هذا السائق، وهو الأمر الذي أدى إلى ثورة شعبية أدت إلى مقتل الحاكم الروماني، ويضيف الدكتور رأفت عبد الحميد تعليقًا على تلك الحادثة أن الأمر الذي دفع الإمبراطور ثيودوسيوس إلى اتخاذ مثل هذا الإجراء العنيف لقتل سبعة آلاف شخص من سكان المدينة هو انتماء الحاكم الروماني المقتول إلى القبائل الجرمانية، وخوف ثيودوسيوس من ثورة تلك القبائل إذا لم ينتقم لمقتله، لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى كتاب "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" لإدوارد جيبون ترجمة الدكتور محمد سالم وإلى كتاب "الدولة والكنيسة" للدكتور رأفت عبد الحميد الجزء الرابع- أمبروز (المترجم).

3- (248) Frend, *Rise of Christianity*, 637.

مع تصويرها للمسيح في جلاله وعظمته متحدًا في الألوهية، ومع وجهة نظرها المتشائمة لطبيعة الإنسان، وقيام أساقفتها والقديسين المناصرين لها بلعب دور مهيمن (في حياة المسيحيين) فإنها كانت ملائمة أكثر من الآريوسية للتعبير عن مخاوف أو آمال الشعب الروماني في زمن تسوده تغيرات لا يمكن التنبؤ بها وتوقعات اجتماعية منخفضة. فبعد سبعين عاما من الصراعات الداخلية المريرة والتي توجت بكارثة الهزيمة العسكرية في أدرنه، والآن فإن الشعب الروماني كان يتطلع إلى إنسان يستطيع امتلاك السلطة الكاملة في يده مرة أخرى من أجل السيطرة على المجتمع، وأخذ ينظر إلى ثيودسيوس باعتباره نابليون أو ستالين أو كرومويل روما⁽¹⁾ الذي يمكن بسلطاته الواسعة أن يعيد السيطرة على الإمبراطورية وجمع شتاتها، كانت مهمة ثيودسيوس بسلطته الواسعة هي دعم الثورة المسيحية من خلال إضفاء الطابع المحافظ عليها، وجعلها أكثر ملائمة للحياة الواقعية الاجتماعية وإدماجها في نسيج قوة الدولة.

وبعد مرور عام على تحريم الآريوسية، أعلن ثيودسيوس المسيحية ولأول مرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية باعتبارها الديانة الرسمية الوحيدة للدولة، مكملًا بذلك الحلقة التي بدأها الإمبراطور قسطنطين، والتي بدأت باعتبار المسيحية مجرد طائفة صغيرة مضطهدة، واستمرت الدائرة في الدوران حتى أصبحت المسيحية في النهاية الديانة الرسمية الوحيدة للدولة، وما يعنيه هذا من تمتعها بالقوة وهو ما رآه البعض على أنه قد أصبح واجب المسيحية الآن بأن تقمع منافسيها، وأصبح المجتمع الديني (المسيحي) الذي كان يضم ذات يوم أطيافا

1- كرومويل القائد العسكري الذي استطاع الإطاحة بالملك تشارلز الأول ملك بريطانيا في منتصف القرن السابع عشر وإعدامه وتأسيس جمهورية في إنجلترا تمتع فيها بسلطات دكتاتورية (المترجم)

عديدة، ويؤوي العديد من المذاهب الدينية المختلفة، أصبح لا يقبل الاعتراف إلا بمذهب أرثوذكسي واحد ويسعى إلى استئصال الهرطقة تماماً. وتنحت المؤسسة غير المنظمة واللامركزية للكنيسة المسيحية في العصور الأولى جانباً ليحل محلها مؤسسة أكثر تنظيمًا لها تسلسل قيادي صارم، وأصبحت السلطة الكهنوتية تتركز في يد عدد قليل من الأساقفة على قمة تلك المؤسسة. ومع ارتفاع مكانة المسيح ليصبح إلها فإن المسيحية الأرثوذكسية قطعت الآن الروابط الفكرية المشتركة التي كانت تربطها في الماضي باليهودية والوثنية اليونانية، وبشكل متزايد أخذت المسيحية كعقيدة في التحول إلى كيان ذاتي غير معتمد على الأديان الأخرى، وكمؤسسة فإن الكنيسة أخذت في النمو إلى الدرجة التي ستمكنها من البقاء حتى بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية ذاتها. بعد وقت غير طويل من إصدار الإمبراطور ثيودسيوس قراراته بتجريم الأريوسية، فإن حادثة عنيفة ذات دلالات قوية جرت في مدينة كالينكوم الحدودية Callinicum الواقعة في إقليم الميزوبوتاميا. حيث شهدت المدينة أعمال شغب واسعة من الغوغاء المسيحيون تحت قيادة الرهبان وقاموا أثناء أعمال الشغب تلك بحرق كنيس يهودي وكنيسة صغيرة تستخدمها طائفة مسيحية صغيرة يطلق عليها اسم الفالنتينين Valentinians والتي كان ينظر إليها باعتبارها طائفة مهرطقة، وليس من المعروف ما إذا تم إحراق دور العبادة تلك أثناء وجود بعض المصلين بداخلها أم لا، فمثل هذه المعلومات في مثل ذلك الوقت كان من الصعب الإفصاح عنها أو وجود تقارير بشأنها. وكان رد فعل ثيودسيوس على مثل تلك الحوادث تماماً كما ينبغي أن يكون رد فعل إمبراطور مسؤول، حيث أصدر أوامره إلى الأسقف المحلي بإعادة أوضاع الطوائف المتضررة إلى حالتها السابقة، وإلى معاقبة قادة الغوغاء

والمشغبين، ولكن قبل أن يوضع القرار محل التنفيذ، فإن الأسقف أمبروز الذي عين نفسه الآن كحامي حمى الأرثوذكسية المسيحية في الغرب اعترض بشدة على مثل تلك القرارات.

لماذا يجب معاقبة المسيحيين على مهاجمتهم لليهود والهراطقة؟ هكذا تدمر أمبروز، مضيفاً: هل قام الإمبراطور جوليان بمعاقبة الوثنيين عندما هاجموا المسيحيين؟ فقيام ثيودسيوس بمعاقبة المسيحيين الأتقياء وأتباع المسيح الأوفياء لم يكن بأي شكل أقل من تدنيس للمقدسات المسيحية، على حد قول أمبروز، الذي وصف استدعاء المسؤولين الرومان في إقليم ميزوبوتاميا لمساعدة اليهود والهراطقة بأنه أمر يتجاوز حدود العقل، وأعلن أنه دون أن يعلن الإمبراطور توبته عن خطيئته تلك، فإنه لن يستطيع أن يدخل في شراكة روحية معه بضمير مستريح. وكان التهديد بإصدار الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور له وقع مدو في الإمبراطورية.

أدعن الإمبراطور ثيودسيوس لتهديد أمبروز وقام بإلغاء قراراته السابقة. وليس من المعروف، إذا كان لقرار الإمبراطور تأثير على الأحداث التالية التي قام بها المتطرفون المسيحيون، أم أنهم كانوا سيقومون بأفعالهم ومهاجمة المواطنين غير المؤمنين في جميع الأحوال. على أية حال كان قرار الإمبراطور هذا إيذاناً ببدء موجة طويلة من العنف الديني. حيث أخذت فرق من الرهبان المسلحين تجوب الشوارع وتهاجم المعابد اليهودية والوثنية وأماكن تجمع الهراطقة وبيوت الأثرياء غير الأرثوذكس في كل من العراق وسوريا ومصر وفلسطين وشمال إفريقيا^[1].

1- Peter Brown, The World of Late Antiquity, 104—106.

وقد قام ثيوفيلس أسقف الإسكندرية الذي كانت أنفاسه نيراناً ملتهبة، بتشجيع أتباعه المتحمسين المتأهبين على تدمير معبد سيرابيس الذي كان واحد من أكبر وأجمل المعابد في العالم القديم مع المكتبة المهداة من الملكة كليوباترا. وفي عام 415 م قام المسيحيون السكندريون من موقع تأثرهم بخطب الأسقف كيرلس بأعمال شغب وعنف ومهاجمة لليهود في المدينة، ثم قاموا بعدها بقتل هيباتيا الفيلسوفة الأفلاطونية الحكيمة والمحبوبة. وأصبحت الآريوسية مرتبطة الآن بقبائل البرابرة باعتبارهم مناصريها الرئيسيين، وفي المقابل فإن باقي الآريوسيين في الإمبراطورية وتحت الضغط انقسموا إلى مجرد فرق وطوائف صغيرة يسهل قمعها بواسطة المسيحيين المتربصين بهم بغية الانتقام^[1]. وعلى الرغم من أن محاولات استئصال الوثنية من الإمبراطورية قد بدأت بشكل متفرق ومتناثر منذ عهد الإمبراطور قسطنطين، إلا أن تلك المحاولات أصبحت شديدة الجدية والحماسة في ذلك الوقت.

لم يكن مفاجئاً أن انتصار المذهب النيقى اتبع بحملة عنيفة من أجل فرض نظام وترتيب جديد على الخارجين عن منظومة الإيمان النيقى، فجميع الحركات الثورية عبر التاريخ وبمجرد تماسك وحدتها الداخلية وزيادة قوتها، كانت على الفور تبدأ في التعامل بعدوانية مع غير المؤمنين الذين مازالوا خارج أسوار تلك المنظومة. كانت الدوافع التي دائماً ما تحرك مثل تلك الحملات الصليبية مزيجاً ما بين الشعور بالزهو بالنصر وبين الشعور بعدم الأمان، تماماً كما يؤدي النجاح في

1- On the weakness of the surviving Arian sects, see J. G. Davies, *The Early Christian Church*, 182.-On the spread of Arianism from the Visigoths to the Ostrogoths, Burgundians, Vandals, and other peoples in the fifth century, see *ibid.*, 229230-.

بعض الأحيان إلى إظهار المشاعر الدينية بالضعف وقلة الحيلة إلى السطح لدى بعض المنتصرين. كان واضحاً أن ثيودسيوس والحركة النيقية لديها القليل مما تخافه من اليهود والوثنيين والفالنتين، ولكن ربما كانت محاولتهم إيجاد عدو مشترك يستطيعون الاتحاد معاً لمواجهة وقمعه كانت هي وسيلتهم الفعالة من أجل التغلب على ميلهم الدائم للنزوع إلى الانشقاق، وربما شعروا بأن حل الخلاف الآريوسي ترك تحت السطح العديد من القضايا الهامة غير محددة، وربما يكون انتصارهم غير نهائي وتام كما كانوا يأملون.

هل حقاً تم حل الخلاف الآريوسي؟ الرومان الكاثوليك والمسيحيون الأرثوذكس الذين يتبعون اليوم العقيدة النيقية (في صورتها المعدلة بمجمع القسطنطينية) سوف يجيبون بكل ثقة على هذا التساؤل بالتأكيد نعم، فمع تنبي الأفكار اللاهوتية للآباء الكبادوكيين الثلاثة فإن فكرة المسيح أصبحت الآن أنه عبارة عن تجسيد الله، الشخص الثاني في الثالوث المقدس، واختفت الآريوسية في صورتها الأولى المتشددة (باعتبار المسيح أدنى من الله وليس مساوياً له) باعتبارها قوة محركة حية تماماً من الإمبراطورية الرومانية^[1]. وبحلول القرن السابع الميلادي فإن آخر القبائل الآريوسية في غرب أوروبا تحولت إلى اعتناق المذهب الكاثوليكي. وبعد مرور حوالي ألف عام فإن بعض الأفكار الآريوسية تجد متنفساً لها لدى بعض البروتستانت الإنجليز

1- There is evidence that Arianism went "underground" for a decade or more in the form of private observances. See Harry O. Maier, "Private Space as the Social Context of Arianism in Ambrose's Milan," *The Journal of Theological Studies*, 45:1 (April 1994), 72et seq.

الذين سيؤسسون مذهب التوحيد المسيحي^[1] Unitarianism^[2]. ولكن بالنسبة لأغلب المسيحيين فإن قضية ألوهية المسيح كانت قد حُددت وفرغ منها في مجمع القسطنطينية في عام 381، ومع هذا كان هناك إحساس ما بأن تلك المسائل مازالت معلقة ولم تحل بعد بشكل كامل، وهو ما ظهر بعد ذلك في صورة متغيرة، واستمر في إنتاج صراعات دينية خطيرة، وبشكل غريب بما يكفي، فمجمع القسطنطينية نفسه أصبح سببًا للتناحر بين الكنائس اللاتينية واليونانية. وأساقفة الغرب تحت قيادة ديمسيوس أسقف روما رفضوا التعديلات التي قام الأساقفة الشرقيون بإضافتها خلال مجمع القسطنطينية لعقيدة نيقية الأصلية. وكان عامل التنافس الإقليمي بين الشرق والغرب أمرا لا تخطئه الأعين. وعلى سبيل المثال فإن أسقف روما اشتاط غضبًا من بعض القواعد الكنسية التي أعلنت خلال مجمع القسطنطينية، والتي أعلنت من مكانة أسقفية القسطنطينية، وجعلت لها الأسبقية في الشرف والمكانة. على أسقفيات الإسكندرية وأنطاكية ولم يتقدمها فقط في المكانة إلا أسقفية روما، باعتبار أن القسطنطينية هي روما الجديدة،^[3] وكان هذا الأمر مدعاة لغضب

1- مذهب المسيحية التوحيدية حركة لاهوتية مسيحية تقول بالتوحيد استنادا على مفهوم بوحداية الله تعالى حيث ترفض عقيدة التثليث، وأصحاب عقيدة التوحيد يعتقدون بأن يسوع هو بشكل من الأشكال ابن الله ولكنه ليس هو الإله الواحد. وتعتبر الحركة التوحيدية ضمن الطوائف البروتستانتية، وتأسست الكنيسة التوحيدية الأولى بانجلترا في عام 1774 في مدينة لندن (المترجم).

2- Sir Isaac Newton was one of them. On this subject, see Maurice Wiles, Archetypal Heresy: Arianism through the Centuries (Oxford: Clarendon Press, 1996).

3-(253) Hanson (Search, 808) remarks that this provision was probably

ديمسيوس نفسه لأنه رأى أن روما وقد حظيت بشرف الأسبقية في الشرف بسبب كنيسة التي أسسها الرسل أنفسهم يجب أن تتبع في المكانة بأسقفية الإسكندرية ثم أنطاكية وليس القسطنطينية، فتلك المدينة الأخيرة والتي كان نجمها آخذاً في الصعود والتي كان يرأس أسقفيتها شخص مدني تم تعميده حديثاً يجب أن لا تعتبر حتى من ضمن الأسقفيات الكبرى.

ولكن رد الفعل اللاتيني كان له أساس عقائدي أيضاً، فتحت قيادة ديمسيوس اعترض الأساقفة الغربيون بشدة على وثيقة الإيمان التي نصت على أن "الروح القدس انبثقت من الآب" وأصروا على تغييرها لتصبح "انبثقت من الآب والابن" والعبارة الأخيرة التي تعرف أكاديمياً باسم فيليوك Filioque أصبحت مادة رئيسية للجدل في سلسلة طويلة من الخلافات التي ستنتهي بالانشقاق الأعظم الذي فصل الكاثوليكية الرومانية عن الكنائس الأرثوذكسية^[1]. وكان هذا الاختلاف في الكلمات الثلاثة تلك ربما بدا تافهاً، ولكنه كشف عن استمرار الاختلاف بين اللاتينيين واليونان حول علاقة المسيح مع الله، فما فهمه الغربيون من العقيدة النيقية أو على الأقل ما كانوا يريدون أن يفهموه منها أن الآب والابن متساويان في كل شيء^[2]. في حين أن الأساقفة الشرقيين اتبعوا حدسهم في التأكيد على أنه على الأقل من منظور ما فإن الآب كان أعظم من الابن الإلهي. وتدرجياً

"intended to reduce the pretensions of the archbishop of Alexandria," which seems a reasonable interpretation.

1- See the discussion in Kelly, *Early Christian Creeds*, 358367-.

2- See, e.g., Karen Armstrong, *A History of God: The 4000-Year Quest of Judaism, Christianity and Islam* (New York: Ballantine Books, 1993), 119123-.

أصبح التعارض بين التفكير المسيحي في هذين العالمين المسيحيين ملحوظاً بشكل بَيِّن، خاصة بعد انقضاء أعمال مجمع القسطنطينية. وبالنسبة للغرب فإن انتصار المذهب النيقى كان له تفسير واحد وهو أن المسيح هو الله، وأن الخلاف العقائدي المسيحي قد انتهى وحسم. وكان السؤال الأهم من الناحية اللاهوتية الآن هو كيف يمكن أن نحدد الطريقة التي يمكن بها إنقاذ البشرية المتهالكة بفضل الله ونعمته من خلال الأسرار المقدسة الكنسية. من ناحية أخرى فإن السؤال الأهم من الناحية العملية كان كيفية إتمام تحويل القبائل الجرمانية إلى المذهب الكاثوليكي وإدماجها في المجتمع الروماني الكاثوليكي. وإلى حد ما فإن المسيحيين اللاتين شعروا بالحاجة إلى وسيط ذي طبيعة سماوية يستطيع أن يكون حلقة الوصل بين الله والإنسان ووجدوا ضالهم تلك في الاعتقاد بالقدسين كوسطاء بين الله والإنسان، ومن ثم ظهرت الطوائف الدينية القائمة على القديسين وخاصة مريم العذراء، والتي أخذت قوتها تدريجياً في التزايد وخاصة بعد انتصار الأرثوذكسية في مجمع نيقية^[1]..... كانت مريم العذراء على الأخص تشكل حالة وجدانية خاصة، حيث تضم الخواص البشرية بجانب المهمة الإلهية وبعض الصفات الأكثر من بشرية والتي تخيلها الآريوسيون عند تمجيدهم المسيح، فكما كان المسيح مميزاً على مستوى الرجال، فكذلك كانت هي مريم العذراء على مستوى النساء وكانت وظيفتها باعتبارها حامية وملهمة وصديقة مخلص، وهي تلك الصفات التي تتشابه كثيراً مع صفات المسيح كما تخيله الآريوسيون (في البداية)

1- Paul Johnson, AHistory of Christianity (New York: Atheneum,1976), 108.

في الشرق على أية حال، ستصبح مريم العذراء موضوعا عنيفا للمجادلات قبل أن تصبح شيئا مبجلا ومحترما، هل كان من الصواب أن نطلق عليها اسم الثيوتوكوس Theotokos والدة الإله؟ أم أنها كانت أم المسيح الإنسان الذي سكنت فيه روح لله؟^[1]

بكلمات أخرى هل كان ممن الممكن حقا أن تنصهر الخصائص البشرية والإلهية للمسيح في كينونة واحدة، إلى الدرجة التي تجعل من الممكن للمرء القول بأن الله كان في وقت ما رضيعاً ثم طفلاً، وأنه تعرض للصلب على الصليب حقاً؟ أم كانت هناك طبيعتان منفصلتان: إلهية وبشرية اندمجتا في نفس الشخص؟

في الأراضي المتحدثة باليونانية، فإن نهاية الخلاف الآريوسي أدت إلى ظهور قرنين من الصراع المرير حول هذا السؤال، فمع تبني السكندريين وجهة النظر القائلة بوجود طبيعية واحدة في المسيح، أصر الأنطاكيون على وجود طبيعتين^[2]. ومرة أخرى التقى الأساقفة في مجمع كنسي من أجل إعلان أرثوذكسية أفكارهم وإصدار قرار الحرمان الكنسي ضد خصومهم، ومرة أخرى عرف الشرق عزل ونفى الأساقفة، وعاد العنف والشغب والاضطرابات للظهور مرة أخرى. ولكن هذه المرة كانت الآريوسية تهمة حاول كل طرف إلصاقها بالآخر. وفي مجمع أفسس (إفسوس) الثاني أدان الأساقفة مدرسة أنطاكية اللاهوتية، وفي مجمع الخلقيدونية الكبير في عام 451 تمت إدانة السكندريين من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة.

وقام العديد من الأباطرة بالتدخل في الخلاف اللاهوتي، والانحياز

1- Pelikan, The Christian Tradition, 241243-.

2- See, for example, Pelikan, Emergence, 226277-. For a shorter treatment, see Chadwick, The Early Church, 192212-.

لأحد أطراف النزاع على حساب الآخر، ولم يكد ينتهي هذا الصراع حتى كان مذهب الطبيعية الواحدة "المونوفيزيتية" قد ظهر للوجود وتشكلت العديد من الكنائس القائمة على أساس هذا المذهب المونوفيزيتي والذي لا يزال بعضها قائماً حتى يومنا الحالي.

ربما يجد المرء أنه من المغري أن يصف هذا الصراع بالأمر غير الصحي الذي نشأ من التشدد والتطرف الديني بين صفوف الأساقفة اليونان (الشرقيين) وأتباعهم، فعلى الرغم من أن وصف أطراف هذا النزاع بالعنف والحماس العاطفي الكبير هو أمر لا خلاف عليه، ولكن من ناحية أخرى فإن مناظراته ومجادلاته المستمرة تلك ربما يمكن أيضاً اعتبارها كدليل على الحيوية المستمر في الكنيسة الشرقية وسعيها المستمر للوصول إلى الحقيقة والإيمان، وبينما انهارت السلطة الرومانية في الغرب متنازلة عن دورها القيادي في المجتمع لمؤسسة الكنيسة التي بدورها بذلت القليل من الجهد من أجل حفظ شعلة التعلم والتهذيب، في مجتمع يتزايد فيه الميل إلى العنف بشكل مطرد، ظل الشرق متحضراً.. ونسبياً أكثر ازدهاراً ورخاء.

وحتى الموجة الكبيرة من الغزو (الفتح) الإسلامي لأقاليم الشرق التي بدأت في القرن السابع الميلادي ظل الشرق إلى حد كبير آمناً، ولم تختف الآمال من أجل التقدم الأخلاقي البشري لمدينة الإنسان الذي يمكن أيضاً أن تصبح مدينة الله ولم تجر تحت السطح كما هي الحال في الغرب. كان مغزى هذا التفاؤل الأخلاقي كما هي الحال في الخلاف الآريوسي كان تأكيداً على إنسانية المسيح وارتباطه وعلاقته في المجتمع كنموذج أخلاقي للحب والتقوى والقدرة على تغيير السلوك وتهذيبه.

وفي النهاية رضخ الشرق ووافق على أسس الثالوث كما أرستها

مجمعات نيقية والقسطنطينية، ولكن ذوي الخلفية اليونانية الذين هم الآن المواطنون الجدد في الإمبراطورية البيزنطية تمسكوا بإصرار بفكرة أن الرجال والنساء العاديين بمقدورهم أن يصبحوا آلهة من خلال محاكاة أسلوب المسيح، ولذلك فلقد استمروا في النضال مدة طويلة حول مسألة العلاقة بين العنصر البشري في المسيح وبين أبناء الله البشريين الآخرين. وكان نفس التأكيد على الطبيعية البشرية يميل لرفع الطبيعية البشرية المتحولة للآب Transhuman Father إلى موقع من السمو غير القابل للمعرفة يتسق مع التقاليد الشرقية رغم أن أي عدم مساواة بين الآب والابن كانت تفوح منها بالنسبة للاهوتيين الغربيين رائحة الآريوسية. ومثل المسائل الأخرى التي كان من المفترض أن تحل خلال مجمع القسطنطينية ولكنها استمرت حية تثير الجدل، مسألة العلاقة بين المسيح والله، على الرغم من أن مضمون هذا الخلاف قد تغير. فالآن كل من اللاتين واليونان وافقوا على أن المسيح إلهي بالكامل، ولكن لم يكن هناك إجماع على ما يعنيه هذا المصطلح وما يعنيه أن يكون الشخص إلهيا بالكامل وأن يكون بشرياً بالكامل. هذا الأمر سيظل فترة طويلة سبباً للنزاع ليس فقط لأن ظهور تفسيرات مسيحية لاهوتية بديلة أخرى أمراً ممكناً، ولكن أيضاً لان الاختلافات المذهبية والعقائد بين العالمين المسيحيين (الشرقي اليوناني والغربي اللاتيني) أصبحت على نحو متزايد متشابكة ومرتبطة بالفصل الآخذ في التنامي على المستوى الاجتماعي والثقافي بين شرق وغرب الإمبراطورية. ففي روما كان بمقدور البابا إصدار قرارات الحرمان الكنسي ضد أباطرة الشرق الذين اعتبروا ضمن الهرطقة، وفي القسطنطينية تم تجاهل قرارات روما تلك. وازدادت الفترات التي يتوقف فيها الاتصال بين المسيحيين الشرقيين والغربيين. وبشكل مؤسف ولكنه محتوم أصبح

فرعا المسيحية في طريقهما ليصبحا عقيدتين ذاتي مفهوم إيماني مختلف. وسرعان، ما سوف يصبح أغلب العالم الشرقي واقعًا تحت هيمنة دين جديد يقدم تفسيرًا جديدًا لطبيعية المسيح ومهمته، فبعد ظهور الإسلام فإن المسيح لم يعد تجسيدا لله كما افترضت عقيدة نيقية المسيحية ولا حتى الابن الملائكي المميز كما تصوره الآريوسيون. فمن وجهة نظر المسلمين الفاتحين فإن المسيح كان نبيًا يتلقى الوحي والإلهام الإلهي وعبقريًا على المستوى الأخلاقي إلى الدرجة التي تضعه في مصاف أعظم الأنبياء والرسل مع موسى ومحمد نفسه (عليهما السلام)^[1]، ومن الواضح أن مثل تلك الأفكار كان لها وقع كبير وأنها لمست عصبا حساسا لدى عدد كبير من الشرقيين الذين كانوا ينظرون إلى الله باعتباره الواحد، والذين لم يقبلوا تمامًا إدماج المسيح في الألوهية. ربما هذا يشرح لماذا في الشرق الأوسط وفي شمال إفريقيا "فإن المجتمعات المسيحية تضاءل عددها بشكل كبير وتمت إزاحتهم بواسطة القبائل العربية وعقيدتها الإسلامية الواضحة حول الله الواحد الأحد"^[2].

ومع صعود الإسلام، فإن الآريوسية باعتبارها فلسفة دينية مميزة اختفت من الشرق كما اختفت في الغرب. لكن السؤال الخطير الذي تسبب في كل هذا الجدل من البداية حول ألوهية المسيح بقي وسيبقى ملازما في مخيلة البشر لتحفيز الوعي والإدراك الإنساني.

1- ما بين الأقواس من المترجم

2- Johnson, A History of Christianity, 93.

الشخصيات الرئيسية

الطبقة الملكية

قنسطانز Constans: الابن الأصغر لقسطنطين وفوستا شغل منصب أغسطس على إيطاليا وشمال إفريقيا من عام 337، وتم قتله بينما كان يحاول الهرب من قوات ماجننتيوس في عام (350).
كونستنتيا Constantia: أخت قسطنطين والتي تزوجت من ليكينيوس في عام (313).

قسطنطين الكبير Constantine the great: الإمبراطور الروماني الأول، أغسطس الغرب (306-324)، والإمبراطور الوحيد للإمبراطورية (324-337). الداعي لانعقاد مؤتمر نيقية في عام (325).
قسطنطين الثاني Constantine II: الابن الأكبر لقسطنطين وفوستا، أغسطس الغرب من عام (337)، قتل خلال الحرب مع قنسطانز في عام (340).

قسطنطيوس الثاني Constantius II: الابن الأوسط لقسطنطين وفوستا: أغسطس الشرق (337-353)، والحاكم الوحيد للإمبراطورية، والمتعاطف مع الآريوسية، والداعي لانعقاد عدد هائل من المجمع الكنسية التي قادت لانعقاد مجمع ريمني-سلوقيا المشترك في عام (359) ومجمع القسطنطينية في عام (360).

كريسبوس Crispus: ابن قسطنطين وميزفينا، والذي تم إعدامه بواسطة قسطنطين في عام (326).

دقلديانوس Diocletian: الحاكم الوحيد للإمبراطورية الرومانية (284-305)، المصلح ومؤسس نظام مجلس حكم الأباطرة (مجلس الحكم الرباعي)، استهل عصر الاضطهاد الكبير في عام (303) وتنازل عن الحكم في عام (305).

فوستا Fausta: الزوجة الثانية لقسطنطين، والتي وجهت الاتهامات لكريسيبوس، ولاقت حتفهما في ظروف غامضة إما عن طريق الانتحار أو الإعدام.

فريتيجرين Fritigern: قائد جيش القوط الغربيين والذي قادهم إلى النصر الساحق على الجيش الروماني في معركة أدرنة في عام (378).

جاليروس Galerius: قيصر الشرق (-293 304)، أغسطس الشرق (304-311)، أمر بوقف حملة الاضطهاد ضد المسيحيين وهو على فراش الموت.

جاللوس Gallus: الأخ الغير شقيق لجوليان، قيصر الشرق (-351 354)، والذي قام قسطنطيوس بإعدامه لإساءته استغلال منصبه. جراتيان Gratian: أغسطس الغرب (376-383)، تم قتله خلال أحد التمردات.

هيلانا Helena: أم قسطنطين، قامت برحلة حج شهيرة إلى بيت المقدس، وخلال تلك الرحلة قامت بوضع حجر الأساس لعدد من أشهر الكنائس في العالم المسيحي.

جوفيان Jovian: الإمبراطور الوحيد (363-364) والذي تعرض للقتل في حادث طبيعي.

جوليان المرتد Julian the Apostate: (جوليان المرتد): ابن أخ قسطنطين، قيصر الغرب (355-361)، الحاكم الوحيد للإمبراطورية

(361-363)، تخلى عن المسيحية واعتنق الديانة الوثنية وقتل أثناء المعارك التي كان يخوضها ضد الفرس.

ليكينوس Licinius : أغسطس الشرق (307-324)، تعرض للهزيمة في الحرب الأهلية ضد قسطنطين، وتم اغتياله على الأرجح بواسطة قسطنطين في عام (325).

ماجننتيوس Magnentius: تمرد ضد قنسطانز في عام (350)، وفي النهاية تعرض للهزيمة أمام قوات قسطنطيوس وعلى إثرها قام بالانتحار في عام (353).

ثيودسيوس الأول Theodosius I: أغسطس الشرق (-368 383). والحاكم الوحيد للإمبراطورية (379-395): الداعي لانعقاد مجمع القسطنطينية (381) والذي تم فيه تجريم الآريوسية.

فالتنيان الأول Valentinian I: أغسطس الغرب (364-375).

فالنز Valens: أخ فالتنيان: أغسطس الشرق (-364 378)، الآريوسي الذي تعرض للقتل في معركة أدرنة.

رجال الدين

ألكسندريوس السكندري Alexander of Alexandria: أسقف الإسكندرية من 313، و الداعي لانعقاد أول مجمع كنسي من الأساقفة والذي أسفر عن إدانة آريوس في عام (318).

ألكسندريوس البيزنطي Alexander of Constantinople: أسقف بيزنطية وأول أسقف لمدينة القسطنطينية، كان مناصرًا للمذهب النيقوي.

أنطونيوس Antony: ناسك مسيحي، مؤسس الرهبنة المصرية.

آريوس السكندري Arius of Alexandria: قس من كنيسة

بوكاليس، ومؤسس ما يعرف باسم الآريوسية، وتعرض للإدانة في مجمع نيقية في عام (325) وتم نفيه من قبل قسطنطين. ثم إعادة قبوله في الكنيسة المسيحية خلال مجمع نيقيوميديا المعقد في عام (327)، وتأكيد إعادة قبوله في الشركة المسيحية خلال مجمع صور المنعقد في عام (335)، ومات في القسطنطينية في عام (335) عشية مراسم إعادة قبوله في شركة الكنيسة.

أثناسيوس السكندري Athanasius of Alexandria: أسقف الإسكندرية خلال الفترة من 328 واللاهوتي البارز لمذهب التجسد قائد المعسكر النيقى، تعرض للإدانة خلال مجمع صور في عام 335، كما أنه تم نفيه خمس مرات في عصور مختلفة، اقترح تشكيل جبهة واحدة مع الآريوسيين المحافظين (المعتدلين).

باسيليوس الأنقري Basil of Ancyra: أسقف أنقرة منذ عام 336 وقائد معسكر الآريوسيين المحافظين (المعتدلين).

باسيليوس الكبير من قيسارية Basil the Great of Caesarea: أسقف قيسارية الكبادوكي منذ عام 356: زعيم مجموعة اللاهوتيين الكبادوكيين والتي كانت الأساس لعقيدة مسيحية شرقية توحيدية. دوناتيوس من قرطاجنة Donatus of Carthage: أسقف قرطاجنة المنشق في أعقاب انتهاء عصر الاضطهاد: زعيم طائفة الدوناتيون في شمال أفريقيا.

يوسابيوس القيساري Eusebius of Caesarea: أسقف قيسارية والعالم اللاهوتي من أتباع المفكر أوريجين، وكان يظهر بعض الود إلى الأفكار الآريوسية. أول مؤرخ كبير للكنيسة الكاثوليكية.

يوسابيوس النيقوميدي Eusebius of Nicomedia: أسقف نيقيوميديا منذ عام 317، تعرض للعزل من وظيفته والنفي من قبل

قسطنطين خلال الفترة من (325 - 327). أسقف القسطنطينية منذ عام 327، وزعيم والمدير الاستراتيجي للمعسكر الآريوسي. يوستاسيوس الأنطاكي Eustathius of Antioch: أسقف أنطاكية المؤيد للمذهب النيقى، تعرض للعزل من منصبه والنفي خلال مجمع أنطاكية الكنسي المنعقد في عام (330) بدعوى الهرطقة وسوء السلوك.

جورج الكبادوكي George of Cappadocia (جورج من الإسكندرية): أسقف الإسكندرية الآريوسي منذ عام 356، تعرض للسجن والشنق بواسطة الغوغاء السكندريين في عام (361). جريجوري النازيانزي Gregory of Nazianus: أسقف ساسيما، واحد اللاهوتيين الكبادوكيين الثلاثة.

جريجوري النيساوي Gregory of Nyssa : شقيق باسيليوس الكبير، وأحد اللاهوتيين الكبادوكيين الثلاثة.

هوسيوس القرطبي Hosius of Cordova: أسقف قرطبة، ومن أوائل المستشارين الدينيين لقسطنطين، والذي ترأس مجمع نيقية الكنسي.

إسكيراس Ischyrras: قس مصري والمزعوم قيامه بمهاجمة رجل دين آخر يدعى ماكاريوس في بداية عهد أثناسيوس كأسقف للإسكندرية. يوليوس الروماني (يوليوس الأول) Julius of Rome: أسقف روما المناصر للمذهب النيقى (-337 351)، و الداعي لانعقاد مجمع روما في عام (341)، والمدافع عن حق أسقف روما في الفصل في النزاعات التي تنشأ بين الكنائس في المجامع الكنسية المختلفة.

ماكاريوس Macarius: كاهن مصري وجه اتهامات إلى إسكيراس بمهاجمته وكسر كأس القربان المقدس بناء على أوامر من أثناسيوس.

مارسيلوس الأنقري Marcellus of Ancyra: أسقف أنقرة المناصر للمذهب النيقى، تعرض للعزل من منصبه والنفي بتهمة الهرطقة في عام (336).

ميلتيوس من ليكوبولس (أسقف أسيوط) Meltius of Lycopolis: الأسقف المصري الذى قام بتأدية مهام أسقف الإسكندرية خلال الفترة من (-303 305)، وتعرض للسجن خلال فترة الاضطهاد الكبير، زعيم الطائف المسيحية المنشقة من رجال الدين والتي ستدعى لاحقاً بالطائفة الميليتية.

أوريجن السكندري Origen of Alexandria : المعلم المسيحى، والعالم اللاهوتى البارز خلال القرن الثالث الميلادى.

بولس من القسطنطينية Paul of Constantinople: أسقف القسطنطينية المناصر للمذهب النيقى والذي تولى منصبه بشكل متقطع بدء من عام 337، وتم سجنه وإعدامه بناء على أوامر من قسطنطيوس.

بطرس السكندري Peter of Alexandria: أسقف الإسكندرية بدء من عام 300، فر من المدينة خلال فترة الاضطهاد الكبير في عام (303) وعاد إلى الإسكندرية في عام 305، أو عام 306، واستشهد في عصر جاليروس.

أولفيليا Ulfila: أسقف القوط الغربيون الآريوسى، تم تكريسه بواسطة يوسابيوس النيقوميدى، وقام بترجمة الإنجيل إلى اللغة القوطية، ولعب دورًا رئيسيًا في اعتناق القوط والقبائل الألمانية الأخرى للمسيحية على المذهب الآريوسى.

بعض المراجع المختارة باللغة الإنجليزية

Armstrong, Karen. A History of God: The 4000-Year Quest of Judaism, Christianity and Islam. New York: Ballantine Books, 1993.

Athanasius. The Life of Antony and The Letter to Marcellinus. Trans. and intro, Robert C. Gregg. New York: Paulist Press, 1980.

Augustine of Hippo. The Confessions of St. Augustine. Trans. Rex Warner. New York: Mentor Books, 1963.

Augustine of Hippo. The City of God. Trans. Marcus Dods. New York: Modern Library, 1950.

Barnes, Timothy D. Constantine and Eusebius. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1981.

Barnes, Timothy D. Athanasius and Constantius: Theology and Politics in the Constantinian Empire. Cambridge: Harvard University Press, 1993.

Bettenson, Henry, ed. Documents of the Christian Church. 2d ed. London: Oxford, University Press, 1963.

Brown, Harold O. Heresies: The Image of Christ in the Mirror of Heresy and Orthodoxy from the Apostles to the Present. Garden City, NY: Doubleday, 1984.

Brown, Peter. Augustine of Hippo. London: Faber & Faber, 1976.

Brown, Peter. The Making of Late Antiquity. Cambridge: Harvard University Press, 1978.

Brown, Peter. The Body and Society: Men, Women, and Sexual

Renunciation in Early Christianity. New York: Columbia University Press, 1988.

Brown, Peter. Power and Persuasion in Late Antiquity: Towards a Christian Empire (Curti Lectures). Madison, WI: Universit Press, 1992.

Borx, Norbert. A Concise History of the Early Church. New York: Continuum, 1995. Chadwick, Henry. The Early Church. Rev. ed. Vol.I, Penguin History of the Church. London; Penguin Books, 1993.

Coakley, Sarah, and David A. Pailin, eds. The Making and Re-making of Christian Doctrine; Essays in Honour of Maurice Wiles. Oxford: Clarendon Press, 1993.

Davies, J. G. The Early Christian Church: A History of Its First Five Centuries. Grand Rapids, MI: Baker Book House, 1965.

Eusebius. The History of the Church from Christ to Constantine. Trans. G. A. Williamson. Rev. and ed. Andrew Louth. London: Penguin Books, 1989.

Fox, Robin Lane. Pagans and Christians, San Francisco: Harper&Row,1988.

Fromm, Erich. The Dogma of Christ, New York Holt, Rinehart and Winston, 1963.

Gibbon, Edward. The Decline and Fall of the Roman Empire, Vols. I-III. New York: Modern library, 1932.

Grant, Michael. The Fall of the Roman Empire, New York: Macraillan (Collier Books), 1990.

Grant, Michael. Constantine the Great: The Man and HisTimes. New York: Charles Scribner's Sons 1993.

Gregg, Robert C, and Dennis £.Groh. Early Arwroism-A View of Salvation. Philadelphia: Fortress Press, 1981.

Gwatkin, H. M. Studies of Arianism. 2d ed. Cambridge: Cam-

bridge University Press, 1900.

Hanson, R. P. C. *The Search for the Christian Doctrine of God: The Arian Controversy, 318-381 A.D.* Edinburgh; T & T. Clark, 1988.

Harnack, Adolph. *History of Dogmatics*, Vol. 4. Trans. from 3d German ed. by Neil Buchanan. New York: Dover Publications, 1961.

Hughes, Philip. *The Church in Crisis: A History of the General Councils, 325-1870.* Garden City, NY: Doubleday (Hanover House), 1961.

Jocz, Jakob. *The Jewish People and Jesus Christ* London: S.P.C.K., 1949.

Johnson, Paul. *A History of Christianity.* New York: Atheneum, 1976.

Jones, A. H. M. *The Later Roman Empire 284-602: A Social Economic and Administrative Survey*, Vols. I and II. Norman, OK: University of Oklahoma Press, 1963.

Jurgens, W. A., ed. and trans. *The Faith of the Early Fathers: A Source-book of Theological and Historical Passages from the Christian Writings of the Pre-Nicene and Nicene Eras.* Collegeville, MN: The Liturgical press, 1970.

Kannengiesser, Charles, *Arius and Athanasius: Two Alexandrian Theologians.* Brookfield, VT: Gower Publishing Company, 1991.

Kelly, J. N. D. *Early Christian Creeds.* 3d ed. London: Longman, 1972.

Maier, Harry O. "Private Space as the Social Context of Arianism in Ambrose's *Mian*." *The Journal of Theological Studies* 45:1, (April 1994): 72 et seq.

Nigg, Walter. *The Heretics.* Ed. And trans. Richard and Clara Winston. New York: Knopf, 1962.

Quasten, Johannes. *Patrology.* Vol. III, *The Golden Age of Greek Patristic Literature from the Council of Nicaea to the council of Chalcedon.* Utrecht/Antwerp: Spectrum Publishers, 1960.

Quasten, Johannes. *Patrology.* Vol. III, *The Golden Age of Greek*

Patristic Literature from the Council of Nicaea to the Council of Chalcedon. Utrecht/Antwerp: Spectrurb Publishers, 1960.

Pattison, Robert. *The Great Dissent: John Henry Newman and the Liberal Heresy*. New York: Oxford University Press, 1991.

Payne, Robert. *The Fathers of the Eastern Church*. New York: Dorset Press, 1989.

Pelikan, Jaroslav. *The Christian Tradition: A History of the Development of Doctrine*. Vol. 1, *The Emergence of the Catholic Tradition (100— 600)*. Chicago: University of Chicago Press, 1971.

Pelikan, Jaroslav. *The Excellent Empire: The Fall of Rome and the Triumph of the Church*. Rauschenbusch Lectures, New Series, I. San Francisco: Harper & Row, 1987.

Pelikan, Jaroslav. *Jesus through the Centuries: His Place in the History of Culture*. New Haven: Yale University Press, 1985.

Sanders, E. P. *The Historical Figure of Jesus*. London,: Penguin Books, 1993.

Schaff, Philip, and Henry Wace, eds. (original editor Archibald Robertson). *Nicene and Post-Nicene Fathers*. Second series, vol. 4, *Athanasius: Select Works and Letters*. Peabody, MA: Hendrickson Publishers, 1994.

Schatz, Klaus. *Papal Primacy: From Its Origins to the Present*. Trans. John A. Otto and Linda M. Maloney. Collegeville, MN: Liturgical Press, 1996.

Scullard, H. H., and A. A. M. van der Heyden. *Shorter Atlas of the Classical World*. New York: E. P. Dutton, 1967.

Smith, John Holland. *Constantine the Great*. London: Hamish Hamilton, 1971.

Tomlinson, Richard. *From Mycenae to Constantinople: The Evo-*

lution of the Ancient City. London: Routledge, 1992.

Veyne, Paul, ed. *A History of Private Life*. Vol .I, from Pagan Rome to Byzantium. Trans. Arthur Coldhmmmer. London: 1987.

Vidal, Gore. *Julian*. New York: Ballantine Books, 1964.

Wiles, Maurice. *Archetypal Heresy: Arianism through the Centuries*. Oxford: Clarendon Press, 1996.

Wiles, Maurice, and Mark Santer, eds. *Documents in Early Christian Thought*. Cambridge: Cambridge University Press, 1975.

Williams, Daniel H. *Ambrose of Milan and the End of the Nicene-Arian Conflicts*. Oxford: Clarendon Press, 1995.

Williams, Rowan. *Arius: Heresy and tradition*. London: Darton, Longman and Todd, 1987.

Williams, Rowan, ed. *The Making of Orthodoxy: Essays in Honour of Henry Chadwick*. Cambridge: Cambridge University Press, 1989.

Wolf son, Harry Austryn. *The philosophy of the Church Fathers*. Vol. I, Faith, Trinity, Incarnation. 3d ed. rev. Cambridge: Harvard University Press, 1970.

المحتويات

5	مقدمة المترجم
12	مقدمة المؤلف
19	شكر وإقرار بالفضل
22	الفصل الأول: حادثة في الإسكندرية
63	الفصل الثاني: الصمت في معبد أبوللو
107	الفصل الثالث: صراع في بيت الله
141	الفصل الرابع: المجمع المقدس الكبير
177	الفصل الخامس: خطايا الجسد وشهوات العقل
209	الفصل السادس: كأس القربان المكسورة
241	الفصل السابع: الموت في القسطنطينية
279	الفصل الثامن: الشرق ضد الغرب
316	الفصل التاسع: الإمبراطورية الآريوسية
356	الفصل العاشر: الآلهة القديمة والآلهة الجديدة
389	الفصل الحادي عشر: عندما أصبح المسيح إلها
427	الشخصيات الرئيسية
427	الطبقة الملكية
429	رجال الدين
433	بعض المراجع المختارة باللغة الإنجليزية



W H E N J E S U S B E C A M E A G O D

عندما أصبح المسيح إلهاً

قصة الصراع من أجل تحديد مفهوم المسيحية
في الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية

ريتشارد روبنشتاين | ترجمة: أسامة عبد الحق نصار | مراجعة: أ.د. نصار عبدالله

تطور الفكر المسيحي شهد العديد من المنعطفات والتحولت عبر التاريخ، خاصة خلال القرون الخمس الميلادية الأولى. هذه التحولات لم يساهم فقط رجال الدين وعلماء اللاهوت في صنعها، ولكن لعب الساسة ورجال السلطة دوراً هاماً أيضاً، من خلال الانحياز إلى جانب فريق ما وتغليب رأى على رأى آخر، واعتباره يمثل الموقف الرسمي للدولة.

حول تلك الفكرة يدور كتاب "حين أصبح المسيح إلهاً" الذي يتناول العلاقة بين تطور الفكر الديني وبين السلطة، من خلال استعراض الجدل الديني المسيحي خلال القرن الرابع الميلادي بين فريق يمثل القس السكندري آريوس، وبين فريق آخر معارض لتلك الأفكار على رأسه أثناسيوس أسقف كنيسة الأسكندرية.

يبين الكتاب الدور الذي لعبته السلطة ممثلة في الإمبراطورية الرومانية في تغليب أحد الآراء على الآخر والانحياز لمذهب في مقابل باقى المذاهب، والدور الذي يلعبه تأييد الدولة في تطور هذا المذهب. بالتأكيد لم تكن السياسية هي العامل الوحيد الذي أثر في تطور اللاهوت، ولكنها بالتأكيد كانت أحد العوامل الهامة في تطوره.



BaitElyasmin



Bait.elyasmin.books



www.byasmin.org



ISBN 978-9-77817-235-5



9 789778 172355 >